

تاريخ الدعوة والأمة

GDWH5083

تاريخ الدعوة والدعاة

المحتويات

- الدرس الأول : قصة آدم # ٢٧-٧
- الدرس الثاني : تابع: قصة آدم # ٥٠-٢٩
- الدرس الثالث : عرض إجمالي لدعوة نوح # ٧٢-٥١
- الدرس الرابع : تابع دعوة نوح - إدريس وهود -عليهم السلام- ٩٣-٧٣
- الدرس الخامس : صالح وإبراهيم -عليهما السلام- ١١٧-٩٥
- الدرس السادس : تابع: دعوة إبراهيم - لوط، وإسماعيل، ويعقوب -عليهم السلام- ١٤٣-١١٩
- الدرس السابع : تابع قصة يعقوب - قصة يوسف عليهما السلام ١٦٦-١٤٥
- الدرس الثامن : تابع قصة يوسف - أيوب وموسى -عليهم السلام- ١٩٠-١٦٧
- الدرس التاسع : تابع: دعوة موسى # - قصة هارون # ٢١٨-١٩١
- الدرس العاشر : تابع قصة هارون - داود وسليمان - عليهم السلام- ٢٤١-٢١٩
- الدرس الحادي عشر : تابع دعوة سليمان - زكريا ويحيى وعيسى، والدعوة في العهد الملكي ٢٦٥-٢٤٣
- الدرس الثاني عشر : تابع: الدعوة الإسلامية في عهدها الملكي ٢٩٠-٢٦٧
- الدرس الثالث عشر : الدعوة الإسلامية في عهدها المدني ٣١٦-٢٩١

تاريخ الدعوة والدعاة

- الدرس الرابع عشر : الدعوة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة ٣١٧-٣٤٠
- الدرس الخامس عشر : الدعوة الإسلامية في العصر الأموي ٣٤١-٣٦٣
- الدرس السادس عشر : الدعوة الإسلامية في العصر العباسي ٣٦٥-٣٨٧
- الدرس السابع عشر : الدعوة الإسلامية في العصر العثماني ٣٨٩-٤٠٦
- الدرس الثامن عشر : الدعوة الإسلامية في عهد المماليك الإسلامية ٤٠٧-٤٢٨
- الدرس التاسع عشر : الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ٤٢٩-٤٥٤
- الدرس العشرون : أشهر الدعاة إلى الله تعالى ٤٥٥-٤٧٧
- الدرس الحادي والعشرون : تابع أشهر الدعاة إلى الله ٤٧٩-٥٠٤
- قائمة المراجع العامة : ٥٠٥-٥٠٨

قصة آدم

عناصر الدرس

- العنصر الأول : محاور قصة آدم # في كتاب الله تعالى ٩
- العنصر الثاني : مراحل خلق آدم # واستفسار الملائكة ١٢
- العنصر الثالث : سبيل إبليس في إغراء آدم ٢٠
- العنصر الرابع : المادة والروح في خلق آدم ٢٤

محاورة قصة آدم # في كتاب الله تعالى

الحمد لله ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؛ وبعد :
فهذا عرض إجمالي لدعوة بعض الرسل والأنبياء :

أولاً: الكلام عن سيدنا آدم # :

وردت قصة آدم # في عدة سور من كتاب الله ﷻ هي البقرة والأعراف والحجر والإسراء، والكهف، وطه، وص، وجاءت إشارات أخرى عنه في عدة سور ففي آل عمران، قال ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وفي سورة الحج، قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] وفي سورة المؤمنون، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وفي سورة السجدة قال سبحانه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] ومن يتأمل قصة آدم # يجد تشابهاً في مقوماتها في سور البقرة، والأعراف والحجر، وذلك في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض، وإلى استخلافه فيها في سورة البقرة قبل الحديث على آدم #: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

ثم ساق الحديث عن آدم # فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وفي سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠] ثم

تاريخ الدعوة والدعاة

ساق قصة آدم # فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] وفي سورة الحجر يقول سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رَبْرَزَاقِينَ﴾ [الحجر: ١٩-٢٠] إلى أن يقول ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

وفي هذا دلالة على أن الله ﷻ لم يخلق هذا الإنسان إلا بعد أن مهد له الأرض وأوجد له فيها كل مقومات الحياة الإنسانية من تربة وماء وهواء ونبات وحيوان، وفيه ما يدل على من ناحية أخرى كما يقول الأستاذ سيد قطب: على أن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها، وإذاً فالإنسان أعز وأكرم من كل شيء مادي في هذا الكون الكبير، فالماديات كلها مخلوقة، أو مصنوعة من أجله، ومسخرة له من أجل تحقيق إنسانيته.

ومقتضى هذا: أن إنسانيته ينبغي أن تظل مصنوعة معززة مكرمة لا تستذل من أجل توفير قوته، أو ملبسه وشرابه، ومسكنه، ولا يجوز أن تهدر أي قيمة من قيمه مقابل تحقيق مكسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر مادي، كما تفعل بعض المذاهب الأرضية، وكما يصنع الحكام الطواغيت حينما يتحكمون في رقاب البشر ويستذلونهم من أجل لقمة العيش ومع وجود هذا التشابه في مقومات القصة. وفي بعض الآيات إلا أنه لا تكرر في قصة آدم #

قد يظن البعض من تعدد ورود القصة في عدد من السور أن هناك تكراراً في القصة وتشابهاً في العرض، لكننا نقول: إن تشابه بعض الآيات لا يدل على التكرار العاري عن الفائدة؛ فإن الوجه والغرض في سورة يختلف عن الوجه والغرض في سورة أخرى، وقد نبه على ذلك بعض المفسرين، ومنهم الأستاذ سيد قطب.

فقد أشار على سبيل المثال لا الحصر إلى أن نقطة التركيز في قصة آدم # في سورة البقرة الاستخلاف الذي عجب له الملائكة ؛ لأن سره كان مخفياً ، ثم جاء عرض حكاية سجود الملائكة ، وإبء إبليس واستكباره ، وتبع هذا الحديث عن سكنى آدم وزوجه الجنة ، وإزلال الشيطان لهما عنها ، وإخراجهما منها ، ثم الهبوط للأرض للخلافة فيها بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية ، واستغفارهما وتوبة الله عليهما .

أما محور القصة في سورة الأعراف : فيدور حول الرحلة الطويلة من الجنة وإليها ، وإبراز عداوة إبليس للعين للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض على الله ؛ ففريق يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويه منها ؛ لأن هذا الفريق عاد الشيطان وخالفه ، وفريق آخر انتكس إلى النار ؛ لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود .

وأما محور الارتكاز في سورة الحجر : فهو سر التكوين في آدم ، وسر الهدى والضلال ، وعواملهما الأصيلية في الإنسان ؛ ومن ثم نص ابتداء على خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون ، ونفخ فيه من روحه ، وخلق الشيطان من قبل من نار السموم ، ثم عرض حكاية السجود والإبء من إبليس استنكافاً من السجود لبشرٍ مخلوقٍ من صلصال وطرده ، ولعنه وطلبه الإنظار إلى يوم البعث ، وإجابة مطلوبة ، لكن إلى يوم عند الله معلوم .

أما نقطة الارتكاز في سورة طه : فهو العهد من الله إليه ، وتنبهه إلى عدوه وإن ضمان مقومات الإنسانية من الشيع والرّي ، والكسوة ، والعيش الهنيء ، والسكينة رهن برعاية ذلك العهد ، ثم كان نسيانه ؛ بسبب تغيير الشيطان وخداعه فكان ظهور العورات والهبوط إلى الأرض .

مراحل خلق آدم # واستفسار الملائكة

لقد شرح الله -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم قصة خلق آدم # بعبارة واضحة صريحة لا تحتمل لبساً ولا تأويلاً:

المرحلة الأولى: ذكر أن آدم خُلِقَ أولاً من التراب، فذلك مصدر نشأته وأصل تكوينه. قال سبحانه ﴿ **إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ** ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: ((إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض؛ فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك)) هذا عن المرحلة الأولى، وهي المرحلة الترابية.

المرحلة الثانية: هي المرحلة الطينية، وفيها خلط التراب بالماء فأصبح طيناً، قال سبحانه: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ** ﴾ [ص: ٧١] وعندما أمر الله إبليس أن يسجد لآدم # قال إبليس: ﴿ **أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا** ﴾ [الإسراء: ٦١] وقد تقلب الطين في أطوار عدة قبل نفخ الروح فيه هذه الأطوار هي:

أولاً: الطين اللازب، أي: المتماسك، وفي هذا يقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ** ﴾ [الصفات: ١١].

ثانياً: الحمأ المسنون: وهو الطين الأسود المتغير الرائحة من طول مكثه ومخالطته بالماء، قال سبحانه: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّن مِّمَّ مَسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨].

ثالثًا: الصلصال: وهو الطين اليابس الجاف الذي له صوتٌ يشبه الفخار إذا نقر عليه باليد، قال سبحانه: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّن صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ الْجَانَ مِّن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥]. فهذه هي المسألة الثانية وهي المسألة الطينية من أطوارها.

المرحلة الثالثة: هي المرحلة التكوينية، وفيها شاء الله سبحانه أن يجعل هذا الطين بشراً سوياً، وإنساناً سميعاً بصيراً؛ فنفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان كريم، وخلق عظيم في أحسن صورة وأكمل تقويم، وهذه المرحلة هي آخر المراحل في خلق آدم # قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِي ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩] وقال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

هذا ولقد بين الحق - تبارك وتعالى - أن الإنسان مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر، وأحسن تقويم، وأنه لم يتطور خلال شيء من تاريخه تطوراً نوعياً يتدرج به من فصيلة إلى أخرى، قال سبحانه: ﴿ وَاللَّيْنِ وَالزَّيْتُونَ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ١-٤].

و"أل" الداخلة على الإنسان للجنس فهي عامة للأفراد كلهم ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

يقول الحافظ ابن كثير: أي: جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، ومن مؤكدات هذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم

تاريخ الدعوة والدعاة

ما روي في (الصحيحين) عن أبي هريرة < أن رسول الله ﷺ قال: ((خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ)) أي: أنه منذ خَلَقَ آدم # إنما كانت صورته نفس الصورة التي استمر عليها وعرف بها، أي: لم ينشأ منتقلاً من شكل إلى آخر؛ فالضمير في قوله: ((على صورته)) راجع إلى آدم # وليس المقصود قطعاً أن الله خلق آدم على صورته سبحانه، كما يقول اليهود والنصارى بناء على ما هو موجود لديهم في كتبهم المحرفة تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، بل هو على صورته التي خلقه الله عليها؛ إذ أن الله سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وهكذا في أسلوب واضح صريح عرض القرآن الكريم لقصة الإنسان عرضاً محكماً وتناول الموضوع من جميع جوانبه بحيث لا يملك الإنسان بإزائه إلى أن يصغي ببيان الوحي في هذا الأمر الذي لم نحضر صورته ولم نشهد كيفيته قال سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَتَّخَذِينَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

لكن ظهرت بعد ذلك آراء لبعض الباحثين في أصل الأنواع تذكر أن الإنسان من المخلوقات الدنيا، وأنه ما زال يرتقي حتى صار هذا الإنسان كما هو معروف بنظرية النشوء والتطور التي تزعم أن النوع الإنساني ليس أصله آدم وإنما ترقى من سلالات أخرى ضمن حلقات مختلفة من التطور والاصطفاء النوعي تطور فيها من البسيط إلى المعقد ومن البدائية إلى الرقي حتى صار إلى ما هو عليه الآن.

ونحن هنا نعرض عن مثل هذه المزاعم لأمر هي:

أولاً: نحن قطعاً لا نترك ما جاء في كتاب ربنا ﷺ لزعم زاعم أو لرأي متقول والله الذي خلق الخلق أعلم بخلقهم كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] وقد عرض الله في كتابه العزيز في قصة خلق الإنسان عرضاً

محكمًا، وتناول الموضوع من جميع أطرافه بحيث لا يملك الإنسان أمامه إلا الإقرار بعظمة الخالق سبحانه وقدرته.

ثانيًا: أن هذه المزاعم تقرر حيوانية الإنسان إذ تنفي عنه نسبة السماوي، الذي يرفعه عن مستوى الحيوان، وتتبنى فرضية أن الإنسان تدرج في تفاعلات مختلفة وانحدر من أصلٍ آخر يختلف عن أصل آدم، وأن الحياة بدأت بجرثومة صغيرة أخذت تترقى في اصطفاء نوعي حتى وصلت إلى مرحلة القردة، والقردة تمددت فصارت إنسانًا والخبر القطعي عن ربنا سبحانه في هذا الصدد يثبتنا أن الإنسان أفضل المخلوقات وأشرفها، وأنه لم يمر خلال نشأته، وتاريخ كله بأي تطور نوعي لا في الهيئة ولا في الشكل، ولم يترق من فصيلة إلى أخرى، وإنما خلق ابتداءً كما الحق -تبارك وتعالى- في كتابه الكريم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١-٧٢] وكما قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

ثالثًا: إن هذه الأقوال لا تزيد عن كونها نظرية من النظريات؛ باعتراف دارون نفسه وأقطاب النظرية من بعده وباتفاق سائر العلماء الآخرين سواء من أيده أو خالفه، أي: أنها فرض من الفروض ليس من حوله، أي: برهان علمي، ولم تصل بعد إلى درجة الحقيقة المبنية على اليقين، وما دامت كذلك فهي قابلة إلى إعادة النظر بالتعديل أو الإلغاء، وكم من نظريات ثبت خطأها، وحكم العلم عليها بأنها خرافة من الخرافات، ولا تزال سلسلة من النقض والنقد تلاحق هذه النظرية حتى الآن.

استفسار الملائكة عن خلق آدم:

شاء الله سبحانه أن يتسلم الإنسان زمام الأرض؛ ليحقق المهمة التي وكلها إليه، وقد زوده بالإمكانات والطاقات الكفيلة بتحقيقها، وتلك بلا شك منزلة عظيمة

لهذا الإنسان حبه بها الإرادة العليا، فاستفسر الملائكة عن السر وراء هذا الاختيار، وهم المسيحون بحمد الله قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ولقد قال ذلك الملائكة بناءً على شواهد الحال وإلهام البصيرة؛ إذ توقعوا أن من مقتضيات هذا المخلوق على الأرض الإفساد وسفك الدماء، وهم بمحض فطرتهم مطبوعون على الخير وحده، ويرون أن الغاية من خلق الكون كله التسييح لله وتقديسه، وهو متحقق بهم، وأرادوا الوقوف على سر هذا المخلوق لا لأمر يستلزم الامتعاض، والتخطئة لفعل الحكيم المتعال؛ لكان علمهم بأن الله سبحانه لا يصدر عنه شيء منافي للحكمة هي إذاً خواطر خطرت بأنفسهم؛ فتشوقوا إلى معرفة الحكمة لاختيار آدم لتلك المهمة، وتركهم من هذا الأمر الذي لم تخف عليهم مزيته؛ فبين الله لهم ما وهبه آدم # من السبق والفضل، وقال للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

لقد وهبه سر المعرفة كما وهبه سر الإرادة ليختار طريقه، وقد بدأت حياته متمثلة في شعوره بنفسه ويقظة القوة الكاملة في طبيعته والمركبة من الخير والشر قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰٓؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صٰٓدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّكِدُمْ أَنْبِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

والرمز بالأسماء والمسميات يحتاج إليه الإنسان دون الملك وهي ميزة لها شأنها في عمارة الأرض والخلافة فيها؛ فقد علمه الله جميع الأشياء التي في جنة عدن

وأهمه، وأقدره على وضع اسم لكل ما وقعت عليه عينه هناك من زرع وأجزائه، وأشجار وثمار، وفروع وورق ولب ونوى، وجميع الأوعية والأدوات التي هناك وجميع ما فيها من حيوان وأجزائه لاحتياجه إليها ويمكن القول بأن الله بث في آدم سر الاهتداء إلى خصائص الأشياء ووسائل الانتفاع بها وأن معنى الأسماء في قوله سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]. أنه علمه حقائق مسمياتها وما لها من خصوصيات المنافع، والمضار لحاجة آدم إلى معرفة خواص الكون الذي قدر له أن يهبط إليه وأن الله بث فيه أسرار الفهم والتمييز، والاستعداد الفطري ما يكشف به نواميس الكون وسننه، ويميز خصائصه بالاستعداد، والفهم والإدراك والمعرفة.

قال الألوسي: والحق عندي وهو ما يقتضيه منصب الخلافة هو أنها أسماء الأشياء علوية أو سفلية جوهرية، أو عرضية، وهنا محل سؤال هل كان آدم رسولاً؟ لقد فضله الله ﷻ وعلمه الأسماء كلها وجعله خليفة ومعلوم أن الفضل الأعظم الذي يعطيه الله ﷻ أحداً من عباده هو النبوة والرسالة، والقرآن الكريم لم يذكر لفظ النبوة بإزاء آدم، كما ذكره بإزاء غيره من الأنبياء، ولكن ذكر أن الله خاطبه بلا واسطة، وشرع له في ذلك الخطاب فأمره ونهاه، وأحل له وحرم عليه دون أن يرسل إليه رسولاً وهو معنى النبوة.

وأما الرسالة: فالأمر فيها مختلف فيه والتفويض إلى الله تعالى فيها أسلم وحديث الشافعية، وذكر الناس لنوح بأنه أول رسول إلى الأرض لا ينهض دليلاً كافياً على رد رسالة آدم #.

روى مسلم عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: ((يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يخرجنا من مكاننا هذا، فيأتون آدم ﷺ فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده،

ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا عند ربك حتى يخرجنا من مكاننا هذا ، فيقولُ : لست هناكم ، فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحي ربه منها ، ولكن اتتوا نوحاً أول رسول بعثه الله)) الحديث.

وآدم إنما أرسل لبنيه ، ولم يكونوا كفاراً ، بل أُمر بتعليمهم الإيمان ، وطاعة الله تعالى ، بخلاف رسالة نوح إلى كفار أهل الأرض.

الملائكة :

والملائكة مخلوقات نورانية سماوية ؛ مجبولة على الخير ، قادرة على التشكل في خرق العادة ؛ لأن النور قابل للتشكل في كيفيات ، وهي أن أجزائه لا تتزاحم ، ونورها لا شعاع له ؛ فلذلك لا تضيء إذا اتصلت بالعالم الأرضي ، وإنما تتشكل إذا أراد الله أن يظهر بعضهم لبعض رسله ، وأنبيائه على وجه خرق العادة ، وقد جعل الله لها قوة التوجه إلى الأشياء التي يريد تكوينها فتتولى التدبير لها ؛ ولهذه التوجيهات الملكية حيثيات ومراتب كثيرة تتعذر الإحاطة بها ، وهي مضادة لتوجهات الشياطين فالخواطر الخيرية من توجهات الملائكة ، وعلاقتها بالنفوس البشرية وبعكسها خواطر الشر ، وللعلماء في كون إبليس من الملائكة قولان :

أحدهما : أنه كان منهم وإلا لما توجه إليه الأمر بالسجود لآدم ، ولم يكن عاصياً ، ولما استحق الخزي والنكال والأصل في المستثنى أن يكون داخلًا تحت اسم المستثنى منه ؛ حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .
الثاني : أنه ليس منهم لقوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] وهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ؛ لأنه خلق من نار ، والملائكة خُلِقُوا من نور ؛ ولأن له ذرية ، ولا ذرية للملائكة ، وعن عائشة >

قالت: قال رسول الله ﷺ: ((خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

ويمكن القول: بأن إبليس كان مأموراً بالسجود لآدم، وإلا لاحتج بأنه لم يؤمر لكنه لم يفعل وأظهر التكبر، وليس لأحد أن يكون أقوم بحجة إبليس من إبليس نفسه، والإيمان بهم واجب لقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ولقول رسول الله ﷺ في جواب جبريل: ((أخبرني عن الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)).

وطبيعة النور الذي خلقت منه الملائكة يجعلها خالية من ظلمة داخلية في نفسها أو ظاهرة على هيئتها، نقية من الشوائب والأدران، بعيدة عن الوسوسة النفسانية والشهوات الحيوانية؛ لا تقترف الذنب ولا ترتكب الإثم معصومة من الخطأ والخطيئة، قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

والقرآن يبين أن من يظنون الملائكة إناثاً ليسوا على حق قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ نَسِيمَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٣٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٧-٢٨] وسيسألون عن ذلك يوم القيامة قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

والعلم يثبت وجود قوة خفية في داخل الإنسان تدفعه إلى النجاح والتقدم وترسم له الطريق الذي يجب أن يسلكه العقل، وهي بذلك أقوى من النفس وأفضل من العقل، والملائكة كما تعمل داخلياً في الإنسان عن طريق تثيره فيه من أحاسيس

طيبة، وعمل صالح، وعون للتغلب على وسوسة الشيطان تعمل كذلك على مساعدته بأمر من الله قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وهم ينزلون نزولاً حقيقياً لتبشير المؤمنين بعدم الخوف، وعدم الحزن، وبأن لهم الجنة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

فالذين آمنوا واستقاموا تثبت الآية نزول الملائكة لهم بالتبشير وهو حقيقة واقعة كالإيمان بالملائكة وقد تكرر في القرآن الكريم ورود لفظ ملك وملكين وملائكة كما تكرر ورود لفظ شيطان وشياطين وأسند القرآن إليهم أعمالاً يقومون بها: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧] ويوم القيامة يحمل عرش الرحمن منهم ثمانية وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ٢١]. كما أثبتت السنة الصحيحة وجود الملائكة، والإيمان بهم، وما يؤديه من عمل، وسبحان من يعلم من خلق، وهو اللطيف الخبير.

سبيل إبليس في إغراء آدم

سبيل إبليس في إغراء آدم، ورغبة الإنسان في الخلود ليست رغبة عارضة، بل هي سر مقيم فيه ما قامت فيه الحياة واستقامة له الظروف، وهو مدفوع إلى مقاومة أي خطر يهدد حياته، ولو كان نابغاً من مجرد أوهامه، وخيالاته دون أن يكون له وجود خارج تلك الأوهام، والخيالات.

كما أنّ رغبته في التملك قد تطفئ عليه مع أنها في حالة الاعتداء عنصر من عناصر الخير والبر والعمارة للأرض، وتحقيق النبيل من الغايات، وإذا انحرفت

صار بها الإنسان عنصر فساد، هما إذاً رغبتان عميقتان في الإنسان الملك والخلود، ومن ناحيتهما كان إغواء إبليس لآدم، قال تعالى: ﴿فَوَسَّوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد نسي آدم وزوجه تحت هذا التأثير أنه عدوهما الذي لا يمكن أن يدلّهما على خير، وأنّ الله أمرهما أمراً عليهما طاعته، وأنه لا يكون شيء إلا بقدره، وإذا لم يقدر الله لهما الملك والخلود؛ فلن ينالهما من أحد سواه. لقد استغل إبليس في آدم هذا الميل الفطري الذي حقق له ما سعى إليه من الإغراء، ولبى آدم النداء: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْءَ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (١٣١) ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]. لقد ذاق مرارة المعصية، وأشرقت فطرته، فأوى إلى ربه فتاب عليه وآواه.

قوتان مؤثرتان:

كانت أول صلة بالملائكة بآدم أبي البشر # بعد أمر الله ﷻ لهم بالسجود له سجد تحية، وتكريم ومودة، وإعزاز، وإقرار بالفضل، وتلبية للأمر الذي صدر إليهم من صاحب الأمر.

كأن السجود طاعة لله، ومحبة لآدم، وإقراراً له بالفضل، وفي كنيته للعلماء أقوال، أرجحها: أن الله أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهراً من مظاهر التواضع، والخضوع له تحية وتعظيماً، ولقد امتثل الملائكة الأمر وأطاعوه ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣) ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣-٧٤].

وإبليس كائن حي وقد أخطأ من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس؛ إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس، ولا يرونه قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ويتضح من ذلك أن هناك قوتين تتصلان بآدم وذريته من بعده الملائكة الذين يتولون من الأعمال ما فيه خير للإنسان كحراسته، والتعاقب على حفظه: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

وجاء في الحديث: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار، ويجمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد الذين باتوا فيكم؛ فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم، فيقول: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)) ولهذا الخلق المبارك في قلب ابن آدم أثر طيب هو إبليس الذي عصى ربه، وأبى السجود لآدم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

ولقد وقع إبليس في خطأ كبير؛ إذ جعل له مع النص رأياً وحقاً في أن يحكم وفق ما أبدى هو من سبب وعلّة، مع وجود الأمر بالتنفيذ القاطع للنظر، وزاد فقال عن آدم: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ١٧٦] ومن يومها كان له مع آدم وذريته من بعده موقف مختلف عن موقف الملائكة المكرمين يقول # : ((في القلب لمتان، لمة من الملك إيعاذ بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك؛ فيعلم أنه من الله سبحانه، وليحمد الله، ولمة من العدو إيعاذ بالشر، وتكذيب بالحق؛ فمن وجد ذلك؛ فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

واللمة: الهمة، والخطرة قد تقع في القلب، والمراد إمام الملك، أو الشيطان بالقلب والقرب منه فما كان من خطرات الخير فهو من الملك، وما كان من خطرات الشر فهو من الشيطان، وبعض الناس ينكر وجود الملائكة والجنة،

ويؤولون الكلمات الدالة على وجود هذين الصنفين من العوالم؛ فالملائكة عندهم قوى النظام، والنواميس الخاضع لها العالم، والجن والشيطان وإبليس تدل على الناس ذوي الشر، وروح الإفساد، ولا ضرورة إلى هذا التأويل.

وما نجهل حقيقته كثير، كما أن الإقرار بالملائكة والجن عام في بني آدم لم ينكره إلا شواذ من بعض الأمم، وليست في الأمم أمة تنكر ذلك إنكاراً عاماً، وإنما يوجد إنكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا للعمل بالعدم.

لقد كان لإبليس موقف مع أبي البشر آدم # أغراه بالأكل من الشجرة، ومخالفة الأمر حتى أهبط إلى الأرض، وقد ذهب بعض العلماء: إلى أن الله لم يرد منع الأكل في الحقيقة، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشيء هو غيره، وآدم لم يعصم من الهمة، والتدبير؛ فلحقه ما لحقه وكذلك كل من ادعى ما ليس له، وساكن قلبه، ناظراً إلى هوى نفسه، لحقه الترك من الله، مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله فيعصمه من تدبيره، وينصره على عدوه وعليها.

وآدم لم يعصم من مساكنة نفسه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة؛ لأن البلاء في الفرع دخل عليه من أجل سكون القلب إلى ما وسوسة به نفسه؛ فغلب الهوى، والشهوة العلم والعقل يسابق القدر وهو خلاف ما ادعاه الناس من أن المراد النهي عن نفس الأكل لا عن سكون القلب لغير الله، وإن كان منهياً عنه أيضاً.

المادة والروح في خلق آدم

منذ خلق الله ﷻ آدم وهو على هذا النحو من التكوين الذي عليه ذريته الآن، فقد أعطاه الله خصائصه الإنسانية، ووظائفه المستقلة منذ خلقه، والترقي الذي حدث له، إنما هو في بروز هذه الخصائص، ونموها وتدريبها واكتسابها الجدة العالمية، ولم يحدث له قط ترقٍ في وجوده قد خلق الله آدم من طين قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ للمؤمنون: ١١٢.

وإلى جانب المادة جانب آخر غير مادي وهو جانب الروح التي بها يكون استعداد الإنسان لمعالي الصفات، وموالاته الحق وليس المقصود بها إجراء الحياة في بدن الإنسان؛ لأنه لم يرد استعمال الروح بهذا المعنى في القرآن، وليس لهذا من جلاله القدر ما يجعل الملائكة تؤمر بالسجود لأجله وإنما هي خصوصية لآدم؛ فضل بها على غيره من الأحياء، وهي مبادئ الحق، وقيمه التي يتضمنها حظ المرء من معرفة الله، وهو الجانب الأهم في حياة الإنسان، ونظره هو النظر الحق، وإذا طمس أو احتجب؛ فلن ينفع الإنسان شيء؛ إنه به ينظر إلى الكون، وهو يعلم أنه صنع الله، ويدل على ما خالقه من جليل الصفات وعظيم الآثار، ويزداد به معرفة؛ فيحب الخير والإيمان، ويكره الفسوق والعصيان.

أما جانب المادة: فهو الإمكانيات التي نحصلها من الطبيعة؛ لتكون عدة في تحصيل مقاصد السمو والكمال، ومطالب البدن تقع تحت حواس الإنسان مباشرة، واشتغاله بها يتم بحكم العادة دون إعمال فكر.

أما مطالب الروح: فقد يغفل الإنسان عنها فيحرم حظه الذي يزدهر به وجوده من رؤية الكائنات في إطار نسبتها إلى الله، والتحرر من غلبة الحس وأهوائه،

وتحكم الرغبات، لقد شاء الله ﷻ واقتضت حكمته أن يخلق آدم وذريته؛ ليسكنوا الأرض ويعمروها، فأنبأ ملائكته أنه سينشئ خلقاً آخر يعمرون الأرض، ويمشون في مناكبها، وينتشر نسلهم في أرجائها؛ فيأكلون من نبتها، ويستخرجون الخيرات من باطنها، ويخلف بعضهم بعضاً فيها.

وهناك قولٌ في معنى الخلافة: هو أن آدم خليفة لله تعالى في إمضاء أحكامه وأوامره؛ لأنه أول نبي إلى الأرض، وقد ورد: ((أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن آدم أنبياً كان مرسلًا؟ فقال المصطفى ﷺ: نعم فقيل: لمن كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ قال: كان رسولاً إلى أبنائه)).

واستدل أصحاب القول الأول بقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وهناك قول آخر بأنه كان خليفة لجنس سابق كان مسلطاً على الأرض فأفسد فيها وسفك الدماء، وأغلب المفسرين القدامى على أن هذا الجنس كان من الجن.

روى الحاكم عن ابن عباس، قال: "كان فيها -أي: في الأرض- قبل أن يخلق آدم # بألفي عام الجن بنو الجان، فأفسدوا الأرض وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض بعث الله عليهم جنوداً من الملائكة فضربوهم حتى أجزئوهم بجزائر البحور، كما ذكر ذلك الطبراني عن ابن عباس أيضاً، وذكره الحافظ ابن كثير عن عبد الله بن عمرو.

ونحن نعلم يقيناً أن الأرض قد امتلأت بالمخلوقات قبل آدم # بمئات الملايين من السنين، ومنها الديناصورات الهائلة الأحجام المخيفة الأشكال التي كان الواحد منها في ضخامة العمارة الكبيرة، أو التل، وعظام هذه الديناصورات موجودة في المتاحف العالمية "لندن، نيويورك باريس، برلين" وقد حكمت الأرض

لبضع مئات الملايين من السنين، ثم أبادها الله ﷻ واختفت من مسرح الحياة على الأرض.

واختلفت النظريات العلمية في كيفية إبادتها فمن قائل: إنها أرسلت عليها نيازك كبيرة من السماء فأحرقتها وأهلكتها جميعاً، وهذه هي آخر النظريات في هذا الباب. ومن قائل: إن عصر جليدياً زحف على الأرض، ولم تستطع هذه المخلوقات الهائلة أن تقاوم البرد الشديد القارص، والمجاعة المخيفة المرعبة؛ فماتت جميعها؛ وأياً كان سبب هلاكها؛ فإن المحقق أن هذه المخلوقات الضخمة الهائلة التي حكمت الأرض ملايين السنين قد اندثرت تماماً، ولم يبقَ منها شيء سوى بعض الهياكل العظيمة المتحجرة والمتبعثرة هنا وهناك.

واستدل أصحاب هذا القول بقول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال: إن الملائكة علمت ذلك بما شاهدته من المخلوقات التي كانت مسلطة على الأرض فأفسدت فيها، وسفكت الدماء، وأهلكت الحرث والنسل، وأياً ما كان القول الفصل في هذه النقطة؛ فإن ذلك لا يغير من حقيقة خلافة آدم # وتكليم الله له كما أن أهل التفسير قد اتفقوا على أن آدم كان آخر المخلوقات خلقاً على الأرض، وقد روي ذلك عن الحسن البصري، والإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين وغيرهما من أهل العلم.

وبعد؛ فإن الإنسان لم يخلق عبثاً قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ١١٥ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦] وإنما خلق ليكون خليفة في الأرض يعبد الله تعالى، ويقيم الحق والعدل، وينشر البر والخير، والصلاح والتقوى، ويشيع فيها

كلمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية، قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُكُمْ فِي مَاءِ آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَسْأَلُكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ١-٢].

فليحمل الإنسان تبعته بجد ونشاط، وليستشعر بما ورائها من مسؤوليات وأخطاء، وبعد أن خلق الله تعالى آدم، ونفخ فيه من روحه علمه أسماء الأشياء وحقائقها وخواصها؛ ليتمكن في الأرض، وينتفع بها حق الانتفاع ثم أراد الله سبحانه أن يُريَ الملائكة رأي العين أن هذا المخلوق الجديد الذي هو آدم # أكثر منهم علماً، وأوسع معرفة؛ ولهذا سألهم أن يخبروه بأسماء أشياء معينة وخواصها إن كانوا مصيبين في قولهم، وأنهم أحق منه في خلافة الأرض، ولكن الملائكة عجزوا عن الإجابة، وخاطبوا ربهم معتذرين أننا ننزهك يا ربنا التنزيه اللائق بك، ولا نعرض على مشيئتك؛ إذ لا علم عندنا إلا الذي وهبتنا إياه، وأنت العليم بكل شيء الحكيم في كل أمر تفعله.

ويدعو الله سبحانه آدم ليكون معلماً للملائكة، ويقول له: يا آدم أخبر الملائكة بما سألتهم، فيجيب آدم، ويظهر فضله عليهم، وهنا خاطب الله الملائكة قد قلت لكم: إنني أعلم ما غاب في السماوات والأرض، وأعلم ما تظهرون من أقوالكم، وما تخفون في نفوسكم.

تابع: قصة آدم #

عناصر الدرس

- العنصر الأول : آدم # أبو الأنبياء، وسجود الملائكة له ٣١
- العنصر الثاني : امتناع إبليس عن السجود ٣٨
- العنصر الثالث : آدم # والجنة ٤٢

آدم # أبو الأنبياء، وسجود الملائكة له

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَتَادُمُ أَنْبِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٣٣] أي: أعلمهم بأسمائهم التي عجزوا عن علمها، واعترفوا بالقصور عن بلوغ مرتبتها: ﴿ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

أي: فلما أنبأهم بأسمائهم، وبين لهم أحوال كل منهم وخواصه وأحكامه قال الله تعالى للملائكة قد قلت لكم: إني أعلم ما غاب في السماوات والأرض؛ فلا أخلق شيئاً سدى، ولا أجعل الخليفة في الأرض عبثاً، وأعلم ما تظهرون من نحو قولكم: أتجعل فيها من يفسد فيها، وما كنتم تكتمون من نحو قولكم: لم يخلق الله أكرم عليه منا، فنحن أحق بالخلافة في الأرض.

وفي هذه الآيات دلالة على شرف الإنسان على غيره من المخلوقات، وعلى فضل العلم على العبادة؛ فإن الملائكة أكثر عبادة من آدم ومع ذلك لم يكونوا أهلاً لاستحقاق الخلافة، وعلى أن شرط الخلافة العلم، بل هو العمدة فيها، وعلى أن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة؛ لأنه أعلم منهم والأفضل هو الأعمم بدليل قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٩].

هذا؛ وفي استخلاف آدم # في الأرض معنًا سام من الحكمة الإلهية خفي على الملائكة، وإنه لو استخلفهم فيها لما عرفوا أسرار هذا الكون، وما أودع فيه من الخواص؛ فإنهم ليسوا بحاجة إلى شيء من ما في الأرض؛ إذ هم على حال يخالف حال الإنسان فما كانت الأرض لتزرع بمختلف الزروع، ولا تستخرج

المعادن من باطنها، ولا تعرف خواصها الكيميائية والطبيعية، ولا تعرف الأجرام الفلكية، ولا المستحدثات الطبية.

نبوة آدم # :

كان آدم # نبياً صحيح أن القرآن الكريم لم يصرح بالنبوة بالنسبة لآدم # كما صرح بذلك بالنسبة لغيره من الأنبياء فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويونس وغيرهم -عليهم الصلاة والسلام- لكننا نجد في القرآن الكريم أن الله تعالى خاطبه بلا وساطة أكثر من مرة وهذا أحد أنواع الوحي كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأُذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

وكان في هذا الخطاب تكليفه بالهدى الذي سيأتيه من قبل الله تعالى له ولذريته: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [١٣٣] وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

هذا؛ وقد جاء في السنة النبوية ما يشير إلى نبوة آدم # صراحةً روى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر < قال: ((قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال ﷺ: آدم، قلت: يا رسول الله، أو نبي كان؟ قال ﷺ: نعم، نبي مكلم، قال: قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال ﷺ: ثلاث مائة وبضعة عشر جماً غفيراً، وقال مرة: خمسة عشر، قلت: يا رسول الله، آدم نبي؟ قال ﷺ: نعم نبي مكلم)). وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري < أن رسول الله ﷺ قال: ((أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وييدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض)).

وروى الترمذي أيضاً بسنده عن ابن عباس { قال: ((جلس ناس من أصحاب النبي ﷺ يتذكرون، وهم ينتظرون خروجه ﷺ قال: فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذكرون، فسمع حديثهم، فقال بعضهم: عجباً إن الله - تبارك وتعالى - اتخذ من خلقه خليلاً - اتخذ إبراهيم خليلاً - وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام موسى كلمة الله تكليماً، وقال آخر: ماذا بأعجب من جعله عيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: ماذا بأعجب من آدم اصطفاه الله عليهم. زاد رزين ((وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، ثم اتفق فسلم رسول الله ﷺ على أصحابه، وقال: قد سمعت كلامكم، وعجبكم إن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وإن موسى نجي الله وهو كذلك، وإن عيسى روح الله وكلمته، وهو كذلك، وإن آدم اصطفاه الله فهو كذلك، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله، ولا فخر، وأنا أول شافع، وأول مُشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلنيها، ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر)).

فهذه الأحاديث صريحة الدلالة في نبوة آدم # وأما أن آدم رسول؛ فالأمر مختلف فيه، وجمهور العلماء على أن الرسالة بدأت من نوح # استناداً إلى قول الله ﷻ: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣]. وبدليل ما جاء في حديث الشفاعة ((اتتوا نوحاً أول رسول)) وحديث ((أول نبي أرسل نوح)).

وهكذا يتبين لنا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أن آدم # أبو النوع البشري دون منازع وأنه أول نبي بعثه الله ﷻ وهذا يجعل الاهتمام متضاعفاً

بجياته وتعبه وحمله للرسالة بوصفه الجد الأكبر للأسرة الإنسانية كلها صلوات
الله وسلامه عليه

سجود الملائكة لآدم #:

بعد أن خلق الله تعالى آدم ونفخ فيه من روحه ، وعلمه أسماء الأشياء وحقائقها
وخواصها ، ليتمكن في الأرض ، وينتفع بها حق الانتفاع أمر الملائكة أن تستقبل
يداً مخلوقاً جديدة استقبالاً تحفه الحفاوة والتكريم وتجلى ذلك للأمر الإلهي
للملائكة بالسجود لآدم # قال سبحانه: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ
طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢].

ففي هذه الآية ثلاث مكرمات خص الله بها آدم # هي :

أولاً: خلقه بيده سبحانه في أحسن تقويم وأتم مظهر.

ثانياً: نفخ فيه من روحه.

ثالثاً: أمر الملائكة بالسجود له. وسجود الملائكة لآدم # إنما هو سجود تحية
وتكريم لا سجود عبادة ؛ لأن الله سبحانه لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى
سواه ؛ ولذلك فلا وجه لاستغراب بعض المستشرقين من تقرير الإسلام لأمر
الملائكة بالسجود لآدم مع ما عرف عن هذا الدين من تشدده في توحيد الله ﷻ
وإنكار الشرك ، وتكفير كل ساجد لغير الله ، وفات هؤلاء أن السجود إنما كان
استجابةً لأمر الخالق - جل وعلا.

وقد سجل القرآن الكريم لعنة الله الدائمة على إبليس لأنه عصى أمر الله تعالى
ورفض السجود قال سبحانه: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ
لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ، مِنْ صَلْصَلٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ
رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٢ - ٣٥].

فالسجود إذا لم يكن للعبادة والتقديس وإنما كان للتحية والتكريم، على أن البعض ذهب إلى أن السجود هنا ليس بمعنى السجود المعروف في هيئة الصلاة في الإسلام، وهو وضع الجبهة على الأرض، وإنما هي الخناءة فيها إجلال واحترام لآدم #.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: وقال قوم لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض ولكنه يبقى على أصل اللغة فهو من التذلل والانقياد، أي: خضعوا لآدم، وأقروا له بالفضل، وفي القرآن الكريم شواهد على السجود بمعناه اللغوي، هذا الذي بمعنى الانقياد والخضوع من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: ١٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥] وقوله سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩] وجاء على لسان يوسف لأبيه: ﴿ يَتَأْتِبِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤] وفي آية جامعة يقول الله - تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

إذا؛ فالسجود له معانٍ وهيئات أخرى غير هيئته في الصلاة ومن الممكن أن يُحمل سجود الملائكة لآدم على هذا المعنى، وإن كنت أميل على أن الطاعة كانت لله تعالى والسجدة كانت لآدم، قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته.

وقد رجح الحافظ ابن كثير ذلك فقال بعد أن عرض عدداً من الآراء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤] والأظهر أن الطاعة كانت لله تعالى والسجدة كانت لآدم والسجدة لآدم إكراماً وإعظماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة لله ﷻ لأنها امتثال لأمره تعالى، هذا وإن السجود يرمز إلى تكريم آدم وإجلاله، وفي تكريم آدم وإجلاله تكريم لبني البشر من بعده هذا التكريم الذي لم يقتصر مظهره على هذا الأمر فقط وإنما امتد تكريم الله للإنسان في صور شتى.

فقد كرمه الله تعالى في صورة الخلق، وهيئته حيث خلقه في أحسن تقويم وفي شكل محترم جميل قال سبحانه: ﴿وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالزَّيْتُونَ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤]. وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: يخبر الله تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: يمشي قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بضمه وجعل له سمعاً وبصراً، وفؤاداً يفقه بذلك كله، وينتفع به ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال والبحر أيضاً على السفن الكبار والصغار، ورزقناهم من الطيبات أي: من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر

أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليه غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: من سائر الحيوانات من أصناف المخلوقات، وقد استدل بهذه الآية الكريم على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة.

ومن مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان أنه سخر له ما في السماوات وما في الأرض؛ وفقاً لحاجته وخدمته، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ أَلْفَاكٌ فِيهِ بِأَمْرٍ رَبِّهِ وَلِيَنْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجملة: ١٢ - ١٣].

وكرمه بما وهبه من أسرار العلم والمعرفة، ما يعينه على أداء وظيفته في الحياة قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣١ - ٣٢].

وكرمه بما منحه من القوة العاقلة المدركة لحقائق الأشياء وأسرار الوجود؛ لقد جاء الإسلام بهذا التكريم في وضوح وجللاء مما يفتح أمام الإنسان أبواب العلا والطموح، ويملاً نفسه بالثقة والكرامة، فأين هذا التكريم الذي جاء به الإسلام من تلك النظرات المتشائمة التي تنظر من خلالها بعض الفلاسفة الحديثة للإنسان، فتراه أتعس المخلوقات وأشقاها، وأنه ليس إلا حشرة حقيرة، أو دودة قدرة، تعيش في مزبلة الحياة. كما يقول "سارتر" أو أنه ليس إلا قرداً خلقه الله ليتلهم به في أبديته الطويلة، كما يقول "نيتشه".

هذه النظرات المريضة تقتل في الإنسان كل أمل، وتجعله عرضة لسهام اليأس والتشاؤم، على حين أن نظرة القرآن الكريم للإنسان تولد كل طموح، وسمو، وتجعله بمعاني العزة، والكرامة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْبِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

امتناع إبليس عن السجود

لما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجدوا جميعاً؛ امتثالاً لأمر الله تعالى إلا إبليس؛ فقد امتنع عن السجود استكباراً وعناداً ولقد سأله الله تعالى - وهو أعلم - عن السبب الذي منعه من السجود لآدم بعد أن أمره به؛ فاحتج بأنه أفضل منه تأويلاً، فقد خلق من نار، بينما آدم قد خلق من طين والنار في رأيه أفضل من الطين، وأبدى غاية التكبر؛ عندئذٍ طرده الله من الجنة ولعنه لعنة دائمة إلى يوم القيامة بسبب كبريائه قال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٨].

لقد كان جزاء إبليس على عناده وكبريائه وتمرده عن السجود لآدم هو الطرد من الجنة ذليلاً مهاناً، وطلب إبليس من ربه أن يمهلته حياً إلى يوم القيامة؛ فأجاب الله طلبه لحكمة أرادها الله ﷻ ثم قال إبليس اللعين: بسبب حكمك علي يا رب بالهلاك أقسم بعزتك لأحاولن جهدي أن أضل بني آدم، وأصرفهم عن طريقك

المستقيم؛ متخذاً في سبيل ذلك كل حيلة ممكنة، وسأتيهم من كل جهةٍ استطيعها؛ مترقباً كل غفلةٍ منهم وضعف حتى أصل إلى إغوائهم وإفسادهم، وأجعل أكثرهم غير شاكرين لك، ولكن الله تعالى نهره، قائلاً: قال اخرج من الجنة مذموماً مطروداً من رحمتي، وأقسم أني سأملأ جهنم منك، ومن تبعك من بني آدم أجمعين.

وهذا ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ١١ - ١٨]

وفي آيات أخرى يصور القرآن الكريم عزم إبليس على إغواء بني آدم باستثناء عباد الله الصالحين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً ﴿٦٣﴾ وَأَسْتَفْزِرُّ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجَلِبُ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦١ - ٦٥].

والمعنى كما يقول الإمام المراغي: واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم؛ فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود

فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر، وأبى أن يسجد افتخاراً عليهم، واحتقاراً له، وقال: أأسجد لمن خلقت طيناً، وأنا مخلوق من النار كما جاء في الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال أيضاً لربه جرأة وكفراً: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: ٦٢] أي: أخبرني أهذا الذي كرمته علي، وهذا الكلام قاله على وجه التعجب والإنكار: ﴿لَيْنَ أَخْرَجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

أي: لئن أنظرتنني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم، وهذا القليل هم الذين عناهم الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥] ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النظرة، وأخره إلى يوم الوقت المعلوم فقال سبحانه: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَ مَوْفُورًا﴾ أي: امض لشأنك الذي اخترته، ولما سولته لك نفسك، وقد أخرجتك فمن أطاعك من ذرية آدم، وضل عن الحق؛ فإن جزاءك على دعائك إياهم، وجزاءهم على اتباعهم لك، وخلافهم أمري جزاء موفوراً، لا ينقص لكم منه شيء بما تستحقون من سيء الأعمال، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿ [الإسراء: ٦٣، ٦٤]. أي قال تعالى مهدياً له استخف وأزعج بدعائك إلى معصية الله ووسوستك من استطعت من ذرية آدم ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] أي: واجمع عليهم من ركبان جنك، ومشاتهم من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصرف عن طاعتي ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤]. يحثهم على كسبها من غير الطرق المشروعة، وإنفاقها في غير الطرق التي أباحها الدين، ويشمل ذلك الربا، والغصب والسرقه، وسائر المعاملات الفاسدة. قال

الحسن - رحمه الله: "هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام". والأولاد بالحسن على التوصيل إليهم بالأسباب المحرمة، وارتكاب ما لا يرضي الله.

قال الحسن البصري - رحمه الله - قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مُجْسُواً، وهودُوا، ونُصِرُوا، وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجزءوا من أموالهم جزءاً للشيطان. وقد ثبت في (صحيح مسلم) أن رسول الله ﷺ قال: ((يقول الله ﷻ إني خلقت عبادي حنفاء، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحلته لهم)) وعدهم، أي: المواعيد الكاذبة الباطلة، كوعدهم بالأجنة ولا نار، ولا حياة بعد هذه الحياة، وأنها سبيل اللذة والسرور ولا حياة للإنسان إلا بها؛ فتفويتها غبن وخسران، وينفرهم من الطاعة بأن لا فائدة فيها إذ لا رجعة بعد هذه الحياة فهي عبس محض؛ فهذه بعض تلبسات الشيطان، وهذه خدعه أعاذنا الله منه.

﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً؛ لأنه لا يغني عنهم من عقاب الله شيئاً إذا نزل بهم، فمواعيده خدعة، يزينها لهم، ويلبسها ثوب الحق، كما قال إبليس نفسه إذا حصص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿ إِنَّكَ اللَّهُ وَعَدَّكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥] إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين وحفظه إياهم وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ولهذا قال: ﴿ وَكَفَىٰ بَرِيكَ وَكَيْلًا ﴾ أي: حافظاً ومؤيداً ونصيراً. أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة < أن رسول الله ﷺ قال: ((إن المؤمن ليمضي شياطينه، كما يمضي أحدكم بعيره في السفر)) ومعنى يمضي، أي: يأخذ بناصيته ويقهره.

قال الإمام المناوي في بيان معنى هذه الحديث: إن المؤمن ليمضي شيطانه، أي: يهزله، ويجعله نضواً، أي: مهزولاً؛ لكثرة إذلاله له، وجعله أسيراً تحت قهره وتصرفه، ومن أعزَّ سلطانَ الله أعزه الله، وسلطه على عدوه، فظهر أن المؤمن لا يزال يمضي شيطانه، كما يمضي أحدكم بعيه في السفر؛ لأنه إذا عرض لقلبه احترز عنه بمعرفة ربه، وإذا اعترض لنفسه، وهي شهواته احترز بذكر الله، فهو أبداً يمضوه، فالبعير يتجشم في سفره أثقال حمولته، فيصير نضواً لذلك، وشيطان المؤمن يتجشم أثقال غيظه منه لما يراه من الطاعة والوفاء لله.

آدم # والجنة

لقد أمر الله تعالى آدم أن يسكن الجنة مع زوجته قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] واختلف العلماء في الوقت الذي خلق فيه زوج آدم، فقيل: إن الله تعالى لما أخرج إبليس من الجنة، وأسكن فيها آدم بقي فيها وحده، وما كان معه من يستأنس به، فألقى الله تعالى عليه النوم، ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر، ووضع مكانه لحماً، وخلق حواء منه، فلما استيقظ ووجد عند رأسه امرأة قاعده؛ سألها من أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولما خلقت قالت: لتسكن إليّ، قالت الملائكة: ينظرون ما بلغ من علمه ما اسمها يا آدم، قال: حواء، قالوا: ولما حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خلق حواء من آدم # قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤًا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] الآية. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] الآية.

وبعد أن أسكنَ الله تعالى آدم وزوجه الجنة، أباح لهما أن يتمتعا بكل شيءٍ فيها؛ فياكلان ما يشتهيان من ثمارها، ولن ينهاهما إلا عن شجرة واحدة أمرهما أن لا يقرباها، وأن لا يذوقا من ثمرها، وأنهما إن فعلا ذلك يكونان من الظالمين لأنفسهما بمخالفة أمر الله تعالى، وما يترتب على ذلك من العقوبة، ولم يذكر القرآن الكريم هذه الشجرة ما هي، أو ما اسمها؛ لذا فلا حاجة إلى الخوض فيها بغير بينة ولا برهان.

قال الحافظ ابن كثير: وقد أبهم الله ذكر الشجرة وتعيينها، ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا، وقد حذرَ الله تعالى آدم وحواء من كيد إبليس اللعين، ولكنهما نسيا ذلك؛ لاسيما بعد أن بالغ إبليس في إلحاحه وخداعه، وأوهمهما أن الله منعهما من الأكل من الشجرة، لكي لا يصيرا ملكين، ولا يخلدا في الجنة ذات النعيم، وأقسم لهما الأيمان المغلظة أنه لهما من الناصحين قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَنَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ﴾ [الأعراف: ٢١].

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله: يذكر الله تعالى أنه أباح لآدم # وزوجه حواء الجنة، يأكلان منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة فعند ذلك حسدهما الشيطان، وسعى في المكر والوسوسة والخدعة؛ ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن، وقال كذباً وافتراءً: ﴿مَا نَهَنَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ أي: لئلا تكون ملكين أو خالدين هاهنا، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلك كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

تاريخ الدعوة والدعاة

﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ [الأعراف: ٢١] أي: حلف لهما بالله ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ أي: حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما، ونسي آدم وحواء أن إبليس اللعين هو عدوهما، ووقعا في حبال الفتنة، وأكلا من الشجرة، فلما ذاقا طعمها انكشفت لهما عوراتهما، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته، ولا عورة الآخر، ومن فرط حيائهما أخذتا يجمعان بعض أوراق الشجر ليغطيا به من انكشاف، وناداهما ربهما مؤنبا إياهما على ذنبهما: ألم أنهما عن الأكل من تلك الشجرة، وأخبركما أن الشيطان لكما عدو مبين.

وشعر آدم وحواء بمبلغ ما اقترفا من إثم في معصيتهما لله فندما أشد الندم وتضرعا إلى ربهما قائلين: يا ربنا إننا ظلمنا أنفسنا بعصيانك، ومخالفة أمرك، فاغفر لنا وارحمنا، وإن لم تغفر لنا، وترحمنا بفضلك لنكونن من الخاسرين.

قال تعالى: ﴿ فَذَلَّلَهُمَا بِرُؤُوسِهِمْ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣].

قال الضحاك بن مزاحم في قوله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه، العفو عن آدم وإخراجه من الجنة، لما ندم آدم وزوجه وتضرعا إلى الله سبحانه قائلين: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] قبل الله تعالى توبتهما قال سبحانه: ﴿ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ولكن الله تعالى أنزل آدم وحواء وإبليس إلى الأرض كما قال كثير من سلف هذه الآية في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦] أي:

اهبطوا من هذه الجنة بعضكم عدو لبعض، أي: إن الشيطان عدو للإنسان، فعلى الإنسان أن لا يغفل عن عداوته، ولا يأمن وسوسته وإغواءه، كما جاء في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦٦].

وهذا الإخراج من ذلك النعيم عقاب على تلك المعصية التي بها ظلما أنفسهما وقد قضت به سنة الله في الخلق إذ جعله أثراً طبيعياً للعمل السيء مترتباً عليه، أما العقاب الأخروي على عصيان الرب؛ فقد غفره الله له بالتوبة التي أذهبت أثره من النفس، وجعلها محلاً لاصطفائه، كما قال سبحانه في سورة طه: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢].

ثم بين سبحانه أنهم سيقيمون في الأرض يعمرونها ويتمتعون فيها تمتعاً موقوتاً إلى حين انتهاء آجالهم، وأنه سبحانه سيهدمهم بالهدى والرشاد فمن تبع هدى الله فلن يقع في المآثم في الدنيا، ولن يشقى فيها، ومن أعرض فإن له معيشة ضنكاً. قال سبحانه: ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

وهنا يرد سؤال مفاده: هل كان إبليس من الملائكة؟ سبق أن ذكرنا أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وكما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وكما قال: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [ص: ٧١ - ٧٤].

فظاهر هذه الآيات الكريمة تشير إلى أن إبليس كان من الملائكة، بدليل الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ [ص: ٧٤] وإلى هذا الرأي ذهب بعض العلماء، وقالوا: لو لم يكن من الملائكة لما كلف بالسجود لآدم وحجتهم في ذلك الاستثناء المذكور في الآية الكريمة، وذهب المحققون من العلماء إلى أن إبليس لم يكن من الملائكة، واستدلوا ببضعة أدلة نوجزها فيما يلي:

أولاً: لو كان إبليس من الملائكة لما عصى أمر الله تعالى إن الملائكة لا يعصون أمر الله - سبحانه - قال الله تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

ثانياً: الملائكة من نور وإبليس من نار، وهو يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]

فلو كان من الملائكة لقال: خلقتني من نور، وخلقت من طين، وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)).

ثالثاً: ورد نص صريح في سورة الكهف يدل على أن إبليس كان من الجن وأنه امتنع عن السجود لآدم لفسقه وضلاله، قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله: يقول الله تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ومقرعاً لمن اتبعه منهم، وخالف خالقه ومولاه

وهو الذي أنشأه وابتدأه بالطافه ورزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس، وعادى الله فقال تعالى: ﴿وَأِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: ٣٤] أي: لجميع الملائكة ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]. أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم لا سجود عبادة؛ لأن ذلك لا يكون إلا لله، والله لا يأمر أحداً بعبادة سواه، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: خانه أصله فإنه خلق من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت في (صحيح مسلم) عن عائشة > عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((خلقت الملائكة من نور وخلق إبليس من نار وخلق آدم مما وصف لكم)).

فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة وذلك كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك، ولهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة ونبه تعالى ها هنا على أنه من الجن أي على أنه خلق من نار كما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال الحسن البصري - رحمه الله - : "ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل البشر". رواه ابن جرير بإسناد صحيح عنه. وتأويل بعض المفسرين أن لفظ الجن المذكور في قوله سبحانه ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠] أنه يراد به طائفة من الملائكة يسمون الجن تأويل بعيد، والذي تطمئن إليه النفس، ويرتاح إليه القلب أن إبليس اللعين لم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن والشياطين، وذلك لأن الملائكة لا تتناكح، ولا تتناسل، والله تعالى قد أخبر عن إبليس بأن له ذرية فقال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ ولو كان إبليس من الملائكة لما كان له ذرية، ولا نسل.

الجنة التي أسكن الله فيها آدم:

هذا؛ وقد اختلف العلماء في الجنة المذكورة في القرآن الكريم التي أسكن الله فيها آدم، والتي أمره بالهبوط منها، هل كانت في الأرض أم في السماء؟ فذهب جماعة من العلماء إلى أنها جنة الخلد التي في السماء، واستدلوا على ذلك بأدلة أهمها ما يلي:

أولاً: أن الله سبحانه قد عرف الجنة فقال: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥] والألف واللام في الجنة ليست للعموم، ولا لمعهود لفظي، وإنما تعود على معهود ذهني، وهو المستقر شرعاً من جنة المأوى.

ثانياً: ما ورد في حديث الشفاعة الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة < قال قال رسول الله ﷺ: ((يجمعُ الله -تبارك وتعالى- الناس فيقوم المؤمنون حتى تُزلفَ لهم الجنة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم)) الحديث.

ثالثاً: أمره تعالى بهبوط آدم يدل على العلو والارتفاع، قال سبحانه: ﴿ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦].

رابعاً: وصف الله تعالى الجنة التي أسكنها آدم بأوصاف تدل على أنها جنة الخلد قال سبحانه: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۗ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴾ [طه: ١١٩].

وباختصار قد ذهب هذا الفريق من العلماء إلى أن الجنة المذكورة في القرآن الكريم التي أسكن الله فيها آدم، والتي أمره بالهبوط منها هي جنة الخلد.

وقال آخرون: بل الجنة التي أسكنها آدم # لم تكن جنة الخلد، وإنما هي جنة أخرى، خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم # وعلى هذا جرى أبو حنيفة، وتبعه

أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بـ(التأويلات) فقال: نحن نعتبر أن هذه الجنة بستان من البساتين، أو غيضة من الغياض، كان آدم وزوجه منعمين فيها، وليس علينا تعيينها، ولا البحث عن مكانها، وهذا هو مذهب السلف، ولا دليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم.

قال صاحب (المنار) في تفسيره، ومما يؤيد هذا الرأي:

١. أن الله خلق آدم في الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته، فالخلافة منهم مقصودة بالذات، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبةً عارضة.
 ٢. أنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الأرض عرج به إلى السماء ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم.
 ٣. إن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون فكيف دخلها الشيطان الكافر للوسوسة.
 ٤. أنها دار للنعيم والراحة لا دار للتكليف وقد كلف آدم وزوجه أن لا يأكلا من الشجرة.
 ٥. أنه لا يمنع من فيها بما يريد منها.
 ٦. أنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة؛ لأنها دار طهر لا دار رجس.
- وعلى الجملة؛ فالأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها ومنها أن عطاءها غير مجذوذ ولا مقطوع لا تنطبق على جنة آدم انتهى.
- وقال الشيخ محمد رشيد رضا: وقد كان ظهر لي عند كتابة تفسير الآيات شيء آخر لم يذكره الأستاذ الإمام، أي: الشيخ محمد عبده، ولم أره في كتب

التفسير، وهو أن القول بأن آدم أسكن الجنة الآخرة يقتضي أن تكون الآخرة هي الدار الأولى والدنيا، فتكون التسمية للدارين غير صحيحة، ويُنافي أيضاً كون الجنة دار ثواب يدخلها المتقون جزاءً بما كانوا يعملون كما ورد الآيات الكثيرة، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] ولم يقل ادخل، ولو انتقل من الأرض التي خلق فيها إلى الجنة لقال هذا، أو ما بمعناه مما يشير إلى الانتقال.

فقوله: "اسكن" يشير إلى أن تلك الخلقة كان في هذه الجنة، أو بالقرب منها، وهكذا يتبين لنا أن الرأي الراجح في هذه المسألة إلى أن الجنة التي أسكنها آدم كانت في الأرض؛ لأن الله سبحانه خلق آدم في الأرض كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ولم يذكر الله أنه سبحانه نقله إلى السماء.

عرض إجمالي لدعوة نوح

عناصر الدرس

- العنصر الأول : محاور دعوة نوح # في كتاب الله تعالى ٥٣
- العنصر الثاني : بين نوح # وقومه ٦١

محاورة دعوة نوح # في كتاب الله تعالى

هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ، وهو إدريس بن يرم بن مهلاييل بن قين بن أنوش بن شيت بن آدم أبي البشر #.

وكان مولده بعد وفاة آدم # بمائة سنة، وست وعشرين سنة، فيما ذكره ابن جرير، وغيره، وعلى تاريخ أهل الكتاب يكون بين مولد نوح، وموت آدم مائة، وست، وأربعون سنة.

وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان في (صحيحه).

حدثنا محمد بن عمر بن يوسف، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه حدثنا أبو توبة، حدثنا معاوية بن سلام، عن أخيه زيد بن سلام سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة: أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: ((نعم مكلم)) قال: فكم كان بينه، وبين نوح؟ قال: ((عشرة قرون)). قلت: وهذا على شرط مسلم، ولم يخرج.

وفي (صحيح البخاري) عن ابن عباس قال: كان بين آدم، ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، فإن كان المراد بالقرن مائة سنة كما هو المتبادر عند كثير من الناس، فبينهما ألف سنة لا محالة.

لكن لا ينبغي أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالإسلام، إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الإسلام.

لكن حديث أبي أمامة يدل على الحصر في عشرة قرون، وزادنا ابن عباس أنهم كانوا على الإسلام، وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ، وغيرهم من أهل الكتاب أن قابيل، وبنيه عبدوا النار، والله أعلم.

تاريخ الدعوة والدعاة

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]، وقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [ص: ٣٣].

وكقوله #: ((خير القرون قرني)) الحديث، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرور الدهور الطويلة، فعلى هذا يكون بين آدم، ونوح ألوف من السنين، والله أعلم. وبالجملة فنوح # إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام، والطواغيت، وشرع الناس في الضلالة، والكفر فبعثه الله رحمة للعباد.

فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة، وكان قومه يقال لهم: بنو راسب فيما ذكره ابن جبير، وغيره.

واختلفوا في مقدار سنه يوم بعث، فقيل: كان ابن خمسين سنة، وقيل: ابن ثلاثمائة، وخمسين سنة، وقيل: ابن ربعمائة، وثمانين سنة حكاه ابن جرير، وعزى الثالثة منها إلى ابن عباس.

وقد ذكر الله قصته، وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه، وأصحاب السفينة في غير ما موضع من كتابه العزيز. ففي الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصفافات، واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة.

وقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَتَقَوَّمِرِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١)

أَبْلَغَكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوْعَجَبْتُمْ أَنْ
جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَأَجْجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
عَمِينَ ﴿الأعراف: ٥٩-٦٤﴾.

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ
عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا
يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ
أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ
مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُنذِرِينَ ﴿يونس: ٧١-٧٣﴾.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْإِسْمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْبُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْبُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ
أَرَادْنَا بِإِدْبَارِ الْأَرْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ
يَتَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَعَاسِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْلِرُكُمْ مِثْلُهَا
وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَتَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا
بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلِنَكْفِيَنَّ أَرْبَابَكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَتَقَوْمِ مَنْ
يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طردتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ
الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا
فَأِنَّمَا يَمَّا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ
بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِن أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ

رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَبَهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ، فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْحِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا نَبْتِيسَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ نَعْلَمُوكَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَقَالَ أَرَكِبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنْ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوَاهِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْأَمَاءِ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقْضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَلَوَّنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ [هود: ٢٥-٤٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَجَعَلْنَاهُ وَآهْلَهُ، مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال تعالى في سورة: قد أفلح المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَفْقَهُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنَ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَبَرَّضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ووَحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزلاً مُّبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ [المؤمنون: ٢٣-٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَنْدُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥].

تاريخ الدعوة والدعاة

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَبَجَيْنَتُهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الصافات: ٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ ﴿١٠﴾ فَفَنَحْنَا أَنْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ٩-١٥].

وقال تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّهِمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَدُنِّي مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا نَدْرَأُ عَالِيَهُمْ إِلَّا نُزْدًا وَلَا نَدْرَأُ وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطَبْتَنِيهِمْ أَغْرَقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا

عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاكِحًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا ﴿﴾ [نوح: ١-٢٢٨].

وقد جرى ذكره أيضاً في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه، ودم من خالفه.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى
وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَنبَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿١١٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ
عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾
رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ
عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ
نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ أَوْهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَرَكَرَبْنَا وَيْحَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٧].

وقال في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَتَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿﴾ [التوبة: ١٧٠].

وقال في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا
إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿﴾ [إبراهيم: ٢٩].

تاريخ الدعوة والدعاة

وقال في سورة سبحان: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]. وقال فيها أيضاً: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَلِذَٰلِكَ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

وقال في سورة ص: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢-١٤]. وقال في سورة غافر: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٥-٦].

وقال في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. وقال تعالى في سورة "ق": ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢-١٤]. وقال في سورة الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

وقال في سورة النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطغَى﴾ [النجم: ٥٢]، وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحٍ وَأَمْرَاتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

بين نوح # وقومه

دعا نوح # قومه بلطف، وأدب إلى تلك الكلمة التي دعا كل رسول قومه إليها: يا قومي أعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فهو المستحق للعبادة، وحده. وغيره لا يملك نفعاً، ولا ضرراً، وحذرهم من سوء عاقبة التكذيب، وأظهر شفقتة بهم، وخوفه عليهم إذا ساروا في طريق الكفر، والضلال، وتركوا عبادة الله وحده.

المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدون من دونه، وهو أسلوب مقنع مهذب، وبالرغم منه كان رد الملام من قومه على دعوته أن وجهوا إليه التهم. التي وقرت في نفوس الجاهل من البشر.

ومقتضاها أن الجنس البشري أحقر من أن يحمل رسالة الله، فإن تكن ثمرة رسالة، فليحملها ملك، أو مخلوق آخر، ومصدر هذه التهمة عدم الثقة في هذا المخلوق الذي استخلفه الله في الأرض.

وأودع فيه ما يكافئها من الاستعداد، والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهئون لحمل الرسالة باختيار الله لهم، وهو سبحانه أعلم بما أودع في كيانه الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومهم.

فطرة الإنسان التي فطره عليها خالقه تدعوه إلى التصديق بحملة الحق، والإيمان بدعاة الهدى، والرشد، والانقياد لأئمة الناس - عليهم الصلاة والسلام.

تاريخ الدعوة والدعاة

إلا أنّ قوم نوح تماروا، فقالوا: إذا كان الله يريد أن يختار رسولاً من البشر، فلم لا يكون من بين هؤلاء الملأ الكبار المتسلطين العالين؟

وهو كسابقه جهل بالقيمة الحقيقية للإنسان، والتي من أجلها استحق الخلافة في الأرض بعمومه، واستحق حمل الرسالة بخصوصه في المختارين من صفوته.

وهذه القيمة لا علاقة لها بمال، أو جاه، أو سلطان في الأرض، وإنما هي في صميم النفس، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى، والتلقي عنه.

والتحمل للآيات، والصبر على أداؤها، والقدرة على الإبانة، والبلاغ، وهو جهد في صميم النفس، وحمل لا يقوى عليه إلا خاصة الخاصة من الناس الذين يرسلهم الله بالبينات، وينزل عليهم الكتاب بالحق، والميزان ليقوم الناس بالقسم.

ووجه قوم نوح إليه قولاً غليظاً، فقالوا له: إنا لنراك بأمرنا لنا بعبادة الله وحده، وترك آلهتنا في انحراف بين عن طريق الحق، والرشاد.

كما هي حال الفجار دائماً يرمون الأبرار بالضلال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمَّ يَهْتَدُوا بِهِ فَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقد رد عليهم نوح بأسلوب عَفٍّ مهذبٍ، فنفى عن نفسه الضلالة، وكشف لهم عن حقيقة دعوته، ومصدرها: يا قومي، ليس بي أدنى شيء مما يسمى بالضلالة فضلاً عن الضلال المبين الذي ريمتموني به.

وأثبت مقابل ما رموه به لنفسه، وهو الهداية، والتبليغ عن الله، فهو رسوله لإيقاظهم مما هم فيه من كفر، وشرك، والرسالة لا تجامع الضلالة، وهو يبلغهم ما أوحاه الله إليه من الأوامر، والنواهي.

تاريخ الدعوة والدعاة

ولا يرفع الإنسان في ظلها إلا قيمة واحدة هي الإيمان، والعمل الصالح، والأشراف، والسادة أثبت تاريخهم مع كل رسول خشيتهم من كل دعوة جديدة. وتمسكهم بالحال التي هم عليها إذ في ظلها حصلوا ما حصلوا من الامتيازات. مع أن نوحاً # قد ذكرهم بنعمة الله عليهم؛ ليتقوا الوقوع فيما يسلبها منهم.

وأنهم إذا تذكروا، وآمنوا استحقوا رحمة الله، وإذا لم يؤمنوا حل بهم العذاب، وإذا كانوا قد استثقلوا طول إقامتهم فيهم، ودوام تذكيره لهم، فهو متوكل على الله لا يمل، ولا يخاف.

وبدوام نشاطه يتضاعف ما له عند الله من حسنات، وقد اشتد الأمر بينه، وبينهم، وأحس منهم عملاً خفياً، فأعلن أنه لا يخافهم، وأن ما يعبدونه من آلهة لن تنفعهم، وعليهم أن يجمعوا أمرهم، وشركاءهم، وأن يقضوا إليه، ولا ينظرون.

قال تعالى: ﴿وَأْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ١٧١]. إنه لا يسأل على دعوته أجراً، وأجره على الله وحده. الذي لا يضيع رسله، ولا يخذل جنده، ودلت المجادلة التي احتدمت بينه، وبينهم على ضعف عقولهم، وقسوة قلوبهم.

وإصرارهم على كفرهم، واتخاذهم من الحس دليلاً مع أن حسهم كاذب أوصلهم إلى نتيجة كاذبة بدليل استدلالهم على بطلان دعوة الحق؛ لأن أتباعها الأردلون في أعينهم المزدرون منهم.

ونوح يجادلهم بالتي هي أحسن، ويسوق إليهم الحجج، فبرموا بدعوته، وتعجلوا العذاب الذي حل بهم، وقد استبعدوا أن يخصه الله بالنبوة مع أن

المقصود من الإرسال الإنذار. ومن الإنذار التقوى، ومن التقوى الفوز بالرحمة قال تعالى: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦٣]. اقتراح مرفوض وصف الكبراء من قوم نوح # اتباعه.

وزادوا فطلبوا كما جرت العادة في المكذبين منه طرد المؤمنين، حتى لا يجتمعوا معهم في مجلس واحد تزول فيه الفروق.

والله سبحانه لا يقبل هذا، ورسوله نوح لا يرضاه كما لا يرضاه أحد من الرسل -عليهم السلام-، إلا لتناقضوا مع المهمة التي جاءوا بها، والتي من مبادئها أن الناس سواء كلهم لآدم، وآدم من تراب. قال تعالى على لسان نوح #: ﴿وَيَقَوْمٍ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَّآ إِن آجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَىٰكُمْ قَوْمًا يَّجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقَوْمٍ مِّن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَفْتُمْ أَفْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٩-٣٠].

وقد دل هذا الطلب على أنهم يجهلون حقيقة ما يقرب الناس من رسل الله، ويجهلون عليهم مع أنهم قد حققوا في أنفسهم الوصف الذي استحقوا به القربى، والحظوة لدى رسل الله. ثم إن نوحاً إن طرد المؤمنين السابقين تحقيقاً لمطلب الكبراء عاقبه الله الذي آمنوا به، واتبعوا هديته، ولا يستطيع الكبراء، ولا غيرهم أن يمنعوا عنه عقابه.

والرسل لا تعرض نفسها لعقاب الله، ولا تفعل إلا بأمرٍ منه، ولا تصدر إلا عن توجيهه، ونوح واحد منهم، ولا يدعي أن عنده خزائن الله يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء. أو أنه يعلم الغيب، أو أنه ليس بشراً بل يرد الأمر إلى الله، ويسلم

تاريخ الدعوة والدعاة

إليه بما هو حقه، ويدفع عن نفسه الشبه باقتدار، كما أنه لا يدعي أن هؤلاء الضعفاء لن يكون لهم الخير، والمستقبل الحسن في الدنيا، والآخرة.

فالله يعلم ما في أنفسهم، وهو سيعطيهم على حسب ما يستحقونه، وهو وحده مصدر العطاء. قال تعالى: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنَِّّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٣١] وعجز قوم نوح عن مقاومة حججه، وشعروا بالهزيمة أمام منطقته لقد نصحهم غير أن الهدى بيد الله، وبيده نواصي العباد تصل إليهم قدرته.

وإن كان الجاهلون لا يعلمون عواقب الأمور كما لا يعلمون أقدار العباد، وهم من أجل ذلك يطلبون من رسولهم نوح أن يطرد هؤلاء الذين ليسوا من أصحاب الثروات الطائلة، والجاه العريض، والنفوذ الواسع.

مع أن أولئك لهم منافع، ومصالح، وأغراض تحول بينهم، وبين اتباع الحق، ومكانتهم، وثرواتهم تتيح لهم الجري وراء الشهوات في حمق، وإسراف، ويتعالون على العباد، ويستغلونهم أشنع استغلال. قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [١١١] قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [١١٢] إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ [١١٣] وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ [١١٤] إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ [الشعراء: ١١١ - ١١٥].

لقد خلصت نفوسهم، فكانت أقرب إلى اتباع الحق، وكانت مهينة للاستجابة في سهولة، ويسر لم تصرفها شهوة، ولم تمنعها مصلحة. أما أصحاب المكانة، والثراء فقد منعهم الكبر الذي بسببه طرد إبليس من الجنة، وهو الذي صور لهم أنه ليس من الشرف، ولا من المناسب أن يتبعوا شخصاً من بينهم يرون أنه لا ميزة له عليهم.

وأنهم إذا تبعوه أصبحوا تابعين لا متبوعين؛ بعكس المؤمنين الذين استطاعوا استخلاص نفوسهم من ترغيب السادة الكبراء، وإرهابهم، وخلصوا للحق، وتحضوا للخير. وكانوا في الذروة من الفضل، فأثرهم نوح كما أثره، وقال في ثقة، ويقين: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٢٩]. وقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤].

نوح لا يريد الزعامة: رفض قوم نوح # دعوته مع أنه ناصح أمين معروف بينهم بذلك، وهو أخوهم، ومقيم معهم، وماضيه معروف لديهم. ورجاحة عقله، ووفور صحته يناقض ما اتهموه به، إنه لهم نذير مبين، وهو لا يعرف نيات الناس، ولا يحاسبهم عليها لقد اتهموه بأنه يريد التفضل عليهم، والزعامة فيهم. مع أن رسل الله جميعاً، ونوح واحد منهم لا يريدون إلا حمل الأمانة، وتبليغ الدعوة، ولا شأن لهم بزعامة، أو تسلط على الناس.

كما هو مفهوم الزعامة عند قوم نوح #. الذين أضافوا إلى ما اتهموه به رمية بالجنون، ومنوا أنفسهم بالانتظار حتى يفيق من جنونه. أو يأخذه الموت، ولجئوا إلى تهديده حين عجزوا عن محاجته، وضعف موقفهم أمام قوة دعوته مما حمله على أن يلجأ إلى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [١١٧] فَأَفْنَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

فاستجاب الله له، وجعل له، وللمؤمنين العاقبة، ونجاهم من كيد الأعداء. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [٢٣] فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

تاريخ الدعوة والدعاة

فهم يُنكرون أن يكون الرسول من البشر، ويريدونه أن يكون من الملائكة، كما يُنكرون البعث، واليوم الآخر، وزعماء أي مجتمع يسبقون غيرهم في معارضة أية دعوة جديدة من شأنها أن تعرض النظام القائم لخطر محقق، أو موهوم.

كاتهامهم لنوح بالجنون، أو الرغبة في الزعامة حين نقض أوضاع المجتمع القائم على غير الحق. الذي بعث به.

- توجيه نوح نظر قومه إلى آيات الله: لفت نوح # نظر قومه إلى ما أودع الله ﷻ في هذا الكون من دلائل تدل عليه. من باهر الحكمة، وعظيم التصرف، وسعة السلطان، وإحكام التدبير. كما لفتهم إلى ما في خلق الإنسان من آيات. إذ خلقه الله في أطوار متعاقبة.

قال تعالى على لسان نوح # : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٠-١٤]. إنه يبين لهم دلائل قدرة الله، وآثار رحمته في الكون، والنفوس، ويخاطبهم بأسلوب يدعو إلى الفكر، ويبعث على التأمل، والنظر.

يا قوم، ألا ترون أن الله خلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، لقد كنتم تراباً، ثم نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم كنتم أجنة. وفي جميع هذه الأطوار كنتم في رعاية الله محفوظون بحفظه محاطون بعنايته، وبعد ذلك كنتم أطفالاً فشباً، وهكذا. وستعودون إلى الله من جديد في أية لحظة شاء، فارجعوا إليه بالتوبة، والإنابة، والطاعة قبل أن تواجهوه، وهو عنكم غير راض.

وإلى ما في السموات والأرض من أدلة العناية، والرعاية، والنظام: فالأرض تنبت النبات الذي يعيش عليه الإنسان، والحيوان. وقد خلق الإنسان من

تاريخ الدعوة والدعاة

المحسوسة بالعين، والمشاهدة بالبصر، والمدركة بالمشاعر كان تنوعه في أسلوب الدعوة، وتحريه مختلف الظروف، والأوقات.

لعله يصل إلى غايته، ويحقق لدعوته النجاح، والقرآن عندما يعرض علينا ذلك، ويرينا المنهج الذي سلكه رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - في الدعوة يرسم لنا الأسلوب الذي ينبغي أن نسلكه. ونقيم الأدلة أدلة الخلق، وأدلة الترابط، والقصد، وأدلة العناية، والتدبير كما أقامها رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - في القرآن الكريم.

جمود قوم نوح على باطلهم:

كان قوم نوح يعبدون الأصنام، وكانت لهم منها خمسة قال ابن عباس، وغير واحد من علماء التفسير: كان أول ما عبّدت الأصنام أن قومًا صالحين ماتوا، فبنى قومهم عليهم مساجد، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها. ليتذكروا حالهم، وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادًا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام، وسموها بأسماء أولئك الصالحين، ودًا، وسواعًا، ويغوث، ويعوق، ونسرًا.

فلما تفاقم الأمر بعث الله تعالى رسوله نوحًا، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا نَدْرُنْ ءِالْهَتَكُمُ وَلَا نَدْرُنْ وَدًّا وَلَا سِوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۗ ﴾ (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نُزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ نوح: ٢٣-٢٤. وللآلهة الباطلة سدنة يأكلون أموال الناس بالباطل، ويمنحون بركتها بالمقابل، ونوح رسول أمين لا يخدع، ولا يغش، ولا يخون، ويدعو إلى كلمة جاء بها كل رسول تقوى الله.

والهداية إلى الطريق المستقيم، ولا يطلب أجرًا، ولا يأخذ مالًا كما يفعل سدنة الآلهة الزائفة التي لا تضر، ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تسمع، ولا تدري عما

يفعل باسمها شيئاً. لقد بذل في سبيل الدعوة جهوداً ضخمة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان محصوله قليلاً حتى أخذ قومه الطوفان، وهم ظالمون لأنفسهم يعبدون الأصنام التي لم تنصرهم.

وأدركت نوحاً # رحمة ربه، وجاءه نصره، وأخذ المكذبين العذاب، والتنكيل، وبقيت دعوة نوح، وبقي ذكره في الآخرين. لقد زجره قومه حين دعاهم إلى عبادة الله بدل أن ينزجروا هم عن الكفر، وعبادة الأصنام، فلجأ إلى ربه، وفوض إليه أمره، وطلب عونه، ونصره. فجاءه النصر؛ لأنه بذل الوسع، وكان إعصاراً فتحت أبواب السماء بالماء، وفجرت الأرض عيوناً، والتقى الماء النازل من السماء بالماء النابع من الأرض على أمر قدره الله.

ونجا نوح، ومن آمن معه، وحمل على سفينة تجري بعين الله، وكانت آية لمن يتذكر لكن قوم نوح لم يتذكروا، ولم يعتبروا، وحسبوا أنفسهم في دائرة ضيقة. قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدَرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَلْوَجِ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ ﴿١٥﴾﴾ [القمر: ١١ - ١٥].

لقد دفع الحقد قومه إلى إنكار الميزة التي ميز الله بها خاصة عباده من البشر؛ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولم يجد فيهم نصحه. وأصبحوا عقبة في وجه الكلمة التي يقوم عليها الوجود كله، وبقي صابراً على دعوته لم يعرف اليأس طريقاً إلى قلبه، فكانت له العاقبة. ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنِّمَّ عَصَوِي وَأَتَّبِعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ [نوح: ٢١ - ٢٢].

لقد أهبط الله آدم من الجنة مزوداً بالعقيدة السليمة، والمبادئ الصالحة التي بثها في ذريته، والتي استجاب لها من هداه الله، وشذ عنها من أغراه الشيطان. وأخذ

تاريخ الدعوة والدعاة

هؤلاء المنحرفون يزيدون شيئاً، فشيئاً على مر الزمن، وتوالي العصور حتى شاع الانحراف في العقيدة نفسها، فعبد الناس الأصنام، وانغمسوا في الكفر، والضلالة.

كما حدث ذلك في قوم نوح، فبعثه الله إليهم بدعوة التوحيد، ولقي منهم من العنت، والاستكبار، والإعراض ما لقي، وسنة الله سبحانه كلما انحرفت الإنسانية في عقيدتها أرسل إليها الرسل. لتكون الحجة على الناس عندما يعرضون عن دعوة الحق في مجال العقيدة، والخير في مجال الأخلاق، والعدل في مجال التشريع. كما أرسل بذلك كله نوحاً إلى قومه، فجمدوا على باطلهم، وأصروا، واستكبروا استكباراً، ولم يزداهم دعاؤه لهم إلا فراراً.

كما قالها نوح، وهو يشكو إلى ربه، ويفوض إليه أمره: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ مُّسْوِيًّا ۝٧ وَأَسْتَغْشُوا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٨ ﴾ [نوح: ٥ - ٧].

تابع دعوة نوح - إدريس وهود - عليهم السلام-

عناصر الدرس

- العنصر الأول : استكمال دعوة نوح # ٧٥
العنصر الثاني : عرض إجمالي لقصة سيدنا إدريس # ودعوته ٧٨
العنصر الثالث : عرض إجمالي لدعوة سيدنا هود # ٨١

استكمال دعوة نوح

نوح # أول رسول، ونوح # أول رسل الله إلى أهل الأرض :

وقد ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح # فإن قام دليل على أن إدريس أرسل أيضاً. لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح ؛ لأن النبي ﷺ أخبر عن آدم أن نوحاً أول رسول بعث إلى أهل الأرض.

وإن لم يقد دليل جاز ما قالوه، وصح أن يحمل أن إدريس كان نبياً غير مرسل، قال القاضي عياض: "وقد قيل: إن إدريس هو إلياس، وإنه كان نبياً في غير بني إسرائيل.

فإن كان هكذا سقط الاعتراض على أن آدم إنما أرسل لبيته، وأمر بتبليغهم الإيمان، وطاعة الله تعالى، أما رسالة نوح، فكانت إلى كفار أهل الأرض.

روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: ((يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك -أو فيلهمون لذلك- فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال: فيأتون آدم ﷺ فيقولون: أنت آدم أبو الخلق خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. أتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتنوا نوحاً أول رسول بعثه الله)).

وبناء على هذا رتب العلماء الأنبياء الذين ذكروا في القرآن قال السيوطي: "في القرآن من أسماء الأنبياء، والمرسلين خمس وعشرين هم مشاهيرهم: آدم أبو البشر - نوح".

قال الحاكم في (المستدرک): "وأكثر الصحابة على أنه قبل إدريس".

إدريس: قال ابن إسحاق: "كان إدريس أول بني آدم أعطي النبوة". إبراهيم - إسماعيل أكبر ولده، قال النووي: "وإسحاق ولد بعد إسماعيل، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب".

وفي (صحيح ابن حبان): ((إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم))، ولوط، وفي (المستدرک) عن ابن عباس: ((لوط ابن أخي إبراهيم))، وهود صالح. وشُعيب خطيب الأنبياء، وموسى هارون أخوه شقيقه، أو لأبيه فقط، وداود، وكان حسن الصوت، وجمع الله له الملك والنبوة.

وسُلَيْمان بن داود أيوب، وكان قبل موسى، وبعد سليمان، وذو الكفل قيل: هو ابن أيوب، كما في (المستدرک)، وقيل: هو إلياس، أو يوشع بن نون، وقيل: هو زكريا، ويونس بن متى إلياس.

وعن ابن عباس أن إلياس هو إدريس، ويقال: إلياسين كما يقال: إدراسين.

اليسع زكريا من ذرية سليمان بن داود، يحيى بن زكريا، عيسى ابن مريم، محمد ﷺ خاتم النبيين. وهؤلاء الرسل جميعاً وجد لهم قبل الوحي خلق الخير، والذكاء، ومجانبة المنهيات، والمذمومات، والرجس أجمع.

وهذا هو معنى العصمة، وكأنهم مفطورون على التنزه عن المذمومات، والمنافرة لها، وكأنها منافية لفطرتهم، وسواءً كان آدم أول رسول، أم نوح.

فإن الخاتم للرسول جميعاً هو محمد ﷺ الذي اقتدى بهديهم جميعاً، كما أمره ربه بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنِهِمْ آفَتِدَةٌ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٩٠].

ونحن قد أمرنا بالاعتداء برسول الله ﷺ، والتزام هديه، وإجابة دعوته.

- موقف ابن نوح: لما أبى قوم نوح إجابة دعوته أمره ربه أن يصنع سفينة؛ ليحمل فيها ما أمره الله به. عندما قال له ربه: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وجرت السفينة ﴿بِسْمِ اللَّهِ جَرَدَهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]، وكان ممن سبق عليه القول ابن نوح # انعزل مع القوم، وناداه أبوه ليركب معه حتى لا يكون مع المغرقين.

فأخذ الغرور، ورفض النداء و﴿قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣]، وهو لا يستطيع الإنجاء، ولا ينجو أحد طلبه الله، وهلك ابن نوح مع من هلك من قومه؛ لأنه عمل عملاً غير صالح.

وهذه عدالة السماء، والحكم الذي جاء به الأنبياء إن حنان الأب، ورفقه بولده دفع نوحاً أن ينادي ابنه بينما هو مغرور بعيد عن الهدى لا يجيب دعوة الداعي، وغلبت نوحاً شفقتة، فاتجه إلى ربه حزيناً ضارعاً مستغفراً، قد نبهه الله ﷻ فالتزم، وطلب منه المغفرة، والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرَدَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤١-٤٣].

ونداء نوح # لابنه ليلحق بالمؤمنين في إيمانهم، فينجو في سفينتهم، ولا يمكث مع الكافرين في كفرهم، فيلحق بهم سوء خاتمهم، ولو أنه أراد أخذه في السفينة رغماً عنه لفاعل.

تاريخ الدعوة والدعاة

ولكن الأمر لم يكن أمر نجاة جثمانية، وإنما كان أمر إيمان، وليس لنوح # على قلب ابنه من سلطان، والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء.

والناجي هو الذي يستجيب للدعاء، وسر النجاة ليس في رابطة القرابة، وإنما في رابطة الدين، ولم يغن نوح # عن ابنه شيئاً، ولا عن زوجه كذلك؛ لأن عدالة الله تأخذ كل إنسان بجريرته، وتعاقب الآثم بإثمه.

ولا تنظر في ذلك إلا إلى العدل في ذاته، والروابط تقوم على الحق، والخير لا على الأحساب، والأنساب، كما أكدت ذلك قصة نوح #.

ونداء رسول الله ﷺ لقريش: ((يا معشر قريش، لا يأتيني الناس بالأعمال، وتأتوني بالأحساب، فوالذي نفس محمد بيده لا أغني عنكم من الله شيئاً)).

وهو يؤكد ما هدفت إليه الآيات التي ذكرت موقف ابن نوح # وما آل إليه أمره عندما رفض دعوة الإيمان.

عرض إجمالي لقصة سيدنا إدريس # ودعوته

إدريس # هو واحد من الرسل الذين حملوا الرسالة لهداية البشر، والذين تحدث عنهم القرآن. فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

وقد وصفه الله بأنه صديق، وأنه نبي، وأنه رفع إلى مكان علي قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٦-٥٧]. ولم يذكر إدريس في ضمن أنبياء بني إسرائيل، وهو سابق على إبراهيم # وقد

لمست الآية السالفة المعالم البارزة في صفحة النبوة في تاريخ البشرية كله في هذا الإجمال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

فآدم يشمل من بعده، وإبراهيم يشمل فرعي النبوة من ذريته إسحاق، ومنه يعقوب، وأنبياء بني إسرائيل، وإسماعيل، ومنه خاتم النبيين محمد ﷺ.

وقد جاء في (صحيح مسلم) في حديث الإسراء قول النبي ﷺ: ((ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل # قيل: من أنت؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإدريس # قد رفعه الله مكاناً علياً فرحب بي، ودعا لي بخير)).

والمكان العلي: شرف النبوة، والزلفى - عند الله عند الزمخشري - وقد رفع الله إلى السماء إدريس # كما قال الشوكاني. وقال الحسن، وغيره: هو الجنة، وأما ما ذكر من إجابة كعب الأخبار لابن عباس حين سأله عن قول الله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ من أن الله يرفع لإدريس كل يوم مثل عمل جميع بني آدم. وأنه أحب أن يزداد عملاً، فأتاه خليل من الملائكة صعد به إلى السماء على ظهره حتى لقي ملك الموت في السماء الرابعة، وقبض روح إدريس فيها، وقد علق عليه ابن كثير، فقال: "هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيلية، وفي بعضه نكاره، والله أعلم".

وليس في القرآن تفصيل لدعوة إدريس، وإن ذكرت بعض الكتب أنه كان يدعو إلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وطاعة الله، وتوحيده، وعبادته، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، والزهد.

والعمل بالعدل، ويأمر بالصلاة، وبصيام أيام، وبزكاة الأموال معونة للضعفاء، وهذه الأخبار لم تؤيد بنقل صحيح، ولم يعرضها نص قاطع.

ولما أمر الناس باتباع الشريعة، ونهاهم عن المخالفة لم يتبعه إلا القليل، ولحقه ما لحقه من الأذى ممن خالفه، ولكنه بقي صابراً هو، ومن معه داعياً إلى دين الله، والإخلاص له في العمل، والعبادة.

والإحسان إلى الناس، وكان كبقية إخوانه الأنبياء مبراً من مذام الأخلاق، والأفعال كاملاً في الفضائل الممدوحة لا يقصروا في واجب مستجاب الدعاء من الله فيما يطلبه منه مما فيه صلاح الفرد، والجماعة، وهو من خيري الدنيا والآخرة.

وإدريس من الأنبياء الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً لذكر القرآن له، وقد ذكر ابن إسحاق أنه أول من خط بالقلم.

وقال البخاري: "ويذكر عن ابن مسعود، وابن عباس أن إلياس هو إدريس، واستأنسوا لذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء أنه لما مر به # قال له: ((مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح))، ولم يقل كما قال آدم، وإبراهيم: ((مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح)) إلى آخره.

وهو من ذرية آدم #، وأول من خاط الثياب، ونظر في النجوم، والحساب، وله حكم نسبت إلى هرمز العظيم المحموده آثاره المرضية أفعاله الذي يعد من الأنبياء الكبار.

ويقال: هو إدريس النبي # ومهما يكن؛ فحديث القرآن عنه محدود، وإن كان قد وصفه لا غنى للداعية عنها لما لها من أثر في نجاح الدعوة، وأهلية الداعية للقدوة الصالحة.

وهي - ولا شك - من أجل نعم الله على تلك الصفوة المختارة من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام -.

عرض إجمالي لدعوة سيدنا هود

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح # ويقال: إن هودًا هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوف بن إرم بن سام بن نوح #.

ذكره ابن جرير أرسل سيدنا هود # إلى عاد، وعاد كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة صمدي، وصمودا، وهرا.

فبعث الله فيهم أخاهم هودًا #، فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان في أمرهم في سورة الأعراف:

﴿وَالِإِلَهِ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِتَا لَنُرْبِكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنَبِّئْنَا بِمَا نَعْبُدُ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَضْبٌ أَتُجَدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيئْتُمْوهَا أَنْتُمْ وءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢].

وقال تعالى بعد ذكر قصة سيدنا نوح في سورة هود: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم آعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ إن أنتم إلا مفرطون ﴿٥١﴾ ياقوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون ﴿٥٢﴾ ياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴿٥٣﴾ قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي الهينا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴿٥٤﴾ إن نقول إلا اعتراك بعض الهينا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أي برى مما تشركون ﴿٥٥﴾ من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿٥٦﴾ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿٥٧﴾ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويسنخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرؤنه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ ﴿٥٨﴾ ولما جاء أمرنا بجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا وبجنتناهم من عذاب غليظ ﴿٥٩﴾ وتلك عاد جحدوا ببانت ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴿٦٠﴾ وأنعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قور هود ﴿٦١﴾ [هود: ٥٠-٦٠].

وقال تعالى في سورة المؤمنون بعد قصة قوم نوح: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٣١﴾ فأرسلنا فيهم رسولاً منهم إن أعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ أفلا نتقون ﴿٣٢﴾ وقال الملائم قومه الذين كفروا وكذبوا بلفاء الآخرة وأترفنهم في الحيوه الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴿٣٣﴾ ولين أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخرسون ﴿٣٤﴾ أعبدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظماً أنكم مخرجون ﴿٣٥﴾ هيئات هيئات لمتعودون ﴿٣٦﴾ إن هي إلا حيكائنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴿٣٧﴾ إن هو إلا رجل أفتري على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ﴿٣٨﴾ قال رب أنصرني بما كذبون ﴿٣٩﴾ قال عما قليل ليصبحن ندمين ﴿٤٠﴾ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلنهم عكاً فبعدا للقوم الظالمين ﴿٤١﴾ [المؤمنون: ٣١-٤١].

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضاً: ﴿ كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٣٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٣٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٣٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٤٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدُّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٤٣﴾ وَجَنَّتِ وَعُمُومٍ ﴿١٤٤﴾ إِنَّهُ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتُمْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٦﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الرَّحِيمُ ﴿١٥٠﴾ [الشعراء: ١٢٣ - ١٤٠].

وقال تعالى في سورة السجدة: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِّقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ [الفصل: ١٥، ١٦].

وقال تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُورُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ الْهَيْئَةِ فَاِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعِندَ اللَّهِ وَإِلَيْكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَنْ كَيْفَ أَرْسِلُكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمِطِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [الأحقاف: ٢١ - ٢٥].

وقال تعالى في الذاريات: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ ﴿٤٢﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

تاريخ الدعوة والدعاة

وقال تعالى في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَّفِكَهَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءَ رَبِّكَ نَتْمَارِي﴾ [النجم: ٥٠-٥٥].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذِيرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَّحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنَذِيرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٨-٢٢].

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لِيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة، وإبراهيم، والفرقان، والعنكبوت، وفي سورة ص، وفي سورة ق، وقد صرح باسم هود # في ثلاث من هذه السور وهي: الأعراف، والشعراء، وهود. ولم تذكر عاد في كتاب من الكتب المقدسة سوى القرآن وحده.

وكانت عاد محضرموت بالأحقاف، وهي الكتيبان الرملية المرتفعة على حدود اليمن في جنوب شبه الجزيرة العربية. وكانوا يتمتعون بقوة في الأجسام، ويعيشون في رغد، وخصب، ويتمتعون بنعم كثيرة من الأموال، والأولاد.

وعلى الرغم من نعم الله عليهم كانوا يعبدون الأوثان، ويظلمون الناس، وهم أول الأمم التي عبدت الأصنام بعد الطوفان. وأول ذكر لعاد جاء في سورة الفجر: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ ﴾ [الفجر: ٦ - ٨].

فقد ذكرت السورة أنهم عوقبوا، وأنهم كانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، وهم عاد الأولى في طريق التكذيب.

وذكرت سورة الأعراف أن هوداً # ذكر لقومه عاد ما ذكره نوح # لقومه، وأدار معهم نفس الحوار؛ لأنهم ساروا في نفس الطريق، وحادوا عن الصراط المستقيم صراط الله الذي له ما في السماوات، وما في الأرض، استكبر الملائمة منهم، ورفضوا دعوة هود # إلى عبادة الله وحده، ورموه وهو الرسول بالسفه، والحمق، وكذبوه.

فنفى هود # تلك التهم الباطلة، وبين لهم المصدر الذي منه تلقى دعوته، والجهة التي أرسلته، والمهمة التي كلفته بها.

لقد استخلفهم الله في الأرض من بعد قوم نوح، وأسبغ عليهم نعمه، فجحدها، وأغرتهم القوة بالإثم فاستثقلوا النصيح، واستعجلوا العذاب، وفروا من مواجهة الحق. ولم يتدبروا ما هم عليه من الباطل، ويدركوا الحق الذي به أرسل هود #.

وكانت ثقة هود # مناط القوة التي يستشعرها، وهو يواجه هؤلاء الأشداء، وهو يعلم كصاحب دعوة هزال الباطل، وضعفه، وخفة وزنه مهما علا أصحابه في الأرض، واستهانوا بوعيد الله.

لقد تناولوا عليه، وهو الرسول الكريم # دعاهم إلى عبادة الله، فاتهموه بالسفه، والخروج عن جادة الصواب؛ ولأنهم يرون الحق ما هم عليه من وثنية، وشرك كان عليه الآباء.

اتهموه بالكذب كما اعترضوا على الرسول، والرسالة، فالرسول واحد منهم، وليس بملك، ولا واحد من الأشراف، وذكرهم هود # بأنعم الله عليهم.

وبأن الكفر بالله يسلبها منهم، فأصروا على موقفهم، وتحذوه أن يعجل لهم العذاب، وبين لهم حقيقة معبوداتهم، وأنها مجرد أسماء لا حقيقة لها، ولا تأثير، وإنما هي محض الخداع، والاستغلال، والتضليل.

وأن الإيمان لا بد أن يكون بحقائق، وقيم عليا لها أثرها في النفس، وفي الحياة، وليس ذلك إلا في الإيمان بالله وحده رب العالمين، فرفضوا دعوته، وأبوا إلا البقاء على ما هم عليه؛ فأنزل الله بهم العذاب، ونجى هوداً، والمؤمنين معه، كما وضحت ذلك آيات الكتاب. قال تعالى: ﴿وَالِىٰٓ عَادِ أَخَاهُمْ هُوْدًا ۗ قَالَ يٰٓقَوْمِ ۗ اَعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ ۗ اَفَلَا تَنفِقُوْنَ ۝٦٥﴾ قَالَ الْمَلَاُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْ قَوْمِهِ ۗ اِنَّا لَنَرْنٰكَ فِىۡ سَفَاهَةٍ وَاِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكٰذِبِيْنَ ۝٦٦﴾ قَالَ يٰٓقَوْمِ لَيْسَ بِيۡ سَفَاهَةٌ وَّلٰكِنِّىۡ رَسُوْلٌ مِّنۡ رَّبِّ الْعٰلَمِيْنَ ۝٦٧﴾ اٰتٰىعِكُمْ رَسٰلَتِ رَبِّىۡ وَاِنَا لَكُمْ نٰصِحٌ اٰمِيْنٌ ۝٦٨﴾ اَوْعَجِبْتُمْ اَنْ جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنۡ رَبِّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۗ وَاذْكُرُوْا اِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنْۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوْحٍ وَّرٰدَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصۜطَةً ۗ فَاذْكُرُوْا ءَايٰٓةَ اللّٰهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُوْنَ ۝٦٩﴾ قَالُوْا اٰجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللّٰهَ وَحَدَهٗ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ اٰبَاؤُنَا ۗ فَاِنَّا بِمَا تَعْدُوْنَ اِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ۝٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيَّكُمْ مِّنۡ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ ۗ اَتَجِدَلُوْنِىۡ فِىۡ اَسْمَآءِ سَمِيْتُمْوَهَا اَنْتُمْ وَاٰبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللّٰهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ ۗ فَاَنْظِرُوْا لِىۡ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ ۝٧١﴾ فَاَنْجِئْتَهُ وَالَّذِيْنَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَاۤبِرَ الَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِمَا يَنْبِئُنَا وَمَا كَانُوْا مُؤْمِنِيْنَ ﴿ [الأعراف: 65 - 72].

وهود # رسول مهمته البلاغ الذي يستلزم عدم الزيادة في المبلغ ، وعدم النقص منه ، وعدم الكذب فيه ، وقد فعل كل ذلك كما لون لقومه في الخطاب .

وتنقل في أساليب الدعوة ، فمرة يخوفهم ، وأخرى يبشرهم ، وأحياناً يذكرهم أنعم الله عليهم ، وهو بكل هذا لا يخافهم ، ولا يرهبهم مع أنه واحد وهم أقوياء ، وأشداء .

ومن آيات الله في أنصار الحق دعاة الهدى ، والخير أن يزيل من قلوبهم هيبة الظالمين ، وخشية المفسدين ؛ لأن قلوبهم امتلأت بالخشية من الله ، والخوف منه .

والحق واضح أبلج ، والعاقبة لأولياء الله ، والخزلان لأعدائه ، وأولياؤه القدوة الحسنة ، وعلى رأسهم هداة البشر من اختارهم الله للقيادة . وجعلهم مفاتيح السعادة يرسمون لنا طريق الدعوة ، ويعرفوننا الاستهانة بالباطل ، وإكبار الحق ، وهم أشجع الناس قلوباً ، وأربطهم جأشاً تطرب الأرض ، ومن عليها بفساد المفسدين ، وهم لا يضطربون .

وعلى دينهم دائبون ، وبدعوتهم معتصمون ، وعلى الله متوكلون ، ومن يتوكل عليه يبدل خوفه أمناً ، وضعفه قوة ، ومن يعتصم به ، فقد هدي إلى صراط مستقيم .

التوبة والاستغفار :

بعث الله هوداً # فدعا عاداً قومه دعوة خالصة مخلصه ليس له من وراء القيام بها لنفسه هدف ، ولا مصلحة .

فهو لا يسألهم مالاً ، ولا يأخذ على دعوته أجراً ، وإنما أجره على الله وحده ، وقد وجههم إلى الاستغفار ، والتوبة ، وإذا كانوا في قوة ، ونعمة فإن نظافة القلب ، والعمل الصالح في الأرض يزيدانهم قوة في الجسم ، وراحة في الضمير .

ونزول المطر بالقدر الملائم، وفي الزمن الملائم نعمة من الله على عباده، وهي ذات أثر فيما يتمتع به قوم هود من نعيم، والاستغفار يديم، ويزيده.

ومن الغريب أن هوداً # حين باشر الدعوة إلى الله، ودعا إلى الاستغفار، والتوبة ظنته عاد يهذى، وأن آلهتها المزعومة قد مسته بسوء، فتبرأ من قولهم، ونفى اتهامهم.

وأكد أن ربوبية الله لهم حقيقة قائمة، وأنه وحده رب الجميع بلا تعدد، ولا مشاركة، وقد أنذرهم باستخلاف الله قومًا غيرهم لبيتليهم من جديد.

وأنهم بتكذيبه دعوته قد كذبوا الرسل جميعًا، وفعلوا مثل ما فعل غيرهم من الأمم التي اتهمت رسلها - عليهم السلام - لتصرف عن الإصغاء إليهم، والاعتداد بكلامهم. وقد تحداهم هود # أن يكيدوه مع آلهتهم التي يزعمون، فلم يستطيعوا أن يمسه بسوء؛ لأنه واثق من الله الذي بيده ناصية كل شيء، وهو وحده سيمنعه، ويحميه.

قال تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُوْدًا قَالَ يَنْقَوْمِرَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنَ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْقَوْمِرَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن أَنجَرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَنْقَوْمِرَ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَقُولُ إِلَّا وَعَدْتِكَ بِعَضِّ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِّن دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيْعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوْنَهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾

مجانبة القصد، والاعتدال:

تصرفت عاد قوم هود # في نعم الله بما ينافي القصد، والاعتدال. ويدل على الجحود، والاعتزاز، ومن مظاهر ذلك فيهم البنيان لمجرد التباهي بالقدرة، والإعلان عن الثراء، والاعتزاز بما كانوا يقدرون عليه من أمر هذه الدنيا، وما يسخرونه فيها من القوى.

والجهد، والمال ينبغي أن ينفق فيما هو نافع لا في الترف، والزينة، وإظهار البراعة، والمهارة مع الغفلة عن رب المال صاحب القوة الحقيقية، والسلطان. لقد ظنوا أن قوتهم مانعهم من الله، فردهم هود # إلى ما يصونهم، ويحفظهم من تقوى الله، وطاعة رسوله الأمين.

وذكر لهم نعمة الله، وما ينبغي أن تنفق فيه كانت أرضهم تسقى بعدة قنوات، وكانت لهم حصون، وقصور على المرتفعات.

وكان كبارهم أكثر الناس بطشاً، وأشدهم بعداً عن عبادة الله، وكانت لهم ذرية، وأنعام فاغرتوا بذلك كله، وردوا على رسولهم ردّاً مملوءاً بالجفوة، والتحجر، والجمود، وأنكروا عليه أن يدعوهم إلى ما يخالف ما كان عليه الآباء.

قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿الشعراء: ١٢٨-١٣٥﴾.

والاعتزاز بالقوة إذا أصبح سمة لمجتمع منعه من التبصر، ودفعه إلى البغي، والعدوان، ونسيان الله صاحب العزة، والغلبة، والقهر، والسلطان.

وعاد اغتريت بقوتها، وتجبرت على الناس، وكذبت رسولها، فأرسل الله عليها قوة من قوى الطبيعة التي خلقها لتجلب النفع، والخير، وتسوق المطر لإنبات الحب، والتمر، وسقي الأرض، والدواب، والأنعام، والإنسان.

لأن تغيير مجتمعهم أصبح ضرورة تقتضيها رحمة الله بالإنسان حتى لا يفسده الطغيان، والعقل يقتضي أن تصرف نعم الله في طاعته، وأن تبذل في مرضاته.

لكن الغرور بالقوة المادية، وبمصادر اليسر في الحياة جر عاداً إلى الركون إليها دون ما عداها. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَفَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأٰخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

التأسي بهود #:

وقف أهل مكة من رسول الله محمد ﷺ موقف عادٍ من نبيهم، وسجلت سورة الأحقاف في هذا الموقف لعاد قوم هود.

الذين لم يستجيبوا لدعوته، ولم ينتفعوا بأسماعهم، وأبصارهم، وقوتهم، وثراتهم، واعترضوا على نبيهم، فأجابهم بما يليق به من أدب النبوة.

والنبي محمد ﷺ أمر أن يذكر هوداً # ليتأسى به في الصبر على ما يلقاه، وبين قومه قرابة.

كما كان بين عاد، وهود #، والإنذار متصل، والرد من القوم واحد، وتفويض الأمر إلى الله بعد أداء ما على الرسول من بلاغ منهج مشترك.

وسنة الله في أخذ المجرمين واحدة. رأت عاد سحبا تملأ الجو، فحسبتها مطرا يملأ الأرض بالخير، والزرع، ونسيت أنها استعجلت العذاب، وتحدث رسول الله هوداً #. قال تعالى: ﴿وَأذْكَرْنَا عَادَ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَأَفَّكَ عَنْ ءَاهِلِنَا فَأَنَّا يَمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَىكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرٌ بَلْ هُوَ مَا أَسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦].

ولعل أهل مكة الذين اتاهم رسول الله ﷺ يستفيدون من هذا الذي حل بقوم هود، وقد تجددت الرسالة الإلهية إليهم. والشواهد الدالة على صدق الرسل عبرة لكل قوم، ولكل جيل لقد وقعت عاد تحت فتنة الحياة المادية، وتأثيرها، ورفضت الإيمان بالله.

ولم يؤثر ذلك في اتجاه الرسالة الإلهية، وفي نجاحها، ولو بعد حين؛ لأن الله عزيز لا يغلب، وهو بعباده رحيم. ولقد ذهبت عاد، وبقي تاريخها كنموذج للعقبات التي تقوم في وجه الدعوة إلى الله، وكيف يكون عقاب الله تعالى لمن أعرض عن الهدى، ولم يستجب، واتبع الشيطان فصدته عن السبيل؟!.

لقد زحزحتهم الريح عن أماكنهم، وتركتهم كأعجاز نخل منزوعة من قعوورها، ولم تغن عنهم قوتهم التي كانوا يبطشون بها إزاء قوة الله الذي لا يغلب، وهو على كل شيء قدير.

والقوى الإيمانية ليست منفصلة عن القوى العملية، فكلتاها تؤثر في حياة الناس عن طريق قدر الله الغيبي المتعلق بعالم ما وراء علم البشر من الأسباب.

أو عن طريق الآثار العملية المشهورة التي يمكن رؤيتها، وضبطها بوسائل محسوسة مشاهدة من كل أحد مؤمناً كان، أو غير مؤمن.

ولتكذيب عاد، ورفضها الإيمان بالله، واليوم الآخر أهلكها الله بالريح العقيم التي لا تسوق سحاباً ممطراً مطر خير، ولا تلقح شجراً، وإذا أتت على شيء تركته بالياً لا ينتفع به بالكلية، وهي الريح الصرصر العاتية الشديدة الهبوب سخرها الله عليهم سبع ليالٍ أيامها الثمانية.

فلم تبق منهم أحداً، وتتبعهم حتى دخلت عليهم الكهوف، والبيوت، والقصور. هود # الداعية الصبور: كان هود # متحلياً بالإخلاص، وحسن النية، والرغبة الصادقة في هداية قومه، والميل إلى اللين في كل أحواله، والبعد عن مقابلة الشر بمثله، وقوراً يزن الكلام قبل إلقائه، واسع الصدر كبير الحلم عظيم الاحتمال لصلف المدعوين، وسوء ردهم. عظيم التوكل على الله الذي بيده وحده القدرة القادرة، والقوة التي لا تقاومها قوة أعلن قومه بدعوة التوحيد، فتصدى لمعارضته الزعماء. واتهموه بأنه يكذب؛ لأنه بشر يأكل، ويشرب، وهالهم من تقدمهم لأوضاع مجتمعهم مطالبته لهم بالإيمان بالله، واليوم الآخر.

كانوا غارقين في الكفر، والترف، واللهو، والمتع المادية، ولما بذل وسعه في سبيل هدايتهم، وردهم عن فاسد اعتقادهم اتهموه بأنه يبغى لنفسه من وراء دعوته منفعة شخصية، وهي الزعامة.

ولم يسع هوداً # بعد أن تحدثوا عاد في عنادٍ، وإصرارٍ إلا أن يتجه إلى الله طالباً منه النصر، فطمأنه الله على كفاله له، ولدعوته، وأنزل بقومه العذاب الذي استحقوه، والداعية إلى الله يجد في هود #، وموقفه من قومه، وموقف

قومه منه قدوة تجعله يتحلى بالإخلاص لله ، وحسن النية في الدعوة. والتمسك بالدين ، والعضو عن المسيء ، ويأخذ من منهجه في الدعوة الترغيب في الإيمان الذي يحفظ النعمة ، وينميها.

والتوكل على الله الذي يحفظ من كل سوء ، وهو إذ يقوم بالدعوة وارث النبوة ، ومن يقوم مقام الأنبياء ، فعليه أن يعمل عملهم ، ويقتدي بخلقهم لتكون له العاقبة التي كانت لهم. وأن يقول كما قال هود ﴿ **إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ** ﴾ [هود: ٥٧] لقد دعا إلى التوحيد ، ونهى عن الشرك.

ووصف الله عز بما يليق به من صفات القدرة ، والخلق ، والربوبية ، ودعا إلى الاستغفار ، والتوبة ، وإلى الإيمان بالبعث ، واليوم الآخر ، وأن الآخرة فيها عذاب ، وخلود. وأنذر قومه بالعذاب حين كذبوه ، ولو أنهم صدقوه ، واتبعوه لنجوا مما حل بهم من سوء العاقبة ، وزوال النعم.

وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وَيَقُولُوا أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْبَهُ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا الْجَحْرِمِينَ** ﴾ [هود: ٥٢].

ولا تفوت الداعية ذلك الموقف من رسول الله ﷺ الذي روته عائشة أم المؤمنين > عندما قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا رأى مخيلة دخل ، وخرج ، وأقبل ، وأدبر ، وتغير لونه فعرفته ذلك فقال: وما يدريني لعله كما قال قوم: ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَ هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [٢٤] تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا أَسْنُكُهُمْ ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ، ٢٥]).

إنها اليقظة الدائمة ، والشعور بقدرة الله ﷻ ، وأن الإنسان في قبضته ، والكون كله طوع إرادته ، والسموات مطويات بيمينه ﷻ عما يشركون.

صالح وإبراهيم -عليهما السلام-

عناصر الدرس

٩٧

العنصر الأول : صالح #

١٠٣

العنصر الثاني : إبراهيم #

صالح

ورد ذكر صالح # ودعوته لقومه ثمود، في سور كثيرة من القرآن. أهمها: الفجر، والنجم، والشمس، والبروج، وق، والقمر، وص، والأعراف، والفرقان، والشعراء، والنمل، والإسراء، وهود، وفصلت، والذاريات، وإبراهيم، والحج، والتوبة. وكلها مكية فيما عدا الحج، والتوبة، وكثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين ذكر عاد، وثمود، كما في كثير من هذه السور.

وقد فصلت دعوته # سور الشمس، والقمر، والأعراف، والشعراء، والنمل، وهود.

وكان قومه ثمود بالحجر بين الحجاز، والشام، ومدائن صالح # إلى اليوم ظاهرة. وكانت ثمود تعيش في خصب، ورغادة حال، وتملك كثيراً من الماشية، والجنان الوافرة، والعيون التي يسقون منها الزروع، والماشية، ويستنبتون بها أنواع النبات.

وكانت دعوة صالح لهم إلى الإيمان بالله، والاعتقاد الصحيح، حسب منهج الرسل -عليهم السلام- في التبليغ، والإرشاد إلى ما يصلحهم، ويحفظ نعم الله وعيّن عليهم، ويوجهها الوجهة الصالحة النافعة لهم، ولبقية الناس.

وهم في ظل حضارة عمرانية، لهم في السهول قصور، وفي الجبال بيوت، ولهم خارج أماكنهم ذهاب، غير أنهم كانوا يعيشون في الأرض بالفساد.

فنهاهم عنه رسولهم صالح #، وذكرهم بما حل بغيرهم من الأمم.

فساد في الاعتقاد:

كانت ثمود تدين بعبادة الأصنام، وتشركها في العبادة مع الله، فأقام صالح # لهم الأدلة الواضحة، وبين الآيات الدالة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة. الواهب للنعم دون سواه، فطلبوا منه معجزة، فجاءهم بها بينة، ناقة غير عادية في الإخراج، وفي الصفة، حتى نسبت إلى الله، وكانت حجة على ثمود لصالح #.

والملاأ آخر من يؤمن بدعوة تجرد الظالمين من سلطانهم الزائف في الأرض، وترده إلى صاحب الحق رب العباد الذي ليس له شريك، ويجب إفراده بالعبادة، وله القوامه دون سواه.

جادل الملاأ من ثمود صالحاً #، وحاولوا فتنة المؤمنين، الذين استجابوا لدعوته، وأخلصوا الطاعة لله، ولم يكتفوا بالقول السيئ بل أردفوه بالفعل، فاستحقوا العقاب من الله فرعاً، وعجزاً عن الحركة، جره عليهم عتوهم، وتكبرهم، وعدوانهم الأثيم، وتآمرهم على رسول الله صالح #.

الذي تولى عنهم بعد أن أبلغهم رسالة ربه، ونصح لهم، غير أنهم كانوا لا يحبون الناصحين، وكانت أمانته في التبليغ، والنصح، وبراءته مما حل بقومه من سوء المصير. الذي استجلبه التكذيب عبرة لمن له عقل، أو ألقى السمع، وهو شهيد، فتجنب مع رسل الله - عليهم السلام - ما يؤدي بالمخالفين لهم الباغين عليهم، إلى مثل ما حل بقوم صالح، ومن سبقهم من الأمم حسب سنة الله الجارية في جميع العباد.

لقد استكثرت ثمود أن تتبع بشراً هو منهم، وهي نفس الكلمة القديمة التي قالها مكذبو البشر لجميع الرسل - عليهم السلام - مع أنه من حق الله عَلَّمَ أن يختار عبداً من عباده، يعلم استعداده لحمل رسالته، وهو للبشر قدوة وأسوة.

ولما طلبوا منه آية عله يعجز، فتكون لهم عليه حجة جاءهم بها، فكذبوه، وعقروها، ووصفوا أنفسهم لو اتبعوه بأنهم في ضلال، وسعر. وكان للناقة شرب، ولهم شرب يوم معلوم، وحذرهم صالح # أن يسوها بسوء. قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَتَّبِعُهُ إِنَّآ إِذَا لَفَى ضَلَالِ وَسُعْرِ ﴿٢٤﴾ أَلْفَى الذِّكْرَ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآشْرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَنِنَّ لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّحْضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنادوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخَضَّبِ ﴿٣١﴾ [القمر: ٢٣ - ٣١].

وحيثما أنزل الله العقاب على ثمود لم يبق منها أحداً؛ لأنها طغت، و﴿أُنْبِئَتْ أَشَقَّهَا﴾ [الشمس: ١٢] يريد ناقة الله، وسقياها فكان أخذ الله لهم بذنوبهم، ولم يظلمهم، ولم يخش عاقبة ما أنزله بهم.

لقد كانت الناقة إلى جانب كونها إمارة على أن صالحاً # رسول، مجالاً لاختبار الإيمان، والكفر فيهم، فقد طلب منهم رسولهم # أن يتركوها تأخذ قسطها من المرعى، والشرب من الآبار.

أسوة بأنعام الأغنياء، وأرباب السطوة، الذي يحتجزون ذلك لإبلهم، وحدها دون الفقراء، والضعفاء، فإن تركوا ناقة صالح # كانوا مؤمنين برسالة الله، رسالة العدل المساواة في الحقوق بين الناس جميع.

وإن منعوها كانوا كافرين باقين على عتوهم، واستحقوا العقاب، غير أن مجموع الآيات يدل على أن الناقة آية لصالح # وأنه لا يتعرض لها أحد من القوم بسوء في نفسها، أو أكلها، أو شربها.

وإضافة الأرض إلى الله تدل على أنها ترعى في الأرض المباحة للأنعام، لا ما يزرعه الناس، ويحمله لأنفسهم.

تاريخ الدعوة والدعاة

ووضحت سورة الأعراف أن ثمود كانوا بعد عاد، وأن صالحاً دعاهم إلى التوحيد، وخلع الأصنام، والأنداد، وأن طائفة آمنت به على حين كفر جمهورهم، ونالوا منه بالمقال، والفعال.

وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم، ومعجزة لرسولهم # قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَاحِبًا مَرَّ سَلُّ مِّن رَّبِّهِ ؕ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّبْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٧٨﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٨].

ولقد كان فعل من عقر الناقة باتفاقهم، فنسب إليهم، وذاقوا جميعاً مرارة فعله، كما أنهم تعاونوا في التنفيذ، والأعمال تنسب إلى الأمم في جملتها.

كما أنها تعاقب عليها في جملتها لتضامنها، وتكافلها، ومتى سكتت عن منكر كان في استطاعتها أن تقف في سبيل صاحبه، عاقبها الله على ذلك السكوت العقاب الشامل. ولما رضي قوم صالح # عقر الناقة نسبة الله إليهم، وعاقبهم عليه العقاب الشامل؛ لأنهم بدل أن يمنعوه شجعوه، وحرصوه.

إصرارهم على التكذيب:

لقد بعث الله صالحاً # إلى ثمود بالرسالة التي جاء بها من قبله كل رسول، فدعاهم إلى الإيمان بما دعا إليه، ويدعو إليه كل رسول؛ الإيمان بالله، وتقواه، والتذكير بالنعمة، والتخويف من سلبها بالجحود، والإنذار بيوم الحساب، والجزاء، إذا لم يحسنوا التصرف فيما وهبهم الله من متع لا تدوم. لأنهم لا بد

مرتحلون، والتحذير كذلك من أعوان الشياطين من الملاء المفسدين في الأرض. أعداء الإصلاح في كل دين، لقد جلبوا على أنفسهم عقاب الله، فجاءهم في صورة عذاب.

عبر عنه القرآن أحياناً بالرجفة التي جعلتهم جاثمين على الركب من شدة الهول، وأحياناً بالصيحة، أو الصاعقة التي تهلك، وتحرق، وتدمر.

فعل القوي القادر بالذين يستحبون العمى على الهدى، ويدعون إلى الإيمان، فلا يستجيبون، ويدلون بما لهم من قوة لا تغني عنهم من الله شيئاً؛ لأنه سبحانه قادر لا يغلب، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الَّتِي كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بِنَجْوَى﴾ [فصلت: ١٧، ١٨].

لقد دلهم الله على طريق الضلالة، والرشد، فاختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الرشد، مع أن الله مكنهم، وأزاح عنهم، ولم يبق لهم عذراً، ولا علة. وإن كان الهدى حقيقة هو خلقه في قلوب المؤمنين، والضلال حقيقة خلقه في قلوب الكافرين، فإن المعنى هنا على المجاز، فالله هداهم بين لهم، ودعاهم.

وكان الآية تقول: وأما ثمود فبصرناهم، وبيننا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح #، فخالفوا، وكذبوا، فبعث الله عليهم صيحة، ورجفة، وذلاً، وهواناً، وعذاباً، ونكالاً، بما كانوا يكسبون من التكذيب، والجحود.

تلطف في الدعوة، واستقامة في السلوك:

دعا صالح # قومه ثمود إلى عبادة الله وحده، والاستغفار والتوبة، والندم على التفريط، وبين أن الله يقبل منهم العمل الصالح، ويرفعه إليه، وهو رحيم

تاريخ الدعوة والدعاة

وسعت رحمته كل شيء، ودود ليس بفظ، ولا غليظ، وحاشاه، وقد خلق الإنسان، واستخلف في الأرض يعيش فيها مدة زمنية، ثم يعود إلى الأرض ليعت من جديد، ويحاسب على ما عمل، بعد أن قامت عليه الحجة بالرسول الذين أرسلهم الله إليه؛ ليقودوه إلى الحق، ويجمعوه على الخير، ويسعدوه.

ومنهم صالح # فهو صاحب ماض معروف بالاستقامة، والأمانة، والسلوك المحمود. ومع أن ثمود كانت تعرف في صالح # هذا السلوك، أغلقت دونه قلوبه، وبلغت درجة من الفساد لم تستشعر معها جمال تلك الصورة، ولا جلال تلك الدعوة.

بل وظنت في رسولها صالح # ظن السوء، وتشككت في ما جاء به رغم ماضيه المعلوم، ولما أبت إلا البقاء على ما كانت عليه من كفر، وإعراض، وإيثار للعمى على الهدى، نزل بها العذاب، وأمهلث ثلاثة أيام. كما قال تعالى على لسان صالح # يخاطب قومه: ﴿فَقَالَ تَمَنَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُوٌّ كَذُوبٌ﴾ [هود: ٦٥].

لقد تطف لهم في العبارة، وخاطبهم: ما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم، وأدعوكم إليه؟ ما عذرکم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه؟ وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته.

وأنا لا يمكنني هذا؛ لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر واحد منكم، ولا من غيركم أن يجيرني منه، أو ينصرتني. فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

والداعية إلى الله يأخذ من إبادة مجتمع ثمود عبرة، إنه مجتمع المستكبرين الطغاة، أزيل من الحياة ليخلفه مجتمع آخر مستقيم، ليتلى كما هي إرادة الله.

وقد ابتعد صالح عن قومه على أثر ما أصابهم، مملوء النفس أسفاً عليهم، وخيبة أمل فيهم، كان يرجو لهم أن يطيعوه لينجوا بأنفسهم، وبحضارتهم مما حل بهم. كما يدرك الداعية أن الحضارة المادية، لا بد أن يسندها، ويدعمها الإيمان، والمساواة، والعدل بين الناس، حتى لا يكون غني يعيث بترفه فساداً، وظلماً، وإلى جانبه فقير محروم.

وإنها لكلمة لها ظلال في النفس، قالها صالح # : ﴿يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۗ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

نعم هو قريب مجيب، والأرض خلقنا منها، وإليها نعود، ومنها نبعث، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فعلى نفسه جنى، حين ابتعد عن القريب المجيب، وأبى رحمة الرحيم الودود. كما فعلت ثمود ﴿الْأَيْنِ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ الْأَبْعَدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨].

إبراهيم

ذكر إبراهيم # في القرآن في خمس، وعشرين سورة، سبع عشرة منها مكية، وثمان مدنية. وهذه السور هي: الأعلى، والنجم، وص، ومريم، والشعراء، والنمل، وهود، ويوسف، والحجر، والأنعام، والصفات، والشورى، والزخرف، والذاريات، وإبراهيم، والأنبياء، والعنكبوت، والبقرة، وآل عمران، والأحزاب، والممتحنة، والنساء، والحديد، والحج، والتوبة.

وقد ذكرت قصته تارة مختصرة، وأخرى مطولة، فيذكر شأن من شئونه في سورة، ثم شأن آخر من شئونه في سورة أخرى، وأول ذكر له جاء في سورة

الأعلى ، وهي من وائل السور المكية التي نزلت ، لبيان منهاج الدعوة قبل الهجرة إلى الحبشة في السنة السابعة من البعثة.

وبعدھا ذكر في سورة النجم ، وذكر معه فيها موسى # كما ذكر الصحف التي أوحاها الله إليهما.

ونزلت سورة ص ، وذكرت فيها أخبار الأمم السابقة ليعتبر بها أهل مكة ، وذكر فيها من الأنبياء داود ، وسليمان ، وأيوب ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وإسماعيل ، واليسع ، وذو الكفل ، كما ذكرت في نهايتها قصة آدم.

وفي نفس الفترة نزلت سورة مريم مُكملة لما ذكرته سورة الكهف من القصص ، مبرزةً لقصة إبراهيم # ، وشخصيته الحكيمة الحليمة الوديعة ، وهو يواجه أباه بدعوته إلى الحق إلى الطريق المستقيم ، وأن الله رحمه فعوضه عن أبيه ، ورزقه الذرية الصالحة التي حملت راية الدعوة من بعده في أمة كبيرة هدى منها إلى الحق كثيرين.

وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات ، وارتكسوا عما كان عليه أسلافهم من خالص التوحيد ، وعبدوا الأصنام ؛ فبعث الله إليهم ليردهم إلى الهدى ، هذا الرسول الأمين الذي يواجهه أهل مكة بالجحود ، كما واجه إبراهيم أبوه ، وهدده بالويل ، والثبور حين دعاه إلى عبادة الله ، ونهاه أن يعبد من دونه ما لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغني عنه شيئاً.

وإبراهيم ، ومحمد ﷺ كلاهما آتاه الله من العلم ، وهداه صراطاً مستقيماً ، غير أن الشيطان يغري بعبادة غير الله ، ومن يعبد غير الله فكأنه يعبد الشيطان.

والدعوة الرفيقة التي تقابل الشدة باللين ، والتهديد بالصفح ، والصبر الجميل ، تظهر بوضوح في هذا الجزء من دعوة إبراهيم #.

لقد ترك أباه، وعبر الأردن مهاجرًا إلى البادية، وكان ابن أخيه لوط قد سكن الأردن، وقام هناك بالدعوة بالقرب من عمه إبراهيم، الذي جاءه ضيوف لم يفصح السياق عنهم في سورة الذاريات. وإن ذكر أن إبراهيم قد قام بتقديم الطعام إليهم، فلم تمتد إليه أيديهم، فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقة أمرهم، وما جاءوا من أجله.

وحدث في هذه الأثناء ما غير وجه الحديث، فقد ابتهجت زوجته بالضيوف، وكانت عقيمًا لا تلد، فبشرتها الملائكة بإسحاق، ومن ورائه يعقوب. فقالت حين سمعت: ﴿يَوَيْلَیَّ ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، فطمأنها الملائكة، وقالوا لها: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠].

واطمئن بالبشرى قلب إبراهيم، وسأل عن قوم لوط، وما سيحدث لهم على يد هؤلاء الضيوف، وكالعهد به حلیم أواه منيب يصبر، ولا يثور. جادل الملائكة في قوم لوط، حتى أجابوه بما لا يبقى بعده جدال: ﴿إِنَّهٗ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهٗمْ ءَاتِيهٖمْ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦].

وقصه إبراهيم مع الملائكة المرسلين إلى قوم لوط، ترد في مواضع متعددة بأشكال متنوعة تناسب السياق، من تفصيل في مجيئهم إليه، وبشارته، ومجادلته لهم في قوم لوط.

كما في سورة هود، إلى إجمال كما في غيرها من السور التي تعرضت لدعوة إبراهيم. وقد كشف السياق في سورة الحجر عن الملائكة منذ اللحظة الأولى، وآخر ذكر القوم، وائتمارهم بضيوف لوط؛ لأن المقصود فيها بالذكر أولًا هو الإنذار، وأن الملائكة حين ينزلون، فإن القوم بعدها لا يمهلون، ولا ينظرون.

ولم يعرف لوط أن الضيوف ملائكة، إلا بعد أن جاءه قومه يهرعون إليه، وهو يرجوهم فيهم فلا يقبلون.

طريقة إبراهيم في الدعوة إلى التوحيد:

تأتي حلقة من قصة إبراهيم في سورة الأنعام لإثبات التوحيد، ورفض مذاهب المبطلين، والملحدين، وإبطال ما ابتدعوه. وقد بينت السورة أصول الدين، وهاجمت المشركين، وردت ما لهم من الشبه على الرسالة، وأمرت أن يذكر النبي ﷺ قومه بدعوة أبيه إبراهيم، الذي أراه الله ملكوت السماوات، والأرض، فأثبت التوحيد، وأبطل الشرك، وأقام الحجج التي تؤيد دعوته، وتوجه إلى الله وحده الذي فطر السماوات، والأرض قانتاً لله حنيفاً مخلصاً له الدين.

كان قومه يعبدون الكواكب، ويتخذون لها من الأصنام تماثيل، فأنكر عليهم إبراهيم عبادته، وأنكر أن يجادلوه بعد أن هداه الله إلى الحق، ونوه بحجج الفطرة التي اهتدى بها، لقد استقبل دلائل الهدى، وموجباته في صفحات الكون، وهي تخاطب الفطرة في أعماقها المكنونة.

كما تجلت في فطرته بمجرد تفتح قلبه، وهو يبحث عن الإله الحق الذي يجده في أعماقه، بينما القوم في الخارج يصدمون هذه الفطرة، بانحرافات، وتصورات لا تتفق مع ما توحى به، إلى أن تخلص إلى تصور حق.

يقوم على ما يجده في أعماقه من برهان داخلي، هو أقوى، وأثبت من الشعور المحسوس، لقد اختبر أشياء لاحت له، فوجدها زائفة لا تصلح، غير مطابقة لما هو مكنون في فطرته من حقيقة الإله، وصفته.

وحين وصل إلى هذه الدرجة تكشفت له الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود، وانتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة، إلى درجة اليقين الواعي للإله الحق.

يبصر يلحظ ما في الكون من عجائب صنع الله، وتدبر يتتبع المشاهد حتى تنطق له بسرها المكنون، مجازاة من الله لعباده المجاهدين فيه الذين يجعلون الصلة بين فطرتهم، والإله الحق صلة الحب، والآصرة التي تربطهم به في أعماق القلب، وهو إله حي لا يأفل، ولا يغيب.

يطمئن به الإنسان، ويطمئن إليه، ويستقر على قرار ثابت حين يصل إليه، بعد الحيرة القلقة، والجهد الطويل، ولا تجد الفطرة إلهها الحق في كوكب يلمع، أو قمر يسطع، أو شمس تطلع، أو غير ذلك من قوى الكون.

وإنما تتجلى دلائل الإله في الملك الواسع الفسيح، وفي القلب الطاهر النقي، كقلب أبي الأنبياء إبراهيم، الذي وجد ربه في فطرته، وقلبه، وعقله، ووعيه، كما وجدته في الوجود كله من حوله خالقاً لكل شيء تراه العين، أو يقع عليه الحس، أو يدركه العقل، وتوجهه إليه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَّرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، لقد كشف الله لبصيرته أسرار الكون. وأظهر له الدلائل الموجبة للهدى، فخلص إلى الحق، وأنكر الباطل، حين أبصر بوجدانه المشاهد المكررة، وكأنها بالنسبة له أمر جديد، ونطق بفطرته بالقول السديد.

وسلك مسلك المناجاة الذاتية، المتمثلة في حديث النفس ليثير التفكير فيما عليه القوم، ليصلوا في النهاية معه في رحلة الدعوة إلى ما وصل إليه، عندما نطق بهذه الحقيقة الراسخة، ووجه نحوها وجهه هادياً مرشداً من يدعوه؛ لقد أقام #

الدليل أوضح ما يكون، إذ لم تكن تلك أول مرة يرى فيها كوكبًا، ولا أول مرة يعرف فيها أن قومه على ضلال.

ولكن الله أراه من الأسرار ما أوحى إلى خاطره بما أوحى، ليأخذ بيد قومه إلى السبيل السوي، ويهديهم إلى التوحيد، ويعلمهم أن الوجدان الصادق، والفطرة السليمة، لا ترضى أن يكون إلهها يأفل، أو يغيب.

والقدوة إبراهيم # لا يحب الآفلين، وينتقل في مشاعره من كراهية الآفلين إلى طلب العون من ربه، الذي يغمره بنور الحقيقة حين وجده في إدراكه، ووعيه كما هو في فطرته.

وأعلن في يقين جازم بلا تردد، ولا حيرة، ما يعلنه كل داعية إلى الحق، وهاد إلى الرشد، منذ خلق الله الكون إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها.

لقد ناظر إبراهيم قومه، وبين بطلان ما كانوا عليه من عبادة، وأن الكواكب التي ظنوها آلهة هي بقدره الله مسخرة، وأن المستحق للعبادة وحده هو خالقها، ومقدرها، ومدبرها، ويده وحده ملكوت كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

الإنسان الكامل:

تصور سورة إبراهيم # النموذج الكامل للإنسان الكامل، وهي تعرض حلقة من قصة إبراهيم، وهو واقف إلى جوار البيت العتيق الذي بناه لعبادة الله. فجعلته قريش مكانًا للأصنام التي عبدتها من دون الله رب البيت ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤٤].

وكان الأجدر بقريش ألا يعرضوا نعم الله عليهم للزوال بالكفر، والطغيان، وأن يبقوا على الصورة التي طلبها من الله باني البيت، حين قال: ﴿أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

لقد أعلن إبراهيم أن الأصرة الجامعة هي الإيمان، فمن تبعني يا رب فهو مني، وأنت غفور رحيم لمن عصى، وخالف، وترك ما يحفظ النعمة، وقد أسكن من ذريته إلى جوار البيت العتيق الذي يقع بواد غير ذي زرع، وسأل ربه الرزق لهم، وأن يجعل قلوب العباد تهفو إليهم بالموددة، والعطف، ليظلوا مقيمي الصلاة شاكرين لله.

كما كان أبوهم إبراهيم شاكرًا لأنعمه؛ فاجتباها وهداه إلى صراط مستقيم، ويقر إبراهيم لله بعلم الغيب، وعلم ما في النفوس، ويثني عليه، فقد وهبه على الكبر الذرية المباركة، التي يرجو من الله أن تبقى مقيمة للصلاة إلى يوم الدين.

والقرآن هداية للناس يرغبهم في الثواب، ويرهبهم من العقاب، وقد أنزله الله على حفيد إسماعيل بن إبراهيم - عليهم الصلاة والسلام -، وهو يضم الكلمات التي يسمعون أهل مكة من هذا العدد من الرسل.

الذين سبقوا الرسول المبعوث إليهم بالهدى، ودين الحق، استجابة لدعوة أبيه إبراهيم، لتبقى من ذريته أمة حاملة للعقيدة مستجيبة لدعوة التوحيد.

الذي من أجله هجر إبراهيم أباه وقومه؛ لأنه فوق كل الصلوات، وفي إبراهيم الأسوة لهؤلاء الذي يعتزون بما كان عليه الآباء، ويتمسكون به، ويرفضون التخلي عنه، ولو إلى ما هو أهم بالنسبة إلى الإنسان، وهو الغاية من وجوده كله. والدعوة التي دعا إليها إبراهيم تحث هؤلاء على سلوك مسلكه، واختيار طريقه، لقد كان موحدًا، وجعل التوحيد تركة في عقبه، الذين حرصوا على الوصية به، ولو قلد من يواجههم رسول الله ﷺ بالدعوة أباهم إبراهيم، لا اختاروا التوحيد، وتركوا في سبيله حتى أقرب الأقربين.

تاريخ الدعوة والدعاة

وهو ما فعله إبراهيم، وفعله المؤمنون الذين لم يطمس التقليد على حركة فكرهم، وحرية قلوبهم، ولم يمنعهم من الحق الواضح الذي جاء به الرسول الأمين ﷺ.

والإنسان الكامل لا تحجبه عن الإيمان العادات، والتقاليد، ويستقل بمستواه العقلي عن الاستبداد الاجتماعي الموروث، ويفتح قلبه لقبول دعوة خالصة لها جذورها الضاربة منذ فجر التاريخ.

وستبقى خالدة ما بقي في الوجود الإنساني، لا يمنعه من قبول الحق، والاستمسك به ما منع أهل مكة المكابرين.

مع القوم وجهاً لوجه:

هدى الله إبراهيم # إلى التوحيد، وهو عالم بحاله، واستعداده لتحمل التبعات التي نهض بها، وحمل الأمانة التي أوتن عليها.

فجهر بدعوة الحق، وسمى الآلهة المزعومة باسمها دون خوف من القوم، الذي أقبلوا على عبادتها، وقدموا القرابين إليها، وتعلقت بها قلوبهم، وعبدوها من غير بينة، ولا حجة.

وإنما بالعادة، والتقليد لفعل الآباء، وسورة الأنبياء تعرض حلقة من قصة إبراهيم، وهو يجارب عبادة الأصنام. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَاهَا عِبَادُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَاهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٤].

وما كانت عبادة الآباء للأصنام مخرجة لها عن طبيعتها الميتة، ومكسبة لها صفة الإلوهية إلا إذا انعدم الفهم، واستنارة العقل، والضمير.

التي تنبعث آثارها في الناس بنور التوحيد، لقد أرشدهم إبراهيم # إلى الحق الذي ينير الوجدان، والقلب. فقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]، هو وحده الإله الحق، وما عداه باطل.

وعلاقة الإنسان به دائمة في الدنيا، وبعد فناء الدنيا، ويقوم على ذلك ألف دليل، ودليل، وهددهم بالكيد لهذه الآلهة ليعرفوا عجزها على حقيقته، ويتجهوا إلى عبادة الله وحده خالقهم، وخالق كل شيء، فلم يصدقوه، واعتقدوا عجزه عن تنفيذ وعيده فتركوه، فجعل أصنامهم جذادًا إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون.

وعادوا فوجدوها قطعاً من الخشب، والحجر محطمة، إلا واحداً لا يستطيع إرشادهم إذا سألوه، ومع سكوته، وعجزه الواضح لم يسأله القوم الذين غل عقولهم التقليد.

وذكر بعضهم أن إبراهيم كان يجادل أباه، وقومه في الآلهة، ولا بد أن يكون هو الذي فعل بها هذا الفعل، وأوقع بها هذا التدمير، وأرادوا التشهير به. وأحضره ليعلنوا على الملاء من قومه فعله، فكان جوابه تهكماً بها، ودليلاً على عدم قدرته، وهنا كانت بادرة طيبة إذ رجع القوم إلى أنفسهم.

غير أن هذه الخطوة الأولى لم تعقبها أختها، ولم يسلك القوم إلى الهدى السبيل، بل فعلوا ما يفعله كل جبار عنيد، حين يعجز عن مقاومة حجج الحق، ويلجأ إلى تهديد دعائه، ويعقب التهديد بالتنفيذ. قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ (٥٨) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ

تاريخ الدعوة والدعاة

النَّاسَ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِتَالِهَتِنَا يَا بُرْهَيْمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ [الأنبياء: ٥٨ - ٦٥].

وإن كان نصر الله لرسله، وحملة دعوته سنة من سننه التي لا تتخلف، فقد نصر إبراهيم، وأنجاه كما ينجي كل من يحمل شرف الدعوة إلى الحق، ويسلك نفس السبيل، وقد جنى قوم إبراهيم # حصيلة فعلهم الذميم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٧٠].

لقد أراد أن يقف قومه مع الحقيقة وجهاً لوجه، ليعرفوا أن آلهتهم لا تضر، ولا تنفع، ولا تبصر، ولا تسمع، وليخرجوا من هذا العبث، ويرجعوا إلى فطرتهم. غير أنهم لم يفعلوا، وإذا نجا من التحريق أبو الأنبياء إبراهيم # فبالكلمة التي تقول لكل شيء: كن فيكون، سواء كان هذا الشيء مألوفاً للبشر، أم غير مألوف.

لأنها الكلمة التي تتكون بها الأكوان، وتنشأ بها العوالم، وهي دون غيرها مصدر كل ناموس، وأفعال الله ﷻ ليست خاضعةً لمألوف البشر، ولا لعلمهم المحدود، والمنهج الصحيح في تصور فعله الخارق الإحالة على القدرة المطلقة، وصانع المعجزة، وحده هو الذي يملك دون غيره أن يقول للشيء: كن فيكون.

لقد قال # : لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، فكان نصره له، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه، وبردت عليه حتى لا تضره ببردها، وتكون عليه سلاماً.

من يستحق العبادة:

وحول من يستحق العبادة دون غيره، دار بين إبراهيم # وبين أبيه، وقومه حوار، سجلته سورة الشعراء. أنكر إبراهيم # الاتجاه بالعبادة إلى آلهة مدعاة عاجزة كل العجز، وأرشد إلى من يستحقها، وله بالإنسان صلة باقية، سألهم عن الآلهة: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

وفاقد الشيء لا يعطيه، ومن لا يدفع عن نفسه لعجزه أولى ألا يدفع عن الغير، لقد فعل بها إبراهيم # ما فعل، فلم تمنع، ولم تأب، ولم ترشد إلى من أوقع بها الهدم، والتكسير.

وقد دفعه جحود قومه إلى إعلان عداوته لآلهتهم المدعاة، ولم يستثن من عداوته إلا رب العالمين، وذكر ما له من صفات الفضل، والخير على الوجود كله.

وعلى الإنسان المسخر له الوجود، وفي هذه الأوصاف التي وصف إبراهيم # ربه، عناصر العقيدة الحقة من التوحيد، والإقرار بتصريف الله للبشر في أدق الشئون، والبعث، والحساب، وما يتبعه.

فضلاً عن الأدب في نسبته الخير إلى الله، والشر إلى النفس، وطلب من الله أن يجعل له فيمن يأتي بعده لسان صدق، يدعو إلى الحق كما أفصحت عن هذه الرغبة دعوته يوم بنى البيت مع ابنه إسماعيل -عليهما السلام-.

كما بر بوعدة لأبيه، فاستغفر له على الرغم مما لقيه منه، فلما تبين له عداوته لخالقه تبرأ منه، حاول بالمنطق والحجة هداية قومه ما استطاع.

فكان التهديد بالقتل، أو بالتحريق ردهم عليه، دلالة على سوء الجزاء، وطغيان الضلال كما سجلت ذلك سورة العنكبوت، التي نزلت قبل الهجرة في فترة هي أصعب فترات الدعوة كلها.

تارىخ الدعوة والدعاة

لا سيما أنها حفلت بموت أبي طالب، وخديجة، وتناول القوم على الدعوة والداعية ﷺ وقد هونت السورة ما يلقاه المسلمون من العذاب في سبيل الله.

وبينت الحكمة في فتنة المؤمنين، وما يسلكونه من السبيل، من رد للسيئة، ودفع لها بالحسنة، والهجرة إلى بلد أخرى لعلها تكون أنفع للدعاة، والدعوة.

لقد بينت السورة حقيقة الدعوة التي جاء بها إبراهيم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وبينت فساد ما عليه قومه ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ٢٤]. وبينت أن الله وحده هو الذي يرزق، وإليه وحده يكون المرجع، وأن الأمم من قبل قد كذبت، وأن واجب الرسول البلاغ، وقد فعله إبراهيم، وقام به على خير وجه. ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقد أنجاه الله، ونصره على قومه، وهم كثرة، ربطت بينهم صلوات المنفعة، والمودة، التي تربط قلوب قوم يعبدون آلهة لا اعتقاداً فيها بل مجاملة.

فإذا ظهر الحق لواحد منهم منعه أخوه منه، مع أن هذه الصداقة التي تمنع من اتباع الحق، ستحول يوم القيامة إلى عداوة. وما لمستة السورة في قصة إبراهيم #، كان له في حياة المسلمين مشابه، كما له في كل عصر مشابه، ما بقيت الدعوة إلى الحق، وبقي من الناس من قبلها، ومن يقف منها موقف العداوة، أو الجحود.

الطاعة، والاستسلام لله:

وتبرز في دعوة إبراهيم # في سورة الصافات، الطاعة، والاستسلام لله في أروع الصور، وأرفعها، في بلوغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص.

وقد انفردت السورة بذكر قصة الذبح، والفداء، وبينت أن بين نوح، وإبراهيم - عليهما السلام - صلة العقيدة، والدعوة، والمنهج الذي عليه يلتقيان على الرغم من تباعد الزمن، واختلاف المكان.

وفي خليل الرحمن # تبرز صفات لها في نجاح الدعوة أكبر الآثار، ومنها إخلاص القلب، ونقاوته، واستقامته لله وحده، وإيثار ما يرضيه والرضا والتسليم المطلق لله، والخضوع لأمره، والعلو فوق كل النزعات، فقد استكثر من قومه أن يعبدوا ما لا يستحق، وهو محض الإفك، وسألهم ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٧].

وطوى السياق ما دار بينه، وبين قومه، وانتقل إلى موقف آخر، إذ انتظر إبراهيم # فرصة تتاح له، ليرى قومه حقيقة ما يعبدون. وكان حزين القلب سقيم النفس من إعراضهم عن عبادة الله، وحين قدم قومه الطعام للآلهة، وانصرفوا إلى اللهو، واللعب، وخلت المعابد.

فعل بالهتهم ما شاء، وانهاه عليها ضرباً باليمين، وطوى السياق ما دار بين القوم، وبينه، عندما عادوا فرأوا ما حل بها، وقد تركوا لها الطعام لتباركه، وانصرفوا لآعبين، وعادوا إليها نادمين.

وعرض ما استقر عليه أمرهم من الإصرار على موقفهم منها، رغم ما أنزله بها خليل الرحمن إبراهيم # وكنهاية كل قوم أرادوا برسولهم ما لم يرده الله. خسر قوم إبراهيم، وهاجر عنهم وحيداً، فوهبه الله الذرية الصالحة التي شاركته في الدعوة إلى الله، وبناء بيته العتيق، بشره الله بسلام حليم، وهو إسماعيل #. وامتحن إبراهيم، فكان الواثق المطمئن، وامتحن إسماعيل، فكان المستسلم لأمر الله، وكان لأبيه خير معين.

تاريخ الدعوة والدعاة

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ۗ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ۗ لَقَدْ عَرُضَ إِبْرَاهِيمَ ۗ الأمر على إسماعيل ۗ في غير جزع، ولا اضطراب، ليشاركة فيه، ويعينه عليه، فكانت إجابته معبرة عن الحلم، والأهلية للتكريم.

ولما جاءت لحظة التنفيذ، استسلم كل منهما استسلام العارف بما يقتضيه الموقف، القاصد في طمأنينة إلى الفعل المقبل عليه بلا خوف. وتحققت الغاية، وظهرت الأهداف من العزم، والرضا بما يأمر به الله، والاستسلام الصادق في يقين، ولم يبق إلا التنفيذ الذي يتم في لحظات.

ولم يبق في النفس ما تكفه عن الله، أو تعزه عن أمره، أو تحتفظ به دونه، واستحق كل منهما الجزاء على الوفاء، والصبر على الأداء، والقناعة في التضحية، والفداء. والأسوة لكل من يرجو الله، واليوم الآخر، ويؤثر الله على ما عداه، والداعية له في هذا أسوة، كما لكل مسلم مدد من العزم، والصبر، والاستسلام المطلق لله، صاحب الأمر مجيب الدعاء، إذا صدق من عبده العزم، وخلص منه القلب تفتحت له الأبواب.

صلة العقيدة أقوى الصلات:

كانت قريش تقول: أنها من ذرية إبراهيم، وهذا حق، وكانت تزعم أنها على ملة إبراهيم، وهذا باطل، فقد أعلن إبراهيم كلمة التوحيد. كما أكدت ذلك سورة الزخرف التي نزلت قبل الهجرة، لتنزه الله عن الأولاد، وتثبت التوحيد،

وأنة ملة إبراهيم من أجله هجر أباه ، وقومه ، وفي سبيله لقي ما لقي من أدى ، وعدوان ، وقامت شريعته عليه ، وأوصى به ذريته .

وجعل كلمة التوحيد باقية في عقبه لعلهم يرجعون ، ومن عقبه رسل بعثوا بكلمة الحق ، ودعوا إليها الناس ، وخاتمهم هو محمد ﷺ الذي جاء بملة إبراهيم .

وهو ومن اتبعه أولى الناس به ، والتوحيد يخلص القلب من الأوهام ، ويطلقه من إيثار الرزق ، ويعلقه بالسماء ، يتطلع إلى خالقها ، ويتجه إليه بلا عائق ، ويفر إليه وحده .

كما جاءت بذلك سورة الذاريات ، التي أوردت إشارات سريعة إلى قصة إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد ، وثمود ، ونوح ، تهدف إلى تخليص القلب ، وربطه بالسماء ، ودفع كل ما يحجزه عن الانطلاق إلى ذلك الأفق السامي .

الذي جاءت لترفع الناس إليه رسالات الأنبياء ، وتربط على أساسه ما بينهم من الصلات ، ولما انتقلت الدعوة الإسلامية بالهجرة إلى المدينة واجهت أموراً نزل فيها القرآن مبيناً ، ومعالجاً ، وواضعاً لكل مشكلة حلاً .

ولم تكن تلك مرحلة واحدة ، وإنما هي مراحل أربع ، تميزت كل منها بما ظهر فيها من أمور لم تكن في سابقتها .

فمرحلة تلت الهجرة مباشرة إلى غزوة بدر ، وفيها نزلت سورة البقرة ، ومرحلة أعقبت غزوة بدر إلى صلح الحديبية ، ونزلت فيها الأنفال ، وآل عمران ، والأحزاب . ومرحلة تلت صلح الحديبية إلى غزوة تبوك ، وفيها نزلت الممتحنة ، والنساء ، وغيرهما .

ومرحلة من غزوة تبوك إلى انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ونزلت فيها التوبة ، والنصر . وتم الفضل الذي هدى الله به خير أمة ، على خير داع إلى الحق محمد ﷺ .

تابع: دعوة إبراهيم - لوط، وإسماعيل، ويعقوب - عليهم السلام -

عناصر الدرس

- | | | |
|-----|---|-------------------------------------|
| ١٢١ | # | العنصر الأول : استكمال دعوة إبراهيم |
| ١٢٨ | # | العنصر الثاني : لوط |
| ١٣٨ | # | العنصر الثالث : إسماعيل |
| ١٤٢ | # | العنصر الرابع : يعقوب |

استكمال دعوة إبراهيم

وكان الخطاب في المدينة في أكثره موجهاً إلى المؤمنين، واليهود والنصارى، والمنافقين وغيرهم، ونزلت الأحكام المنظمة لأحوال المجتمع المسلم، المحددة للعلاقات بينه وبين غيره.

وقد أصبح للمسلمين حياة مستقلة، لها نظمها وقواعدها المستمدة من هدي الله، وبيان رسوله ﷺ.

وقد تحدثت أولى هذه السور، وهي البقرة عن إبراهيم والبيت الحرام، مقررة الحقائق الخالصة، رادة ادعاءات اليهود، والنصارى والمشركين جميعاً؛ مؤكدة أن دين إبراهيم # هو دين التوحيد، مقررة وحدة الدين واطرادته على أيدي الرسل جميعاً، وأن العقيدة تراث القلب لا العصبية.

وأن الله ﷻ ليس بينه وبين أحد من عباده نسب أو صهر، وأن إسلام الوجه، والقلب لله هو دين الأنبياء جميعاً، ومنهم إبراهيم الذي وفى بما طلبه الله منه، فجعله الله إماماً وقدوة وأبقى دعوة النبوة في ذريته، يحملها من يُحسن القيام عليها، ولا ينالها منهم ظالم أبداً، سواء ظلم نفسه أو غيره، لتنافي الظلم مع الإمامة بكل أنواعها، ومع أن باني البيت قد طلب أن يجعله الله مثابة للناس وأمناً، وعهد الله إليه، وإلى ابنه إسماعيل -عليهما السلام- بتطهيره للطائفتين والعاكفين، والركع السجود.

مع كل ذلك، فإن أهل مكة قد آذوا المسلمين وصدوهم عن سبيل الله، ومن يدعي نسباً أو اتباعاً لإبراهيم وابنه إسماعيل، فعليه أن يقوم بما أمرهما به الله ﷻ لقد دعا

الله كل من إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - عقب بناء البيت، وسألاه أن يجعلهما مسلمين له، وأن تكون من ذريتهما أمة مسلمة، وأن يبعث الله فيها رسولاً منهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة.

وفي ذلك الرد الحاسم على ادعاءات اليهود والنصارى، والمشركين جميعاً، الذين يجادلون الأمة الإسلامية في الإمامة، والرسول ﷺ في النبوة والرسالة، ويرغبون عن الإسلام، وهو ملة إبراهيم الذي يدعون أن لهم به نسباً، وقد أعلن إبراهيم # إسلامه فور سماعه الأمر من ربه.

وبلغ من حرص ذريته عليه كذلك، أن يعقوب # وصى به أبناءه، في آخر اللحظات التي فارق فيها دنياه لآخرته. قال تعالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَا بَنِكَ إِِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وفي هذا أبلغ رد على اليهود الذين قالوا للنبي ﷺ: ألسنت تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟ وفيه رد كذلك على كل من يجادل في التوحيد، وفي رسالة من جاء به، وهو محمد ﷺ، الذي أتم الله له وبه الدين.

قوة الحججة مع قوة الإيمان:

وقع حوار بين إبراهيم # وبين رجل حاجه في ربه، ولم يكن على ما يبدو منكرًا لوجود الله بل لوحدانيته، وقد أتاه الله الملك، وكان الأحرى به أن يشكر الله على نعمه؛ لأنه هو الذي وهبه الملك والسلطان.

غير أنه وضع النعمة في غير موضعها، وظلم نفسه بادعاء ما ليس له، فقال له إبراهيم وهو يحاجه: ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والحياة والموت ظاهرتان تقعان أمام حس الإنسان، وإن كانت حقيقتهما مجهولة مع ظهور آثارهما في الأحياء والأموات، وتمسك الرجل بشبهة واهية، حين قال لإبراهيم # في الرد عليه ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فانتقل إبراهيم # إلى دليل أبهته، وقال له: ﴿فَأينك الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر﴾ [البقرة: ٢٥٨].

والداعية يرى أن إبراهيم # قد ساق دليلاً يخاطب به الفطرة، فمنذ خلق الله الشمس والقمر، وخلق الكون كله، لم يتخلف هذا النظام يوماً ما، وهو مشاهد في الآفاق بعد مشاهدته في الأنفس.

وكلاهما يستلزم الإيمان بوحداية الله؛ ولأن الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، انتقل إبراهيم # إلى الثاني، أو أنه فهم وغالط بما فعل، لكنه لم يستطع ذلك بإيداء الدليل الثاني. وهو من الحكمة في الجدل وسوق الأدلة، ولله على إبراهيم # الفضل والمنة، وقد قال: ﴿وتلك حجتنا آتيتها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال تعالى: ﴿ألم تر إلى الذى حجاج إبراهيم فى ربه أن آتته الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فأينك الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأما قوة الإيمان فتبدو فيما أراده إبراهيم #، حين طلب أن يلامس السر الإلهي عند وقوعه، لتحصل له لذة يستروح بها قلبه. فسأل: ﴿رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ [البقرة: ٢٦٠].

إنه الأنس برؤية الفعل، وانكشف السر المحجب، طلبه خليل من خليله، فأعطاه ما أراد، فاطمئن قلبه ونطق لسانه، ولم يشك في لحظة من اللحظات، كما عبر عن ذلك خاتم الأنبياء رسول الله محمد ﷺ عندما قال: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾))، فالشك في حق إبراهيم مستحيل، ولو كان الشك في إحياء الموتى متطرقاً إليه لكنت أنا أحق به منه. وقد علمتم أنني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم # لم يشك، بل طلب مزيد اليقين، والطمأنينة بعلم كيفية الإحياء مشاهدة، بعد العلم بها استدلالاً، وكشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين تمكناً.

أسوة في السلوك:

وإبراهيم # أسوة في السلوك، وخاصة ما يتصل منه بالأهل والأقربين، لقد كان المسلمون يحنون إلى ذوي قرابتهم في مكة، وقد استقر بهم المقام في المدينة، وهدأت حدة الأخطار التي كانت بهم محدقة. وفي هذا الميل منهم وشيعة من التعصب للدم، هم في سبيل التخلص منها، ونزلت سورة الممتحنة، فنهت عن موالاة المشركين. وفيها حلقة من قصة إبراهيم #، تبين أنه قدوة في السير والسلوك، وخاصة ما يتصل منه بالأهل والأقربين، لقد تبرأ من القوم ومعبوداتهم وعبادتهم.

وآمن بالله وحده وترك كل ما يعبدون من دونه، وأما قوله لأبيه: ﴿لَا سَعْفَرَنَ لَكَ﴾ للممتحنة: [٤]، فقد وقع قبل أن يعلم إصراره على الكفر. فلما تبين له ذلك تبرأ منه، وأعلن أنه ليس له من الأمر شيء، وإنما الأمر كله لله رب العالمين، وقد صبر المسلمون على البلاء وهم يسألون الله ألا يمكن منهم الذين كفروا، حتى لا يعتقدوا أنهم على حق.

والداعية تقتضيه دعوته وأسوته بأبي الأنبياء إبراهيم ، أن يوالي من والى الله ، وأن يعادي من عادى الله ، وأن يحب فيه ويبغض فيه ، كما علم الله على يد رسوله محمد ﷺ الجماعة المسلمة ، التي حملت عنه الدعوة. وبلغتها إلى الناس جميعاً ، وانبعث بالحق وهدت إلى الرشد ، ونفذت قول رسولها ﷺ : ((فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين)).

وقول رب العالمين : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة : ٢٢].

معاً على الطريق : إبراهيم ، وخاتم النبيين :

تعالج سورة الحج موضوعات التوحيد ، والبعث وإنكار الشرك ، وإقامة الأدلة الماثورة في صفحات الكون والنفوس ، كما تذكر القتال لحماية الشعائر. وتعد بالنصر من يقع عليه البغي وهو يرد العدوان ، لتتمكن في الأرض الأمة التي تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

ومن واجهة أهل مكة للدعوة الإسلامية الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام ، الذي أقامه بأمر الله إبراهيم # ليكون للناس جميعاً سواء العاكف فيه والباد.

وأن ينفي عن هذا البيت كل مظهر من مظاهر الشرك ، لتبقى الغاية من بنائه كمنارة للتوحيد يقوم بها الأحفاد بعد الأجداد ، عبادة خالصة لله تتجدد كلما أدوا شعيرة الحج ، التي يتصل فيها الحاضر بالماضي.

تاريخ الدعوة والدعاة

عندما يطوف الناس بالبيت العتيق تلبية لدعوة أبي الأنبياء إبراهيم، الذي أذن في الناس بالحج، وترتبط بذلك الصلة بينه، وبين حفيده خاتم الأنبياء محمد ﷺ، أحق الناس بالبيت، وأولاهم بإبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام-.

لقد كان باني البيت مجاهدًا في تنقية الديانة، وإخلاص العبادة لله ومحمد ﷺ صاحب دعوة التوحيد، ومخلص البيت من مظاهر الشرك والوثنية. قال تعالى:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ بَيْمَاتٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبِائِسَ الْفَقِيرَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لَيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٩].

عن عبد الله بن عاصم < أن رسول الله ﷺ قال: ((إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها، بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة)).

وتحريم مكة نص عليه رسول الله ﷺ حين تكلم يوم الفتح، حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ((إن مكة حرمها الله ولم يجرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا. فإن أحدًا ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب)).

والمسلمون فقهوا هذا المعنى، وحين سمعوه من رسول الله ﷺ نفذوه، ولم يخالف فيه أحد منهم، لعلمهم أن رسول الله ﷺ حفيد أبي الأنبياء، وهما معًا على الطريق.

عبر من قصة إبراهيم # :

وإذا كان المقام لا يتسع للاستفاضة في كل الجوانب، التي عرض لها القرآن من قصة إبراهيم # إلا أنه تجدر الإشارة إلى أنه عاش طول حياته مقاوماً لما حوله من القوة، والسلطان والآلهة الزائفة والقوى المختلفة.

وتعتبر قصته أعظم تحد لتأثير الأسباب واستقلالها، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتها وأصحابها، وأعظم دليل على ضعفها، وعدم غنائها عن أربابها.

لقد كان العالم في عصره خاضعاً للأسباب خضوعاً شديداً، معتمداً عليها اعتماداً زائداً، يعتقد أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها، وكأنها في نظره أصبحت أرباباً من دون الله يعبدها. وثنية أخرى غير الوثنية التي غرق فيها من عبادة الأصنام والأوثان، فكانت حياته، ودعوته # دعوة إلى التوحيد النقي الخالص، وتحقيقاً لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شيء القادرة على كل شيء.

ويكفي الإشارة إلى موقف قومه عندما ألغوه في النار، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم، وكان سبيله في هدايتهم سبيل المناجاة الذاتية متمثلة في حديث النفس، يتلمس الطريق ليشير التفكير في ما عليه قومه من ضلال، ليقودهم إلى الحقيقة الراسخة التي وصل إليها وسار فيها.

ولجأ إلى تكسير الأصنام؛ ليقف قومه وجهاً لوجه، مع الحقيقة التي اضطهرهم إلى الاعتراف بها، وهي العلم بأنها لا تغني عنهم من الله شيئاً، يخرجوا أنفسهم من هذا العبث، ويعودوا إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها.

ولقد تعددت مواقفه، فمن حاجة لوالده إلى حاجة لقومه إلى حاجة للملك، وقابل ما أراد القوم به بشجاعة وصبر. وهاجر في سبيل دينه، وعقيدته معتمداً

على الله العليم بحاله، وهو خليل الرحمن، وقدوة الدعاة، وأبو الأنبياء، وهو الحليم الرقيق القلب البار العطوف، باني البيت مكسر الأصنام.

لوط

ذُكر لوط # في القرآن في أربع عشرة سورة، منها اثنتا عشرة سورة مكية، وسورتان مدنيتان، ق والقمر و ص، والأعراف والشعراء، والنمل وهود والحجر، والأنعام والصفات والأنبياء، والعنكبوت والحج والتحريم. وهو ابن أخ لإبراهيم # وفي قصة كل منهما طرف من قصة الآخر، وقد أرسل الله سبحانه لوطاً # إلى قوم، هبطوا في مستوى الإنسانية إلى درجة لم يهبط إلى مثلها أحد من قبل.

وفيها إفسادٌ للفطرة التي فطر الله عليها الناس، فجاء لوط # يدعوهم إلى الطهر، والعودة إلى الفطرة المستقيمة، فلم يجد عندهم قبولاً لدعوته، ولا ميلاً إلى الإصلاح، واستمروا في ما هم فيه من فساد وإفساد.

حتى تنزل بهم عقابُ الله، فقد شاءت سنة الله أن يخلق البشر ذكراً وأنثى، شقان لجنس واحد يتكامل بهما، ويتم الامتداد عن طريق النسل، وجعلهما صالحين له.

فركبهما عَجَلٌ وفق هذه السنة، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأعطى كل شيء ما يناسبه، وهياًه لأداء وظيفته، وجهزه عضوياً ونفسياً، ومنحه الرغبة الأصلية في القيام بوظيفته.

وهو يشعر بلذة عميقة، تدفعه لإتمام سنة الله التي أراد، لتحقيق مشيئته في امتداد الحياة واستمرارها على هذا النمط السوي، بحيث تكون هذه الرغبة دافعاً في

مقابل المتاعب، التي يلقاها كل منهما في الذرية. من الحمل والإرضاع، والنفقة والتربية والكفالة، ملتصقين في أسرة تكفل للجيل القادم العناية والرعاية، والسكن والاطمئنان.

انحرف قوم لوط # عن هذه السنة الصريحة، والفطرة المستقيمة، وأسرفوا في استخدام الطاقة التي وهبهم الله إياها، ووضعوها في غير مكانها، الذي أعده الله لأداء دوره في استمرار الجنس البشري إلى أن يشاء الله.

وعدلوا عن طريق الفطرة السليمة، وكان منهم الشذوذ، والانحراف والفساد، والفطرة المستقيمة تجددت فيها فيما يلبي حاجات الحياة، لا فيما يصادمها، ويهدمها، ويضع البذر في تربة خبيثة لم تعد أصلاً للإنبات.

وهو أمر تنفر منه الفطرة السليمة وتأباه، وهو ينافي قانون الحياة والأحياء، وسورة ق أولى السور التي ذكر فيها قوم لوط، لم تزد عن إنذار المكذبين بعذاب الدنيا والآخرة، كما حدث لمن كذب رسل الله. ومنهم قوم لوط # وقد تلتها سورة القمر، فسطت القول في التكذيب، والعذاب بعد الإنذار، وفصلت ما بين التكذيب والنهاية بالعذاب. نهاهم لوط عن الرذيلة التي وقعوا فيها، فتشككوا وجادلوا وتمادوا فيما هم عليه من الانحراف.

وبلغ بهم سوء الأدب أن راودوا لوطاً # عن ضيفه، فطمس الله أعينهم، ولم يصلوا إليهم بأذى، ونجا الله لوطاً وأهله إلا امرأته، صبغهم بكرة عذاب استقر فيهم وأتى عليهم. قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذُرِّ ۗ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحْرِ ۗ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْرِي مَن شَكَرَ ۗ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذُرِّ ۗ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ۗ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ۗ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُرِّ ۗ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٩].

وتحدثت سورة ص عن قوم لوط في معرض حديثها عن الكفار المتحزبين على رسل الله - عليهم الصلاة والسلام- ، وهم جيش مهزوم مكسور عما قريب. وهي تُسري عن رسول الله ﷺ حتى لا يُبالي بما يقول كفار مكة ، حين وضعوا أنفسهم في غير وضعها الصحيح ، وهم إذا كذبوا واحداً من الرسل -عليهم السلام- فقد كذبوا بالجميع.

إسراف وتهديد :

وأولى السور المكية الكبيرة سورة الأعراف تحدثت عن قوم لوط # ودعوته لهم إلى ترك الإسراف في الشهوات ، ووضع الطاقة التي وهبهم الله إياها ، لأداء دوره في امتداد الحياة في مكانها الصحيح.

فكانت إجابتهم له مساوية لفعالهم الشنيع ، فحل بهم ما يستحقون ، وطهر المطر الأرض من دنسهم ، ونجا لوطاً ، وأهله إلا امرأته كانت مع الهالكين. قال تعالى :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأعراف : ٨٠ - ٨٤].

والخطيئة تفعل أولاً في خفاء ، واستحياء ، ثم في جفاء وبرود ، فإذا وجدت بيئةً مواتيةً صلب عودها واشتد ، حتى تصبح تقليداً متبعاً ، فإذا ظهرت الفضيلة المناوئة لها ، استكثر عليها أرباب الرذيلة حق الحياة. كما حدث من قوم لوط الذين استمرءوا الشذوذ ، وعز عليهم أن يقوم فيهم من ينهاهم عنه ، وهددوه

بالرجم إن لم يسكت، فلما أبى إلا إعلان سخطه، والبراءة من عملهم، تقرر طرده من البلد؛ لأنه متطهر خارج عن القانون.

وتحدثت سورة الشعراء عن لوط # وقد دعا قومه إلى ما دعا إليه إخوانه من الأنبياء، وذكرهم بما هم عليه مما يخصهم دون غيرهم من الانحراف، وهددهم بالهلاك إذا لم يرجعوا عنه.

وطلب من الله أن ينجيه مما يحل بهم، فهددوه بالإخراج من قريتهم، فواجههم بالكراهية الشديدة لفعلهم، وكانت امرأته تعين القوم على فعلهم، فحل بها ما حل بهم. قال تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا نُنْقِونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَانْفِقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَعَلْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

فتذكر سورة النمل هم قوم لوط بإخراجه، والمؤمنين معه من قريتهم؛ لأنهم أناس يتطهرون، فكانت عاقبتهم عندما هاجر لوط من قريتهم أن دمرها الله عليهم؛ لأنهم كانوا منحرفين إلى فعل شاذ، يأتونه عن إجماع، واتفاق وتعارف وعلائية. وهي ظاهرة غريبة في تاريخ البشرية بل في الأحياء كلها، في جميع أنواعها وأجناسها، وقد تهكموا بتطهر لوط، وضاقوا بدعوته ذرعاً.

والشر المتعمد الذي تتواطأ الجماعة على فعله، وتتعهد نماءه، وتجعل بقاءه جزءاً من حياتها، لا بد وأن يأتي عليها؛ لأن بقاءه بلاء على الإنسانية كلها، وعلى

تاريخ الدعوة والدعاة

مثلها العليا. وقد جرت سنة الله في قوم لوط، جاءهم الرسول، فلم يستجيبوا لدعوته وهددوه، وأصروا على عملهم، وهو جنابة على العقل والنفس والنسل، وعلى الصحة والفضيلة، والآداب العامة.

وكسر ما في الرجولة من إباء وشمم، ومفسدة للنساء بالانصراف عن القيام بحقهن، الذي هيأتهن لهم الفطرة، غير أنت نفوسهم الخبيثة قد ارتكست بالجريمة، فاستحسنت القبيح واستقبحت الحسن.

الرسول الضيوف:

جاء الملائكة الرسول إلى لوط # وهو لا يعرفهم، وقد مروا بعمه إبراهيم # ودار بينهم وبينه حوار، ولما كان لوط # يعلم ما ينتظر ضيوفه من قومه.

الذين جاءوه يهرعون إليه، ومن قبل كانوا يعملون السيئات، سيء بهم، وضاق بهم ذرعاً، وقال: هذا يوم عصيب، وكشأن الداعية حاول أن يوقظ في قومه الفطرة السليمة، وأن يوجههم إلى الجنس الذي خلق للرجال، وأعد الله لذلك.

وعنده منهن في داره بناته، من أراد الزواج فهن حاضرات والنساء كثيرات، وهن أظهر حسياً ونفسياً يلين طلب الفطرة، وأعد الله فيهن للحياة مكاناً صالحاً نظيفاً نقياً. وآتاهم أيضاً موجهاً من ناحية النخوة، والتقوى: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: 178]، غير أن الفطرة المنحرفة والعقول المريضة، والقلوب الميتة لا تستجيب.

وأحس لوط ضعفه وهو غريب، فقال وهو حزين: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 180]، تمنى أن يكون عدد ضيفه كثيراً، ليجد بهم قوة على مجاهدة قومه، وكفهم والامتناع بهم.

وروى مسلم في (صحيحه) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ((ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد))، أي: عشيرة قوية.

قال ابن مالك: "فيه إشارة إلى وقوع تقصير منه" غير أن الذي إليه النفس تميل، أن المراد بالركن الشديد هو الله سبحانه أشد الأركان، وأقواها وأمنعها. ويكون لوط # قد التجأ بينه وبين الله تعالى، وأظهر للأضياف التألم، وضيق الصدر، فأدركوا ما ألم به من الحزن والضيق، وكشفوا له عن حقيقة مهمتهم وأرشدوه.

وجاء الدمار اللاتق بقوم لوط فغير المعالم، ونزل على صورة حجارة ملوثة بالطين مناسبة، وعلى قدر الحاجة متتابعة، وما هي بالظالمين ببعيد، كما تصور ذلك سورة هود #.

وقد أرشد قومه إلى غشيان النساء، وهن بناته شرعاً؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، وقد بذل كل ما يستطيع؛ ليخجل القوم ويكفوا عن خزائمه في قومه. وأرشدهم إلى سبيل الفطرة في تصريف الطاقة، ونهاهم عن الشذوذ، وهذا هو الواضح من ظاهر النصوص، والذي يتفق مع دعوة لوط #، إلى سلوك سبيل سلوك الفطرة وطريقها المعلوم.

وقد كشفت سورة الحجر في حديثها عن قصة لوط #، أن الملائكة الرسل قد جاءوا قومه بما كانوا فيه يمترون من أخذهم بذنوبهم، توكيداً لوقوع العذاب حين تنزل الملائكة، وقد أمروا لوطاً # أن يسري بأهله بقطع من الليل، وأن يكون في مؤخرتهم لينقذهم، ولا يترك أحداً يتخلف إلا امرأته.

وانتقل السياق إلى الطرف الآخر الذي أظله العذاب، وهو غافل مستمر في ضلاله حتى كانت نهايته، وبقيت آثاره علامة بارزة على الطريق، يراه فيعتبر كل

ما كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة وعظة وآية على قدرة الله، وعظمته وعزته في انتقامه، ممن خالف أمره، فكذب رسله واتبع هواه، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين، وإنجائهم من المهلكات، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وانفردت سورة الصافات بذكر لمحة عن لوط #، غير متصلة بذكر إبراهيم # كما هو المتبع في غيرها من سور القرآن.

وأوضح ما فيها ذلك التوجيه للذين يسمعون القرآن، وتتجه إليهم دعوة رسول الله ﷺ بأنهم يمشون على قوم لوط في الصباح، والمساء وبالليل والنهار، ولا يعتبرون بما تدل عليه الديار، وكان الأجدر أن يعتبروا حتى لا يكذبوا رسولهم، كما كذب قوم لوط وغيرهم من الأمم، التي ذكر القرآن أحوالها، ومواقفها مع رسل الله - عليهم الصلاة والسلام.

وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ فالتكذيب الذي يلقاه لقيه من قبله من الأنبياء، إخوانه في الدعوة والجهاد، والصبر والاحتمال، وكانت لهم العاقبة كما هي سنة الله التي أكدتها هذه السورة. وخاصة في آيات الختام قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ بَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّا لَنُرَوِّنُهُمْ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَيَالِئِلْهُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٣ - ١٣٨]. وقال: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وكل داع إلى الحق يجد سلواه، حين تشتد الأزمات في أمثال تلك الآيات التي هي الحق، وفيها الهدى الذي يشرح الصدر ويطمئن القلب، حين يوقن أن النصر لا محالة آت.

وفي الحلقة التي عرضتها سورة العنكبوت من دعوة لوط # ، يظهر بوضوح استعلان قومه بالرديلة ، واستهتارهم بالذير ، وقطعهم الطريق لنهب المال ، والعدوان على الرجال. ومباشرة الشذوذ جهاراً دون خفاء ، وبلا خجل أو استحياء ، ولما نصحهم رسولهم لوط # كان جوابهم ﴿أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ولقد جاء العذاب على أيدي رسل ملائكة جاءوهم في صورة شباب حسان.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعٰلَمِيْنَ ﴿٢٨﴾ أَيِّنْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ [العنكبوت: ٢٨ ، ٢٩]. وهو صادق أمين ، والله ﷻ لم يمهل القوم المجرمين الذين أرادوا الاعتداء على رسولهم ، وراودوه عن ضيفه ، فنزل عليهم رجز من السماء بما كانوا يفسقون.

وبقيت من آثارهم علامة بينة لقوم يعقلون ، ولقد آمن لوط واتبع إبراهيم في رحلته ، ثم هاجر عنه بإذنه ، إلى أن عاد إلى الأرض المباركة من جديد بعد هلاك قومه المفسدين.

ورسول الله ﷺ ليس بأوحد في التكذيب ، بل كذب الرسل قبله أقوامهم ، وله أسوة فيهم ، وأمل في نصر الله الذي أتاهم ، وسيأتيه ولو بعد حين ، فالكفار من قومه عوقبوا على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ، معاقبة أمثالهم من غير إبطاء ، ولا محاباة ، ولم ينفعهم ما كان بينهم ، وبين المؤمنين من لحمة النسب ، أو صلة المصاهرة ؛ لأن كفرهم وعداوتهم لله ورسوله قطع الصلات.

ولو اتصل النسب أو الصهر بنبي من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- لما منع من نزول العذاب مع وجود التكذيب كما كان الحال بالنسبة لامرأة نوح ، ولوط

-عليهما الصلاة والسلام- ، لما خانتا لم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، كما أكدت ذلك سورة التحريم. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

وكانت خيانتهم في الدين ، فلم تتبعا زوجيهما فيه ، وليس المراد أنهما كانتا على فاحشة ، فإن الله ﷻ لا يقدر على نبي قط أن تبغي امرأته.

عبرة للدعاة من قصة لوط :

لم يأل لوط # جهداً في هداية قومه ، وثنهم عن الطريق الذي ساروا فيه ، غير أن جهوده لم تحقق ما كان يرجو ، فقد واجه نفوساً التوت فيها نوازع الخير بل انعدمت.

ومرنت على الفساد الذي آلفت ، حتى أصبحت لا يجدي فيها وعظ الواعظين ، ولا هدي المرسلين ، فأهلكها رب العالمين ، قال تعالى: ﴿ وَالْمُؤَنَّفَكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ [النجم: ٥٣ ، ٥٤].

وعلى الداعية بذل الجهد ، ولكن الهدى هدى الله ، وما ظلم الله قوم لوط لكن كان أنفسهم يظلمون ؛ فقد كان محصوله من وراء دعوته إياهم النذر اليسير.

قال تعالى على لسان إبراهيم # فيما دار بينه ، وبين الملائكة الرسل من حوار: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ [النار: ٣١ - ٣٧].

فمن اعتبر بها ، فعارض عن محارم الله وخاف أن يشبه قوم لوط ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ، وإن لم يكن من كل وجه ، فمن بعض الوجوه.

من فعل ذلك ونفعته الآية، فقد سلك بنفسه سبيل النجاة، وإلا فإن التهديد في ختام قصة لوط كفيل بردع كل معتد أثيم، وصدق رب العالمين، وما هي بالظالمين ببعيد.

مواقف متشابهة:

ومع بشاعة جريمة اللواط في ذاتها، وأثرها على المجتمع الإنساني، انحدرت الحضارة الغربية المعاصرة في المجتمعات الصناعية الراقية، واستطابت مباشرتها بين الأفراد الذكور، إذا تجاوز سنهم الثانية عشرة، كما استطابت من قبل مباشرة السحاق بين النساء، على أنه وسيلة مشروعة لما يسمى بالكبت الجنسي.

وتلك كلها من الانحرافات في السلوك، والعلاقات الإنسانية التي تبتلى بها المجتمعات، عندما تبتعد عن هدي الله، وتخلو من عقيدة تملأ القلب، وتصون العقل. وتنظم السلوك على نمط يحقق المبادئ التي بها يصلح الإنسان، وتصلح من حوله كل نواحي الحياة، وفي ظل هذه المبادئ يحيا الإنسان حياة طيبة، ويعمل للوصول إلى حياة أخرى تعقبها فيه الخلود الدائم.

وفيها يلقي كل إنسان ما يستحق من الجزاء، وقد يسر الإسلام السبيل لمعتقيه؛ ليصرفوا طاقتهم على وجه مشروع، يصون الفرد والجماعة ويحفظ الكرامة الصحة، ولا يחדش المروءة، ودعا القرآن إلى سلوك سبيل العفة.

كما نادى رسول الله ﷺ الشباب المسلم موجهًا له، وحثًا على الزواج، في قوله ﷺ: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباء فليتزوج، ومن لم يستطع، فعليه بالصوم فإنه له وجاء)). وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، فمن لم تسعه هذه التعاليم السمحة الميسرة، ولجأ إلى الشذوذ، والانحراف ردعته العقوبة، حتى لا يعدي غيره من الأسوياء.

يقول ﷺ: ((ومن وجدتموه يعمل عمل أهل لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به))، وعن ابن عباس في البكر يوجب على اللوطية قال: "يرجم"، وأخرج عنه أنه قال: "ينظر أعلى بناء في القرية، فيرمى به منكساً ثم يتبع الحجارة".

إسماعيل

ذكر القرآن إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام- في ثمان سور، خمس منها مكية وثلاث مدنية، وهي ص ومريم، والأنعام وإبراهيم والأنبياء والبقرة، وآل عمران والنساء.

ففي سورة ص يقول الله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨]. دعا الله سبحانه رسوله محمداً ﷺ إلى التأسى بهؤلاء الأنبياء، وبصبرهم وتحملهم، والصبر طريق أصحاب الرسالات، وعدة الدعاة، وإسماعيل قدوة في أهله كما نوهت بذلك سورة مريم. إذ يقول الله فيها: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

وصدق الوعد صفة في كل رسول، وكان بارزاً في إسماعيل، فاستحق التنويه به على الخصوص، وأمر الأهل بالصلاة والزكاة؛ ليكونوا قدوة لغيرهم بالعمل، كما كان هو قدوة في القول والعمل التوجيه.

وقد فضله الله على العالمين، وأضافت سورة الأنبياء إلى ما ذكرته سورة مريم الصلاح، لكونه مع الصبر ذا أثر بارز في الدعوة إلى الله، وخاصة إذا ما تعرض الداعية للابتلاء. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦].

ولقد ابتلي إسماعيل # ، فاستسلم لأمر الله ، وقال لأبيه : ﴿ يَتَابَعْتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ سَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصفوات: ١٠٢]. مع أنّ الله قد وهبه لأبيه على الكبر ، فذهب به إلى أشرف بقاع الأرض ، وأسكنه فيها مع أمه ، وطلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

جاء إبراهيم # بهاجر وإسماعيل ، وتركهما في هذا المكان الذي بنى فيه بعد ذلك البيت العتيق ، فقالت له هاجر وهي تودعه : إلى من تكلنا؟ فقال : إلى الله أكلكم ، فقالت : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا تخشى تركتنا إلى كاف ، أو قالت : إذا لا يضيعنا.

وما أسكن إبراهيم من ذريته بهذا الوادي إلا ليقيموا الصلاة ، ويعمروا البيت الحرام ، لتحيا تلك البقعة التي شرفها الله على البقاع.

ويتحول الوادي الذي لا زرع فيه ولا ماء ، إلى مكان تهوي إليه أفئدة الناس ، حرماً آمناً تجبى إليه الثمرات رزقاً من الله لسكانه ، ليذكروا النعمة ، ويعرفوا الفضل.

ويظلوا نصراء الدين وأتباع الرسالة ، لا أن يضلوا كما فعل أهل مكة عندما قالوا : ﴿ إِنْ نَبَّعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَخِّطُكَ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ [القصص: ٢٥٧]. لقد مكن لهم في الحرم بجرمة البيت ، فكانت العرب في الجاهلية حولهم يتناحرون وهم آمنون قارون ، وقد حولهم الله ما حولهم من الأمن والرزق بجرمة البيت وحده ، ولا يستقيم أن يعرضهم للتخوف والتخطف إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام.

إسماعيل هو الذبيح:

وإسماعيل # هو الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم، عندما سأل ربه بعد أن هجر قومه أن يهبه من الصالحين، وقد تضمنت البشارة أنه غلام ذكر، وأنه يكون حليماً.

وقد نعت الله كذلك بالحليم إبراهيم، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُّنِيبٌ﴾ لهود: ١٧٥، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

والحادثة التي وقعت لهما تدل على حلمهما، ورغم غضاظة سن إسماعيل # كان فيه من رصانة الحلم، وفسحة الصدر، ما جسره على امتثال البلية العظيمة، والجواب الحكيم، الدال على الاستسلام الكامل لله وتلقي أمره باستئناس.

فاستحق من الله المثوبة، والفداء والتكريم، ولما حدث ذلك منه كان ما كان من استبشاره واغتباطه، وحمده لله وشكره له على ما أنعم به عليه، من دفع البلاء العظيم بعد حلوله، ورضوان الله الذي ليس وراءه مزيد.

على أنّ الداعية ينبغي أن يعلم أن ما ذكره القرآن هو الحق، وفيه كفاية وغنى عن الجري وراء غير الصحيح، وفيه الدلالة على أنه أمر عظيم واختبار باهر، وأن الله ﷻ قد فدى إسماعيل بذبح عظيم.

وإسماعيل هو الذي كان بمكة، وهو باني البيت مع أبيه والمنحرب بمكة، ووصفه الله بالصبر وبصدق الوعد، والإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر القصة، صريح في أن إسحاق غير الغلام الذي ابتلي بالأمر بذبحه إبراهيم - عليهما السلام - وعود الضمير إلى الذبيح وذكر إسحاق صريحاً، يقتضي التغاير بينهما.

العقائد التي أتى بها إسماعيل # :

تحدثت سورة البقرة عن إسماعيل # ومشاركته لأبيه في بناء البيت العتيق، وتطهيره من الشرك والريب، ليكون للطائفين، والعاكفين، والركع السجود.

وقد طلب مع أبيه - عليهما السلام - أن يجعل منهما ذرية صالحة مسلمة، وأن يبعث فيها رسولاً منها كان هو محمد ﷺ كما تحدثت سورة آل عمران عن أمر النبي ﷺ بإعلان إيمانه بالأنبياء، وبما أنزل عليهم من الله ومنهم جده إسماعيل. قال تعالى: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

والوحي ينزل من الله ﷻ، وينتهي إلى الرسل، وقد أمرت الأمة أن تقول، وتعلن الإيمان بهؤلاء النبيين والمرسلين. قال تعالى: ﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

فقد أرسله الله ﷻ، فدعا الناس إلى الإيمان، ووحدانية الله ﷻ ووصفه بما يليق بصفات الجلال والتكريم، كما تشير إلى ذلك الآيات الكريمة: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ويلاحظ أن إسماعيل # لم يذكر في القرآن منفرداً، إلا في هذه الآية: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٤].

تاريخ الدعوة والدعاة

وأكثر ما ذكر فيه مضمومًا إلى أبيه أو إلى غيره من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- كما في هذه الآية: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وهي تثبت مصدر الوحي الواحد الذي هدى الجميع، وأرسلهم إلى الناس مبشرين ومنذرين.

يعقوب

ذكر القرآن يعقوب # في عشر سور سبع منها مكية وثلاث مدنية، وهي ص ومريم وهود، ويوسف والأنعام والأنبياء والعنكبوت، والبقرة وآل عمران والنساء.

وأولى هذه السور ص، لم تزد عن إيراد اسمه ضمن الأنبياء الأقوياء البصراء المخلصين لله رب العالمين، العاملين للأخرة المختارين من الله خيرة الناس -عليهم السلام-. قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ - ٤٧].

وذكرت سورة مريم يعقوب # في موضعين، في قوله تعالى على لسان زكريا # يسأل ربه الذرية والولد، الذي يرث الشرع والعلم.

لأن الأنبياء لا تورث المال، ولم يكن آل يعقوب # كلهم أنبياء ولا علماء، وحسبنا قول الله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿ [الصافات: ١١٣]. وذلك قول زكريا #: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥٠﴾
يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عِوَالِي يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿ [مريم: ٥٠ ، ٤٦].

وفي قوله تعالى في الحديث عن إبراهيم #: ﴿ فَلَمَّا اعْتَرَاهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا جَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿ [مريم: ٤٩ ، ٥٠].

وفي سورة هود جاء قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرًا تَهُ قَائِمَةً فَضَحِكْتُمْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿ [هود: ٧١] ، وفي ذلك دليل على أن البشارة بـ يعقوب. جاءت مصاحبة للبشارة بأبيه إسحاق - عليهما السلام -.

تابع قصة يعقوب - قصة يوسف عليهما السلام

عناصر الدرس

١٤٧

العنصر الأول : تابع دعوة يعقوب #

١٤٩

العنصر الثاني : يوسف #

تابع دعوة يعقوب

وفي قصة يوسف قدر كبير من قصة يعقوب - عليهما السلام - وصرح باسمه فيها في ثلاثة أماكن.

في قوله تعالى في معرض قصة يوسف # على أبيه رؤياه، وإرشاد أبيه له: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ١٦].

فإنه يصطفي يوسف للنبوّة، وينعم عليه بشرف الدارين، كما فعل بأبائه، وهو سبحانه يعلم من يحق له الاجتباء.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَا أَبَتِ كَمَا طَعَامُ تُرْزِقَانِيهِ إِلَّا نَبَأْتُ كَمَا تَأْوِيلُهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٣٧] وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧، ٣٨].

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَّهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٦٨].

وقد دخل أخوة يوسف متفرقين كما أمرهم أبوهم، ولكن لم يغن عنهم ذلك شيئاً، وأصابهم ما أصابهم من إضافة السرقة إليهم وأخذ أخيهم، وتضاعف المصيبة على أبيهم، ولكن شفقة يعقوب عليهم وإظهارها بما قاله لهم، قد قضت بوصيته، وهو ذو علم يعلم أن القدر لا يغني عنه الحذر.

تاريخ الدعوة والدعاة

وفي سورة "الأنعام" ذكر يعقوب في معرض الحديث عن إبراهيم -عليهما السلام- وفضل الله عليه إذ وهبه إسحاق ويعقوب، كما ذكرت سورة "الأنبياء" ذلك أيضاً، ووصفت يعقوب بالصلاح والإمامة في الهدى، وأن الله أوحى إليه فعل الخيرات، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنه كان عبداً خالصاً لله مخلصاً له، كما ذكرت ذلك أيضاً سورة "العنكبوت"، وأضافت أن الله جعل في هذه الذرية المباركة النبوة والكتاب، وآتاها أجرها في الدنيا، ولها في الآخرة عند الله جزاء الصالحين، وفي سورة "البقرة" في معرض الحديث عن التوحيد، الذي من أجله هاجر إبراهيم، وترك وطنه وأهله، ووصى به من بعده ذريته، كما وصى به يعقوب بنيه: ﴿يَبْنَیَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وفي معرض الاحتجاج على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى أهل الكتاب من بني إسرائيل ذكرت السورة أن يعقوب # لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًُا وَحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

فالإسلام دين الأنبياء جميعاً، دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب -عليهم السلام- وهم جميعاً إخوة أبناء علات، والأمة الإسلامية مأمورة بإعلان إيمانها بالله، وبما أنزل على الرسل جميعاً.

والله قد أوحى إلى النبيين، وأوحى إلى محمد ﷺ، فالمصدر واحد والرسالة واحدة، وإن تنوعت الشرائع، والعقائد التي جاءت في رسالة إبراهيم، وإسماعيل وإسحاق ولوط -عليهم السلام- هي العقائد التي جاء بها يعقوب #؛ لأنهم جميعاً كانوا في عصر واحد، وفي بقعة من الأرض متجاورة، وهم أهل بيت واحد اصطفاهم الله وكرمهم، وأرسلهم هداة إلى الحق، وإن لم تذكر هذه العقائد صراحة بالتفصيل التي ذكرت به في قصة أبي الأنبياء إبراهيم #.

والداعية إلى الله يجد قدوته في يعقوب # في نصحه وإخلاصه وصبره وصفحه عن بنيه، على الرغم مما أصابه منهم من حزن عميق، حتى ابيضت عيناه وهو كظيم، وهو النبي الكريم، الرسول الكريم ابن الأكرمين.

ولما سأله: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿﴾ [يوسف: ٩٧، ٩٨]، ولم يفقد الأمل وظل واثقاً بوعد ربه، حتى فرج كربه وجمع شمله وأقر عينه، ونصره على الشيطان الذي نزغ بين الإخوة، وأجج نار العداة.

وإنها لكلمة تقال، فتبعث في القلب حرارة تملئها بالرجاء، تلك التي قالها يعقوب # لبنيه، بعد أن فقد ابنه الآخر الصغير، والشك في تصرف أبنائه قائم، ومكرهم بيوسف غير بعيد: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، والداعية يدرك أبعاد هذه الكلمة التي تبقى الصدر منشرحاً والقلب مطمئناً، وإن تكاثرت الأحداث، وادلهمت الخطوب.

يوسف

ذكر القرآن الكريم يوسف # في ثلاث سور مكية، وهي: يوسف، والأنعام، وغافر، وقد ذكرت قصته مطولة في سورة "يوسف"، بعد مقدمة وتعقيب في الآخر، المقدمة تمهد للقصة، والخاتمة تبين ما سيقف من أجله.

وفي قصته # كشف عن النفس الإنسانية، وعن علاقتها بالمجتمع الذي تعيش فيه، وعن العلاقة في أسرة يعقوب #. وكيف يفعل الحسد بين الإخوة فعله، وخاصة أبناء العلات؛ حيث دفع الحسد بعضهم إلى تصرف غير سليم، مع أن

تاريخ الدعوة والدعاة

عطف يعقوب # على ابنه الصغير يوسف # كانت له مبرراته، وهو أمر لا يضير، إلا أن الإخوة الكبار اتهموه بتفضيل يوسف وأخيه عليهم، وهم أولو العصبه وموضع القوة، وبأن ذلك غبن واقع عليهم، وحاشا يعقوب # أن يظلم أو يحيف.

وفي هذه القصة درس ينبغي أن يعيه رب كل أسرة، فيمنع كل ما يؤدي إلى الوقعة بين بنيه، وفي تعليل يعقوب # وصيته ليوسف أن يكتم أمره، وألا يقص رؤياه على إخوته ما يلفت النظر ويحذر من الخطر: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ليوسف: ٢٥.

والسورة تثبت نزول القرآن من عند الله على رسوله محمد ﷺ وفيه من الأخبار ما لا يمكن لأمي أن يعرفه إلا بوحي من الله، فلم يكن يقرأ، أو يتلو من قبله كتاباً أو يخطه بيمينه.

وإذا كان النبي ﷺ قد عانى من الوحشة والغربة، والانقطاع في بعض فترات الدعوة بمكة، وعانت معه الجماعة المسلمة مثل تلك الشدة، فإن الله ﷻ يقص عليه قصة أخ له عانى صنوفاً من المحن والابتلاء، توالى عليه منذ الصغر حتى أتم الله عليه النعمة، فجمع شمله وفرج حزنه، وقد أدى واجبه كاملاً غير منقوص.

وقصص الرسل في القرآن فيه بيان لمواقف الرسل مع أقوامهم، وما واجههم في تبليغ الرسالة وعاقبة من آمن ومن كذب، ليعلم من يواجهون الرسالة عاقبة الإيمان، وعاقبة التكذيب.

وقصة يوسف هي قصة نبي واحد، وجد في غير قومه وهو صغير، ثم بعث ودعا إلى دينه، وكان خير قدوة للناس في رسالته وفي جميع أطوار حياته، مر بمحنة كيد الإخوة، ومحنة الجب وما فيه من خوف وترويع، ومحنة البيع، والانتقال من

يد إلى يد، على غير رغبة منه ولا إرادة، ومحنة الابتلاء بالشهوة والنعمة والفتنة، ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة، ومحنة السجن بعد الرغد في بيت العزيز، ومحنة الرخاء والسلطان في يده، وهو على خزائن مصر، يصرف القوات الذي عليه يعيش الجميع، ومحنة المشاعر وهو يلقي إخوته الذين كانوا سبباً ظاهراً في كل ما ألم به.

ورغم كل ذلك لم ييأس، ولم ينس دعوة الحق، الذي من أجله تحمل كل الأنبياء والمرسلين، ولم يتركوا الدعوة إليه وإن كانوا مسجونين، وهو ((الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم))، كما قالها خاتم المرسلين - عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وكانت آخر كلمات يوسف # بعد الفرج واليسر ولم الشمل، واجتماعه مع إخوته وأبويه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

في كل هذه المواقف تسلية وأسوة، وتثبيت للنبي ﷺ وأصحابه المطاردين من أعدائهم، المغتربين الموحشين.

وعندما نزلت على رسول الله ﷺ هذه السورة كان المسلمون بقيادته على أبواب الانتقال إلى بلد آخر، يكون لهم فيه النصر والتمكين في الأرض، حسب وعد الله ﷻ وسنته التي لا تتخلف مع أصحاب الرسالات والتابعين لهم إلى يوم الدين.

والدعاة إلى الله حماة المبادئ، والأسوة في التضحية في سبيلها، والصبر على المشقات، حتى يأتي النصر ويزول الكرب، ويفرح المؤمنون بنصر الله ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤٥].

لا بد لهم من زاد يعين على مشقات الطريق ، ويقرب الغاية التي من أجلها يتحملون ويبدلون ، وهذا الدرس الذي ضربه نبي كريم وداع أمين ، يحمل إليهم بشرى ، هي أن الفرج دائماً يعقب الشدة ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الله مع المؤمنين ، والله عَزَّوَجَلَّ يقول في ختام هذه السورة ، تعقيباً على القصة وبياناً للغاية منها : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْأَةٍ لَّا يَرُدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠].

وسنة الله عَزَّوَجَلَّ في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل إليها عبده ، هياً له أسباباً من المحن والبلاء والمشاق ، ليكون وصوله إليها كوصول أهل الجنة إليها ، وتلك عبرة لا تخفى على دعاة الحق.

بعض الملامح الشخصية في القصة :

عرضت شخصية يوسف # عرضاً كاملاً ، في مجالات حياتها وشتى استجاباتها في تلك المجالات ، وما تعرضت له من أنواع الابتلاءات ، وقد اجتمع فيه # كمال الجسم ، وكمال العقل وكمال الخلق ، وخرج من كل موقف محتفظاً بالنقاء والجلال ، والإباء ، والثقة في الله ثقةً لا حدود لها ، تبعث على الأمل وتستحث الخطى نحو العمل الأهم ولا تنساه.

وكل دور من أدوار حياته ينبهه إلى ناحية من النواحي التي تترتب على وجود الفرد في المجتمع ، وارتباطه به ارتباطاً لا يمحو الشخصية القوية الملتزمة ، المتحلية بالعزيمة والصدق والصبر ، مهما عظمت التضحية ، والوعد الحق الصادر من الحق ، فتأكد عملياً خلال قصة يوسف # كما هو وارد في قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۗ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۖ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣].

وشخصية إخوة يوسف ظهرت مستجيبة لهواتف الغيرة، والحقد والحسد والتآمر والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة بضعف وحيرة، وتميزت شخصية واحد منهم بسمات محددة، وهو الذي قال: ﴿لَا تَقْنُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهَ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْنَقُطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وقال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

وعرضت شخصية امرأة العزيز ومواقفها قبل غرائزها ورغباتها واندفاعاتها، متأثرة بما كان في بيئتها وسيطرتها على زوجها، كما عرضت شخصية النسوة من الطبقة العالية في المجتمع، وموقفهن أولاً من امرأة العزيز، وتغيره بعد رؤية يوسف، والدسائس التي تمثل البيئة التي لا يحجزها خلق نابع من عقيدة، تحفظ النفس وتصونها من الانزلاق إلى هذا المنحدر الذي لا يليق، والمرأة إذا سيطرت عليها عواطفها، أتت من المنكرات، واتهمت غيرها ودبرت له المكيدة، إذا لم يستجب لهاها.

ولقد كان يوسف # أسيراً لدى عزيز مصر، صاحب أمره ونهيه في بيته، ولم يكن أحد فيه أعز منه، ولا لأحد كلمة تعلو على كلمته بعد رب البيت.

وقد تولى الله تعالى يوسف # بالهداية والتربية والتوفيق، وعلمه من لدنه علماً عظيماً، وكادت الحياة تستقيم له فيستريح مما روع به، وهو صغير، إلا أن امرأة العزيز تعلق به قلبها، فصنعت ما صنعت، والله رَجَّكَ تدبير، كان تصرفها في ظاهره مصدر متاعب له، وفي الحقيقة كان وسيلة لنيل رضا الملك والحظوة عنده، كما كشفت الحوادث بعد، مما يدل على كمون المن في المحن، وإن كان موقف العزيز من زوجته، واستجابته لها مع براءة يوسف، مما اتهمته به، وأنه ضحية مكر وتدبير، لا يعفيه من مسئولية في الظاهر، ولحمة فيها توجيه.

لقد دخل يوسف # السجن، وعانى ظلمه وظلماته، وهو البريء الطاهر، ولكل ذلك أهداف شريفة، تعين الداعية وتفتح أمامه مجالاً واسعاً للعبارة، والعظة القدوة والتأسي.

وإذا كان العزيز لزوجته مطواعاً، وعمل برأيها في سجن يوسف # لإلحاق الصغار به، فإن الله ﷻ قد هياً له من الأسباب ما جعل السجن باباً لدخوله بيت الملك وتفويضه في تصريف الأمور.

وما يفعله الحكام ليدرءوا عن سمعتهم ما ينالها من سوء، تمتلئ به صفحات التاريخ، وإن كان ما اتهموا به في أصله صادق صحيح.

بين يوسف وأبيه - عليهما السلام - :

وتبتدئ السورة بعد المقدمة بعرض موقف بين يوسف، وأبيه - عليهما السلام -، رأى يوسف رؤية قصها على أبيه، فاستدل أبوه على أنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس، وتعلق به قلبه، وخشي أن يحرك الحسد قلوب إخوته عليه، ويحملهم على الكيد له، فأوصاه بكنم رؤياه وحذره من كيد الشيطان، وبشره بأن الله يصطفيه لنفسه، ويعلمه تأويل الرؤية والأحاديث، ويتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقْصُ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [يوسف: ٤ - ٦].

ويعقوب # بذلك قد حذر يوسف # وأنذره ما يستهدف له من كيد إخوته، كما بشره بحسن عاقبته، وقد وضع البخاري في الرؤية كتاباً سماه (كتاب التعبير)، جمع فيه نيفاً وأربعين باباً وصدّره بحديث: ((أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي، الرؤية الصالحة في النوم)) باعتباره أصل ذلك الباب.

بين يعقوب وبنيه:

في قصة يوسف وإخوته آيات على قدرة الله، وحكمته وتوفيقه، ولطفه لمن اختارهم من عباده، وتربيته لهم وحسن عنايته بهم، وإخوة يوسف حسدوه، وألقوه في غيابة الجب، فوصل إلى عزيز مصر الذي اعتقد أمانته وصدقه، وأمنه على بيته وأهله، وراودته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم، وظهرت نزاهته وعرف أمره، وكادت له مع النسوة، فألقى في السجن وهو البريء، فعرفه ساقى الملك، وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا، وعرف ذلك الملك من قبله، وأمن له وجعله على خزائن مصر، فأمكنه أن ينقذ أهله، وأن يأتي بهم إلى مصر، وكانت له العاقبة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

والحسد دفع إخوة يوسف أن يتهموا أباهم بمحabbاته هو وشقيقه، وإخلاله بالعدل والمساواة، مع أن الإخوة الكبار أهل القوة والكسب والنجدة، ونسوا أن أحب الأولاد إلى الوالد الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يحضر، والمريض حتى يشفى، ثم هم جميعاً سواء في العناية بهم، وإحسان تربيتهم، واثقاء وقوع التحاسد والتباغض بينهم، وفي تأمرهم على يوسف تكلم واحد منهم غير معين، مخففاً الأمر، فاستقر على كلامه الرأي، وكادوا أباهم وكلموه بما يدفعه إلى تلبية طلبهم، ما الذي يجعلك تشك في أمانتنا على يوسف مع أننا نخصه بالنصح؟ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب، ونقيه من كل سوء وأذى.

تاريخ الدعوة والدعاة

ولما أجابهم يعقوب # بأنه يحزنه فراقه، ويخاف عليه من الذئب أن يأكله وهم غافلون عنه باللعب، أجابوه بطمأنته على ما يخافه، وتركوا الحزن الذي لا بد منه، وفي مقابلته منفعة يوسف في صحته وجسمه، ولما وافقهم أبوهم وذهبوا بيوسف نفذوا ما عزموا عليه، واعتذروا لأبيهم بما لم يصدقوه، ولكنه صبر واستعان بالله عز وجل.

ولم تترك يوسف عناية الله، ولم يكن في الجب وحده، بل آنسه وبشره بأنه سيظهر عليهم، ويخبرهم بما كان منهم وهم لا يشعرون، وأنه لا بد لك من فرج ومخرج.

ويدل قول يعقوب لأبنائه على صغر سن يوسف في هذا الوقت؛ لأن الذي يخشى عليه من الذئب هو الصغير، الذي إذا غفل عنه إخوته تعرض لخطر يهدده.

أما تحديد سنه في ذلك الوقت، فلا سبيل إليه إلا بوحى من المعصوم عليه السلام، وهنا تتجلى شفقة الآباء على الأبناء وحنانهم، وخاصة أن يعقوب # نبي ورسول، والرسول -عليهم السلام- أهل الرحمة والحنان، وقد بينت ذلك الآيات من سبعة إلى ثمانية عشرة من سورة يوسف #.

يوسف # في بيت العزيز:

أخرجت يوسف # من البئر قافلة مارة في طريقها إلى مصر، فأخذوه وباعوه بثمن قليل، وأخفوه حتى لا يدعيه أحد، الله تعالى عليم بكل ذلك لا يخفى عليه شيء قادر على أن يغيره، لكنه فيه الرحمة لأهل مصر، والحكمة العظيمة، والقدر السالف يكون هذا الغلام الصغير هو الذي سيتقلد في مصر زمام الأمور، ويجري على يده من الخير ما ينفع الله به الناس في دنياهم وأخراهم.

وقد استبشرت السيارة به حين التقطوه، وتلك من نعم الله على يوسف # فكان لحسن طلعتة لا يجد من يراه إلا البشر في وجهه، ولا يعرف الحزن سبيلاً إلى قلبه، وباعوه في مصر، فلما وجهه مشتريه نظره إليه، وكان عزيز مصر أوصى به زوجته، وهكذا مكن الله له وعلمه من تأويل الأحاديث، ولما بلغ أشده أتاه الله الحكمة والعلم؛ ليواجه بهما مرحلة الشباب والمحنة مزوداً بخير ما يتزود به.

وقد صدقت في يوسف # فإساة العزيز، فكان له منه حسن عشرته، وكرم وفادته وشرف تربيته، وكان من يوسف # له حفظ أمانته وعدم خيانتة، ووفاءه الذي لا حدود له.

والله ﷻ دبر ليوسف # أمره، وألمه الخير كله ولم يكله إلى نفسه، والعلم خير عدة للشباب عند بلوغ الأشد، ومعين على الإحسان الذي يجازي الله عليه بمثله حسب سنته في خلقه، الذين سلمت منهم الفطرة وطهرت السيرة، فسلموا من اتباع الهوى وإطاعة الشهوة، والله تعالى إذا أراد أمراً هياً له الأسباب، ومع أن العزيز أوصى بوجه بيوسف # فقد نظرت إليه بغير العين التي نظر هو بها إليه، وأرادت منه غير ما أراد، وخادعتة عن نفسه لأجل أن يروى، أو يريد منها ما تريد، وتلطفت في ذلك تلطف المخادع، تريد من يوسف # غير ما يريد، وما لا يريد الذي مكن له في الأرض، وآتاه حكماً وعلماً، وهو الغالب على أمره الفعال لما يريد، وخابت في التحريض بالمغازلة، فلجأت إلى المصارحة والمكاشفة، ومع كل ما لجأت إليه لم يشاركها # فيه.

وأحكمت إغلاق الأبواب وقالت: هيت لك، والله أعلم بما زادت من الإغراء، فكان جوابه على ما فعلت أن استعاذ بالله، وتحصن به أن يكون من الجاهلين، وقد أحسن مقامه، وفضله لما هو عليه من الأمانة والصيانة، وهو وحده صاحب

تاريخ الدعوة والدعاة

الفضل والجميل، والعزيز أحسن معاملته وأكرمهم، فلن يقابل يوسف # إحصانه بشر الإساءة، ولا يفلح الظالمون لأنفسهم، أو لغيرهم بالعدو والخيانة، ولا يبلغون مقام الإمامة الصالحة، والرياسة العادلة النافعة في الدنيا، ولا يكون لهم في الآخرة الفوز والنعيم.

كان اعتصام يوسف # واعتزازه بالإيمان بالله، وتعريضه بالخيانة واحتقاره لها، وتمسكه بالأمانة، ووفائه لصاحب الدار، مضرماً لنار الغيظ في قلب امرأته، دافعاً لها إلى الانتقام؛ فهتت أن تبطش به تريد تذليله، وكاد يدفع ما أرادت من الصولة والبطش، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه في سريرة نفسه، من النبوة التي تلي العلم، أو مقدماتها من مقام الصديقية العليا أو معجزاتها، وكأنه بكل كيانه يرى ربه مطلعاً على حاله، وهو مقام الإحسان، المعبر عنه من رسول الله ﷺ بقوله: ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) فلم يفعل، وانصرف عما أراد، وآثر الفرار من هذا الموقف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلا يصيبه ما يخرج عن جماعة المحسنين، الذين أخلصهم الله واصطفاهم وصفاهم.

إن الشهوة المستمدة بالطبع المحرمة في الشرع يمنعها وجدان الإيمان بتجلي الرحمن، والناحية الروحية في ذوي المقام المحمود عند الله تغلب دائماً الطبيعة البشرية الجسدية، لرؤية برهان ربهم بأعين قلوبهم، حتى كأن النوازع البشرية لا وجود لها فيهم، ولا سلطان لها عليهم.

انطلق يوسف # إلى الباب يريد النجاة بدل الاندفاع الذي لا يعرف مداه، وتبعته المرأة تريد إرجاعه حتى لا يفلت من يدها، وقد أدركته، وقدت قميصه من دبر، ووجدت زوجها عند الباب فخدعته، وقالت: ﴿مَا جَرَأُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ [يوسف: ٢٥].

أوهمته بأنه اعتدى عليها بما يسوؤه ويسوؤها، ولم تصرح خشية أن يعاقبه بغير ما تريد، وبينت ليوسف # أن أمره بيدها، ليخضع لها ويطيع، مما اضطره إلى الدفاع عن نفسه وتبرئة ساحته بالحق، وهو نبي من سلالة أنبياء عصمه ربه عن الفحشاء، وحماه من مكر النساء، فهو سيد السادة النجباء، الصادق فيهم قول خاتم الأنبياء محمد ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ((ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله)).

وهذا الموقف من مواقف يوسف # نبراس يستضاء به، وقمة يدعى إلى الصعود إليها الشباب الذين يحبهم الله تعالى، الداعية إلى الله سبحانه أولى، وأحق بالحرص على ما ينفع، وما هو خير زاد للدار الآخرة، فيوسف # شاب في ريعان الشباب، ونضارة الفتوة، تدعوه سيدة جميلة، فيغلبه دينه ويعصمه عن الدنيا إحسانه، ويفر طالباً النجاة من شيطان غوايتهما، وهي تجاذبه ثوبه حتى تمزقه من خلفه، ويفلت من يدها إلى الباب ليفتحه، وحينئذ يجد بعلمها عنده، وتبادر باتهامه زوراً، فيدفع عن نفسه التهمة ولا يزيد، ليعلم زوجها براءته وثبوت خطئها هي: ﴿قَالَ هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، فامتعت وفررت، وإذا كانت العادة العقل يقضيان بأن يحدث تشاور بين العزيز وأهل زوجته، فإن قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦] يدل على وقوعه.

كما أن شهادته أظهرت براءة يوسف #، فقال زوجها: إن السنة الجارية في النساء عامة هي الكيد، والتنصل منه باتهام الغير، أوصاه أن يعرض عن هذا ولا يتحدث به، كما أوصاها أن تستغفر من ذنبها وتتوب.

ويوسف # لم يجد بدءاً من أن يقول الحق، بجرأة لا تصدر إلا عن قلب مؤمن مطمئن، ولو كان على ريبة من جهة نفسه، لما استطاع أن يواجهها في حضرة زوجها بما أبهتها، ولكن الحق لا يخشى باطلاً، ولا يعمل حساباً لشيء أبداً.

ومكرت النسوة من كبار البيوت بامرأة العزيز، وتعجبن من مراودتها لفتاها، فلما سمعت أرسلت إليهن، ودعتهن إلى الطعام، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً، وأمرته بالخروج عليهن، فلما رأينه أعظمه، ودهشن لهذا الحسن البار، وعبرن عن شعورهن: ﴿ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٣١].

ولما وصلت إلى ما أرادت، وضمت إلى صفها النسوة، هدت يوسف # مستغلةً سلطانها على زوجها، مع علمه بأمرها واستعظامه لكيدها، فكان رد يوسف #: ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٢٣٣]، فليس لي من نفسي إلا العجز والضعف، فحطني بحولك وقوتك، فالاستجابة لدعوة النسوة أمر غير ممكن، والصبر على الامتناع مع معاناة الشدة أشق على المؤمن العارف بربه، وليس له من الفائدة، والعاقبة ما للسجن الذي يزيدني دخوله إيماناً بقضائك وصبراً على بلائك، وشكراً على نعمائك، وعلماً بشئون خلقك، ويفتح لي باب الدعوة إلى توحيدك والاستعداد لإقامة الحق، فيما عسى أن تخولني من الأمر إذا مكنتني كما وعدتني في الأرض، فالسجن أحب إلي، فاستجاب الله دعاءه فصرف عنه كيدهن، وهو المحيب لمن أخلص له العليم بما يصلح حاله.

ثم ظهر للقوم من الرأي ما لم يكن من قبل، وهو أن يسجن يوسف إلى أجل غير معين، فاستقر على ذلك الأمر، وهو دليل على أن العزيز كان أسيراً للرأي زوجته، خاضعاً لهواها مستسلماً لإرادتها.

مع أن واجبه وقد رأى الآيات الدالة على صدق يوسف وكذب امرأته، أن يوقع بها ما تستحق على ما اجترحت، وأن يكرم يوسف # ويظهر للناس براءته، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن.

بل عمد هو وآله إلى من أحسن عمله ، وحفظه بالغيب في زوجه بغير ما هو أهل له ، وإذا كان الجميل قد يذهب عند بعض الناس ويضيع ، فحسب فاعله أن يلقي الجزاء عليه من ربه ، وصدق رسول الله ﷺ وهو يعبر عن بعض هذا الجزاء ، فيقول : ((صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف)).

يوسف # في السجن :

دخل يوسف # السجن وهو البريء ، ودخل معه بتقدير الله ﷻ فتيان من فتیان الملك ، رأى كل واحد منهما رؤية ، رأى أحدهما أنه يعصر خمراً ، وكان ساقى الملك ، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ، وكان على طعامه . وقد لمس كل منهما في يوسف # من العلم وحسن السيرة ، ما يجعله أهلاً لكل خير ، فسألاه أن يؤول لكل منهما رؤياه ، وكشأن الداعية إذا وجد فرصة للدعوة لم يتركها ، ويحرص عليها الحرص كله ، وهو ما فعله يوسف # ، فانتهاز فرصة اهتمام صاحبيه في السجن ، فوجههما إلى الخير ودعاهما إلى الحق ، وإلى ما يزيد ثقتهم فيه ، ونسب الفضل إلى من له الفضل ، وهو الله ﷻ .

دعاهما إلى توحيد الله ﷻ وقد جاءه وحي الرسالة ، وأكثر الناس استعداداً لقبول الدعوة والاهتمام بها ، الضعفاء والمظلومون ، كما أن أبعدهم عنها المتكبرون المترفون ، وقدم في دعوته ما يدل على صدقه والثقة به ، وإظهار ما من الله به عليه من تعليمه ما شاء من أمور الغيب ، وما يختص بعيشهم من الإخبار بالطعام ، وهو عند أهله ، وقبل مجيئه بوحي من الله ﷻ مصدر الغيب كله ، ومهد طريق الدعوة بقوله : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ

مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣٧﴾

وكما يصدق الترك بعدم الملازمة يصدق بالتحول عن الشيء بعد ملابسته ، وهو يريد كل من ليس على الحق في اعتقاده من الأقوام ، الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، واتبعت ملة الأنبياء الداعين إلى التوحيد ، ويوسف # وهو يدعو إلى التوحيد في السجن ، ويسوق عليه الأدلة القيمة ويجعله سلواه ، ويؤكد أن الإله الواحد خير من أرباب متفرقين ، يتيه العقل فيهم ، يضرب المثل للداعية ويحدد له ما هو أجدر باهتمامه ، وأولى بكل عنايته ، لقد أنس إلى يوسف # في السجن رفيقاه فيه ، ولمسا فيه من الطيبة والصلاح ، وإحسان العبادة والذكر ، فسألاه وانتهز هذه الفرصة لبيث عقيدته الصحيحة ، وفي دعوته صورة كاملة للإسلام ، كما جاء بها الرسل - عليهم السلام - وآلت دعوتهم إليه ، فتلقاها من ربه واحداً من سلسلة ورثة النبوة والرسالة ، وعبر عنها ، فقال : ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، وذلك فضله علينا بالهداية ، وعلى الناس بإرسالنا إليهم ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

وقد بدأ الدعوة فيما يشغل بال محدثه ، وهو تल्पف في المدخل إلى نفوس الناس ، وهو درس ينبغي أن يعيه كل داعية ، كما عرض بल्पف ببيت العزيز ، وحاشية الملك والملا من القوم ، حتى لا ينفر محدثيه ، وهما لا يزالان على نفس الدين ، قال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمْتَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَجْدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦-٤٠﴾ ليوسف: ٣٦-٤٠.

نعم إن التفرق يقتضي التنازع والاختلاف في الأعمال والتدبير المفسد للنظام، أما الإله الواحد الخالق القادر فعزته غالبية، وإحاطته شاملة، ونظامه لا عوج فيه ولا فساد، وهو خير وأبقى كما تأمر بذلك الفطرة المطمئنة للقلب المنقعة للعقل المريحة للوجدان.

ويترتب على ذلك أن القوم يعبدون ما لا دليل عليه ولا برهان، فالله هو المستحق للعبادة دون سواه، له وحده الحكم وهو الحق وإن جهل ذلك بعض الناس، فاتخذوا لأنفسهم أرباباً متفرقين يعبدونها من دون الله، والخير كل الخير للإنسان أن يعبد إلهاً واحداً، يعرف ما يرضيه فيبادر إليه وما يبغضه فيدعه، وليس من الخير له أن يعبد آلهة كثيرين، إن أرضى هذا غضب ذلك.

فتوحيد الإله مصلحة للناس، وخير لهم وتنظيم لعبادتهم وجمع لشتاتهم، أما الشرك فهو مدعاة لتشويش نفس العابد، وتفريق أمره فيما بينه وبين معبوديه، والتوحيد يتفق مع الفطرة ويناسب العقول، ويتمشى مع المصلحة.

يوسف # والملك:

عرض الملك على المختصين من رجاله رؤية رآها فعجزوا عن تفسيرها، فكان ذلك سبباً للاتصال بيوسف #، وتولية منصب الإشراف على خزائن الأرض مزوداً بالحفظ والعلم، فقد تذكر ساقى الملك وصية يوسف # له بعد فترة طويلة، عندما جاءت المناسبة، وطلب أن يرسلوه إلى السجن، وطلب من يوسف تفسير رؤية الملك، ورجا أن يكون ذلك محققاً له أمله في الخروج،

تاريخ الدعوة والدعاة

والوصول إلى ما يريد لدينه ودعوته، عندما يعلم الناس مكانته وعلمه، فبين يوسف # له تأويل رؤيا الملك، في سياق التدبير العملي الذي ينبغي أن يسلك، لتلافي الأزمة التي توحى بها الرؤية.

والعلم يرفع دائماً من شأن صاحبه، ويوجه الناس إليه حيث وجد، لاسيما العلم الذي يهذب الأخلاق ويضبط السلوك، وقد سعى الساقى إلى يوسف # ووجه نحوه الأنظار، مع أنه سجين مظلوم، والعلم يدعو إلى الإحسان ولو إلى المسيء.

ويوسف # لم يبخل بالنصيحة، ووصف طريق الخلاص من المجاعة، وبين كيف يمكن تلافيتها، حتى لا تقع الأمة في ضيق، مع أنه مظلوم في مؤامرة دبرت له مع أمانته، وعفته وصيانتته شرف العزيز.

وبلغ الرسول الملك ما قاله يوسف # فأدرك أن الأمر يحتاج إلى تدبير يتولاه ذلك الرجل العالم البصير، وأحب أن يراه لسمع منه، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ ليوسف: ١٥٠.

دلالة على صبره وإيمانه وعفته وأدبه، حتى قال الرسول محمد ﷺ: ((ولو لبثت في السجن طول لبث يوسف لأجبت الداعي))، إنها عزة نفسه، وكرامتها وحرصه عليها.

فلم يرض الخروج حتى تعرف براءته وتظهر عفته ونزاهته، وقد نفذ الملك رغبته، واعترفت النسوة بالحقيقة، وقالت امرأة العزيز: ظهر الحق، لم يراودني يوسف #، واستعصم وإنه لمن الصادقين.

وهذا الإقرار بالحق له ليعلم أنني لم أخنه في حال غيبته في السجن، ولم أظعن في شرفه وعفته، وقد اعترفت بذلك أمام النسوة وأمام الملك، وإنها لا تبرئ نفسها

من الكيد له ليدخل السجن، لعله يطيع ويلين، والنفس أمانة بالسوء، ولقد كان المثل الكامل في العفة والصيانة، لم يمسه أدنى سوء من ناحية النسوة ولم يتهم بالفاحشة قط، وقد آثرت المرأة إعلان الحق مع أن النفس كثيرة الميل إلى الشهوات، إلا من صرف الله عنه السوء الفحشاء برحمته ومغفرته.

كما بينت المرأة أنها لم تخن زوجها، وإنما راودت، والله ربي يوسف # أكمل تربية، وجعله خير أسوة في العفة والنزاهة والصدق والأمانة، وموقف صاحب الحق له تأثيره على الخصم، فإذا اتهمه بلسانه اعترف بنزاهته في قرارة نفسه، والمرأة لامت نفسها على ما وقع منها تجاهه #، وأقرت بذلك وهو في السجن، فلم تخنه بالغيب، وما وقع منها كان في وقت طيش، وظروف وملابس عجزت تجاهها عن الصمود، وقد مرت السنوات وهدأت العاطف، وعادت المرأة لتفكر في موقفها من جديد، وأعلنت الحقيقة: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51].

ولما نفذ الملك ما اشترطه يوسف # حضر إلى مجلسه وكلمه، فقال له: إنك اليوم لدينا مكين في إدارتك غير منازع في تصرفك، ولا متهم في أمانتك، لاستحقاقك لهذه الثقة من فحوى كلامك، فضلاً عن أخلاقك، وأعمالك التي ترشحك لأعلى مكانة، وكلامه دليل على وفرة عقله وحبه للعدل وبصره بالرجال، واختار يوسف # العمل الذي يناسب مواهبه، فهو شديد الحفظ لا يضع منه شيء، ولا يضع شيئاً في غير موضعه، راسخ العلم بالوسائل ووجوه التصريف والانتفاع، والحفظ والأمانة والعلم والدراية تمكن أصحابها من نيل الدرجات، كما جرت بذلك سنة الله في العباد أن يمكن أصحاب هذه المزايا في الأرض، وأن يصيبيهم بالرحمة والإحسان، فضلاً عما لهم في الدار الآخرة من

الجزء، ولقد أصاب يوسف # في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها، لينهض بالواجب، ويتحمل التبعة في أشد أوقات الأزمات، وهو من تمكين الله له، وهبته الحفظ والعلم، وهما صفتان لا غنى عنهما لمن يتولى مثل هذه الشؤون التي نهض بها، مع كونها لا تتعلق بطعام الناس في مصر وحدها، بل تتجاوزها إلى غيرها من الشعوب.

بين يوسف # وإخوته:

بذل يوسف # في علاج المجاعة وسعه، وجعل مصر قبلة لغيرها من البلاد المجاورة، التي نزلت بها الشدة ومنها فلسطين.

التي كان فيها يعقوب # مع بنيه، وجاء إخوة يوسف إلى مصر لشراء القوت، ودخلوا عليه فعرفهم ولم يعرفوه، وأكرم ضيافتهم وأحسن نزلهم وجهازهم، وأوفى لهم الكيل، وطلب منهم عند العودة أن يحضروا معهم أخاً لهم من أبيهم، وإلا فلا يأتوه، أوصى فتيانته أن يجعلوا بضاعتهم في رحالهم، لعلهم يعرفونها إذا رجعوا، فيعودوا مرة أخرى.

وطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم، فأخذ عليهم موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحاط بهم، ووصاهم ألا يدخلوا من باب واحد، وأن يدخلوا متفرقين، وقضى بذلك حاجة في نفسه، وإن علم أن الحذر لا يغني من القدر شيئاً، وهو ذو علم علمه الله، وأكثر الناس لا يعلمون، وسواء أكان ما خافه من دخولهم من باب واحد عيناً حاسدة، أو غيرة من كثرتهم، أو تتبع قطاع الطريق لهم، فإنه قد قضى حاجته بوصيته لبنيه، وربما أراد أن يروا أعينهم ما يكون من تأثير في نفسه، وما يظهر عليه عند رؤية شقيقه، وأبهم الأمر؛ ليعرفه منهم عند الرجوع، وهو أمر يفوت لو أنهم دخلوا مجتمعين.

تابع قصة يوسف - أيوب وموسى - عليهم السلام-

عناصر الدرس

١٦٩	العنصر الأول : استكمال قصة يوسف #
١٧٣	العنصر الثاني : أيوب #
١٧٦	العنصر الثالث : موسى #

استكمال قصة يوسف

وقد ضم يوسف # إليه أخاه، وعرفه بنفسه وجهاز إخوته، وجعل السقاية في رحله، ونادى مناد فيهم: ﴿أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرْفُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ [يوسف: ٧٠ - ٧٢]، فبرءوا أنفسهم وأقسموا ما جاءوا لإفساد في الأرض بسرقة ولا غيرها، وما ذلك من شأنهم، وجزاء السارق أن يسترق، كما في شريعة يعقوب #.

فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها منه، وأخذه في دين الملك، فقال إخوة يوسف - والحسد لا تزال آثاره في النفوس - : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف: ٧٧]، فكنتم القول لما سمعته، ولم يؤاخذهم به، لا قولاً ولا فعلاً، وما زاد على أن قال: ﴿أنتم شر مكانا﴾ [يوسف: ٧٧] ممن تعرضون به ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: ٧٧، ٧٨]، جديراً بالرعاية له تعلق به، ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا مَكَانَهُ﴾ [يوسف: ٧٨] فأبى ذلك الظلم، وهو أخذ البريء بذنب السارق، وهنا قال كبيرهم: ﴿فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

ورجعوا إلى أبيهم وأخبروه فلم يصدقهم وتجمل بالصبر، وشكا أمره إلى الله، ورجاه أن يأتيه بهم جميعاً، واشتد حزنه على يوسف وابتضت عيناه، وأمرهم أن يذهبوا إلى مصر ليتعرفوا شيئاً من حال يوسف وأخيه، وألا يبأسوا من روح الله، فالمؤمن رجاؤه في الله لا يخيب، ويعقوب # لا ينقطع في الله رجاؤه، واتصاله به وثيق وشعور في قلبه لا يفقده الأمل، مهما تتالت الخطوب أو تخلت القلوب.

وقد غاظ أبناءه أسفه على يوسف وأخيه، ووجهوا إليه اللوم والتأنيب، فوجههم إلى البحث عن يوسف # وأخيه، فإن رحمة الله واسعة وفرجه قريب، فنفذوا ما طلب عادوا إلى مصر من جديد، وقالوا: يا أيها العزيز أصابنا من الجوع ما أصابنا، وبالغوا في إظهار التذلل والاستماعة، فكان أن وجه إليهم هذا السؤال: ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٨٩]، تمهيداً لتعريفهم بنفسه، وقد بلغت الأقدار من تربيتها لهم وله غايتها، فترفق بهم وعاد إلى الماضي يذكرهم به، ولم يطلع عليه غيرهم حين اقرتوا جنابة طال عليها الأمد، ووقفوا بين يدي المجني عليه موقف البائس الفقير، وهو موقف يذيب الفؤاد خجلاً ويخرس اللسان، وينكس الأبصار، فكان العفو والكرم من خير أسوة في صلة الرحم، ومحو الإساءة مضرب المثل، وقد استشهد به يوم فتح مكة محمد ﷺ خاتم النبيين.

لقد ذكرهم يوسف # بالإساءة في لطف، ناسباً إياها إلى الجهل والحمق، وكان كلامه شفقة عليهم، ونصيحة لهم في الدين، فلله أخلاق الأنبياء، والله حصافة عقولهم ﷺ.

وكان سؤاله لهم داعياً إلى سؤاله للتحقق من حاله: ﴿ قَالُوا أءَ تَأْتِكُ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتِّقِ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٩٠]، فاعترفوا بذنبهم، وبأن الله فضله عليهم، عفا عنهم أحسن إليهم وقد أساءوا وحلم بهم وقد جهلوا، وكرم معهم مع أن موقفهم معه كان غير كريم، لقد أضمروا له ولأخيه الحسد، فمن الله عليهما بإحسانه وإيوائه، وشد معاقد أزرها، بما أسلفا له من طاعة وصبر على ما كان، وطاعة لأبيهما وعطف عليه وإحسان، وأعطاهم قميصه ليذهبوا به إلى أبيه في فلسطين، فيرتد بصيراً بإذن الله.

ولما فصلت غيرهم عائدة قال يعقوب # : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفِيدُونِ﴾ ٩٤ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿ [يوسف: ٩٤، ٩٥]، اتهموه بالإفراط في حب يوسف # والبقاء على الرجاء في لقائه، مع أنه ذهب مذهب الذي لا يعود، ودخل أولاد يعقوب # وسألوه المغفرة، فوعدهم بالاستغفار لهم، ولما كان مقام يوسف مقام الملك أنسهم من الخوف والانتقام، وعجل سرورهم بالحياة الجديدة، ومقام يعقوب # مقام المربي المرشد، ولا يخشى منه الانتقام، والذنب لم يكن موجهاً إليه بالذات، وإن عانى منهم الكثير، فأراد أن يسكن ويستريح.

فلما جمع الله الشمل وذهب الألم والضيق حقق لأبنائه ما طلبوه ورحلوا إلى مصر، فاستقبلوا فيها بما يليق بهم من حفاوة وتكريم، وضم يوسف # أبويه إليه، ورفعهما على العرش الذي كان يجلس عليه، وتوجه إلى الله ﷻ بالدعاء، شاكرًا إياه على حسن الخاتمة في الدنيا، راجيًا السعادة في العقبى، والجميع وسط الفرح والابتهاج، والتسبيح والإجلال والذكر، وقد تجردوا من كل شيء، ووقف يوسف # موقف العبد المفرد، يسأله -جل وعلا- أن يحفظ عليه إسلامه، وأن يلحقه بالصالحين.

عبر مستفادة:

تعتبر قصة يوسف # موردًا غزيرًا، للأخلاق الطاهرة والاستقامة على المبادئ الحقة، وأثر ذلك كله في النفس، تمسك بالعفة، والفضيلة وهو شاب محفوف بالمغريات، ولم يغير مبدأه وإن تعرض للسجن بقصد التطويع والإذلال، فأصر على ما هو عليه، وضرب المثل الأعلى في الاستمسك بالشرف، والانحياز للمبدأ، والصلابة في الحق.

وكان # طيب الأصل ، يدرك شرف الأسرة التي ينتمي إليها ، ومالها من مواقف الجهاد والتضحيات ، وأنها أسرة فيها النبوة والكتاب ، واعتز بكرامته ، وأنه امتداد لتلك النخبة المختارة من الرجال ، الذين حملوا راية الهداية ، وقدموا للبشرية أجل الخدمات ، وضربوا أروع الأمثلة في كل المواقف التي يشرف بها الإنسان.

علمه الله ، وفتح بصيرته ، وأعطاه فطنةً وذكاءً ، وتقديراً للعواقب وحرصاً على الاتزان والنهوض بالأعباء الجسام ، ولم يفقد اتزانه ، ولم يتخل عن إيمانه بربه وعمله له ، على الرغم من تتابع الصعاب ، وهبوب العواصف وتعاقب الأخطار ، فكانت له العاقبة حسب سنة الله مع الرسل الكرام عليهم السلام ، ومن يحمل عبء الدعوة إلى قيم الحق والخير والهدى والفلاح.

لقد التجأ إلى الله عند كل ضيق ، وطلب معونته عند كل شدة ، فكانت آخذة بيده إلى الرشد ، صارفة عنه ما لا يقدر عليه ، معينة له على الكيد الذي يدبر له ، وقد تغلغل في نفسه الإيمان بالله ، فلم يترك فرصة إلا ودعا فيها إليه حتى ، وهو في السجن ، وفي ذلك المثل الأعلى للدعاة في كل زمان ومكان ، وكان شرف نفسه ، وطهارة سمعته ، واستقامة مسلكه ، أعز لديه من الخروج من السجن ، فلم يزايله إلا بعد أن ظهرت براءته ، وأعلنت في مجلس الملك ، وكان متحلياً بالصبر ، وهو من أعظم الفضائل وأجلها قدراً.

وهو في أصحاب الدعوات الملاذ والملجأ ، وهم بلا شك أحق وأولى بحبس النفس على ما تكره ، لقد صبر على إيذاء إخوته له ، وعفا عنهم عند المقدرة ، وصبر عند مجيء النعمة ، فجاورهما بالشكر ، وصبر على كبت النفس عن الشهوة ، وقد حف بالمغريات ، وصبر على السجن والتزم سعة الصدر فيه ، وحسن السيرة

مع الرفقاء، وحسب الداعية إلى الله دلالة على قيمة الصبر أن نسب يوسف # له ما لقيه من حسن العاقبة، والنجاح في كل أمر، فقال كما ذكر القرآن الكريم: ﴿إِنَّهُ مِنَ يَتَقِّ وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف: ٩٠، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: ((وما أعطي أحد عطاءً خيراً، وأوسع من الصبر)).

أيوب

ذكر القرآن الكريم أيوب # في أربع سور، وهي: ص، والأنعام، والأنبياء، والنساء، وثلاث من هذه السور مكية وواحدة مدنية. وقد امتحنه الله تعالى في ماله، وأهله وبدنه فصبر صبراً جميلاً، ووهبه الله العافية، وأعطاه وأثنى عليه كسنته ﷻ مع الصابرين المحتسبين. ولم يزد أيوب # ما أصابه من البلاء إلا حمداً وشكراً واحتساباً وصبراً، وثناءً على الله ﷻ في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه.

قدوة في الصبر:

توجه أيوب # إلى ربه - جل وعلا - يطلب عفوه وعونه، فقد آذاه الشيطان بنصب وعذاب، فاستجاب الله دعاءه وأرشده، وعوضه في المال، والأهل والولد، ويسر عليه كما ذكرت ذلك سورة "ص" أولى السور التي عرضت لذكر أيوب #.

لقد أنبع الله تعالى له عيناً باردة الماء، وأمره أن يغتسل، ويشرب منها ففعل، فأذهب الله تعالى عنه ما كان به من الألم، والأذى والسقام، وأبدله صحة

تاريخ الدعوة والدعاة

ومالاً، وأخلف له أهله وجمع شمله، وإذا كانت الدعوة الإسلامية في مكة قد واجهت قومًا يبطشون بالدعاة، وينزلون بالمستضعفين منهم الأذى في الأهل، والنفس والمال، فإن لهم أسوة بنبي الله أيوب # الذي ابتلي فصبر فكان له الأجر والعاقبة، وفرج الله عنه الكرب وعافاه؛ لأنه اتقى الله تعالى وأطاعه، ومن يتق الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

وحين حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برئ حلله الله تعالى من يمينه بأهون شيء عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه ورضاه عنها، وكون سبب يمينه إبطاؤها في حاجة، فخرج صدره # لما به من البلاء، فأخذ حزمة وضربها ضربة واحدة لير ولا يحنث، رخصة ورحمة من كاشف الضر والبلاء، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ - ٤٤].

امتحان الله للأصفياء:

ومن المسلم به أن الأنبياء - عليهم السلام - قد يصيبهم من الله عَجَلٌ الابتلاء بالأذى من أقوامهم المكذبين، أو بالنعمة والملك أو بالضر في النفس والمال والأهل، ولا يتنافى ذلك مع ما لهم من مكانة عند الله عَجَلٌ، فأيوب # الذي هو من ذرية إبراهيم حسبما ذكرته سورة "الأنعام"، بناءً على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، راجع إلى إبراهيم - عليهم السلام -، وقد حكى ابن عساکر أن أم أيوب بنت لوط - عليهما السلام.

وخروج الأنبياء - عليهم السلام - من الابتلاء بالنصر، والأجر بعد الصبر، يجعل للإنسانية فيهم القدوة والأسوة في كل الحالات، والحجة للدعاة إلى الله ﷻ على أعدائهم من الناس، ونظرة إلى بعض هؤلاء الصفوة المختارين، تبين أن سليمان # كان حجة لله على الأغنياء، ويوسف # على الشباب الأقوياء، وأيوب # على أهل البلاء.

وقد ذكرته سورة "الأنبياء" دون تفصيل لبلائه، وذكرت دعاءه # ربه، الذي لم يزد فيه على وصفه بما يليق به ووصف حاله هو، وتفويض أمره إليه؛ لأنه أعلم بحاله.

وفي اللحظة التي توجه فيها إلى ربه كانت الاستجابة له، فرجع الله عنه ضره، فإذا هو صحيح معافى، وعوضه في ماله رحمة منه وذكرى للعابدين، الذين يتعرضون للبلاء، فيكون لهم على الصبر عليه حسن الجزاء، قال تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

والداعية إلى الله أحوج ما يكون إلى الصبر، ينتغي عليه من الله الأجر، يصبر على هوى نفسه، وعلى الأذى يناله من قومه، لقيامه بواجب دعوته، وعلى البلاء يصيبه في نفسه وأهله وماله، وله على ذلك كله البشارة من ربه ساقها إليه في محكم كتابه، قال تعالى:

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣] إلى أن قال:

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

تاريخ الدعوة والدعاة

وللداعية في كل هذه المجالات أسوة برسول الله أيوب # الذي اصطفاه الله واختاره، وابتلاه فصبر، وأوحى إليه فبلغ وحي الله، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وفيما ذكره القرآن كفايةً وغنىً، وليست هناك ضرورة تدعو إلى الجري وراء غير الثابت، وغير الصحيح، مما يتعلق بدعوة أيوب وقصته # وبلائه وصبره الذي صار مضرب الأمثال، ولم يكن أيوب # بالضعيف الرغبة في الخير يأتيه من الله، بل كان يعمل لدنياه وآخرته، ويحرص على نعمة ربه، فعن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه رجل جراد من ذهب، فجعل أيوب يحشي في ثوبه، فناداه ربه ﷻ: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى، قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك)).

موسى

وردت قصة موسى # ودعوته في القرآن الكريم في أربع وثلاثين سورة، وهي: الأعلى، والنجم، والأعراف، والفرقان، ومريم، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، والإسراء، ويونس، وهود، والأنعام، والصفات، وغافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والأحقاف، والذاريات، والكهف، وإبراهيم، والأنبياء، والمؤمنون، والسجدة، والنازعات، والعنكبوت، والبقرة، وآل عمران، والأحزاب، والنساء، والحج، والصف، والمائدة، وسبع وعشرون من هذه السور مكية سبع مدنية.

وقد فصلت قصته في عشر مواضع ، منها ستة مواضع أكثر من غيرها تفصيلاً ، وتنقسم قصته إلى عدة حلقات ، حلقة مولده في فترة اضطهاد بني إسرائيل ، وحلقة ذهابه إلى مدين ، وحلقة عودته إلى مصر ، وما كان في طريق العودة من النداء والتكليف بالرسالة ، وحلقة مواجهته لفرعون التي انتهت بنجاته مع بني إسرائيل ، وغرق فرعون ، وحلقة موقفه مع بني إسرائيل بعد النجاة .

وفصلت بعض هذه الحلقات في بعض سور القرآن أكثر من غيرها ، في حين اقتصر بعض السور على جوانب منها ، حسب مقتضيات السورة ، والظروف التي كانت حين نزولها ، وما كان يواجهه رسول الله ﷺ والمؤمنون معه من مواقف ينزل فيها القرآن موجهاً ، وتوجد إلى جانب ذلك إشارات إلى فرعون دون ذكر موسى # كما في سورتي "الفجر" و"البروج" وغيرهما ، وهناك أوجه شبه كثيرة بين ما جاء به موسى # وما جاء به محمد ﷺ كما سجلت ذلك سورة "المزمل" في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المزمل : ١٥] .

وأول إشارة إلى كتب الأولين جاءت في سورة "الأعلى" ، وهي تدل على أن المخاطبين كانوا لا يجهلون أن هناك كتباً إلهية أنزلها الله على أنبيائه ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ (١٨) ﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٨ ، ١٩] .

كما وردت كذلك الإشارة إلى فحوى هذه الكتب ، وبعض محتوياتها في سورة "النجم" في قوله ﷻ : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ (٣٦) ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ (٣٧) ﴿ الْأَنْزُرُ وَأَنْزُرُهُ وَزُرَّخْرَىٰ ﴾ (٣٨) ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٦ - ٣٩] .

وذكر هذا في مقام عرض الدعوة وأهدافها في هذه الفترة المبكرة في مكة للإعلام بأن ما يبشر به ، وينذر الرسول الخاتم محمد ﷺ هو استمرار لما أنزل على الرسل

تاريخ الدعوة والدعاة

السابقين - صلوات الله وسلامه عليهم - وخاصة الذين كان لهم في أذهان المخاطبين مكاناً، باعتبار وجود جاليات يهودية تؤمن بموسى # وتنتسب إليه، ومعجزاته مشهورة بينهم، والتوراة التي أنزلها الله عليه، كما أن العرب كانوا ينتسبون إلى إبراهيم #، ومنهم من كان على دينه، هذا إلى جانب صلة إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - بالكعبة والحج.

والقرآن يخاطب الناس من حيث يسمعون، ويواجههم من حيث يهتمون ويعرفون، ليكون ذلك عوناً على تبليغ الرسالة ونجاح الدعوة، وأنها ليست بعيدة عن المخاطبين وما يشغلهم، وفي ذلك توجيه، وعبرة للداعية يعتبر بها في نجاح دعوته.

وقصة موسى # أشبه قصص الرسل، بقصة محمد ﷺ، فهو صاحب شريعة كون بها أمة ذات ملك ومدنية، وله مع فرعون قصة ورسالة، وله مع بني إسرائيل قصة ورسالة، وقد لاقى من الجانبين عنتاً وتكديباً، وانتهى أمره وأمر المؤمنين معه إلى النصر، كما انتهى أمر المعارضين المستكبرين المترفعين عن الإيمان بالله إلى الزوال والعذاب الأليم بعد طول مقاومة وعناد.

وقد قاومت دعوته # الظلم والطغيان، والإلحاد، وواجهت عدواً داخلياً وعدواً خارجياً، وحققت على كليهما الانتصار بتأييد الله وعونه، الذي لا يتخلى عن أصحاب الرسالات، وكانت شريعته عظيمة أشاد بها القرآن، وترسم خطاه الرسول محمد ﷺ فأشاد به، حتى قال في الحج: ((كأنني أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية، وله جوار إلى الله ﷻ بالتلبية، ورأيت ليلة أسري بي موسى بن عمران رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة)).

أول لقاء بعد الرسالة :

وأولى السور المكية الكبيرة التي تحدثت عن موسى # هي "الأعراف"، ففيها أكبر قدر من قصته، وبدأت ببيان اللقاء الأول بين موسى داعي الحق # وبين فرعون الذي يحكم مصر، ويزعم أنه إله للناس، وتظهر الآيات مخاطبته لفرعون بأدب واعتزاز، دون مبالغة في التعظيم، أو مذلة أو هوان، وقد طلب منه أن يطلق بني إسرائيل وقد تعبدتهم، وافترى على الله الكذب، وأن يرسلهم ليكونوا عبيد الله رب العالمين دون سواه، وقد طلب فرعون منه آية، فإذا لم يأت بها تبين كذبه وهان أمره وسقطت دعوته، ولم يبق له عليه حجة ولا برهان، ولم تكن مع موسى # آية واحدة بل آيات، ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: 107]، أو حية تسعى، ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴾ [الأعراف: 108]، واشتمل كلامه # معه على الوحدانية، وعلى الرسالة المؤيدة منه سبحانه بالعصمة في التبليغ.

لقد أرسل الله موسى # إلى فرعون ملك مصر، ووجهاء قومه برسالة منه، وأيده بما يدل على أنه مرسل من جهته، فعارضوه وواجهوه بالتحدي، وبذلك ظلموا أنفسهم، فكانت نهايتهم كنهاية كل المكذبين، الذين تحدثت عنهم سورة "الأعراف"، ولفتت الأنظار إلى عاقبتهم، وما لهم من العقاب في الدنيا والآخرة، حسب سنة الله التي جرت فيمن تقدم على عرض القصة من قصص الأنبياء - عليهم السلام.

لقد انحرف فرعون بنعمة الجاه والملك والقوة والثروة، وعاونه الملأ من قومه على الانحراف، فكان الفساد في الحكم، والظلم في سياسة الرعية، والفرقة في القيمة بين أفراد الإنسان في المعاملة والنظرة، وأدى ذلك إلى سقوط هذا المجتمع المنحرف

تاريخ الدعوة والدعاة

عن هدي الله وسنته، ورسالة موسى # كانت تستهدف الحياة الإنسانية في ذاتها، وتحرير المستذل، والعودة به إلى حريته، ليعيش الناس كرماء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٠٨].

فرعون والملأ معه:

وظهرت معجزات موسى # فلمس القوم خطرهما، وتداولوا ليحولوا بين موسى # وبين التأثير على الناس، واستقر رأيهم على إرجاء الرد عليه، لجمع المنفرد من السحرة، لتكون لهم عليه الدائرة والغلبة، ووافقهم فرعون وكابروا في الحق الذي يعلمونه، وجاء السحرة، وهدفهم الأجر وطالبوا به، فوعدهم فرعون، وزاد على ما طلبوا بأن يكون لهم القرب، إلا أن الأمر كان أمر معجزة ورسالة، ودعوة إلى الحق الذي له الغلبة، سنة من سنن الله في خلقه، الذي لا يخلف وعده ولا يهزم جنده.

ورغم ثقة السحرة في سحرهم، أيد الله موسى # بالمعجزة، فاستيقظ ضميرهم، وأضاءت مشاعرهم بالحق الذي يحيي القلوب الغافلة، وبنور اليقين الذي أطفأ بهرج السحر وزيفه، فكانوا أول من آمن بأن ما جاء به موسى # هو الحقيقة، التي أرسله بها رب العالمين، وهي أكبر وأجل من سحرهم العظيم، وهزت المفاجأة فرعون، فعلل إيمانهم بغير سببه الحقيقي، وأردف التهديد

والوعيد، غير أن السحرة المؤمنين قابلوا تهديده بما يقابل به المؤمنين تهديد الجبارين، من التوكل على الله، والصبر حتى آخر لحظة في العمر، وانتصرت العقيدة فيهم على حب الحياة، وانتصرت عزيمتهم على الألم، وانتصر الإنسان على وسوسة الشيطان وأعوانه، واطمأن السحرة إلى جوار الله الكريم، وظهر أثر الإيمان العجيب وفعله القوي في النفوس، فاستهان السحرة بوعيد فرعون، ومضوا في طريقهم لا يترددون، وإن عز على الملائكة أن ينجو موسى # ومن معه، فأخذوا يحرصونه على الفتك بهم والتنكيل، وإن لم يجدهم ذلك نفعاً، فقد وقع الحق ولن يتغير أبداً.

ومن العجيب أن الملائكة في تحريضهم لفرعون، كانوا يصفون موسى #، والمؤمنين معه بالإفساد في الأرض، وأن فرعون كان يعد بالفتك والقتل، ويتجاوز في وعيده المؤمنين إلى أسرهم من النساء والبنين، دون اعتبار لأي جانب إنساني في تعذيب الخصوم، وتلك طبيعة من طبائع الاستبداد، وسمة ملازمة له في مختلف العصور، وهنا ملاحظة جديرة بالتسجيل، وهي أن السحرة كانوا يساومون فرعون على أجورهم قبل لقاء موسى #؛ لأنهم كانوا يعيشون في مجتمع لا توجد فيه قيم عليا، تدفع إلى الحركة، واللقاء مع الأعداء في ميدان منافسة أو قتال، وإنما الدافع الوحيد المحرك هو المادة، وقد وعدوا بها، فلما ظهر لهم الحق وآمنوا بالله، وصدقوا برسالة موسى # وهددوا من فرعون، كان زادهم ودافعهم إلى الصمود، وبذل أقصى الجهد، هو الرغبة فيما عند الله، وهذه هو الفرق بين مجتمع له قيم عليا من قيم الحق والعدل، ومجتمع آخر أخلد إلى الأرض واتبع هواه.

وهذه عبرة لا يغفل عنها الدعاة؛ لأن عملهم الأول، وهدفهم الأساسي، أن يحيوا في الإنسان بكلمة الله، تلك المشاعر العليا التي تجعله يستهين بالعرض

الأدنى، شوقاً إلى ما عند الله، وتلك هي الربانية الخالصة وثمره الإيمان النقي، التي تصل الأرض بالسماء، قال تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝١١٠ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝١١١ يَا تَوَكُّبِكِ لِمَنْ سَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝١١٢ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝١١٤ قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْتَمِينَ ۝١١٥ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۝١١٦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١١٨ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ۝١١٩ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَاجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُورِجُوا مِنْهَا ءَأَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝١٢٣ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأَضِلَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٢٤ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ۝١٢٥ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَأَمَنَّا بِرَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ۝١٢٦ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنذَرْتُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكُوا وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقْبِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ۝١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۝ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ الأعراف: ١٠٩ - ١٢٨.]

والإيمان بالآخرة معناه عدم التركيز على الحياة الدنيا وحدها، باعتبارها حياة تجربة واختبار، ينتهي أمرها حتماً إلى المرحلة الثانية في حياة الإنسان، وهي الحياة الأبدية التي فيها الاستقرار، ومهما كان في الحياة الدنيا من نعيم أو عذاب، فإنه أمر عابر لا يدوم، وإيمان السحرة بلقاء الله في الآخرة، مكمل لإيمانهم برب موسى، وهارون - عليهما السلام - وبه انتقلوا من الشرك إلى الوحدانية، ومن

المادية إلى الروحية، ومن العوض عن إتمام فرعون إلى الأمل في غفران الله، واستمدوا من الإيمان قوة يواجهون بها ما قد يقع عليهم من ظلم وعدوان، يهون إلى جانب الأمل الذي تطمأن به قلوبهم، وهو العوض عما فاتهم، ويفوتهم من حياة المادية فيها المال، والنفوذ والجاه؛ لأنها حياة قصيرة زائلة، لا يأمن الإنسان في ظلها، ولا يستقر له قرار.

ومن كدعاة الحق أولى بهذا الإيمان، وبعثه في حياة الأتباع، ليأخذوا منه زادهم عبر الطريق الطويل، الذين يسرون فيه إلى رضوان الله، وقد حفت الجنة بالمكاره، والنار بالشهوات.

وقد فعل موسى # ذلك، عندما طلب من المؤمنين معه أن يجتازوا المحنة صابرين، وأن يستيقنوا بالله ويلتجئوا إليه وحده، ويخلصوا في الإيمان به، فهو نعم المولى ونعم النصير، وأن يتحملوا في سبيله مهما كلفهم ذلك من التضحية والمشقة، وأن يعتقدوا أن الأرض لله، وليست لأحد سواه، وأن الله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

وأن من يستجيب لدعوة الحق ويؤثر الله على غيره، أولى باحتمال الفتنة، والصبر على الأذى والاستعانة بالله وعدم التعجل؛ لأنه لا يبصر الغيب، ولا يعلم الخير، وإنما يعلم كل ذلك الله وليه وناصره وملاذه الوحيد.

الذي لا ملجأ له سواه، وسينصره في الوقت الذي يعلمه، ولا بد من تعليق القلوب به، وبعث روح الأمل فيها، وبعد الانتصار لا بد من الحذر، فالله ينظر كيف تعملون.

لقد كان المؤمنون مع موسى #، يعذبون على يد فرعون، وهم متفرقون، لا وحدة تجمعهم سوى العرق والجنس، فانضم لإيمانهم سبب آخر هو العقيدة،

تاريخ الدعوة والدعاة

موجب في نظر فرعون، وملئه لتعذيبهم بوحشية، واستئصالهم بغير رحمة؛ لأنه قد جعل منهم قوة تتراضى، كما يطلب الإيمان إليهم، وفيه من الخطورة ما فيه، ومن شأن وضعهم هذا أن يكونوا أشد خشية، وإن وعدهم موسى # ونصحهم بالاستعانة بالله والصبر على الأذى، والإيمان بالتغيير، عسى الله أن يهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض، فهي كلها له يورثها من يشاء من عباده.

والاستخلاف لا يكون إلا عنه، وليس عن مجتمع، وليس بلازم أن يكون محل القوم الظالمين، فأرض الله واسعة، ومنه يكون تمكين المؤمنين، بشرط أن يؤديوا المهمة التي كلفهم بها ربهم، وهي الهداية ومقاومة الطغيان لا الرياسة والسلطة، والاستغلال السيئ والانحراف من جديد، كما حدث فعلاً من بني إسرائيل.

عقاب وتذكير:

أصر فرعون على موقفه من رافض لرسالة موسى # فأخذه الله تعالى بالقحط، ونقص الغلال، عقاباً منه وتذكيراً له لعله يراجع الأمر، فيتدبر ويترك بني إسرائيل، غير أنه ظل على ما هو عليه في السلوك والتفكير، هو والملا من حوله يربطون الأحداث السارة بهم، والسيئة بغيرهم ولا يعتبرون، ولا يغيرون من تصرفاتهم، وسلوكهم حتى يغير الله ما بهم.

وعدم تعليل البلاء بالتعليل الصحيح، وإغفال يد الله الفاعلة، وقدرته المدبرة المجرية للحوادث بحكمة وغاية، تخبط في الجهل والضلال، كالتطير تماماً الذي هو حجب للرؤية الصحيحة، وغشاوة على العيون، فلا ترى فعل الله يجري بحكمة وسنته في كل شيء، ولا غرو أن كان عقاب الله لفرعون وملئه على هذا السلوك العجيب، فسألوا موسى # أن يدعو ربه، ليكشف عنهم العذاب فيؤمنوا بالله ويتركوا بني إسرائيل.

وفي كل مرة كانوا يخونون ولا يوفون، وييقون على ما هم عليه من تكذيب، وتلك الطبيعة المتلوية جديرة بلفت نظر الداعية، حتى لا ييأس، أو يقلل من نشاطه وجهوده؛ لأنه يعلم أن في كل شيء لله تدبيراً فوق كل تدبير، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِاللِّسَانِ وَنَقِصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَيْنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَخِشُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلَغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٧].

فعلى الرغم من توالي العقوبات التي تخللتها فترات، عادت فيها حياتهم إلى وضعها القديم بدعاء موسى # ربه الرحيم أن يكشف عنهم العذاب، ووعدهم الذي نقضوه في كل مرة، كسنة المكذبين، التي يعبر عنها قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْضَعُونَ ﴿٧٦﴾ [المؤمنون: ٧٤-٧٦].

كانت العقوبة التي اختتمت بها مواقف فرعون وملئه من رسالة موسى #، فأغرقوا في اليم وتخلص بنو إسرائيل الذين آمنوا بموسى # من الظالمين،

واتصر الحق على الباطل المدعم بالسلطان والجبروت ، وأورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون الأرض المباركة حسب كلمة الله التي قطعها لبني إسرائيل ، بما تحمله من التعذيب.

ويغرق فرعون انهارت الحضارة المادية من الأبنية والمعابد والقصور والحدائق والغلال ، كما انهارت قبل ذلك مجتمعات الفساد من قوم نوح وعاد وثمود ومدین ، ودمر الله ما كانوا يصنعون ويعرشون.

عبرة لطرفي النزاع في مكة :

وفيما عرض من قصة موسى # مع فرعون عبرة لطرفي النزاع في مكة ، للمؤمنين مع رسول الله ﷺ والمشركين الصادين عن سبيل الله ، الذين أخذوا بالسنين فلم يتذكروا ، ولم يتعظوا ولم يصدقوا ، إلا من هدى الله منهم ، فأعلن إسلامه لرب العالمين ، كما حدث من قوم موسى # .

لقد ابتلى الله ﷻ فرعون بالنعمة والسلطان والتمكين في الأرض ، وجاءهم من الله رسول ليكشف نوع استجابتهم ، ولم يطلب لنفسه شيئاً ، وطلب منهم ما هو نصفة ، وعدل إن لم يؤمنوا ، فلم يقبلوا منه لا أن يؤمنوا ولا أن يعتزلوه ، وكذلك فعل رسول الله محمد ﷺ ، وقد ترك قوم فرعون الجنات والعيون والنعمة الكبيرة الوفيرة ، كما أن أهل مكة كانوا موضع رحمة الله ورزقه ، ينعمون بالأمن من الجوع والخوف ، والناس من حولهم يتخطفون ، وكلا الفريقين نزل به عقاب من الله على عناده وكفره ، فالبطشة التي نزلت بأهل فرعون نزل مثلها بأهل مكة ، وقد سجلت ذلك سورة "الدخان" ، فيما أوردته من قصة موسى # وموقف أهل مكة من رسول الله محمد ﷺ ، وبوأ الله ﷻ لبني إسرائيل مبعواً

صدق، ورزقهم من الطيبات، وأورثهم الأرض المباركة، كما تمت للمؤمنين برسول الله محمد ﷺ نعمة الأمن، والقوة والتمكين في الأرض، فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر.

ولقد حاول فرعون الانتقام من بني إسرائيل بإخراجهم من النعيم، فأورثهم الله أرضاً مباركة لها مثل أوصاف ما أخرجوا منها، وواعدهم الله جانب الطور الأيمن، وهي أرض مدين وفلسطين، الأرض المباركة التي هاجر إليها إبراهيم ولوط -عليهما السلام- أورث الله فيها بني إسرائيل الجنات والعيون والكنوز المقام الكريم؛ ليؤدوا رسالة الله فيها ويطبّقوا شريعته، وينشروا دعوته بالقول والسلوك، لا أن يقيموا دولة بالقوة والجبروت، ويخالفوا الشريعة التي جاءهم بها موسى # كما حدث منهم بالفعل، مما سجلته آيات الله المنزلة على رسول الله محمد ﷺ، سفكوا الدماء، وقتلوا الأنبياء وأكلوا أموال الناس بالباطل، وأخرجوا بعضهم بعضاً من ديارهم، وخالفوا الشريعة بالفعل، فلم يتبعوا هدى الله، ولم يطبقوا منهجه لا في التفكير ولا في السلك.

مرحلة أخرى في الدعوة:

وبنجاحة بني إسرائيل وغرق فرعون بدأت مرحلة جديدة في دعوة موسى # الذي خاض مع بني إسرائيل معركة أشد وأقسى وأطول أمداً، وهي معركة مع قوم حملوا من رواسب الماضي، الذي أفسد فيه الذل طبيعتهم وملأها بالالتواء، والقسوة والجبن والضعف عن تحمل المسؤوليات، ما حملوا نتيجة العيش مدة طويلة في ظل الخوف والإرهاب، والتخفي لتفادي الخطر والعذاب، والتوقع الدائم للبلاء الذي ولد فيهم كثيراً من الحقد والعداوة، والبغضاء، ولا بد لصاحب الدعوة الذي يواجه نفوساً طال عليها الأمد في الذل الطغيان، من أن

يكون عظيم الصبر كثير التحمل، كما كان رسول الله موسى # والأمة الإسلامية حين تعرض عليها رسالته بهذا الإسهاب، في هذه الفترة المتقدمة من الدعوة، يلتفت نظرها إلى هذا الجانب الهام من الدعوات عبر الأجيال.

لقد كانت معجزة نجاه بني إسرائيل من فرعون لا تزال شاخصة في أذهانهم، ومع ذلك تحركت رواسب الوثنية في نفوسهم، عندما رأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا كما لهم آلهة، وتلك انتكاسة وضلالة ينبغي الحذر من الوقوع في مثلها، ولقد اختارهم الله ﷺ لحمل رسالة التوحيد، ووعدهم أن يسكنوا الأرض المباركة التي كانت تحت سيطرة المشركين،

وتلك منة عظيمة ينبغي أن تذكر وتشكر، لا أن تقابل بهذه الانتكاسة الشائنة، وحين سبقهم موسى على لقاء ربه على الجانب الأيمن من الطور وصحبهم في سيرهم أخوه هارون -عليهما السلام- كانت فتنة لهم وابتلاء، إذ قام السامري بجمع ما يحملونه من ذهب، وفضة خرجوا به من مصر، ووضعها في النار وصاغ لهم منه عجلًا له صوت، وقال: هذا إلهاكم، فأقبلوا عليه يعبدونه، وأخبر الله سبحانه موسى # بما وقع من قومه في غيبته، فعاد مسرعًا إليهم وبين لهم أنه لا يختار لهم سوى الله؛ لأن ذلك هو المتفق مع رسالته، ورسالة من سبقه من الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والإنسان في حاجة إلى الإيمان بالله، وإذا ضعف إيمانه به أو انعدم، ضل الطريق السوي في حياته وسقط، وسلب الله منه ما وهب، وتلك حقيقة ينبغي أن تعيها الأمة الجديدة، التي بعث الله إليها رسوله محمد ﷺ لتحمل الرسالة بعد أن شاع في بني إسرائيل الفساد، وعجزت عن الوفاء بما تتطلبه الرسالة من تضحيات، قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٤٠].

موسى # يتلقى الشريعة:

وعد الله موسى # بشريعة مفصلة لقومه المقبلين على مرحلة جديدة، وذهب # لتلقيها، وترك أخاه هارون # راعياً يخلفه فيهم وأوصاه بهم، وأعطى الله ﷻ موسى # ثلاثين ليلة، زادها بعشر فتم له بذلك الصفاء، وكمل استعدادة للقاء، والله أعلم بمن يصطفيه لرسالته، وبما يكمل به استعدادة وتحمله.

وتلقى موسى # الشريعة وفيها تفصيل واضح لمنهج الحياة، والمعاملة بين الناس، فهي قانون للحق والسلوك، وقد أعطي الألواح، والصحف والتوراة، والفرقان وكلها مكملة لبعضها، وأمر أن يتلقاها بقوة في الإيمان بها والدعوة إليها، والحرص على أدائها، والقدوة الحسنة في تطبيقها، ليكون المجتمع أكثر قوة وتماسكاً، وأمرهم أن يتدبروا ما قصه الله من أخبار الذين تجنبوا طريق رسالة الله في الأرض، وما لحقهم بسبب ذلك، حتى لا تكون نفوسهم مستكبرة عن سماع الحق، معرضة عن سبيل الهداية، شأن الذين يستكبرون في الأرض بغير الحق: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ويسلكوا طريق الضلالة والظلم. وعلم موسى # بالصعوبات التي ستعرض لها رسالته، يطمئن نفسه، ويثبت إيمانه، ويعدده للصبر والتحمل للنهوض بالتبعية، حين يعلم أن جهود المعارضين مصيرها الحبوط والفشل.

والداعية يزداد نشاطاً وقوةً وتحملًا إذا علم أن مصير كل معارضة للحق مهما كانت الضعف والفشل، فضلاً عما يلقاه أصحابها من هزيمة، وكل هذه أمور لها قيمة بالنسبة لاتباع الدعوة الجديدة.

ذات الصلة الوثيقة، والشبه القوي بدعوة موسى # الذين رباهم في مكة قبل الهجرة رسول الله محمد ﷺ بوعي وبصيرة، وحسن تقدير لسير معركة الحق التي

حمل لواءها رسل الله - عليهم السلام - حتى انتهت رايتها إليه ﷺ قال تعالى:

﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ فَخُذْ مَاءً أَتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّآيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤ - ١٤٧].

ومهما اجتهد أرباب الباطل في الصد عن الحق، فإن الله يأبى إلا علو الحق وأهله، وانتكاس الباطل وحزبه، لتكبرهم وكفرهم، فيطبع الله على قلوبهم، فلا يفكرون ولا يعتبرون، وليس بلازم أن يكون الخطاب في قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ إلى آخر الآية، موجهاً إلى هذه الأمة لا طرده، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا.

وأما أحوال الأمم السابقة في القرآن هو للأمة الإسلامية لها فيه عبرة، وإن لم يتوجه الخطاب إليها به صراحة؛ إذ مجرد وجوده في كتابها كاف في أخذها منه بلا نزاع.

ارتكاسة وضلال:

بينما كان موسى # يناجي ربه ويتلقى هديه، كان بنو إسرائيل ينحدرون ويرتكسون، فاتخذوا لأنفسهم إلهاً عاجلاً جسداً له خوار، دلالة على أنهم أصحاب طبيعة لا تكاد تستقيم خطوة حتى تعوج، ولا تكاد ترتفع عن مدى الرؤية البصرية في التصور والاعتقاد، إنه عجل من الذهب لا حياة فيه، صنعه السامري بحيث يكون له صوت خوار الثيران.

الدرس التاسع

تابع: دعوة موسى # - قصة هارون #

عناصر الدرس

- العنصر الأول : موسى # وقومه ١٩٣
- العنصر الثاني : دعوة موسى # للسحرة، ودعوته حتى الخروج من مصر ٢٠٤
- العنصر الثالث : هارون # ٢١٧

موسى # وقومه

بينما كان موسى # يناجي ربه، ويتلقى هديه كان بنو إسرائيل ينحدرون ويرتكسون، فانخذوا لأنفسهم إلهًا عجلًا جسدًا له خوار، دلالة على أنهم أصحاب طبيعة لا تكاد تستقيم خطوة حتى تعوج، ولا تكاد ترتفع عن مدى الرؤية البصرية في التصور والاعتقاد.

إنه عجل من الذهب لا حياة فيه صنعه السامري بحيث يكون له صوت خوار الثيران، ووقف هارون # لا يملك لهم ردًا عن هذه الضلالة، التي اندفعوا إليها في حماقة، ولما هدهوا وجاءت لحظة الندم سقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا، وعلموا أنه لا ينقذهم مما فعلوا إلا أن تتداركهم -رحمه الله-.

وقد بقيت فيهم بارقة من استعداد فطري للإصلاح، وعاد إليهم موسى #، وهو في شدة الغضب والانفعال، يبدو ذلك في قوله وفعله، ولولا وداعة هارون #، وتسكينه لغضبه، واستجاشته لكوامن الرحمة فيه؛ لوقع ما لا تحمد عقباه.

مما يدل على الحكمة البالغة في اختياره معه -عليهما السلام-، ومن هنا تبدو للداعية قيمة الأعوان الذين يختارهم على بينة وبصيرة؛ ليؤدي كل منهم ما يناسبه في ميدان الدعوة الفسيح.

يكمل كل واحد ما في الآخر من قصور في الوسيلة أو التبليغ، ويتعاونون على النجاح، إن من أولى خصائص الإله الحق إجابة السائلين، ودلائهم على الطريق المستقيم، ولا يملك غير الإله الحق أن يدل أو يجيب؛ لأنه عاجز.

وإلههم الذي عبده، وإن صنع من الذهب لا يملك ولا يستطيع حتى مجرد الحديث، وكان الوفاء لله يفرض عليهم أن يعبدوه وحده، ولا يجحدوا نعمه، وكان الوفاء لرسولهم موسى # ألا يخالفوه.

تاريخ الدعوة والدعاة

ومن الأمور المستخلصة للداعية والدعوة ألا يترك الداعية المدعويين في الطريق، ولو كان بالإسراع إلى أفضل ما يسارع إليه إنسان مملوء بالحب والشوق، ومع أنه لم يقصر هارون # إلا أن القوم استضعفوه، وأرادوا أن يقتلوه.

والذين ساعدوا في صنع العجل من الحلي، أو عكفوا على عبادته سينالهم غضب وذلة في الحياة الدنيا، إلا إذا بادروا إلى التوبة، وأخلصوا لله وحده في العقيدة والسلوك. وعاد موسى # إلى ميدان الدعوة إلى الحق بعد هذه المحنة العصبية، وأخذ يجمع القوم على الطريق من جديد، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَيرُ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٣].

المبقات:

بعد طلب موسى # له ولأخيه من ربه الرحمة، اختار سبعين رجلاً من قومه، وذهب بهم إلى مكان اللقاء مع ربه على أن يظلوا في بعد نسبي عنه شهوداً صامتين على دعائه.

وطلبه منه أن يغفر لقومه هذه الخطيئة التي تردوا فيها، وإعلان التوبة، وطلب المغفرة، وكان السبعون من خيارهم فلما أخذتهم الرجفة اتجه موسى # إلى الله يطلب منه الصفح، وعادوا إلى قومهم بعد عفو الله عنهم.

ولما يكن قوم موسى جميعاً مغالين، بل كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، وبقي فيهم من له هذه الصفة حتى زمان خاتم النبيين محمد ﷺ، ومنهم من واجه قومه بما عندهم من نصوص التوراة؛ ليحثهم على الإيمان بالله، وتصديق الرسول ﷺ. وقد استرسل موسى # في الدعاء، فطلب من الله ﷻ التوفيق في الدنيا إلى العمل الصالح، وجزاء المحسنين في الآخرة، والقبول الحسن، فقد تبنا إليك ورضينا بك.

وقد تخلل الحديث عن موسى وقومه حديث عن رسول الله محمد ﷺ، ودعوته إلى الحق والصراط السوي، وهناك أمل في اتباع بعض من قوم موسى له في قدوته العملية، وفيما جاء به من عند الله تقضى على أساسه في الأمور.

قال تعالى: ﴿ وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقِنَانَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَمْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥-١٥٦].

رعاية الله لبني إسرائيل:

ومن رعاية الله ﷻ لبني إسرائيل ونعمه عليهم احتفاظهم بأنسابهم منذ زمن يعقوب #، فهم اثنا عشر سبطاً، والسبط الجماعة المنتسبة إليه كأمة وقبيلة، وهو في الأصل الشجرة لها أغصان كثيرة، وأصلها واحد.

تاريخ الدعوة والدعاة

والسبط: ولد الولد، وكل قبيلة من نسل رجل، وبنو إسرائيل اثنا عشر قبيلة تنسب إلى بني يعقوب الاثني عشر، ولما تفجر الماء بضرب موسى # الحجر اثنتي عشرة عيناً شربت كل جماعة من عين، حتى لا تزاحم غيرها.

نعمة من الله عليهم إلى جانب تظليل الغمام لهم من وهج الصحراء، وإنزال المن والسلوى، ومنع أسباب الخلاف والنزاع بينهم، ومع النعم وكثرتها أمرهم الله ﷻ أن يدخلوا قرية على هيئة خاصة، ويقولوا دعاءً خاصاً فخالفوا كل ذلك فبدل الله حالهم.

ومن عصيانهم التعدي، ومخالفة الأمر عندما نهوا عن الصيد يوم السبت، ولما وعظهم الصالحون منهم كان الجواب تهكماً وسخرية بهم: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فكان جواب الصالحين لتبرير العقاب من الله إذا عاقبهم، وإعطائهم الفرصة لعلمهم يرجعون إلى صوابهم.

فلما لم يفد معهم النصح أنجى الله الناهين عن سوء، وأخذ الظالمين بالعذاب، وقضى عليهم بالحسنة والمذلة عبرة وعظة، والذين كانوا يعدون في السبت بعض أهل القرية، وكان أهلها ثلاث فرق عادين وواعظين ولائمين لهم.

وقد أثبتت التجربة، والاختبار بالنعم وبالعقوبات على السواء أن أجيال بني إسرائيل المتعاقبة لم تحتفظ من روحية الرسالة، التي تعدد الرسل - عليهم السلام - بها إليهم، إلا بأنها ورثت التوراة دون أن تعي أو تطبق ما فيها، وسارت وراء عرض الدنيا مبررة ذلك بالمغفرة من الله.

ناسية أو متناسية أن الله أورثهم الكتاب لتطبيقه، وتبيينه للناس، وأن الفوز والنجاة للمتمسكين بالكتاب المقيمين للصلاة الموفين بعهد الله.

وسورة الفرقان ذكرت إيتاء الله موسى # الكتاب ، وجعله أخاه هارون وزيراً معه ، وأمرهما أن يذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآيات الله ، فدمر الله عليهم في معرض الحديث عن القرآن ، وأن الله قد أنزله ليكون للعالمين نذيراً.

كما ذكرت سورة مريم عدداً من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام- ، ومنهم موسى وهارون ، ووصفت موسى # بأنه كان مخلصاً ، وكان رسولاً نبياً ، وأن الله ناداه من جانب الطور الأيمن ، وقربه وناجاه.

ووهبه أخاه هارون نبياً ، وذلك للعضة والقدوة إلى جانب ذكر من ينتسب إليهم الأنبياء الذين أنعم الله عليهم.

رعاية الله للدعاة :

وإذا كان طريق الدعوة إلى الله تعالى غير خال من الصعاب والعقبات ، فإن الدعوة إليه ليسوا وحدهم بل معهم رعاية الله تواسيهم وتؤنسهم ، وتشد أزهرهم ، وتمنحهم من الهيبة والمحبة ما يعينهم على تحقيق الغايات.

وهم وإن كانوا رسلاً لله تعالى ليسوا مجردين من النوازع الإنسانية ، التي منها الأسف إذا ما قوبلوا بالجحود ، ونالهم من وراء الدعوة إلى الله من المستهزئين والمعاندين ما يبعث على الألم والضيق ، ولو في لحظة من اللحظات ، وخاتمهم محمد ﷺ قد أنزل الله عليه القرآن.

لا ليشقى به ويتعب أسفاً على قومه ، وإنما تذكرة لمن يخشى ، وهو وإن صادف في دعوته إلى الله ما يسبب له الأسف ، فإن له أسوة فيمن سبق من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام- ، وركزت سورة طه على واحد منهم قاسى ما قاساه من الشدائد ، وهو موسى # .

تاريخ الدعوة والدعاة

فصلت السورة دعوته، وبدأت بحلقة أسبق من التي بدأت التفصيل منها سورة الأعراف، حين رأى موسى # في طريق العودة إلى مصر من مدين من جانب الطور الأيمن ناراً، فقال لأهله: امكثوا، وأتاها فسمع النداء وحمل التكليف، وشد الله أزره بأخيه هارون، وذكره الله بنعمه عليه في مولده.

ورده إلى أمه في إشارات سريعة، وفصلت السورة حلقة السامري، وذكرت بسرعة الميعاد، ولم تذكر الميقات، ولا آيات الضفادع والقمل والجراد، وقد رافقت عناية الله ﷻ موسى # في كل هذه المواقف، كما أن عنايته رافقت محمداً ﷺ.

والسورة تحثه على الصبر على ما يلقاه من إغراض قومه، وصددهم عن سبيله، ومقاومتهم لدعوته.

وقد عرضت عليه قصة موسى من أولها إلى آخرها؛ ليتأسى بها -عليهما السلام-، وخاصة ما كان من ثباته أمام فرعون، وصبره على عناد بني إسرائيل، والصبر والثبات لهما أهميتهما في نجاح أية دعوة.

فضلاً عن دعوة غيرت وجه الحياة، ونقلت الإنسانية إلى مرحلة جديدة لها مميزات، وكانت وستظل ظاهرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لأنها حجة الله على الإنسان، أبصر موسى # في جانب الطور ناراً كانت في الحقيقة هي النور.

فقال لأهله: امكثوا سأتيكم منها بقبس، أو أجد على النار هدى، ولقد وجد عندها هدى وأي هدى، وأتى منها بخبر وأي خبر، واقتبس منها نوراً وأي نور، فقد تلقى في هذا الموقف ما يعده لما هو مقبل عليه من الأمر الجليل.

وأمر بخلع نعليه تعظيماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة في الليلة المباركة، وخاطبه رب العالمين الذي لا إله غيره، ولا تصلح العبادة ولا إقامة الصلاة إلا له، وإليه سبحانه مرجع كل شيء، وليست الدنيا بدار قرار، وإنما الآخرة والساعة آتية لا ريب فيها.

ومجانبة من لا يؤمن بها ممن اتبع هواه ونسي مولاه، وقد اشتمل الخطاب الكريم على الدعوة إلى التوحيد والعبادة، والإخبار بالساعة، ومجازاة كل أحد بما قدم، وهي أسس كل رسالة.

قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۖ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ ۖ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۚ وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۗ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۗ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۗ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۗ ﴾ [طه: ٩-١٦].

وقد ذكرت ذلك المواقف سورة القصص، وسورة النمل مع اختلاف في التعبير يتضح ذلك عند الكلام عن قصة موسى # في السورتين - إن شاء رب العالمين.

تزييده # بالآيات:

سأل الله ﷻ موسى # عما في يمينه، فأجاب هي عصاي، وذكر ما لها من الفوائد، فأمره بإلقائها فإذا هي حية تسعى، والحية: تقال للذكر والأنثى والصغير والكبير والشعبان العظيم والجبان الدقيق، وكانت لعصى موسى # كل هذه الأشكال.

تاريخ الدعوة والدعاة

فلها شكل الثعبان من ناحية العظم، والجنان من ناحية السرعة، وخفة الحركة والحية الأفعى، ولم تذكر سورة طه ما حدث من موسى # عندما رأى ذلك، وقد أمره الله أن يأخذ العصا، وأنه سيعيدها إلى حالتها الأولى.

كما أمره أن يضم يده إلى جانبه واضعاً عليها ذراعه بواسطة إدخالها في جيب قميصه.

فإذا بها تخرج بيضاء من غير سوء آية على صدقه وتثبيتاً له قبل أن يرسل إلى فرعون، ويبدأ مرحلة الدعوة الشاقة، وقد طلب موسى # من الله عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يمهده بالقوة المعنوية؛ ليستعين بها على أداء مهمة الدعوة، والقيام بنشاط وهممة، وعزيمة وقوة وصبر وتحمل.

وذلك بشرح الصدر الذي يخفف العبء، ويتيسر الأمر بتوفيق الأسباب، ورفع الموانع والعقبات، وبقوة البيان ليصل السامعون له إلى إدراك القول وغاية الفهم، وأن يجعل معه أخاه هارون ليحمل جزءاً من المهمة وهو أفصح لسائناً.

وقد بين الغاية التي يستعين على الوصول إليها، وهي تسييح الله كثيراً وذكره كثيراً، وقد استجاب الله له وأعطاه ما طلبه، وذكره بسابق فضله ليفرح بموصول النعمة، فذكره بإنجائه من كيد فرعون عندما أوحى إلى أمه بوضعه في التابوت، وإلقائه في اليم ليقع في يد عدو الله وله.

وأعطاه سلاحاً من المحبة يعطف عليه كل من يراه؛ ليربى بالحنو والشفقة، وقد حفظه الله وهو في اليم وفي بيت فرعون، وسخر أخته تدلهم على كافل يكفله بعد أن امتنع عن المرضع؛ ليعود إلى أمه يخفف ألمها وحزنها.

وخلصه من غم القتل الذي وقع منه خطأً، وامتلات منه نفسه أسفاً، وبعد لبثه سنين في أهل مدين عاد على مقدار من الزمن يبعث فيه الرسل، ولم تكن خشية

موسى # على نفسه، وإنما كانت من تكذيب فرعون، وخوفه على الرسالة إذا ضاق صدره عجز لسانه.

وكان غيابه في أهل مدين مدة طويلة مع بقاء هارون في مصر قد جعله أفصح لسائناً وأقدر على البيان، وهنا يجد الداعية ما يأخذه ويضعه في الحسبان، وهو أنه لا بد له من زاد يعينه على مصاعب الطريق الطويل الشاق.

وأهمه الذكر والتسبيح كما أن موصول النعمة من الله يطمئن القلب، ويبعث على مزيد من الشكر ومزيد من الإحسان.

من آداب الدعوة:

وإذا كانت الحاجة إلى الدعوة تعظم وتشتد كلما كان هناك على الطرف المقابل طغيان، وتجاوز للحد، فإن من المهم كذلك أن تكون الدعوة إلى الله باللين لا بالعنف، ومع طغيان فرعون واستكباره أمر الله ﷻ موسى، وأخاه هارون - عليهما السلام - أن يعرضاً عليه الدعوة في صورة مشاورة.

ولا شك أن لأسلوب الدعوة أثراً لدى الخصم مهما بلغ من العناد والعنف، ومن أدب الداعي إلى جانب الأسلوب اللين امتلاء القلب بالرجاء في نجاحها والاستجابة لها، ولو كانت موجهة إلى أعتى الناس وأكثرهم ظمناً، واليأس يبدد الجهد ويورث الملل والضيق.

وكيف يضيق الداعية وهو يعلم أن الله معه يحفظ دينه؟ وأن الداعية يبلغ كلمته ويقيم حجته، ويصلح في الأرض ويوضح الحق، ويكشف الباطل.

وها هو التوجيه الكريم إلى الرسولين الكريمين - عليهما السلام - : اعذرا إلى فرعون قولاً له إن لك رباً ولنا معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً، وإذا كان الله ﷻ يتحجب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه ويناديه؟!.

وبقاء الأمل في نجاح الدعوة يبقي حرارتها متقدة في القلب، فلا يصيبه الضجر أبداً، وتلك بعض العبر المستفادة مما وُجه إلى موسى # من صاحب الدعوة الله - جل وعلا - .

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَنَاطِقُ فَاذْأَبَى حَيْثُ تَسَعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَقْفُوهَا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نَسِيحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْبَحْرِ فَلْيُلْقِهِ الْبَحْرُ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۗ وَقَلَّتِ نَفْسًا فَجَجِنَاكَ مِنَ الْغَمْرِ وَفَتْنَاكَ فَنُونًا فَلَمَّتَ سِينِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّسَانًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَنبَاهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَغْذِبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا وَمِن آتَابِ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾] طه : ١٧ - ٤٨ .

جدل حول العقيدة:

عرض موسى # الدعوة على فرعون ملتزماً كل ما أمره الله به من آدابها، فسأل فرعون: من ربكما يا موسى؟ فأجابه: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، وإنها لكلمات قصيرة مركزة على أهم خواص الألوهية الحقة.

فإعطاء كل شيء صورته وشكله ليتطابق مع المنفعة المنوطة به، وتعريفه كيف يتوصل إليها به أمر يبهر العقول ويخلب اللب، فالأرض صالحة للمشي وطلب الرزق فيها الماء واليابس والسهل والجبل، والماء لإنبات النبات ليأكل الإنسان والحيوان.

كل ذلك بقدر يراعي مصلحة البشر، وغير البشر بإحكام وتنسيق فيه عظام وعبر، والله هو الذي بدأ الخلق وهو قادر على إعادته، وآياته كثيرة يريها عباده، وهي كفيلة بهدايتهم إذا تخلوا عن عنادهم.

وبرغم الآيات التي بينها موسى # أصر فرعون على الكفر والعناد، وسأل موسى # عما ليس من شأنه، فرد عليه بأن علم ذلك عند الله، ولا يعلم الرسل منه إلا ما يكون فيه مصلحة في تبليغ الدعوة التي كلفوا بها منه.

ولابد للداعية أن يأخذ من هذا الموقف ما يرسم له أسلوب الدعوة بالحكمة، فمنذ اللحظة الأولى أعلننا أن هناك ربا هو ربهما، ورب فرعون ورب العالمين، وحددا رسالتهما ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧].

وقد أقاما على صدقهما الدليل: ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧]، ورغبا فرعون واستملااه ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَى ﴾ [طه: ٤٧]، وحذراه وهدداه من طرف بعيد ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [طه: ٤٨].

تاريخ الدعوة والدعاة

وعليه أن يختار على أن ما يلفت النظر ذكر الصفة المبدعة المنشئة من صفات الله ﷻ، واهب الوجود لكل موجود بالصورة التي أوجده بها وفطره عليها، وهداه إلى وظيفته التي خلقه لها، وأمره بما يناسب هذه الوظيفة وهياها.

وتلك مرتبة عليا، وكعادة أهل الباطل كذب فرعون، واتهم موسى # بأنه يجمع حوله الضعفاء؛ ليستولي بهم على السلطة، ويأمن ما جاء به من الآيات سحر يقاوم بسحر مثله، مع أن ما عرضه عليه هو آثار قدرة الله في الكون، ونعمه على بني الإنسان.

ومنهم فرعون الذي تجاوز حده قال تعالى: ﴿ إِنَّا قَدِ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ ۝٤٨ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ ۖ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ۖ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۖ ۝٥١ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَىٰ ۖ ۝٥٢ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۖ ۝٥٣ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۖ ۝٥٤ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۖ ۝٥٥ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۖ ۝٥٦ ﴾ [طه: ٤٨ - ٥٦].

دعوة موسى # للسحرة، ودعوته حتى الخروج من مصر

أضافت سورة طه إلى موقف السحرة دعوة موسى # لهم إلى الإيمان، حينما التقى بهم في الموعد المضروب دعاهم إلى الصدق وطرح الكذب؛ لأن عاقبة المفتريين الخيبة والخسران، وامتلاً قلبه # بالرجاء في إيمانهم.

ونجحت دعوته فيهم حتى أصبحوا من خيرة الأعوان، ولما امتلأت قلوبهم بالحق، واتبعوا دعوة رسولهم موسى #، وآثاروا الأدلة والبراهين الدالة

عليه ، استهانوا بكل شيء في سبيله فאלله خالقهم وفاطرهم ، والدنيا الفانية لن تؤثر على الباقية.

ومهما لقي المؤمنون من المشقات ، والمتاعب فسيلقون بعد ذلك الفوز والنعيم الدائم في حين يلقى المجرمون العذاب في النار ، وكانت عاقبة السحرة المؤمنين النجاة في الدنيا مع موسى # ، على حين كانت عاقبة فرعون وملئه الغرق في اليم ؛ لأن فرعون أضلهم وحاد بهم عن الصراط.

والكلمة المخلصة لا شك لها أثرها وفعاليتها ، وإذ لم يحدث هذا الأثر عقبها مباشرة ، فليس معنى ذلك انعدامه بل لا بد وأن يفعل فعله ولو بعد حين في الذين يريد الله لهم الهدى ، فيؤثرونه على غيره وينقادون له دون سواه.

وحيثما تكلم موسى # في السحرة حدث فيهم تردد وخوف ، وأسروا النجوى حتى لا يسمع حقيقة الصوت الذي كان قد تحرك ، وقد لعبت الشهوات دورها أولاً ، فصدر قولهم في حق موسى وهارون -عليهما السلام- عنها.

ولما وجد الإيمان طريقه إلى قلوبهم ، وتجلى الحق لم يخافوا من التهديد ، وكان لهم ذلك الموقف الفريد الذي لم يجابه فرعون من قبل بمثله ، فكان منه ما كان من وعيد وتهديد.

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْبِتَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿٦٣﴾ فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا

تاريخ الدعوة والدعاة

صَفَا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِأَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفَ بَلَغَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَجْدًا قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَأَمَّنْتُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقْبَلُ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ لطفه : ٥٧-٧٦.

ولقد تحول السحرة إلى دعاة، صدرت منهم كلمات تعبر عن أثر الإيمان حين يجد طريقه إلى القلب، ويفعل فعله العجيب، وإن كلماتهم لشهادة على أن دعوة موسى # فيهم صادفت أرضاً طيبة، فخرج نباتها بإذن ربه يانعاً. وكان منهم الندم على ما فعلوا قبل أن يتضح لهم الحق، ويستبين لهم الرشد، والأمل في رحمة الله الذي يغفر الذنوب والخطايا، ويعفو ويصفح.

موقف السامري :

وكما تحدثت سورة الأعراف عن دعوة موسى # لفرعون وملئه، وعن دعوته لبني إسرائيل تحدثت سورة طه إلا أنها لم تستفص في هذا الجانب الأخير كما استفاضت في الحديث عنه سابقتها.

فقد ذكرت أن الله أنعم على بني إسرائيل حين أنجاهم بقيادة موسى # من عدوهم، متجهين إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم عبر صحراء قاحلة، فأنزل الله عليهم المن والسلوى، ورزقهم من الطيبات، ونهاهم عن الطغيان.

وواعد بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، وسلك سبيل الهدى، والمن: مادة حلوة تجتمع على أوراق الشجر، أو ندى يشبه العسل جامد ينزل من السماء، أو صمغة حلوة أو شراب، أو ما يمن الله به من الخير من غير زرع ولا علاج.

والسلوى: طائر السمانى أو طائر يشبهه، والسمانى: طائر صغير من رتبة الدجاجيات جسمه منضغط ممتلىء، وهذه النعم في الصحراء مع غيرها مما ذكرته سور أخرى لها قيمة كبيرة.

وينبغي لمن يسرها الله له ألا ينصرف إلى التمتع بها، والاغترار حتى لا ينسى المهمة التي من أجلها خرج، وهي دخول الأرض المقدسة وعبادة الله فيها وتطبيق شريعته، وإخراج الجبارين منها.

وقد ترك موسى # بني إسرائيل، وذهب إلى جانب الطور الأيمن لموعده مع ربه، وترك معهم أخاه هارون #، فاستغل السامري هذه الفرصة، وصنع لهم من الحلي صورة تشبه العجل.

وقال: هذا إلهاكم وإله موسى، ولما رجع موسى # وسأل قومه عما حملهم على ما فعلوا، وذكرهم بالوعد الذي وعدوه ألا يرجعوا إلى الوثنية، أخبروه بأنهم حُمّلوا أثقالاً من زينة القوم ألقوها في النار التي أوقدها السامري.

وصنع هذا التمثال على صورة عجل له صوت، وإن كان لا يرجع لهم قولاً، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً.

واتجه موسى إلى هارون يسأله عما حدث، فأجابه بأنه حرص على تنفيذ وصيته، وخاف أن يفرقهم كما اتجه إلى السامري يسأله عن خطبه، فأجاب بأنه قد أوتي علماً في فن المعادن لا يعلمه غيره ممن معه.

وسولت له نفسه أن يصنع للقوم من الحلي عجلًا، وأن يدلهم على عبادته وأنه إلههم وإله موسى نسيه وذهب إلى مواعده يبحث عنه، فعاقبه موسى # في الدنيا بالنفي حتى لا يفسد القوم، وهو في الآخرة معاقب من الله على ما فعل.

وعمد موسى # إلى العجل فحرقه، ونسفه في اليم حتى لا تتعلق به قلوب القوم، وأرشدهم إلى الإله الحق واسع العلم عظيم الصفح.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٨٣]، إلى أن قال: ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ، ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكَ إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٧، ٩٨].

تهديد المكذبين بالرسالة:

وللتنويه بشأن القرآن، وإثبات تنزيله من عند الله والتمييز بينه وبين ما تلقيه الشياطين، وتهديد المكذبين به، والرد على اتهامهم رسول الله ﷺ في دعوته، والادعاء بأنه شاعر نزلت سورة الشعراء، فأقامت الأدلة على صدق القرآن وأنه كتاب الله المبين.

والذين يتهمون القرآن والرسول # منحرفون مشوشون على الرسالة، والرسول لهم مثل في مجتمعات سابقة أهلكت، ومنها مجتمع فرعون، وقصة موسى # معه، ومجتمع إبراهيم # وقصته معه.

ومجتمع نوح # وقصته معه، ومجتمع عاد وقصة هود معه #، ومجتمع ثمود وقصة صالح # معه، ومجتمع لوط وانخرافة وقصته معه، وأصحاب الأيكة وقصة شعيب # معه.

ففي كل هذه المجتمعات ظاهرة مشتركة هي اتهام الرسل، ورفض دعوتهم بدعوى أنهم بشر وليسوا ملائكة، وأن التابعين لهم من الأراذل وليسوا من الملائع العالين، وإذا كان القرآن لسان حق وتعبير صدق، وكان سبيله سبيل الهداية.

وكانت غايته التوجيه السديد للبشرية بالدعوة إلى الأعمال الصالحة والاستقامة، كان لا بد من مواجهة خصومه بعرض مواقف أمثالهم من رسل الله - عليهم السلام - ؛ ليعلموا سلفاً النهاية التي سينتهون إليها إذا ما أصروا على ما هم عليه من جحود. ولم يفتحوا لدعوته القلوب، ويتركوا العقول تستضيء بنور الله، ومهما كانوا عليه من قوة أو منعة فلن يكونوا أعظم قوة، ولا أكثر تمكناً من فرعون وملئه الذين قاوموا دعوة موسى #.

وسورة الشعراء ذكرت قصته مع فرعون وملئه من الرسالة إلى حلقة الخروج من مصر، وذكرت أن موسى ربي في بيت فرعون، ومكث فيه سنين من عمره، ونوعت في عرض الحوار بينه وبين فرعون والسحرة.

وركزت على إثبات موسى # للإله الحق الواحد رب السموات والأرض، ورب المشرق والمغرب.

خطرسة فرعون وتعالیه:

وتبدو خطرسة فرعون وتعالیه عن أن يواجهه أحد بنقد في اعتباره موسى # خارجاً على نظام حكمه، أو به لوثة من الجنون، ورأى في مواجهته له بالرسالة انتقاصاً من هيئته، وخروجاً على إرادته.

تاريخ الدعوة والدعاة

وامتن عليه بأنه احتضنه منذ ولادته ، وأنه قضى في بيته سنين من عمره قبل أن يفر إلى مدين بسبب قتله خطأً أحد المصريين من رعيته ، وهو بذلك كافر بنعمته ، ورد موسى بأنه باشر أمر القتل غير متبصر ، وأن الإقامة في مصر كانت له ولبنني إسرائيل جميعاً أمراً لا يحمد مثله.

لأنها كانت في ظل عبثه ، وامتهانه لكرامة البشر وعدوانه على حرته ، التي هي بالغة الأثر في حياة الإنسان وسعادته ، وطلب منه أن يطلق حرية بني إسرائيل ليعبدوا ربهم ، وتكون له بذلك يد تضاف إلى سابق نعمه ، فسأل فرعون عن رب العالمين الذي أرسله.

فأجابه بأنه صاحب الربوبية في الوجود كله سمائه وأرضه وفيما بين ذلك ، ويدركها من هو على استعداد للإيمان به ، فنبه فرعون الجالسين معه ليزيدوا من يقظتهم.

فكرر موسى # مؤكداً ما سبق من قوله : هو رب السموات والأرض ، ورب آبائكم وأجدادكم ، فحكم عليه فرعون بأنه رسول مجنون تلك التهمة الشائعة الملازمة لكل مجتمع ظالم لدعاة الإصلاح.

وقد كرر موسى # أن رب العالمين هو رب الوجود كله ، وإدراك ذلك يتوقف على استخدام العقل ومنطقه لقبوله ، والتسليم به ، وهنا هدده فرعون بالسجن إذا لم يرجع عن رسالته.

وهي ظاهرة من الظواهر الشائعة في مقابلة كل نقد للظلم ، ودعوة إلى العدل لإسكات الناقد المصلحين ، والدعاة المخلصين ، ودرء ما يستشعره خصومهم من خطر عليهم من أصحاب الدعوة إلى الحق ، والتفوق في العلم.

والشجاعة عند المواجهة أخذًا بالحيطه في إسكات كل صوت يرتفع بدعوة مخالفة لما عليه مجتمع فاسد، وقد أجاب موسى بما يستدل به من أفعال الله ﷻ؛ ليعرفه أن الله ﷻ مخالف لما عليه جميع الأشياء، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والذي إليه سبيل في معرفته معرفة ثابتة بصفاته استدلالاً بأفعاله الخاصة بأن حقيقته فوق نظر العقول؛ ولأن فرعون منكر كان يعقب على جواب موسى بالتعجب منه، فلما ثنى بتقرير قوله جننه إلى قومه وسخر به، حيث سماه رسولهم. فلما ثلث بتقرير آخر احتدم وهدد، وقد لا يتهم موسى # أولاً، فلما رأى منهم شدة الشكيمة في العناد، وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج كانت منه المخاشنة.

وقابل اتهامه بالجنون بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، قال تعالى: ﴿فَأْتِيَ فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، إلى أن قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

الخروج من مصر:

بينت الآيات أن النقاش بين موسى #، وفرعون انتهى إلى موعد للقاء بين موسى # والسحرة، وأن نتيجة هذا اللقاء كانت لصالح الدعوى بإيمان السحرة، ومواجهتهم تهديد فرعون لهم بعدم المبالاة والصبر والأمل في الله ﷻ، على نحو ما ذكرت ذلك سورتا الأعراف وطه.

مع اختلافات في العرض تناسب مع السياق والهدف، الذي من أجله نزلت السورة على رسول الله ﷺ، وقد أمر فرعون بحشد الناس لحصار موسى، ومن معه من المؤمنين بالله رب العالمين.

تاريخ الدعوة والدعاة

لتوقيع العقاب عليهم خشية انتشار خطرهم المزعوم، وأوضح أنهم مجموعة قليلة يمكن حصارها، ووضع حد لها، وإن كانت مصدر قلق وغيظ له وللأمم من حوله، وفي مقابل ذلك يسر الله ﷻ أمر خروج موسى # مع بني إسرائيل من مصر، ذات الحداثق.

ومصادر الماء والثروة، والإقامة الطيبة في مساكن عالية وحياة رغدة، وكانت نعمة الله عليهم إلى جانب الإنجاء وفيرة، وقد خشى أصحاب موسى # أن يدركهم جنود فرعون، فطمأنهم بأن الله معهم، وضرب بعصاه البحر فأنكشف قاعه، وأصبح ممراً يابساً، والماء على جانبه كالجبل العظيم.

والداعية إلى الله يخرج من هذا الموقف بدرس مستفاد، فلو كان فرعون وملؤه يسعون سعياً جاداً لكانت الآيات التي جاءهم بها موسى # مقنعة لهم وكافية، لكنهم لم يكونوا على استعداد لذلك، فكانت عاقبتهم الغرق بأمر من عند الله ﷻ.

كما أن الآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ مقنعة، وكافية لمن يريد الإيمان من أهل مكة المعارضين للدعوة، ولكنهم حين لم يؤمنوا صنعوا ما صنع غيرهم من معارضي دعوة رسل الله.

واقترحوا على النبي ﷺ مزيداً من الآيات قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، إلى أن قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَخْرَفْنَا الْأَخْرَيْنَ ﴾ [الشعراء: ٦٦].

لقد زود الله موسى بالآيات التي منها العصا واليد والطوفان، والجراد والقمل والضفادع والدم، والجذب في البوادي، والطمس على قلوب القوم، والنقصان في مزارعهم، وتلك الآيات استيقنتها أنفسهم وجحدوها بألستهم ظلماً وعلواً.

كما يحدث من نظرائهم الذين يواجهون رسول الله محمداً ﷺ ، ويعرفون بقلوبهم أن ما يأتيه حق ، ولكنهم يعارضونه بألستهم فيكتمون الحق وهم يعلمون. وإذا كانت عاقبة الذين عارضوا دعوة موسى قد سجلتها آيات القرآن المنزل على رسول الله ﷺ للترغيب والترهيب ، والتحذير والتبشير. فإن أهل مكة ينبغي أن يضعوا هذه الحقيقة نصب أعينهم حتى يتلافوا بالإيمان المصير الذي آل إليه مكذبو دعوة موسى # ، ويتداركوا الأمر قبل فوات الآوان.

مولد موسى # :

وأول حلقة في حياة موسى # وهي مولده في فترة اضطهاد بني إسرائيل في مصر فصلتها سورة القصص ، وقد توسعت في تصوير حال أم موسى ، وما أصابها من الاضطراب والانزعاج والخوف عندما وضعت حملها ، فإذا أحمال ثقيلة من الخوف على وليدها تأتيها.

وإذا بالإلهام بإلقائه في اليم يثلج قلبها حتى لا تخاف ولا تحزن ؛ لأن الله سيمن عليها ويربط على قلبها بالصبر ، فأرسلت أخته لتقصي أخباره ، وتعرف أحواله.

فرأت معجزة كبرى إذا امتنع عن المراضع حتى يرجع إلى أمه ، ويعود إليها بعودة الرجاء والأمل ، ويتحقق لها الوعد والله سبحانه لا يخلف وعده ، وقد أحاط موسى بعنايته ورعايته ، وصنعه على عينه وهده.

وقد بلغ موسى # الأشد واستوى ، وأوتي الحكمة والعلم ، وتعرض لحادثة عندما دخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، وقد سبق القدر بأن يقتل أحدهما خطأ.

تاريخ الدعوة والدعاة

كما هم بقتل آخر، فانكشف أمره وذاع، ونصحه رجل جاء من أقصى المدينة يسعى بالخروج من المدينة؛ لأن القوم يأتمرون به فتوجه إلى مدين، والتقى بابنتي الرجل الصالح الذي طمأنه فعمل عنده وتزوج ابنته.

وبعد انقضاء مدة الأجل عاد مع أهله إلى مصر، فرأى ناراً في طريق العودة من جانب الطور، ونودي أن بورك من في النار ومن حولها، لحدوث ذلك الأمر الديني فيها وحدث المعجزات، وهي الحلقة التي بدأت منها سورة طه، وسورة النمل.

غير أنه يبدو فيما عرضته سورة القصص إضافة تهكم فرعون بدعوة موسى عندما قال: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُنْ عَلَى الطَّيْنِ فَأَجْعَلَ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أُطِيعَ إِلَهِ مَوْسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

والإشارة إلى السبب الذي أدى بفرعون وجنده إلى تلك النهاية الأليمة من الاستكبار في الأرض بغير الحق، وإنكار العودة إلى الله ﷻ ﴿ فَأَخَذَتْهُ وَجُودَهُ، فَسَبَدْنَهُمْ فِي آيَةٍ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [٤٠] وجعلناهم أئمة يدعون إلى النكار ويوم القيامة لا يصرون ﴿ ٤١ ﴾ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ [القصص: ٤٠-٤٢].

وبعد هلاك فرعون أتى الله ﷻ موسى # الكتاب بصائر للناس وهدى ورحمة، وتوجه الخطاب بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ يمتن عليه، ويبين أنه رسول وأن ما جاءه الحق، وأنه لم يكن حاضراً وقت وقوع هذه الحوادث الجليلة في تاريخ الإنسانية. وإنما علمها بإعلام الله ﷻ له، وقصه عليه في هذا القرآن ما هو عظة وعبرة، لعل القوم يتذكرون فيرجعون إلى الحق ويتركون العناد، لاسيما

وأن القرآن قد دحض ما أثاروه من الشبهات، وأقام الأدلة الواضحات على أنه الحق والصدق. وأن ما أنزل عليه هو خاتم رسل الله - عليهم الصلاة والسلام -، وأن من لم يستجب له قد اتبع هواه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

التوراة:

وإذا كانت قصة موسى في القرآن أكبر قصص الأنبياء، وكان المقام يقتضي التركيز على ما يهيم الدعوة والداعية، كان لابد من الإيجاز حرصاً على التناسق وخشية الطول، وإن كانت هناك من الفوائد في كل ما عرضه القرآن منها ما ينبغي أن يكون موضع عناية خاصة. تُفرد كل رسول من رسل الله بالكتابة عنه وحده لاستيفاء كل جوانب قصته في كتاب الله ﷻ، معجزة رسول الله ﷺ.

وفي سورة غافر عرضت حلقة الحوار بين فرعون وموسى مع قول فرعون: ﴿ذُرُوفِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

ولا يرد حوار الرجل المؤمن من آل فرعون إلا فيها، كما انفردت سورة الكهف بذكر حلقة العبد الصالح الذي صحب موسى، وقد آتاه الله رحمة وعلماً، فركب معه السفينة حتى خرقتها، فنسي موسى #، وسأله مخالفاً ما كان قد عاهده عليه. ثم وجد غلاماً فقتله فلم يملك موسى نفسه، فسأل: ﴿أَفَلَتَ نَفْسًا رَّكِيَّةً يَغْيِرُ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٦٤].

إلى أن انتهى الأمر في الثالثة عندما أقام العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض، وكان الفراق لما لم يستطع موسى # الصبر عليه من الأمر رغم الوعيد، وتذكر

تاريخ الدعوة والدعاة

بعض الحلقات من قصة موسى # في سورة البقرة مع التركيز على عناد بني إسرائيل. كما انفردت السورة بذكر أمرهم بذبح بقرة لتحذير الأمة الإسلامية من الجدل، والاختلاف حتى لا تقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، كما قال # : ((ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم)).

وذكرت سورة النساء طلب بني إسرائيل منه رؤية الله جهراً، وذلك منهم دلالة على الغفلة كما تذكر سورة المائدة حلقة الوقوف على أبواب الأرض المقدسة، وأمر موسى # لهم بالدخول إليها وإبائهم ذلك. وطلبهم منه أن يذهب هو وربهم لمقاتلة القوم الجبارين، وقد تركوا بعدها في التيه، ولم يرد لموسى # بعد ذلك الموقف ذكر في القرآن الكريم.

وإذا كانت رسالة موسى #، ودعوته إلى فرعون وملئه، وإلى بني إسرائيل قد أخذت من العناية في القرآن ما هي جديرة به، فإن الكتاب المنزل عليه قد أخذ هو أيضاً من عنايته، والتنويه به ما هو به جدير. فلقد جرت سنة الله ﷻ منذ القدم بإرسال الرسل -عليهم السلام-، وإنزال الكتب عليهم، وكانت عنايته ورحمته بالرسل -عليهم السلام-، وأمره لهم بالصبر على البلاء الذي يعقبه النصر، وهم وإن تباعدوا في الزمان أمة واحدة في العقيدة والطريقة، والكتب المنزلة عليهم.

فرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال، وبيان يكشف الظلمات ويمحو الشبهات، إذ كثيراً ما يتوه العقل ويضل الضمير، فيكون هذا الضياء النازل من السماء وحياً إلى الأنبياء ينير الطريق، حتى تستقيم العقول، وتتضح القيم والمعاني والتفكيرات بنور الله الذي هو ذكر للمتقين. والتوراة الكتاب الذي أنزل

تاريخ الدعوة والدعاة

كما ذكرت ذلك سورتا الأعراف وطه: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسْفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠]، والآيات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ [طه: ١٩٠]، الآيات إلى قوله: ﴿وَلَمْ تَرْفُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ١٩٤]. وكان هارون مع موسى -عليهما السلام- في أداء الرسالة، ومخاطبة فرعون ودعوته ومباراة السحرة حتى ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿[الشعراء: ٤٧، ٤٨].

كما كان معه في دعوة بني إسرائيل، وكان هارون # لين الجانب حليماً كما كان ذا أسلوب يرقق القلوب، ويكسر من حدة الغضب كما يوضح ذلك موقفه مع موسى -عليهما السلام-، وتهديته لثورة غضبه. والآيات التي جاء بها موسى # إلى فرعون كانت له ولأخيه هارون -عليهما السلام- قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ١٧٥]، وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥].

وقد علل موسى # طلبه من الله ﷻ أن يرسل معه أخاه هارون بفصاحة لسانه. قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ (٣٤) قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْغٰلِبُونَ ﴿[القصص: ٣٤، ٣٥].

كما أوحى الله ﷻ إلى موسى وهارون -عليهما السلام- أن يتخذا بمصر لهما بيوتاً، مباءة ومرجعاً لقومهم في العبادة والسكنى؛ ليعتضد المؤمنون بعضهم ببعض، ويتعاونوا على الحق، ويسلي بعضهم بعضاً على الشدائد التي تصيبهم. وقيموا الصلاة ليتذكروا بها سلطان ربهم ورحمته؛ ليثبتوا على اليقين والإيمان.

تابع قصة هارون - داود وسليمان - عليهم السلام-

عناصر الدرس

- العنصر الأول : استكمال الحديث عن نبي الله هارون # ٢٢١
العنصر الثاني : الحديث عن نبي الله داود # ٢٢٢
العنصر الثالث : الحديث عن نبي الله سليمان # ٢٢٢

استكمال الحديث عن نبي الله هارون

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ مِمَّا بِيَمِينِكَ مِثْرًا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٢٨٧]. بل حتى الدعاء كانا يتوجهان به معاً إلى الله، والإجابة كانت تأتيهما كذلك، فبعد أن عرضا آيات الله على فرعون وملئه عرضاً متكرراً، وترددا عليهم بالنصائح زمنياً طويلاً.

وحذراهم عقاب الله تعالى وانتقامه فلم يزداهم ذلك إلا كفراً، ولم يعد في إيمانهم مطمع دعواً الله ﷻ بما علما أنه لا يكون غيره.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [٨٨] قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

أضيفت الدعوة إليهما؛ لأن هارون شريك لموسى -عليهما السلام- في الرسالة، ووزيره في الدعوة إلى الله، ودعوة أحدهما دعوة من الآخر، والأموال في يد الطغاة يستعينون بها في التسلط على الناس.

والتوراة لموسى وهارون -عليهما السلام- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [١١٥] وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [١١٦] وَأَإِنِّي لَأَكْتُبُ الْمُسْتَبِينَ ﴾ [١١٧] وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [١١٨] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْأَخْرَبِ ﴾ [١١٩] سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [١٢٠] إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٢١] إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١١٤-١٢٢].

وقد توفي موسى # وقومه بالتيه، ولم يدخل بهم الأرض المقدسة، ولما حالت وفاته سأل الله ﷻ أن يدنيه منها رمية حجر، ولم يخرج من التيه سوى الرجلين اللذين أشارا على بني إسرائيل بدخول الأرض المقدسة.

وقد توفي هارون قبل موسى -عليهما السلام-، واتهم بنو إسرائيل موسى بقتل هارون -عليهما السلام-، وحسده على حب بني إسرائيل له، وقد قام بتدبير أمر بني إسرائيل بعد وفاة موسى # فتاه يوشع بن نون، وهو الذي دخل بهم بيت المقدس بعد التيه.

الحديث عن نبي الله داود

ذكر داود # في القرآن الكريم في تسع سور هي: ص والنمل والإسراء والأنعام وسبأ والأنبياء والبقرة والنساء والمائدة، وست من هذه السورة مكية، وثلاث مدنية.

ودعوته # تصور مقياس الحكم العادل بإدراك الحق، وألا يكون للهوى سلطان فيه، وإلا كان الشطط ومظنة الوقوع في الظلم، وإدراك الحق سبيله العلم. وذكر ذلك في قصة داود # يجعله يسري في النفوس، ويدخل إلى القلوب والضمائر التي فيها استعداد لقبول الحق، والانقياد له.

التأسي بالأنبياء -عليهم السلام:

اختار الله ﷻ رسله -عليهم السلام-؛ ليكونوا قدوة للناس، وقد أخلصوا له كل الإخلاص، وأنابوا إليه في السراء والضراء وقوتهم وضعفهم، سواء منهم من وصل إلى ذروة القوة والملك، ومن وصل إلى أشد حالات البلاء.

ومن كتب لدعوته التأييد والنصر، ومن لم يؤمن به إلا القليل من الناس، وللتخفيف عن النبي ﷺ وتسليته، وحثه على الصبر على ما يقول الكفار عنه نزلت سور ص، وقد سبقت بسورة القمر، ونزلت بعدها سورة الأعراف.

وهذه السور الثلاث حافلة بالحديث عن الأنبياء وصبرهم وجهادهم، ومواقف أقوامهم منهم، وإنذار المكذبين بعذاب الله في الدنيا والآخرة، وسورة ص تخالف سورتي القمر والأعراف في أنه لم يذكر فيها مع الأنبياء أقوامهم، حسب ما اقتضته حكمة منزل الكتاب على رسول الله ﷺ.

وذكر فيها من الأنبياء: داود وسليمان وأيوب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل واليسع وذو الكفل، وقد فصل في الحديث عن بعضهم، وأجمل في الحديث عن البعض الآخر، وختمت السورة بذكر آدم #، وسجود الملائكة له وامتناع إبليس.

وقد اقترن ذكر داود # في كثير من آيات القرآن بالزبور، وتأسياً بمن سبقه من الرسل -عليهم السلام- صبر النبي ﷺ على ما لقيه من عناد ومناوأة، وتكذيب لاختيار الله له مع أنه ليس ببدع من الرسل الذين كانوا موضع عناية الله ورحمته.

ونعمه التي أغدقها عليهم، ولتوجيهه ﷺ وتقوية عزيمته وشد أزره، جاءه الأمر في هذه السورة بالصبر على ما يقوله الكفار، وذكر داود ذي الأيد إنه أواب، فقد توالى على داود # نعم الله ﷻ، فكان ملكاً وقاضياً.

وكانت الجبال والطير تردد معه الذكر والتسبيح، ووهبه الله فيما وهب ملك سبأ هو وسليمان ابنه -عليهما السلام-، وقوام حياة الأنبياء -عليهم السلام-، والعنصر البارز فيها الصبر، ولهذا أمر به قبل الشروع في الكلام عن أولى الحلقات من دعوة داود #.

وذكر الأنبياء والعيش معهم وفي صحبتهم عون لكل صاحب دعوة، حتى صاحب الدعوة الخاتمة محمد ﷺ فضلاً عما يقتدي به، ويحمل هديه إلى الناس. لقد كان داود # صاحب قوة، وكان يخاف الله ويخشاه، وكان صاحب ملك قوي عزيز، وكان يسوسه بالحكمة وفصل الخطاب، وكانت قوته في العبادة والعمل الصالح.

حتى قال رسول الله ﷺ: ((أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً))، ولا يفر إذا لاقى وكان لا يهن لشدة، ولا يضعف لاضطهاد ويقابلها بالحزم والعزم.

لأن كل شدة تنتهي إلى رخاء حسب سنة الله، وكان يقابل جهل قومه بالحكمة، ويرجع إلى ربه في الشدة والرخاء، فأعطاه الله ما أعطاه وسخر له ما سخر، وقوي ملكه بالعلم النافع والفصل في الخصومات، سواءً في التقاضي أم في إقامة الحجة والدليل ودحض الشبهات.

قال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُتْبِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ۗ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص: ١٧-٢٠].

أمثل الطرق إلى العدل في الحكم:

وقد تحاكم إلى داود # خصمان، وشرح أحدهما القضية بما يبدي أنه مظلوم؛ لأنه صاحب نعمة طمع فيها صاحب نجاج، وقد رد داود # بأن الشأن في الخلطاء أن يبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

ولم يذكر النص سماع داود # حجة الطرف الآخر، والشأن في القاضي أن يسمع لكلا الخصمين، ويوازن بين الكلامين ثم يقضي بعد ذلك لمن رجحت حججه على صاحبه. ولعل صاحب النعاج رأى مصلحة صاحب النعجة، ومصلحتها هي في العيش مع نعاجه، أو مصلحة لنعاجه هو في عيش نعجة صاحبه معها.

فعزه في الخطاب على أنه يجوز أن يكون نبي الله داود # قد حجب نفسه للعبادة، حتى تسور عليه الخصمان؛ ولأن تسورهما عليه أمر غريب فزع منه، وهنا ثلاثة توجيهات: التنبيه على كل واحد منها تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل في الحكم:

الأول: الاستماع إلى كلام الخصم إذ الحكم بدونه مدرجة إلى الظلم إن لم يكن هو الظلم نفسه.

والثاني: الحكم في القضية المطروحة دون تعميم، والثالث: البعد عن الهوى والشهوة؛ لأن سمة الحكم الظالم الميل إليهما.

على أن هذه التوجيهات ليست موجهة إلى داود # وحده، بل تعم كل من أمر بالعدل، واتباع الحق المنزل من الله فضلاً عما هو قدوة كداود #، فهو في العدل وكثرة العبادة، والفتنة وقبول النصح مضرب الأمثال.

وقد قبل من الخصمين ما قالوا، وهو يبين أن الصلة بين الجميع صلة النصح والإرشاد، ((والدين النصيحة)) كما قالها رسول الله محمد ﷺ.

فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري < قال: قال رسول الله ﷺ: ((الدين النصيحة قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)) ولما كانت المعاملة مع الله قائمة على أساس الحذر والاحتياط من الصفوة المختارة من دعاة الحق.

ظن داود # أنه فتن فاستغفر ربه وخر راکعاً وأتاب، فكان له عند الله تعالى الحظوة وحسن المآب، مع أنه كان سبباً لهذا الخير والتوجيه والتأديب لمن يقوم على مصالح الناس، ويقضي في الخصومات.

إذ بالعدل يستتب الأمن ويصان النظام، على أنه ينبغي أن يكون واضحاً لمن يتصور أن في القصة قدحاً في داود # أن سورة ص تحاج الذين ينكرون النبوة، ولا يناسبها القدح في واحد من الأنبياء، الذين أخلصهم الله بخالصة هي ذكرى الدار، والذين أمر الله رسوله محمداً ﷺ بالاقْتداء بهم.

وقد وصف الله داود # بصفات تدل على التشريف، منها العبودية لله، والقوة على فعل الطاعات واجتناب المنهيات، والاستمسك بتعاليم الدين والصلابة في الحق، والشدة على الباغين المفسدين.

وكثرة الرجوع إلى الله بتفويض الأمور إليه، والله قد شيد ملكه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، كما أن الداخلين على داود # خصمان لا ملكان، إذ هما لا يكونان خصمين ولا يحتاجان إلى التسور والتسنم.

ولا يعتديان ولا يظلمان، وليست القصة ضرب مثل؛ لأن الكفالة الضم مع بقاء الملكية، وتزوج امرأة الغير يزيل ما له فيها من حق، والخطاب ليس المراد به الخطبة حتى لا يتعارض مع ﴿وَأَيِّنَّا الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

ولفظ الخلطاء يدل على أن الخلاف كان في الشركة في العجاج، والمنطقة التي كان فيها داود # مشهورة بذلك، والتخاصم إليه من أهل هذه المنطقة في هذا الشأن وارد.

كما تدل عليه سورة الأنبياء ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يظلم بعضهم بعضاً، فكيف بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام؟!.

وكيف يتصور أن يتسبب داود # في إراقة دم رجل بريء؟ ولو أن ذلك قد حدث، فكيف يترك هذا الذنب الأعظم إلى غيره؟ والله لا يفضح عبده بل يستره، ولا تأتي آيات قاذحة وسط آيات مادحة.

والأنبياء معصومون مما ينفر حتى إن الحكم لأحد الخصمين دون السماع من الآخر قد استبعد، لدلالته على عدم الفقه، فكيف بمن هو أكبر منه؟ إن القصة وأمثالها من كذب اليهود فهم يتعمدون ذلك في حق داود #.

لأن عيسى # من ذريته، وهم يسلكون كل سبيل يؤدي إلى الطعن فيه، ولعل الصواب أن داود # قد فرق أعماله على الأيام، وخص كل يوم بعمل فجعل للعبادة يوماً، وللقضاء يوماً ولشئون نفسه وأهله يوماً.

وفي يوم العبادة دخل محرابه كالعادة، وأثناء استغراقه فيها دخل عليه خصمان من بني إسرائيل فجأة، ففزع منهما فزعاً لدخولهما عليه في غير يوم القضاء بلا إذن، ومن غير المدخل المعتاد، وظن أنهما يريدان به سوءاً.

وكان يجمع بين الملك والنبوة، ولما تبين له بعد الحكم بينهما بالعدل أن الأمر كان على خلاف ظنه ندم، واستغفر ربه من هذا الظن، والظن بالغير بالنسبة إليه يعتبر خلاف الأولى؛ لأنه كان في حضرة ربه وعبادته وأمنه وحمايته.

والله قبل منه توبته، وليس في الاستغفار ما يشعر بارتكاب ذنب؛ لأنه فعل خير لا ينكر من ملك ولا نبي، ولا مذنب ولا غير مذنب، وهو شعار الأنبياء المشهود

لهم بالعصمة، فإن كان هذا مستساغاً في بيان القصة فيها، وإلا فالرأي الأول على ما توجه إليه من نقد.

وليس وراء ذلك رأي وإن دعم بأخبار لا أصل لها، وروايات لا صحة لسندها، ولا يحتاج ظاهر النص إليها.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبُوا نَبُؤًا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿١١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَّمَانِ بَعِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿١٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلِي نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثُرَ مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿١٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحَسَنَ مَّكَابٍ ﴿١٥﴾ يٰ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا تُسْأَلُونَ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

نعم الله على داود #:

ونعم الله ﷺ على داود # كثيرة متعددة، وقد قام # بواجب شكرها بالقول والعمل، فالله قد رزقه الملك والعلم والنبوة، وفضله على كثير من عباده المؤمنين، فقام لله تعالى مؤدياً حق هذا التفضيل بالحكم بين الناس.

والعلم بوجوه وطرقه، وسياسة الدولة وتدبير شئونها وفق هدي الله، وقد أنزل الله على داود # الزبور الذي وردت فيه إشارة إلى أن الأرض يرثها عباد الله الصالحون، وهم محمد ﷺ وأمته، وكان داود # بصوته الجميل العذب يردد الآيات التي أنزلت عليه.

فإذا نعمات صوته تتردد على مسامع الكون، فيردد معه الثناء والنداء للخالق الجبال والطير تسيحاً يفهمه داود # ، كما ألان الله له الحديد معجزة خارجة عن المألوف، فكان يصنع الدروع التي تقي من ويلات الحروب بستر جسم الإنسان ومكانه، وهي محكمة النسيج.

وأمر بإصلاح أمور الدنيا، وإصلاح أمور الدين لحاجة الإنسان إلى الأمرين جميعاً؛ لتتم سعادته والله لا يخفى عليه أمر، وقد أشارت إلى ذلك سور النمل والإسراء والأنعام.

كما فصلته سورة سبأ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَنْجِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ۚ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِرٍ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

عطاء وعطاء:

ومن نعم الله على داود # ابنه سليمان الذي آتاه الله الملك والحكمة، فكان نعم العبد، وقد فاق والده في إصابة الحكم، والتفاوت في العلم وإصابة الحق لا يدل على نقص في داود # ، أو عدم استعداد بل يدل على تفاوت القدرات في مجال الاجتهاد فحسب.

وقصة الحرث الذي نفشت فيه غنم القوم دليل هذا العطاء، فقد دخل رجلان على داود # أحدهما صاحب حرث، والآخر صاحب غنم.

فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا قد نفشت في حقلي انطلقت فيه ليلاً فلم تبق منه شيئاً، فحكم داود # لصاحب الحرث بأخذ غنم صاحبه في مقابل حرثه.

ومر صاحب الغنم بسليمان # وقص عليه قضاء والده، فأخذه ودخل به على أبيه وقال: يا نبي الله إن القضاء غير ما قضيت ادفع الغنم إلى صاحب الحرث ينتفع بها، وادفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان.

ثم يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فقال له: القضاء ما قضيت وأمضياه، والآية محتملة لذلك قاطعة بأن داود وسليمان -عليهما السلام- قد حكما حكمين مختلفين، وما ذكره المفسرون يدل على أن حكم سليمان كان أرفق بكلا الفريقين.

وإن كانت الآية لا تنص على حقيقة ما حكم به كل منهما -عليهما السلام-، على أن معرفة فنون الحرب والوقاية منها نعمة عظيمة تستحق الشكر والتقدير، وخاصة من الذين جربوا ما للحروب من ويلات، وما للغلبة فيها من نفحات.

ومنهم داود # الذي خاض في مقتبل العمر، ومرحلة الشباب حرباً قتل فيها جالوت، وهو فارس مشهور له مع الحرب تاريخ وله فيها مقام، وسواء أكان صنع داود للدروع، وإلانة الحديد له بتعليم من الله وإرشاد، أو بمعجزة خارقة للمعتاد فإنه آية من الآيات.

وإن كان فهم الآية على وجه خارق للعادة لا يذهب إليه إلا إذا تعذر فهمها على وجه معتاد.

قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۗ وَكُلًّا ءَايْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۗ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۗ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٠].

العقيدة سبيل الانتصار:

طلب الملأ من بني إسرائيل من نبيهم أن يبعث إليهم ملكاً يقاتلون تحت قيادته في سبيل الله، وكان الملك هو طالوت، وبعد عدد من التجارب تبين منهم نفر أصحاب صبر وجلد وقدره.

وقد أراهم الله ﷻ أن حقائق الأمور يعلمها هو إعداداً لهم، وإبعاداً عن المظاهر الخادعة، فقد قتل داود # وهو شاب جالوت وهو ملك قوي، وأنعم الله على داود # فأتاه الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.

وكان عهده أزهى عهود بني إسرائيل، تيقظت فيه العقيدة في نفوسهم، وهي ركيزة كل نهضة ودعامة كل نجاح، وأساس كل تقدم وسبب كل انتصار، وكان من نتيجة يقظتها في نفوس بني إسرائيل خروجهم من التشرذم والضلال.

ودخولهم في الطمأنينة والانتصار، وتبدل الأفكار قال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهَا أَلْمَلَكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ [البقرة: ٢٤٧، ٢٤٨].

وهذه الأفكار السقيمة، والمقاييس المادية لدى القوم نشأت من غياب العقيدة الصحيحة التي تبعث على الفكرة المستقيمة، والنظرة الصائبة، ولذلك تغيرت نظرتهم واستقامت أحكامهم عندما من الله عليهم بالقيادة الصالحة، التي أحييت العقيدة في نفوسهم.

تاريخ الدعوة والدعاة

وأزالت الخوف من قلوبهم، وهونت من شأن عدوهم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أقدامنا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿البقرة: ٢٥٠، ٢٥١﴾.

ولابد للداعية من دروس مستفادة من دعوة داود #، وقصته في القرآن الكريم، فهو كقدوة عابد ذاك شاعر لأنعم الله عامل للدين والدنيا معاً متوكل على ربه، ويأكل من عمل يده، وهو كحاكم يقضي بالعدل والحكمة.

ويسوس الرعية بهدي الله، ولا يخضع لهوى أو شهوة في حكمه، ولا يميل عن الصواب، وهو مع الحق يخضع له، ويقبل النصيح، وإن جاءه من ابنه، ولا يتعالى عن سماعه بحال من الأحوال، وهو شجاع مقدم يعلم أن النصر من الله. ويشق به ثقة لا حدود لها، وإن كان أمام فارس ذاع صيته، وطبقت شهرته الآفاق.

الحديث عن نبي الله سليمان

ذكر القرآن الكريم سليمان # في سبع سور، وهي: ص والنمل والأنعام وسبأ والأنبياء والبقرة والنساء، وخمس من هذه السور مكية، واثنان مدنيتان، وقد جمع الله له الملك والنبوة والعلم، وقد اقترن ذكره بذكر أبيه داود -عليهما السلام- في كثير من المواضع.

وانفرد داود # دونه بالذكر في سورتي الإسراء والمائدة، واتسع ملك سليمان # كما اتسعت حدود دعوته حتى وجهها إلى مملكة سبأ بحضرموت على مقربة من اليمن.

وكانت تعيش في ظل حضارة وسط جنات ذات ثمار متنوعة، واجتمع فيها مع الحياة الرغدة البأس الشديد حتى افترى أهلها، وظنوا أن النعيم عنهم لا يزول.

عطاء بغير حساب:

وأولى حلقات دعوة سليمان # التي عرضها القرآن الكريم جاءت بها سورة ص، فذكرت أن سليمان كان يشبه أباه داود -عليهما السلام- في الرجوع إلى الله، وذكرت مظهرًا من مظاهر القوة والملك.

وهو عرض الخيل الجياد عليه في وقت العشي، وقد أحبها حبًا ناشئًا عن ذكر ربه، فكلما ذكرها ذكر فضله وإحسانه، لما للخيل من أثر في تثبيت الملك وتقوية المؤمنين، والمساعدة على إعلاء شأن الدين.

وهو ما ينبغي لمن أعطاه الله نعمة ألا يفتن بها، كما لم يفتن سليمان # الذي كان يشهد فيما أعطاه الله من نعم مصدره، ويقرأ في صفحاته واجبه.

لقد أجرى جنده الخيل أمامه حتى توارت بالحجاب، فأقبل يمسح سوقها وأعناقها ليقندي به غيره من رجاله إعدادًا للقوة، وتنويهاً بوسائل الجهاد في سبيل الله، وذلك من أعظم التصرفات في الملك والسلطان.

ولقد توجه إلى الله بالدعاء طالبًا ملكًا خاصًا به، فأعطاه الله ما طلبه، وزاد على ذلك من فضله وكرمه؛ ولأن مهام الدين فوق مهام الدنيا قدم طلب المغفرة على طلب الملك، ولقد جعل الله له الريح تجري بأمره، وسخر له الشياطين.

وفيهم البناء والغواص ، وهو عطاء كثير يعطي منه أو يمسك بغير حساب .

قال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِثِّيِّ الصَّفِيْنَتَ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّهُ بِنَاءِ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِن لَّهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿٤٠﴾ [ص : ٣٠-٤٠].

وفتنة سليمان أنه لم يكن في أمر ما عظيم التوكل على الله ، أو أنه لم يذكر المشيئة ، ولو ذكرها لكان ما أراد ، وما قيل في هذا مما لا يتفق مع عصمة الأنبياء فلا يلتفت إليه لعدم صحته ، وتنافيه مع ما له من المكانة عند الله .

العلم في خدمة الدعوة إلى الله :

أنعم الله على سليمان # بالملك والعلم والنبوة ، وسخر له الجن والطير ، وقد ذكرت سورة النمل موقفه مع النملة والهدهد ، ومع ملكة سبأ التي كان قومها يعبدون الشمس من دون الله .

وفي هذا الذي أوردته السورة تقرير للقواعد الأصيلة لقيام الدولة الفاضلة ، واستقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان # بغير ما استقبلت قريش به كتاب الله ، الذي جاءهم به رسوله محمد ﷺ .

وقد بدأت بإعلان سليمان # تعليم الله له منطق الطير ، وإعطاءه من كل شيء ، وشكره على هذا العطاء ، والعلم هبة من الله ونعمة ، وكل ذي نعمة عليه أن يعرف مصدرها ليتوجه إليه بالشكر والحمد .

وأن ينفقها فيما يرضي من أنعم بها عليه وأعطاه كما كان يفعل سليمان # ،
وقد مر سليمان # بموكبه من الجن والإنس والطير، يتدافعون في كثرة
وانتظام، فأحست به نملة فحذرت قومها، وعرف سليمان # ذلك فشكر الله
عليه، وطلب منه أن يجمع له مع الشكر النجاح.

ولعل النملة حين فعلت ذلك كان لها على قومها صفة الإشراف والتنظيم،
فقامت بحقها وأدت واجبها وحذرت وأذرت فعل من يقدر المسئولية، ويؤدي
حق الله وحق الناس، وإدراكها كإدراك سليمان # لقولها.
كلاهما خارق لا نعرف عنه أكثر مما ذكره نص القرآن مع الإيمان به والتسليم،
كشأن المؤمنين بالله وبكلامه تعالى، وبصدق رسله - عليهم السلام -.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ
عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَاءَتِيهَا النَّاسُ عِلْمًا مِّنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ
كُلِّ شَيْءٍ إِنَّا هَذَا لَهَوُ الْفَضْلِ الْمَمِينِ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ
فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا اتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأْتِيهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ
لَا يَحِطُّ بِكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالدِّعَىٰ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ [النمل: ١٥-١٩].

عدالة سليمان # :

غاب هدهد بغير إذن سليمان # ، وعلم بغيابه الجميع عندما قال سليمان # :
﴿ مَا لِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠].

ولابد من عقاب حتى لا يحتل الأمر، ويفسد النظام فتوعده، ولم ينس العدل
فرمما كان له عذر، وهو لم يسمع منه بعد، ولما حضر الهدهد حمل معه مفاجأة،
وبدأ حديثه بما يلفت إليه النظر، ويشد نحوه الانتباه.

وبدأ بالتفصيل فقال: لقد وجدت ملكة عظيمة الملك، وهي وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وهو ضلال وزيف من تدبير الشيطان، ولم يسارع سليمان # إلى التصديق، أو التكذيب.

وإنما أخذ في تجربة قوله على أن أدلة التوحيد التي سيقى على لسان الهدد استدعى الانتباه، وتملاً النفس إيماناً بالحقيقة حين تأتي الحقيقة على لسان هدهد في الوقت الذي يغفل عنها الإنسان، والشمس والقمر وسائر قوى الكون لا تؤثر بذاتها. وإنما هي مسخرة بأمر الله تعالى، الذي تنطق الفطرة بالسجود له وحده دون سواه.

وعلى الرغم مما أوتيه سليمان # من النبوة والحكمة، والعلوم الجملة لم ير بأساً في أن يتعلم من أي طريق، ولو جاءه طائر صغير.

نعم أراد سليمان # أن يختبر أمره ليعرف صدقه فيما أخبره به بما يقيمه من برهان، فحمله كتاباً وأمره أن يلقيه إليهم، وينظر ماذا يقول بعضهم لبعض في شأنه، وذهب الهدد بالكتاب منفذاً ما أمره به سليمان #.

الملكة وقومها:

وصل كتاب سليمان # إلى الملكة، فجمعت أشرف قومها وأصحاب الرأي فيهم، ونقلت إليهم محتواه، وفيه هذه الكلمات: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ [النمل: ٣١، ٣٢].

وطلبت أن يشاركها قومها الرأي، وهو دليل على أنها كانت ذا عقل وحكمة في تدبر الأمر، وأنها لم تكن مستبدة، وإنما كانت ملتزمة بمبدأ الشورى لما له من عظيم القيمة والفائدة الجليلة، والثمرة التي تعود على المستشار والمستشار معاً.

ولعلها قد هدت إلى ذلك بفطرتها وتجاربها، والملا أشاروا عليها بعدم الخضوع لسليمان؛ لأنهم قوم أولو بأس وشدة، وكأدب المشير مع المستشير، وخاصة إذا كان صاحب السلطان قالوا: الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.

وقد شعرت الملكة باغترارهم واعتدادهم بقوتهم، فأرشدتهم إلى أمر له أهميته حتى يتحمل كل واحد مسؤوليته، فسليمان # ربما دخل البلاد وفتحها، مما يضر بالأنفس والأموال كما هو شأن الملوك الفاتحين، وليس من المصلحة وإن كنا أصحاب قوة وبأس أن ندخل معه حرباً.

وشرحت رأيها، وهو أن ترسل إليه بهدية من شأنها أن تستولي على النفوس وتستهوئ القلوب، فإن كان مؤيداً من الله رد الهدية، وإن كان من ملوك الدنيا قبلها، فوافق قومها وبعثوا بهدية إلى سليمان #، ويلاحظ أن الملكة وصفت الكتاب بأنه كتاب كريم لمظهره ومؤداه.

والسمعة التي كانت لمرسله في الآفاق المجاورة، وللداعية في هذا فائدة عندما يكتب ويرسل بالدعوة إلى الناس، كما أن سليمان # طلب من القوم مهمة واضحة أن يأتوا إليه مسلمين لله الذي يخاطبهم باسمه.

والملكة استشارت قومها، ولم تقطع دونهم برأي، وكانت في كلامها تميل إلى الوفاق، وطرح الخصومة والشقاق.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةٍ وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذًىٰ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٢٩-٣٥].

سليمان وهدية الملكة:

لم يقبل سليمان # الهدية التي بعثت بها إليه ملكة سبأ، وأدرك أن الملكة ستسلم؛ لأنها لا تريد حرباً ولا عداوة، وانصرف إلى ما يؤثر على قلبها، ويقودها إلى الإيمان بدعوة الحق، والدخول في طاعة الله.

والله قد أعطاه من فيض رحمته وواسع فضله ما يفوق المال الذي هو عرض زائل، ورزق الله المعنوي خير من الرزق الحسي، ومقام الدعوة خير من الدنيا كلها، وسليمان صاحب خلق عظيم وعقيدة صالحة، وهذا بلا شك خير عطاء وأوسعه وأبقاه.

وقد عرض عليه جنده أفكارهم، فقال عفريت من الجن ما قال، فلم يرض به، وقال الذي عنده علم من الكتاب ما قال فامتدحه وارتضاه، ولم يكشف السياق غير هذا الوصف من أوصافه، والخوض فيه بلا دليل أمر لا يقبل، ولا يقود إلى نتيجة.

والعصر كان عصر معجزة، وكل كرامة لولي هي معجزة لنبي، وصل عرش الملكة إلى سليمان # فحمد الله تعالى صاحب الفضل والنعمة، وأعد للمرأة مفاجأة ليتبين مقدار ذكائها وفطنتها، ولتعلم أنه ليس ملكاً كالملوك، وإنما هو مؤيد من الله تعالى.

يقدر على ما لا يقدر عليه غيره، والخير كل الخير لها أن تسلم معه وتستجيب لله، ولما وصلت إليه قيل: أهكذا عرشك؟ فأجابت: كأنه هو دون إثبات؛ لأنه هناك وعنده الحراس، ولم تنف؛ لأنه فيما عدا التغيير البسيط عرشها.

واعترفت بأنها أسلمت من قبل ذلك، وبينت السبب الذي كان يصدها عن الإسلام، والصرح كان مقاماً من زجاج على قبة من ماء، وقد فعلت عندما

أرادت الدخول مثلما يفعل من يخوض في الماء، فقبل لها: إنه صرح مجرد من قوارير. وهنا لفتتة تستحق التسجيل، وهي أن الإسلام لله لا لأحد سواه، وقد أعلنت هذه الحقيقة ملكة سبأ، ولعل أهل مكة المناوئين للدعوة يدركون مغزى هذا الإعلان، فلا يخشون الدخول في الإسلام حتى لا يصبحوا تابعين، وتكون عليهم الرياسة. وما في نفوسهم من كبر يقف حجر عثرة، ويحول بينهم وبين قبول الدعوة والانقياد لله.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أُنْمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَنِي ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ نَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَنَخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا آذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا بَنِي آدَمَ ائْتُوا أَيْتِي بِعَرِشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مَنِ الْجِنِّ أَنَا ءَأْيُكَ بِهِ ۗ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي ۗ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَأْيُكَ بِهِ ۗ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۗ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۚ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۗ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَنهَنَدِي ۚ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَذَا عَرَشُكَ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۗ وَأُوَيْدِنَا الْعِلْمُ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقِيهَا ۖ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٣٦-٤٤].

تصحيح العقيدة بالنسبة لعلم الغيب:

سخر الله ﷻ لسليمان # الريح تجري بأمره مستغرقة في غدوها شهراً، وفي رواها شهراً، وأسأل له عين النحاس كما ألان الحديد لوالده -عليهما السلام- وكانت الجن تعمل له ما يشاء من محاريب وتمائيل. وجفان كبيرة وقدر راسية

وفق مصلحة يدركها، ويشكر الله عليها، ولا شك أن إثبات هذا التسخير لسليمان # فيه أبلغ رد على من كانوا يعبدون الجن ويؤمنون به، كما حدث في كثير من الفترات، ولم يكن الجن بالنسبة له بآمن من العقاب.

والجن لا يعلمون الغيب، فلما توفي سليمان # بقي الجن يعملون، وهم لا يدرون عن نبأ وفاته شيئاً حتى أكلت دابة الأرض عصاه، ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا يعملون ويخشون العقاب، وفق ما توحى به قصة سليمان من الإيمان العميق. والشكر لله على نعمه، والتصرف الصحيح فيها، تصحح العقيدة بالنسبة لعلم الغيب، والإيمان بالجن على الوجه الذي بيته النصوص دون الجري وراء الخرافات، أو الإنكار بلا دليل، أو التأويل بما لا سند له إلا دعوى التجديد أو التقليد. وأهل مكة غمهم الله بنعمه، فأبوا الإيمان وعرضوا نعم الله عليهم للزوال، وأحلوا قومهم دار البوار، ولو أنهم عقلوا وتركوا العناد لشكروا الله كما كان يشكره سليمان #.

قال تعالى: ﴿وَلَسَلِمْنَ مِنَ الرِّيحِ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُم عَن أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجَفَّانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ ما دَهُم عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَأَنَتِهِ فَلَمَّا خَرَّ تِينَتْ الْجِنُّ أَن لَوْ كانوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي العَذابِ المُهِينِ ﴿سبأ: ١٢-١٤﴾.

على أن خلق النواميس وتوجيهها من اختصاص قدرة الله، والمعلوم للناس منها قليل، ومع عصف الريح وقوتها في نفسها كانت تلين عندما يأمرها سليمان، الذي وهبه الله أنواعا من النعم وفقها في دين الله. وقد أيدت الأحاديث عن رسول الله ﷺ ما نسب إلى سليمان # من الفطنة، إصابة الحق في القضاء وفض الخصومات، كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن

إحداهما. فقالت صاحبتهما: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود #، فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود # فأخبرته، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها.

فقضى به للصغرى، وهو متفق مع ما أورده سورة الأنبياء مما فصل في الكلام عن داود #، ولا بد من التنويه بأمر ذات أهمية لمستها قصة سليمان #، ودعوته في القرآن الكريم. منها أن العلم نور القلوب والعقول، والوسيلة إلى معرفة قوانين الوجود، وتسخيرها في منافع الناس، سواء كانت وسيلة اكتسابه الخبرة والمران، أو كان فيضاً وهبة من الله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان. وأن القوة تشمل قوة الأبدان، وكثافة الجند وقوة الآلات، وأن النظام يكسب الهيبة والاحترام، وأن الغاية التي تسعى الدولة الفاضلة لتحقيقها هي إقامة العدل، ومحاربة الفساد بالعقيدة الصالحة والعمل النافع.

والتوجه بالقلب والعمل معاً إلى الله رب العالمين مع أخذ من يفرط في أمر من أمورها بالعقاب الذي يستحقه، وتوعد سليمان # للهدد بالعقاب الصارم خير شاهد إلى جانب كونه مثلاً يحتذى في الاهتمام بصغار الأمور، وكبارها على السواء. وكل فرد في هذه الدولة الفاضلة لابد وأن يكون مؤمناً بغايتها، مجتهداً نفسه لخدمة مبادئها.

ولما كان عصر سليمان # تسيطر عليه فكرة الأسباب والمسببات، وتولد المعلول عن العلة في انتظام لا يتخلف كانت تلك المعجزات، التي أظهرها الله على يديه لإثبات أن الكون كله بإرادة فاعل مختار. على أنه ينبغي ألا يحمل كل ما لسليمان # على الغرابة، وعدم السير على السنن الطبيعي، بل الأمر يختص بالمعجزات التي جاء بها نص قطعي دون تبيير أو إسراف، وهو ما يقره العقل ولا ياباه منطق الإيمان.

تابع دعوة سليمان - زكريا ويحيى وعيسى، والدعوة في العهد
المكي

عناصر الدرس

- ٢٤٥ العنصر الأول : الحديث عن نبي الله زكريا #
- ٢٤٨ العنصر الثاني : الحديث عن نبي الله يحيى #
- ٢٤٩ العنصر الثالث : الحديث عن نبي الله عيسى #
- ٢٦١ العنصر الرابع : الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي

الحديث عن نبي الله زكريا

ذكر القرآن الكريم زكريا # في أربع سور هي: مريم والأنعام والأنبياء وآل عمران، وثلاث من هذه السور مكية وواحدة مدنية، وهي آل عمران. وهو زوج لخالة مريم أم عيسى #، وهو الذي كفلهما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْهُمْ أَيْهْمُ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَكَفَلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. فهو الذي كان يرى آيات الله الباهرة، وإكرامه لمريم ورزقه لها من حيث لا تحتسب ويسألها ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ فتجيب هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب.

نداء ودعاء:

وأولى الحلقات في قصة زكريا # جاءت بها سورة مريم، فبعد أن رأى نعم الله عليها، ورزقه لها حفزه ذلك على طرق باب الدعاء لعل الله أن يرزقه الذرية، وكان قد بلغ من الكبر عتياً واشتعل رأسه شيباً. وكانت امرأته عاقراً فناجى ربه بعيداً عن عيون الناس، وكشف له عما يثقل كاهله، وربّه يسمع ويرى غير أن المكروب يستريح إلى الشكوى لمن بيده مقاليد الأمور، وهو يسمع السر وأخفى، وقد عوده ربه أن يستجيب له.

ومن بواعث زكريا # على طلب الذرية، خشيته أن يقوم الموالي على تراثه بما لا يرضاه عندما لا يكون من ذريته من يتولى هذه المهمة، وهو يريد الولي الصالح

تاريخ الدعوة والدعاة

الذي يرعى تراث النبوة، وقد طلب من الله أن يكون رضيعاً لا جباراً شقيماً. وبعد فراغه من الدعاء تلقى من الملائكة الأعلى النداء بتحقيق الرجاء، فسأل: كيف يتم تحقيقه؟ فكانت الإجابة ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: 19]، فطلب علامة يعرف بها تحقق البشارة، فكانت الآية مناسبة لما طلب ينطلق لسانه بذكر الله. فإذا أراد أن يكلم الناس لم يستطع ثلاث ليالٍ مع سلامته من العلل والأسقام، وأراد زكريا # أن يشاركه قومه الشكر والذكر على ما أنعم به ربه عليه، فخرج عليهم من المحراب، فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشيماً.

قال تعالى: ﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۗ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يٰزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: 2-11].

أسرة طيبة وقدوة حسنة:

كان زكريا # قائماً على هيكل العبادة في بني إسرائيل قبل مولد عيسى #، وكان يعلم أن الله سبحانه وارث العقيدة ووارث المال، وكانت نفسه تشتاق إلى الذرية، التي تحسن الخلافة بعده في علمه ودينه وأهله. وكان هو وأسرته مسارعين في الخيرات، فأسرع الله سبحانه إليه باستجابة دعائه حين دعاه فأصلح

زوجه ، وكانت عقيماً لا تلد ووهبه يحيى ، وكانوا يدعون الله رغباً في الرضوان ، ورهباً من الغضب لا متكبرين ولا متجبرين. وإنما خاضعان متواضعان لله ، وهما في ذلك قدوة للمؤمنين وأسوة للدعاة قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨١﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ ، زَوْجَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٨٢﴾ [الأنبياء : ٨٩-٩٠].

فذكريا # يدعو ربه أن يرزقه الذرية ، فإذا لم يرزق فإنه لا يبالي ؛ لأن الله خير وارث ؛ ولأنه كان من أسرة مبادرة إلى الخيرات مسارعة في تحصيلها كما يفعل الراغبون في الأمور الجادون حقق الله لهم ما أرادوا ، ورزقهم يحيى - عليهم السلام -. لقد تحركت في نفس ذكريا عاطفة قوية ، فنطق لسانه الطاهر الذاكر وتعلق قلبه بربه القادر ، فاستجاب له وأعطاه على غير مألوف البشر ، وبشرته الملائكة بمولود اسمه معروف قبل مولده وصفته معروفة ، فهو سيد كريم يمنع نفسه من الشهوات ويصدق بكلمة تأتيه من الله.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتْ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرَأَةُ أَلَيْسَ لَدَيْ هَذَا قَوْلٌ مِمَّنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾

تاريخ الدعوة والدعاة

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي عُلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا
وَأَذْكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَيِّحَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾ آل عمران: ٣٣-٤١.

وهذه الآيات تبين أن رسالة زكريا # كانت قبيل ولادة عيسى بن مريم - عليهما السلام - ، إذ إنه أثناء كفالته لمريم سأله الله الولد فأعطاه ، ولا شك أنه كان من أنبياء بني إسرائيل الذين أوحى الله إليهم أن يدعو قومهم إلى الإيمان به ، واتباع رسله. واجتناب عبادة غير الله ، وإلى تعظيمه وتسيححه دون سواه ، وأن يظلوا على ذلك إلى آخر الحياة ، فالربوبية والوحدانية هي أساس دعوته كما هي أساس دعوة جميع الرسل - عليهم السلام - ، ودعا كذلك إلى الإيمان بالملائكة ، فقد بشره بيحيى كما بشروا من قبله جده إبراهيم بإسحاق - عليهم السلام - . والداعية إلى الله يعلم أن الله سبحانه يستجيب لعبده إذا دعاه واستجاب هو إليه ، وأن عطاء الله واسع ورزقه بغير حساب.

الحديث عن نبي الله يحيى

ذكر القرآن الكريم يحيى # في أربع سور هي : مريم والأنعام والأنبياء وآل عمران ، وثلاث منها مكية وواحدة مدنية ، وهي آل عمران ، وقد جاء ذكره مع ذكر أبيه زكريا - عليهما السلام - . وكان يحيى استجابة لدعاء أبيه - عليهما السلام - عندما سأل ربه أن يهبه غلاماً زكياً ، وقد زوده الله سبحانه بما يساعده على تحقيق المهمة ، التي من أجلها طلب والده من ربه أن يرزقه به. وهي الحنان والطهارة والعفة والنظافة ؛ ليواجه بها أدران النفوس فيطهرها ويزكيها ، وكان # موصولاً بالله يستثمر رقابته له في سره ونجواه ، وكان يأخذ الكتاب بقوة ، ويتحمل التبعة ويبلغ الرسالة ويبر والديه.

فسلم الله عليه في الدنيا يوم ولد ويوم يموت، وسلم عليه يوم يبعث حياً مع الأحياء يوم الحساب والجزاء، قال تعالى: ﴿يَنحِيحُنَّ حِذَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَّءَاتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا ۝۱۲ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝۱۳ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝۱۴ وَسَلَّم عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٥]. وكان يحيى # وفق البشارة الإلهية لأبيه علمه الله الكتاب والحكمة وهو صغير، وجعله سيداً وحصوراً ونبيّاً من الصالحين، وكان متحبباً إلى الناس مشفقاً عليهم، طاهر الخلق سليماً من النقائص والرزائل. والسلام عليه من الله في الأوقات الثلاثة التي ينتقل فيها الإنسان من عالم إلى آخر، وهي أشد ما تكون عليه، المولد والوفاة والبعث دليل على مكانة يحيى # من الله ﷻ، فقد كان يحيى # على أكمل ما يكون الداعية من الأوصاف.

فهو الصالح التقى منذ صباه، وهو الداعي إلى التوبة من الذنوب وطلب المغفرة من الله، وهو المصدق بكلمة الله من ذرية طيبة متشعبة بعضها من بعض، موسى وهارون من عمران، ويعقوب وإسحاق من إبراهيم - عليهم السلام -. والله يعلم من يصلح للاصطفاء، فاصطفاهم وهداهم وأرسلهم إلى الناس، ومنهم يحيى الذي فاق في الشرف سواه، ولم يدخل في لهو منذ صباه شريف من أصلاب أنبياء، عليهم من الله جميعاً السلام والتحية والتكريم كلما دعا داع إلى الله.

الحديث عن نبي الله عيسى

ذكر القرآن الكريم عيسى # باسمه عيسى، ولقبه المسيح في ثلاث عشرة سورة وهي: مريم والأنعام والشورى والزخرف والمؤمنون والبقرة وآل عمران والأحزاب والنساء والحديد والصف والمائدة والتوبة، وخمس منها مكية وثمان مدينة. وهو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والسور التي تعرضت لذكره # ذكرت أمه مريم، وانفردت دونه بالذكر في سورة التحريم.

تاريخ الدعوة والدعاة

كما انفرد عيسى # بالذكر دونها في الأنعام والنساء ؛ ولأن مولد عيسى # كان الآية الكبرى في حياته ، وحوله قام الجدل كله وعنه تفرعت كل قضايا النصرانية ، فقد عرضه القرآن بتفصيل كامل . وما ذكره القرآن عنه منه ما حصل في هذا العالم ، ومنه ما سيحصل في يوم الدين ، ومريم أم عيسى # ذكرت في القرآن باسمها العَلَمي ، وبدونه في سور مريم والزخرف والأنبياء والمؤمنون وآل عمران والنساء والتحريم . وكانت ملائكة الله تأتيها وتخبرها باصطفاء الله وإجابته إياها وتطهيرها ، وتحثها على الاجتهاد في العبادة والقنوت ، وقد نشأت نشأة طهر وعفاف مكلوذة بعناية الله محروسة برعايته .

ولادة عيسى # :

وتأتي ولادة عيسى # من غير أب آية في الدلالة على قدرة الله ﷻ بعد خلق آدم # ، وهو أمر لا نظير له في تاريخ البشرية ، التي لم تشهد خلق نفسها من قبل عندما خلق الله ﷻ آدم من غير أب ولا أم . وخلق عيسى من غير أب أمر مخالف للسنة ، التي جرت وتجري منذ خلق الله الإنسان على ظهر هذه الأرض ، وقد خيل للبشرية أن هذه هي الطريقة الوحيدة ، فضرب الله ﷻ للبشر مثلاً بعيسى ؛ ليعلموا أن قدرة الله ﷻ هي خالقة النواميس وليست حبيسة تلك النواميس التي أوجدتها .

وأول حديث للقرآن عن عيسى # وولادته جاء في سورة مريم ، ومريم أم عيسى قد وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد ، ولا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة ، ولا يعرف من أمرها إلا الطيبة والصلاح ، وذات يوم خلت بنفسها في شأن من شئونها ففوجئت برجل فانتفضت مذعورة . ولجأت إلى الله تستنصره وتستجير به ، وتستثير مشاعر التقوى في نفسه ، فإذا به يقول لها : إنه رسول من

الله ليهبها غلاماً غير مدنس المولد ولا السيرة، فسألته في صراحة: كيف يكون لي ولد ولم يمسنني بشر ولم أك بغياً؟!.

وهذه هي الطريقة الوحيدة المتصورة لمجيء الولد كما جرت بذلك عادة البشرية، غير أن قدرة الله ﷻ تقول للشيء: كن فيكون ومجيء الولد أمر هين على الله تعالى؛ ليكون الغلام رحمة للناس ولبنى إسرائيل، وكان ذلك أمراً مقضياً. ومضت مدة الحمل وجاءت لحظة المخاض، وانفردت مريم إلى جذع نخلة تواجه آلام الجسد والنفس والوحدة، وعدم التجربة كما تدل على ذلك كلماتها التي نطقت بها، وولد طفل ونادها ليطمئن قلبها ويصلها بربها. ويدلها على طعامها وشرابها، ويلقنها حبتها وبرهانها، وكانت ولادته آية وأمارة للناس على أنه هداية لهم بقدوته الحسنة وبمثله الأعلى، كما كان رحمة من ربه لهم إن اتبعوه وآمنوا بما أتى به.

وجاءت مريم إلى قومها تحمل غلاماً ﴿قَالُوا يَمْرَأَةٌ كَذَبَتْ وَلَقَدْ جَاءتْ بِشَيْءٍ آفِرِيًّا﴾

مريم: ٢٧، وهنا أشارت إليه ليرد عنها التهمة ويدفع الفرية، فقال لهم الطفل الوليد: إنه نبي يؤتیه الله الإنجيل وهو مبارك أوصاه الله بالصلاة والزكاة مدة حياته، ويبر والدته وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً. وكانت ولادته ومعجزاته لإبطال أن المخلوقات نشأت نشوء العلة عن المعلول، كما كان يُعتقد وإثبات أن الله تعالى خلق الكون بإرادته، وكانت لعيسى # آيات ظاهرة، ودلائل باهرة من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، كما أن نفس وجوده وفطرته آية كامنة على صدقه. وذلك حصوله من غير نطفة سابقة، ونطقه البين من غير تعليم سالف، والبيانات الدالات على رسالته أمور حسية واضحة تُرى بالعين.

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكها مكاناً شرقياً﴾ (١٦) فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنادى بها مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ الْجِذْعَ النَّخْلَةَ فَنَسَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكَلِمِ وَأَشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَأَخَتِ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ مريم: ١٦-٣٥.

لقد انخرمت بولادة عيسى # القاعدة المعروفة المألوفة ؛ ليذكر الناس النشأة الأولى وإن لم تكن هذه مثلها تمامًا ، لقد تلقت مريم النفخ التي تنشئ الحياة ابتداءً ، فنشأت فيها الحياة بإرادة الله المطلقة. وليس خلق الإنسان بأعجب من خلق السموات والأرض وما فيهما ، وإن كان هو أمرًا عجيبيًا أوجدته قدرة الله ﷻ ، كما أوجدت لمريم ما سكن روحها من الرطب والماء الجاري في تلك الهضبة ، التي كانت عليها لتأكل وتشرب وتقر عينا.

دعوة عيسى #: :

إذا كان قوم عيسى بن مريم # قد اختلفوا من قبله ومن بعده في شأنه وفي غيره، فإنه عبد من عباد الله وإن عبده المنحرفون من الناس، وقد آتاه الله الكتاب وهو الإنجيل، وجعله رسولاً إلى الناس وأمره بالصلاة والزكاة. كما أمر هو بهما تقريباً إلى الله، وقد علم العرب أن الآلهة وعبادها في النار فجادلوا بعيسى، وقالوا لرسول الله محمد ﷺ لمجرد الجدل والمراء لا لمحاولة الوصول إلى الحق: ﴿أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ [الزخرف: ٢٥٨]. وقد جاء عيسى # قومه بالبينات والحكمة وما يقطع الخلاف، ودعاهم إلى تقوى الله وعبادته وحده، فهو ربهم ورب الناس جميعاً، وأن هذا هو الصراط المستقيم والطريق الذي لا طريق سواه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا ﴿أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (٥٨) إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُنُّنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿ [الزخرف: ٥٧-٦٥].

فعيسى # عبد الله كسائر العبيد جعله الله آية وشرفه بالنبوة، وجعله علماً للساعة وشرطاً من أشراتها، وقد اختلف فيه اليهود كما اختلف فيه النصارى مع أنه جاء ليبين لهم ما كانوا يختلفون فيه من الديانات، وما يعينهم مما كلفهم الله ﷻ به. كما علمه الله تعالى وأرشده إليه من الحكم والأحكام، وكان هو وأمه آية كما

تاريخ الدعوة والدعاة

كان مخلصاً لقومه من آثامهم وضلالهم، ومريم أم عيسى # محصنة من كل مباشرة، وهي وابنها # آية غير مسبوقه ولا ملحوقه.

وقد جاء عيسى # بالآيات الدالة على العقيدة الواحدة، وبالمهج الواحد الذي جاء به الرسل جميعاً بالإيمان بالله والاتجاه إليه دون سواه، وبالنظر إلى الظروف الجديدة التي واجهت الدعوة الإسلامية بعد الهجرة إلى المدينة، حفلت السورة المدنية بالحديث عن عيسى #. وهي تواجه بذلك اليهود وحدهم أو النصارى وحدهم أو أهل الكتاب جميعاً بما يمارون فيه؛ ليعلموا الحق الذي اختلفوا ويختلفون فيه، وأن دعوة محمد رسول الله ﷺ هي نفس الدعوة، التي جاء بها من قبله الرسل والأنبياء - عليهم السلام-. وأن أعداءهم أعداء هذه الدعوة، كما أن المؤمنين برسالة محمد ﷺ هم الذين يصدقون به وبرسالات الرسل جميعاً، وتفضيل الله ﷻ بعض الرسل على بعض أمر آخر غير الإيمان بهم جميعاً، والتصديق بما أنزل إليهم.

وقد أنزل الله ﷻ على عيسى # الإنجيل ومعناه البشارة، وهو كتاب تضمن الهدى والنور والبيانات، وأهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه، وبشرهم باقتراب زمن الرسول الذي يكون على يديه بعث شريعة جديدة. وفيه وصف هذا النبي ووصف أتباعه، وعلى مر الزمن ترك الناس إنجيل المسيح #، واستمسكوا بكتب ألفها بعض تلاميذه أو تلاميذهم أو من بعدهم، وقد كثرت كثرة فاحشة فضلاً عن انقطاع سندها، وعدم العلم بالمؤلف الحقيقي أو المترجم ومبلغ أمانته على الدين. وحرصه على الصدق فضلاً عما بينهما من الاختلاف المفضي إلى أن أحد الأقوال صادق وما عده كاذب؛ لتناقضهما وعدم إمكان الجمع بينهما بحال.

والقارئ لهذه الأناجيل العارف بأصول الأديان السماوية، وما اتفق عليه دعاة الحق من رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - يجزم بأن هذه الأناجيل تحتوي على ما لا يمكن صدوره من رسول، فضلاً عن رسول الله عيسى بن مريم #.

دعوة عيسى # إلى التوحيد:

تذكر سورة آل عمران التوحيد، وتورد قصة عيسى # وما جاء مكملاً لها لتؤكد، وتنفي فكرة الولد والشريك وتبسط مولد كل من مريم وعيسى # بطريقة لا تدع مجالاً لأية شبهة في بشرية عيسى الكاملة، وأنه واحد من الرسل شأنه كشأنهم - عليهم السلام -. وتفسر الخوارق التي صاحبت ولادته تفسيراً يريح القلب والعقل، وعيسى # يقرر حقيقة الرسالة، وأنها تأتي لتقرير منهج وتنفيذ نظام وبيان الحلال والحرام، والسورة تصور حال المؤمنين مع ربهم كما هو في سيرة نخبة مختارة من البشر. اختارها الله وجعلها ذرية بعضها من بعض، قدوة في الصلاح والتقوى، وأسوة في الطهر والنقاء والتحمل في سبيل الحق والإصرار عليه حتى آخر رمق من الحياة، فحديث امرأة عمران ومناجاتها لربها، وحديث مريم مع زكريا ودعاؤه ربه. ورد الحوارين على عيسى #، ودعاؤهم ربهم كل ذلك يعطي صورة واضحة لما ينبغي أن يكون عليه حال المؤمنين مع الله ﷻ.

وبمقارنة ما عرضته سورة آل عمران من قصة عيسى # بما عرضته سورة مريم تظهر زيادة بعض الحلقات، ونقصان بعض آخر حسب اقتضاء السياق في كل منهما. فقد طولت سورة مريم في حلقة مولد عيسى #، ولم تذكر حلقة مولد أمه مريم من امرأة عمران، ولا ما قالت في حال الحمل أو بعد الميلاد، وفصلت سورة آل عمران موقف عيسى مع الحوارين، وحوارهم معه وجاءت بتعقيب شمل التوحيد والدين والوحي والرسالة.

تاريخ الدعوة والدعاة

وفي ذلك الرد على النصارى وتصحيح أخطائهم بذكر قصة عيسى # على حقيقتها، واصطفاء الله ﷻ لأمه وأجداده الأولين من آدم إلى نوح إلى إبراهيم إلى آل عمران - عليهم السلام - ، وذكر ما كان من أمر الله مع أم مريم ، وكفالة زكريا لها. وقد اصطفاه الله على نساء العالمين وطهرها ، وبشرتها الملائكة بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وإذا كان الله ﷻ قد زود المسيح عيسى بن مريم # بآيات ، فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيي الموتى بإذن الله. فإنه كان في كل ذلك كبقية الرسل الذين أمدهم الله بالمعجزات ؛ لتؤدي غايتها وتحقق هدفها من الدلالة على صدقهم ، وإقناع أقوامهم بأنهم رسل الله - عليهم السلام -. ومع ذلك فإن أمر بني إسرائيل معه كان مشابهاً لموقفهم ممن سبقه من الرسل الكرام - عليهم السلام - ، حتى أرادوا قتله وصلبه فرفعه الله إليه.

وعيسى # بلغ قومه دعوة الله ، وركز على التوحيد وأقام عليه الأدلة ، وكانت ولادته بنفخة من روح الله بلا واسطة ، وتضمنت بشارة الملائكة به أمه مريم نوعه وصفته واسمه ونسبه ومكانته من ربه. وعلمه التوراة والإنجيل والحكمة ؛ ليجدد روح الدين التي طمست في بني إسرائيل ؛ وليهذب ضمير الإنسان بوصلة مباشرة بالله. ومع الدعوة إلى التوحيد جاء بعظات ونصائح وحكم وأمثال ، وتوجيه نظر قومه إلى الإخلاص لله ، والتخفف من الماديات التي غرقوا فيها إلى الأذقان ، وأن يلتزموا بروح الدين الذي جاءهم به من قبله موسى # . وحاول تخليصهم من إفساد الكهنة الذين يتخذون الشريعة سبيلاً لإشباع جشعهم ، ويحرفون كلمات الدين عن مواضعها لإشباع شهواتهم ، حتى صاروا في ذلك مضرب الأمثال ، وأصبح ذكرهم مقترناً بأكل الربا وأخذ الرشا وقتل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيَعْلَمُ الْكِنُوبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ٤٥-٤٥١.

وهذه الخوارق التي تشتمل على إنشاء الحياة أو ردها أو رد العافية، أو رؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية تتفق مع مولد عيسى #، ومنحه الوجود والحياة، وتؤكد الإعجاز الذي صاحب ذلك المولد الفريد، إلا أنها لا تمنحه صفة فوق صفة الإنسان الذي يدعو إلى توحيد الله وعبادته دون سواه.

تنظيم حياة الإنسان:

لم تقتصر رسالة عيسى # على الجانب التهذيبي وحده، وإنما جاءت بما يتضمن تنظيم حياة الناس بالتشريع، والنظام الذي يربط حياتهم بمنهج لا ينفك عن عنصر العقيدة الإيجابية فيه عن الشعائر التعبدية، والقيم الأخلاقية والشرائع التي تصرف حياة الناس. والدين الذي جاء به يتضمن شريعة منظمة منبثقة من تصور اعتقادي، وقيم أخلاقية مستندة إلى هذا التصور وهو مصدق لما بين يديه من التوراة، التي جاءت بالأحكام المنظمة لحياة الإنسان، وهو يحل للناس بعض الذي حرم عليهم.

والإنجيل الذي جاء به حث الناس على توحيد الله وعبادته، والإخلاص في طاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وحسن المعاملة بين الإنسان وأخيه، كما حث على التواضع والبعد عن الكبرياء والصلف والظلم والتعدي، وأمر بالعدل والبذل في سبيل الخير. ونهى عن التهالك على الدنيا وزخرفها، وأمر بالتوكل على الله حق التوكل، فالرازق هو الله وهو بكل ذلك كفيل للمتوكلين، فتصحيح العقيدة وتقويم ما دخل عليها من انحرافات أخرجتها عن أصلها السماوي، وهو التوحيد الخالص إلى ألوان من الشرك لا علاقة لها أصلاً بالدين كما هو الحال عند النصارى، أمر جاء به عيسى ودعا إليه كما يدعو إليه على ملاء من الرسل، ومسمع من البشر جميعاً، ويعلن أنه لم يقل شيئاً مما يزعمونه من تأليهه أو تأليه أمه، وأنه ما كان له أن يقول من هذا الشرك شيئاً. كما وضحت ذلك سورة المائدة، وهي تتحدث عن عيسى #، والحواريون الذين آمنوا بالله وأسلموا له يعلمون هذه الحقيقة تمام العلم، وهم يعرفون أن عيسى بشر وأنه ابن مريم، وأن الله هو الذي يصنع ما يظهر على يديه من المعجزات.

وهم لأجل ذلك مرفوعون في ميزان الله تعالى في الدنيا والآخرة، والله يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وميزانه عدل لا يحيف. وإذا كان من سنة الله في الرسالات والرسول أن يكون من الناس من يؤمن بالحق ويتبعه، ومن يكفر ويعاند فإن أمر قوم عيسى معه لم يخرج عن هذا السنن، فإذا كان منهم من آمن واهتدى وهم الحواريون، فإن منهم من افترى على مريم، وادعى عليها الأكاذيب. ومنهم من ادعى أنها لا تشتمل على تنظيم حياة الناس، وهؤلاء وهؤلاء مغالون مخالفون لما جاءت به رسالته #. قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِلَّا جَلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ^{٥٠} وَجِئْتُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا^{٥١}﴾

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ آل عمران: ٥٠-٥١.

رفع عيسى #:

ورفع عيسى # من عالم الغيب لا يدري عنه إلا ما قصه الله، وكل بحث وراء النص لا يفيد جديداً، وهو رجم بالغيب لا ريب فيه ولا حاجة إليه، ولا يستطيع إنسان أن يخبر خبيراً يقيناً عن حادثة وقعت في ظلام الليل، واختلفت فيها الروايات. والقرآن الكريم ينفي قول اليهود أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله #، ويثبت أن الله رفعه إليه، واكتفى بذكر هذه الحقيقة دون تفصيل.

وقول القرآن عن عيسى # : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۗ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۗ ﴾ [النساء: ١٥٩]. يحتمل أنه سيؤمن بعيسى # عند نزوله قبل موته، أو أنه قبل موته هو يعرف أنه كان على ضلال في عقيدته فيه، الذي هو الكتابي وإن كان لا ينفعه في هذا الوقت إيمانه، لقد أخرج عيسى # اليهود بتعاليمه. وفضح رياء الكهنة وخبثهم، فكادوا له ودبروا قتله وزينوا للوالي على فلسطين ذلك بإدعائهم أنه يقول: إنه ملك على اليهود وهم لا يرضون إلا بقيصر، فأرسل الوالي جنده للقبض على عيسى #، فأنقذه الله تعالى من أيديهم. وألقى شبهه على شخص آخر هو تلميذه الخائن له، فأخذ وقتل وصلب في حين نجى الله المسيح #.

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۗ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وقال: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْبَاعِ الظُّلُمِ ۗ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۗ ﴾ [١٥٧] بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيمًا ﴿ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

تاريخ الدعوة والدعاة

وإذا كان اليهود والأخبار قد حاولوا التخلص من المسيح بقتله وصلبه، فإن الله ﷻ قد أنقذه مما أرادوه به، وأبقى روحه وسر رسالته في الناس من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم، والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بما دون اللباب. ولما أحس من قومه بني إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد إلى الإيذاء، بحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته ويؤيدونه على خاذليه، ويشاركونه في العقيدة كمنهج الرسل في الدعوة - عليهم السلام -. يبحثون عنهم فيهم الاستعداد؛ ليكونوا لهم من الأنصار وللدعاة بهم قدوة، ولهم فيهم أسوة عندما يهزون بدعوتهم القلوب ويحركونها إلى الله، لا ليؤدوا لهم عملاً تعود منفعته على أشخاصهم؛ لأنه لا حظ لهم إلا أن يصدعوا بأمر الله.

وهؤلاء الأنصار الذين يبحث عنهم الدعاة كما بحث عنهم عيسى # يحتاجون إلى رعاية من الداعية، وصبر على ما يكون منهم من آن لآخر مما هو أثر من حياة سابقة كانوا يجيئون في ظلها، أو هوى للنفس أو وسوسة من الشيطان، إذ العصمة لا تكون إلا للأنبياء. والحواريون طلبوا من عيسى # معجزة فوق ما أمده الله به من معجزات، طلبوا أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فحذرهم من طلب الخوارق، فأصروا على طلبها معددين الأسباب، وما يرجون من ورائها.

وحتى لا يكون طلب الخوارق تسلية أو لهواً، وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون عقاب أنذرهم الله ﷻ بالعذاب الذي لم يعذبه أحداً من العالمين، والداعية إلى الله يجد في دعوة عيسى # قومه من الدروس النافعات. والبراهين الواضحات ما يصحح به العقيدة، ويوثق به العلاقة ويقوم به الأخلاق.

وحسبه تلك الكلمات التي أوردها القرآن الكريم على لسانه في ذلك الحوار الرائع ، الذي سيدور فيما هو آت بين الله ﷻ صاحب الدعوة ، وبين عيسى # الداعي إلى الله ، وهو خير ما نختتم به الحديث عن دعوته #.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ ٱلنَّهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٰٓ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيٰ بِحَقِّ ۗ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۗ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا ٱعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ ٱنتَ عَلَّمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِٓ أَن ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۗ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۗ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ ٱنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۗ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ٱعْبَادُكَ وَإِن تَعْفُرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ ٱنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٦-١١٨].

وبعرض دعوة رسول الله عيسى # تنتهي السلسلة الخاصة بدعوة بعض الرسل والأنبياء.

الدعوة الإسلامية في عهدا المكى

الدعوة الإسلامية في عهدا المكى: أبرز معالمها مناهجها أساليبها ووسائلها:

هناك معالم للدعوة الإسلامية في العهد المكى فيها كثرة المبشرات ، وانتشار العلم بخاتم النبوة ومنع الجن من الاستماع ، وتكامل شخصية سيدنا محمد ﷺ من سمو السلوك وجمال الخلق وعظمة الخلق. وحلاوة المنطق وكمال العقل ، وتحبيب الخلاء لسيدنا محمد ﷺ ، وبداية الوحي الرؤية الصادقة نداءات الملائكة ، كلام الشجر والحجر ، لقاء الملائكة ، مجيء جبريل بالقرآن ، فتور الوحي ، تواصل الوحي ، صور الوحي.

السيرة المحمدية من الرسالة حتى الهجرة:

أولاً: المرحلة السرية، والسابقون إلى الإسلام، صلته بأعمامه في المرحلة السرية، مرحلة الجهر بالدعوة ومواجهة المتاعب، السؤال عن صدقه ﷺ، موقف أبي لهب وزوجته، السخرية والاستهزاء. بث الدعاية الكاذبة، مساومات وتخليط، الاضطهاد البدني، محاولة قتل محمد ﷺ، نتائج الاضطهاد، أبو طالب يحتاط لابن أخيه، المقاطعة العامة. عام الحزن، الاستعانة بغير أهل مكة، المحاولة الأولى، المحاولة الثانية، زواج النبي ﷺ بعد وفاة خديجة > أولاً: سودة بنت زمعة، ثانياً: عائشة بنت أبي بكر، ثالثاً: أم حبيبة بنت أبي سفيان.

تتابع مجيء نصر الله:

النصر الأول: إسلام عداس.

النصر الثاني: إسلام الجن.

النصر الثالث: إجارة المطعم بن عدي.

النصر الرابع: أضواء وسط ظلام القبائل، إسلام سويد بن الصامت <. إسلام إياس بن معاذ <، إسلام أبي ذر الغفاري <، إسلام الطفيل بن عمرو <، إسلام ضماد الأزدي <.

الإسراء والمعراج:

مفهوم الإسراء والمعراج، ثبوت الإسراء والمعراج، رواية حديث الإسراء، الزيادات عن رواية حديث أنس، التعارض في أحاديث الإسراء، فك تعارض الأحاديث، كيفية وقوع الإسراء والمعراج. مناقشة الآراء، التوفيق ورد

الاختلاف، إسلام الأنصار - وهو النصر السادس - اللقاء الأول، بيعة العقبة الأولى، بيعة العقبة الثانية. حركة النبي ﷺ بالدعوة إلى الله تعالى، تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة.

أولاً: مناهج الدعوة، ثانياً: المضمون الفكري للحركة، ثالثاً: أسلوب الدعوة، رابعاً: وسائل الدعوة، خامساً وسادساً: الداعي والمدعو.

حركة الرسول ﷺ بالدعوة خلال المرحلة السرية:

أولاً: الدعوة إلى العقيدة، ثانياً: الاتصال الفردي، ثالثاً: تخير المدعوين، رابعاً: تجنب ضلالات القوم. خامساً: دعوة الأقرين، سادساً: إسلام الضعفاء، سابعاً: الاكتفاء بأهل مكة ومن يأتيها. التخفي في العبادة والتوجيه، تاسعاً: حمل المسلمين مسئولية الدعوة.

الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية:

المسلمون خلال المرحلة السرية، المرحلة الأولى للجهر بالدعوة، إسلام حمزة، إسلام عمر بن الخطاب، مرحلة الجهر العام بالدعوة، الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام، وسائل الدعوة، تنوع وسائل الدعوة.

أولاً: الاتصال بصوره المختلفة، ثانياً: الدعوة بالحوار والمفاوضة، ثالثاً: الدعوة بالانتقال إلى القبائل، رابعاً: الدعوة بمقابله الوفود خامساً: الدعوة بإرسال الرسائل. سادساً: الدعوة بالعمل والتطبيق، سابعاً: الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي.

أساليب الدعوة: أساليب البلاغة القرآنية:

١. التصوير الحسي بالكلمات.
٢. التصوير بالتشبيه.
٣. التصوير بضرب المثل.
٤. التصوير القصصي.
٥. التشويق والإثارة.
٦. التصوير الصوتي بالترتيل.
٧. إظهار عوامل الطاعة.

توافق الأسلوب والموضوع في مجال العقيدة في مجال العبادة في مجال المعاملات.
مواجهة عدوان الكفار: محاولات الكفار في إيقاف حركة الدعوة، مواجهة محاولات الكفار أولاً: تقوية إيمان المعذبين، ثانياً: تحرير الأرقاء، ثالثاً: هجرة المسلمين إلى الحبشة، رابعاً: انتهاء المقاطعة.

استمرار الحركة بالدعوة:

المسلمون في نهاية المرحلة المكية، الركائز المستفادة من المرحلة المكية، الركيزة الأولى: المعرفة الشاملة للمدعوين، الركيزة الثانية: دور الداعية بين الله والناس، أولاً: توثيق صلته بالله، ثانياً: توثيق ارتباطه بالناس.

الركيزة الثالثة: صفات الدعاة:

أولاً: صفات التكامل الذاتي:

١. الصدق.

٢. الأمانة.

٣. الإخلاص.

٤. الذكاء.

ثانياً: صفات الترابط والمودة:

١. الحلم.

٢. التواضع.

٣. القناعة.

٤. الكرم.

ثالثاً: صفات الريادة والتوجيه:

١. المشاركة الوجدانية.

٢. القوة والعزة.

الركيزة الرابعة: الملاءمة بين الدعوة والواقع.

الركيزة الخامسة: إدراك مسئولية الدعوة.

الركيزة السادسة: دور المرأة المسلمة في الدعوة.

وأحب أن أبدأ أبرز معالم الدعوة الإسلامية في عهدها المكي بالجهر بالدعوة ومواجهة متاعب أهل مكة: استمرت الدعوة سرية مدة عامين ونصف، وبعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة، وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته، وبذلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم.

تابع: الدعوة الإسلامية في عهدها الملكي

عناصر الدرس

- العنصر الأول : مرحلة الجهر بالدعوة ٢٦٩
- العنصر الثاني : مناهج الدعوة في العهد الملكي ٢٨٠

مرحلة الجهر بالدعوة

وقد مرت الدعوة الإسلامية في عهدنا المكي بمراحل منها: مرحلة الجهر بالدعوة وفيها السؤال عن مدى صدق سيدنا محمد ﷺ، حيث أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لمحمد ﷺ.

فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد، وكيفية كشف مزاعمه، عن ابن عباس قال: "بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة.

فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفتهم وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجنا حتى أتينا المدينة، فسألوا الأحبار عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم أمره وبعض قوله.

وقالا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب.

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هي، فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ.

تاريخ الدعوة والدعاة

فقالوا: يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وسألوه عن الأمور التي حددها الأحبار، فقال لهم رسول الله ﷺ: ((أخبركم غداً عما سألتكم عنه))، ولم يستثن فأنصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحي.

ولا يأتيه جبريل # حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها، ولم يخبرنا بشيء عما سأله عنه، وتألم رسول الله ﷺ من انقطاع الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.

وبعد خمسة عشر يوماً جاءه جبريل # من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، وفيها يعاتبه الله على حزنه عليهم، ويخبره عما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

فلما أخبرهم نبأ ما سألوا عنه رجعوا إلى أنفسهم، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله ﷺ مواجهة عقلية فكرية، ولذا لجئوا إلى العدوان والإيذاء المادي، ونشر الأكاذيب والمفتريات حول محمد ﷺ ودعوته.

موقف أبي لهب منه:

لما نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد النبي ﷺ على الصفا فهتف: ((يا صباحاه)) فقالوا: من هذا؟ فجعل ﷺ ينادي: ((يا بني فهر يا بني عدي)).

وهكذا لبطون قريش جميعاً حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو فقال النبي ﷺ: ((أرأيتمكم إن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم ما جربنا عليك كذباً قط، قال ﷺ: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١] وقد تب، ولم يكتف أبو لهب بهذا الموقف.

بل أخذ في التصدي لرسول الله ﷺ، فكان يسير خلفه ويقول: إنه كاذب وأنا أعلم خبره فهو ابن أخي، وأخذ هو وزوجته في وضع الشوك والحطب أمام بيت النبي ﷺ؛ ليعجزه عن الخروج والحركة.

وفيه وفي زوجته نزل قول الله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَّا أَخْفَىٰ عَنَّهُ مَالَهُ ۖ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ﴾ [المسد: ١-٥].

السخرية والاستهزاء بمحمد ﷺ:

أخذ كفار مكة يستهزئون برسول الله ﷺ توهيناً لنفسه وصرفاً للناس عنه، فكانوا ينادونه بالمجنون يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].

ويصفونه بالسحر والكذب يقول سبحانه: ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴾ [ص: ٤]، وكانوا يستقبلونه ويشيعونه بنظرات ناقمة وعواطف هائجة وكرهية ظاهرة، يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴾ [القلم: ٥١].

وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزءوا بهم، وقالوا: هؤلاء جلساؤه الذين من الله عليهم من بيننا، فرد الله عليهم بأنه وحده العليم بحقائق الناس وقلوبهم، وليس لهم أن يتقولوا عليهم وذلك بقوله سبحانه: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣].

تاريخ الدعوة والدعاة

فأنكر عليهم بأسلوب يبرز جهلهم وخيبتهم، إن كفار مكة كانوا يتصرفون باستعلاء وجبروت، وهم يتعاملون مع رسول الله وسائر أصحابه، حتى إنهم جعلوا المؤمنين مادة سخريتهم ودعاة مجالسهم.

يتضح كون من عقيدتهم ويتغامزون إذا رأوهم، وإذا رجعوا إلى أهلهم تفكهاوا بسيرهم معتقدين أنهم ضلوا عن الحق بتركهم عبادة الأوثان.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [المطففين: ٢٩-٣٣].

بث الدعاية الكاذبة عنه:

أخذ الكفار يشنون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد ﷺ، وعن القرآن الكريم الذي ينزل عليه حتى لا يصدقه أحد.

فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آفَاكٌ أَقْرَبُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ۗ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۗ أَكْتَبَهَا فِيهَا تُمْلَأُ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقالوا عن الرسول: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۗ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧]، وكل ما قالوه ظاهر البهتان؛ لأن القرآن كلام الله ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه؟

ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمداً؟ إنهم بشر كما يزعمون، فلم يتركونهم يفعلون ولم لا يواجهونهم بالتحدي؟ وهل يكتب محمد عنهم وهو أمي، لقد جاءوا بالزور والبهتان.

ولم يعترضون على بشرية محمد ﷺ أيريدونه ملكاً؟ وكيف يتعاملون مع الملك؟ إن قلوبهم قد عميت وكل اعتراضهم تبريرات لكفرهم وعتوهم، وقد رأيناهم يبحثون عن أي علة تساعدتهم على كفرهم.

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش: "يا معشر قريش والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أَرْضَاكُمْ خَلْقًا وَمَسْلُكًا وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلمتم: ساحر لا والله ما هو بساحر.

لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدتهم، وقلمتم: كاهن لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم، وقلمتم: شاعر لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه، وقلمتم: مجنون لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه.

يا معشر قريش انظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم، ثم ذهب الوليد إلى الحيرة بحثاً عن حل يريده، فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ووقف على أخبار رستم وإسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً للتذكير بالله والتحذير من نعمته خلفه النضر.

وهو يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار ثم يقول: بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني؟". وما درى الوليد أن حديث محمد ﷺ مع جماله يتضمن ديناً صالحاً ومنهجاً طيباً، وطريقاً لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة، وهو كلام الله.

وأما حديثه فهو خيال كاذب وإبهار لفظي لا حقيقة فيه، ولا غاية له ولا فائدة معه.

تاريخ الدعوة والدعاة

وفي الوليد بن المغيرة المخزومي نزل قول الله تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۙ (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهَدَاءَ (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا (١٦) سَأَرَّهُنَّهَا صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُنِيَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُنِيَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿ [المدثر: ١١-٢٥].

وقصته مع القرآن الكريم ومع محمد ﷺ تشبه ما فعله النضر بن الحارث ، فلقد ذكروا أن النضر قال: " والله لقد نظرت فيما قال محمد ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه ليعلو ما يعلو عليه ، وما أشك أنه سحر فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أي عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال : لم ؟ قال : يعطونك فإني أتيت محمداً تعرض لما قبله قال : قد علمت قريش أنني أكثرها مالاً قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنتك كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلو . قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر فيه فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره .

مساومات وتخليط :

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد ﷺ في خلط الإسلام بالكفر ؛ ليكونا سوباً دينياً خليطاً من هذا وذاك ، وأن يعبدوا الله يوماً ويعبد محمد أصنامهم يوماً آخر وهكذا .

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوي أسنان في قومهم اعترضوا محمداً وهو يطوف بالكعبة ، وقالوا له : " يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد .

فنشرك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ."

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١-٦]. فكانت المفاصلة الكاملة بين الإيمان والكفر.

الاضطهاد البدني :

كان أشد الناس إيذاءً لرسول الله جيرانه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب يقول ابن إسحاق : " كان نفر الذين يؤذون رسول الله ﷺ في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي .

وابن الأصداء الهذلي ، وكانوا جيرانه لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص فإنه أسلم فيما بعد ، فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة وهو يصلي ، حتى اتخذ رسول الله ﷺ حجراً ليستتر به منهم إذا صلى ."

فكان رسول الله ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به ، ثم يقول : ((يا بني عبد مناف أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق)) وازداد عقبة في شقاوته وخبثه .

فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود < أن النبي ﷺ كان يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له جلوس إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان ، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد .

تاريخ الدعوة والدعاة

فانبعث أشقى القوم وهو عقبة ، فجاء به فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ وضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر لا أغني شيئاً ، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض مرحاً .

ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته ابنته فاطمة فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ثم قال : ((اللهم عليك بقريش)) ثلاث مرات ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة .

وقد سمي الرسول في دعائه فقال : ((اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأميه بن خلف وعقبة بن أبي معيط)) وعد السابع فلم نحفظه ، فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله ﷺ صرعى في القليب قليب بدر . وكان أميه بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ همزه ولمزه ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ [الهمزة: ١١] .

قال ابن هشام : "الهماز الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ويغمز به ، والهمزة : هو الشتم نفسه واللماز : الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم ، واللمزة : هي العيب والأذى" . أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة متصافيين .

جلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أياً أنبه وعاتبه ، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله ﷺ ففعل ، وأبي بن خلف نفسه هو الذي فت عظاماً رميماً ، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ .

وكان الأخنس بن شريك الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ ، وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه من خلق رديء ، وهي في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠-١٣] .

وكان أبو جهل يجيء أحياناً إلى رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن، ثم يذهب عنه فلا يؤمن ولا يطيع ولا يخشى، ويؤذي رسول الله ﷺ بالقول، ويصد عن سبيل الله ثم يذهب محتالاً بما يفعل فخوراً بما ارتكب من الشر.

كأنما فعل شيئاً يذكر، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۗ وَلَٰكِن كَذَّبَ ۗ وَتَوَلَّىٰ ۗ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّي ۗ ۙ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۗ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۗ﴾ [القيامة: ٣٢-٣٥].

وكان يمنع النبي ﷺ عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام، فقال: "يا محمد ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره. فقال: يا محمد بأي شيء تهددني؟ أما والله إنني لأكثر هذا الوادي نادياً" فنزل قول الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۗ﴾ [العلق: ١٧]، ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز بل ازداد شقاوة فيما بعد.

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال: "قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم فقال: واللوات والعزى لئن رأيته لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب.

فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه مهرولاً ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخنديقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: ((لو دنا مني لاخطفته الملائكة عضواً عضواً))."

محاولة قتل محمد ﷺ:

وصل حد كراهية القوم لرسالة رسول الله ﷺ أن كفار مكة حاولوا قتله، من ذلك أن عتبية بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله ﷺ، فقال: "أنا أكفر بـ ﴿وَالنَّجْرِ إِذْ هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، و ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨].

تاريخ الدعوة والدعاة

ثم تسلط على الرسول بالأذى، وشق قميصه وتفل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه ﷺ وقال: ((اللهم سلط عليه كلباً من كلابك)).

وقد استجيب دعاؤه ﷺ، فقد خرج عتبية مرة في نفر من قريش، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له: الزرقاء، فطاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتبية يقول: يا ويل أخي هو والله أكلي كما دعا محمد علي، قتلني وهو بمكة وأنا بالشام". فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه، وفي رواية هشام عن عروة عن أبيه أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم، فجعلوا عتبية وسطهم فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتبية ففدغه.

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة ﷺ، وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان، ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله ﷺ ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل.

قال: "قال أبو جهل: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وشتم آلهتنا، وإنني أعاهد الله لأجلس له غداً بحجر ما أطيق حملة، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما كان يغدو فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما يفعله أبو جهل.

فلما سجد رسول الله ﷺ احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقع اللون مرعوباً قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر

من يده وقام إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة.

فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قسرتة ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني، قال ابن إسحاق: فذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: **((ذلك جبريل # لو دنا لأخذه))**.

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة قتل النبي ﷺ تنضج في قلوبهم، وتكبر في عقولهم وتفكيرهم، روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ.

فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم الركن.

ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك من وجه رسول الله ﷺ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك من وجهه ﷺ، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها. فوقف ثم قال: **((أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح))** فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفؤه بأحسن ما يجد.

ويقول: انصرف يا أبا القاسم فوالله ما كنت جهولاً، فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردايه.

وقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله ثم انصرفوا عنه قال ابن عمرو: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط."

تاريخ الدعوة والدعاة

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال: "سألت ابن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ؟ قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً. فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبي ﷺ وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟". وفي حديث أسماء: "فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقال: أدرك صاحبك فخرج من عندنا وعليه غدائر أربع.

فخرج وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟ فلهوا عنه وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا لا نس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا".

ولم تغادر فكرة قتله ﷺ عقولهم، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام وصلابة المسلمين، وتأكدوا أن بقاء محمد ﷺ سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة الأصنام، وحرمانهم من السيادة والتسلط، وكان آخر محاولتهم مؤامرة ليلة الهجرة.

مناهج الدعوة في العهد المكي

تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة:

يختلط الأمر على من يقرأ في الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات مكان كلمات أخرى، ظناً من المؤلف أنها متحدة المعنى مع أنها ليست بمعنى واحد، كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب.

واستعمال الأسلوب في موضع الوسيلة وهكذا، الأمر الذي من أجله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة الإسلامية، والكلام للأستاذ الدكتور أحمد أحمد غلوش.

وبخاصة أن كل مصطلح بدأ في أن يكون علماً على علم خاص من علوم الدعوة العديدة، التي يحتاجها الدعاة إلى الله تعالى في العصر الحديث، وأرى أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة له أهميته في دراسة عصر النبي ﷺ؛ لتعرف القضايا وتحدد معاني المصطلحات.

وتفهم بوجه يحقق الاستفادة الدقيقة بها؛ ولتكون الأسوة برسول الله ﷺ حيث يريد الله تعالى.

أولاً: منهج الدعوة:

تعتمد الدعوة على منهج يحدد مسائلها ويوضح طرقها ويعرف وسائلها، ويضع القواعد العلمية التي تقنع المدعو وتحقق الغايات المقصودة من بعثة النبي محمد ﷺ بكل ما فيها من خير وأمن، وسعادة للناس أجمعين في الدنيا والآخرة.

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة، بها تتحدد مهام كل جانب، وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى، إن الدعوة إلى الله تقوم على عدة جوانب هي:

- أ. مضمون فكري هو الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق.
- ب. أسلوب يحتوي على الفكرة ويتحرك بها، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس، وقد يكون الأسلوب قولاً أو عملاً أو حالة معبرة أو غير ذلك.
- ج. أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ومحتواه.
- د. شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة؛ لتصل بها إلى المدعويين رجاء إيمانهم وهدايتهم.

نارىخ الدعوة والدعاة

هـ. أناس يتوجه إليهم الدعوة بالفكرة واضحة مقنعة بأسلوب مناسب وأدوات ملائمة، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم.

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله، ويجب أن يهتم العلماء بها بوضع القواعد وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها، ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية والنظام العام، الذي يحدد الإطار لكل هذه الجوانب.

ولكل هذه العلوم؛ لتتربط وتتكامل. إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذي يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة، وينسق بينها لتتكامل، وتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح، وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت.

تقول اللغة: إن المنهج يعني الخطة المرسومة، والنظام الموضوع والمحدد للسير عليه واتباعه لتحقيق هدف معين والوصول إلى غاية محددة، وعلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه، ويرون أن المنهج هو الطريق الواضح البين. يقول الدكتور أحمد بدر وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم: "إن المنهج هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة، التي تهيم على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة".

إن المنهج خطة كاملة ونظرية تامة تحدد الدعوة ومسارها وطرق الإقناع بها، وأسلوب الخطاب لها وتحقيق أهدافها في كافة جوانب الحياة، وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح، أو كعلم خاص يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها.

وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب، أو على الوسيلة، أو على الموضوع أو غير ذلك إلا على وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم.

ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه؛ لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة وغايتها ثابتة مفصلة، أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل والأساليب وصفات القائم بالدعوة وأحوال المدعوين، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث.

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة؛ لأن الحركة تعني الصورة العملية، التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس، والمنهج أعم من ذلك.

المضمون الفكري للحركة: الإسلام هو الموضوع التي تتحرك به الدعوة، وهو المضمون الفكري الذي يحتويه الأسلوب ويحركه بوسائله وأدواته، والإسلام أساسه العقيدة، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة وتثبيتها في القلوب.

وربطها بكافة أنشطة الإنسان، إن العقيدة الإسلامية تتمثل في شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله، وهذه الشهادة تتكون من شطرين الشطر الأول: وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله المعبود.

ليقر له بالوحدانية المطلقة ويتجه إليه وحده وَجْهًا بالعبادة كلها، ويحصر التلقي منه بِحَالِهِ، فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحدانيته سبحانه بكل اليقين والإخلاص، وليس عبداً لله وحده من يخضع ويخشع ويتجه بالعبادة لغير الله.

وليس عبداً لله من يرتضي لنفسه مصدراً غير الله يأخذ منه النظام والتشريع، وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً عند حاجته للإعلان فقط، ويخالف لوازماً عند العمل والتطبيق.

تاريخ الدعوة والدعاة

ويؤكد الشطر الثاني وهو أشهد أن محمداً رسول الله، أن محمداً هو طريق التلقي الوحيد عن الله تعالى، وهو رسول الله ﷺ الذي نزل عليه الوحي، وبلغه للناس ليمدهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم، وينظم لهم جميع أعمالهم وأنشطتهم. وليس مؤمناً من لا يضع الرسول ﷺ في موضعه الواجب، وليس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله ﷺ، ويعمل بما جاء من عند غيره إن العقيدة الإلهية تقوم على كلمة الشهادة بركنيتها؛ لأن الشهادة تشمل الإسلام كله.

ولذلك كان اهتمام الرسول ﷺ بها منذ البداية، يقول سيد قطب: "والقلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها بصدق وإخلاص، وبذلك يكون مؤمناً؛ لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام يتحقق بهما.

فالإيمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره يقوم على هذه القاعدة، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج يعتمد عليها، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الإسلامية، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده".

كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله ﷺ عن ربه، والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً تمثلاً علمياً وعملياً؛ لأنه غير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون المجتمع مسلماً.

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قاعدة لتصوير كامل، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة.

أو قامت على قاعدة أخرى معها، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها يقول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴾ [النحل: ٥١].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. ويقول سبحانه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٢١].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَنْهَكُمُ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَأْتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧]، من هذه الآيات وغيرها كثير في القرآن الكريم تعرف وحدانية الله تعالى، وتتحدد واجبات العبودية، وتتأكد ضرورة حصر الأخذ والتلقي من الله تعالى.

لقد ركز رسول الله ﷺ دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب؛ ليعيش الناس الإسلام كله، بعدما تمتلئ قلوبهم بالإيمان، إن المجتمع المسلم والفرد المسلم يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس إيماني خالص.

ويعيشه بكماله وتماه على أساس أنه متطلب إيماني نابع من عقيدة لا إله إلا الله، التي هيمنت على قلبه وعقله وعواطفه، وأصبحت هي الوجه الوحيد لسلكه عن طوعية واختيار.

إن مقتضى شهادة التوحيد يشمل أركان الإيمان، وسائر العبادات والتوجيهات التشريعية والأخلاقية وغيرها، إن مقتضى هذا التوحيد يشمل الحياة كلها، ولذلك كان البدء بتعليم العقيدة وكان الجهد المبذول في تثبيتها ضخماً؛ ليتلاءم مع أهميتها ودورها في تطبيق الإسلام كله.

إن مقتضى التوحيد يؤدي إلى إيجاد الفرد المسلم، والمجتمع المسلم في عالم الواقع، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالى، ويصير الناس ربانيين مخلصين صالحين، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله، والامتثال لأمره واجتناب نواهيه.

ثانياً: أساليب الدعوة:

الفكرة في حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا في قوالب لغوية، يؤلفها حامل الفكرة أو تؤلف له، ويتمكن بواسطتها من إيصال فكرته ومعارفه لغيره، كما أن المستمع والمتلقي يفهم الفكرة ويتصورها، ويتجاوب معها من خلال الكلمات التي سمعها أو قرأها.

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هي الأساليب البيانية، والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة، ويعرفه العلماء بأنه المحتوى البياني الذي يحمله الطريق؛ لتصل الدعوة إلى المدعوين، وقد يكون هذا المحتوى قولاً منطوقاً أو مكتوباً أو صورة أو عملاً وهكذا.

وللأسلوب أهميته في إيصال المضمون للناس؛ لأن الإنسان لا يستوعب الفكرة ولا يفهمها جيداً، إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم مرتب على قواعد علوم اللغة والبلاغة، التي لا بد منها لدقة المعنى والتأثير به.

ولذلك دعا الرسل - عليهم السلام - بلسان المدعوين، ووجب تبليغ الدين على نحو بين ومفهوم دقيق.

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، إلى آخر الآية وبيانها فيما يلي:

الصورة الأولى: الحكمة وهي مشتقة من الإحكام والإتقان، ومرجعها إلى العلم الدقيق والحقيقة المجردة الخالية من الإطناب والتكرار، وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل والفهم والنبوة والحديث.

وعلى بعض أساليب الدعوة، والحكمة في أساليب الدعوة تعني اللفظ المحكم الدقيق، الدال على معناه المقصود بلفظ موجز وعبرة جميلة.

الصورة الثانية: الموعظة الحسنة، والوعظ يعني النصح والإرشاد ومخاطبة الوجدان، وإثارة العواطف من خلال التنوع البياني الذي يعرض المعنى بأساليب مختلفة مع التذكير بالعواقب، والترغيب في الفعل والتخويف من الترك.

الصورة الثالثة: المجادلة والتي هي أحسن، المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم ويفحمه، ويجعله يؤمن بالدعوة واتصفت المجادلة بالحسنى إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية، الذي يعرف المجادلة المنطقية والمكابرة والمعاندة بأنها ليست لإظهار الصواب بل لإلزام الخصم والتعالي وإثبات الذات.

ثالثاً: وسائل الدعوة:

وسائل الدعوة عديدة ووظيفتها حمل الأسلوب بمضمونه وتوصيله إلى المدعويين، ويخلط كثير من الناس بين الأسلوب والوسيلة، ويرون المقال والخطبة والدرس وسائل للدعوة مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلى المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي، الذي هو الوسيلة.

ويرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات؛ لأنها تكون وسائل أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه.

إن الخطابة والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة إذا نظر إليها من ناحية هيكلها العام، وشكلها الفني، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالهما المتضمنة للمعاني المقصودة.

تاريخ الدعوة والدعاة

إن الأسلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة، كما أن الأسلوب يوجد في عالم الواقع بعد إعداده، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده، وتظهر أهميتها وقت استخدامها، فالخطابة وسيلة والخطبة أسلوب وهكذا.

إن القرآن الكريم أسلوب للدعوة ينقل إلى الناس بوسائل عديدة، مثل المشافهة والكتابة وآلة تكبير الصوت وهكذا، وأيضاً فإن القرآن الكريم وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيلة للناس، وقد تعطل الوسيلة وتنتهي، ولا يتعطل القرآن الكريم؛ لأنه محفوظ بأمر الله تعالى، ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب.

وأهم أساليب الدعوة ما يلي:

أولاً: وسائل المواجهة المشافهة: يعتمد هذا اللون من الاتصال على المواجهة المباشرة بين الداعي والمدعو، حيث تنقل الرسالة بواسطة هذه الوسيلة، والاتصال المواجهي أقدم أنواع الوسائل وأكثرها تأثيراً.

وهو يشمل الاتصال الذي يتم بين فرد وفرد أو بين فرد وجماعة أو بين جماعة وجماعة، ما دام كل منها يتم بصور شفوية مباشرة، ومن صور الاتصال المواجهي ما يلي:

أ. المحادثة البسيطة: وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة، حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو مجيباً، كأفراد الأسرة والجيران وزملاء الدراسة والعمل وهكذا.

ب. المناقشة: وهي فن من فنون التربية والدعوة، وتتم مشافهة بين عدد من الأشخاص حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش، وتختلف المناقشة عن المناظرة؛ لأن المتناقشين يسرون في اتجاه واحد.

بينما المتناظرون يسرون في خطوط متعارضة، كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائماً.

الخطبة: بكافة أنواعها لها دورها في الحضارات القديمة، وما زال لها هذا الدور وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح؛ لأنها تخاطب العواطف والوجدان، وتدور حول موضوعها وتقدم العديد من البراهين في صور بيانية مؤثرة.

والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب، ولذلك وجب على من يقوم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية وقواعدها العلمية؛ لكي يحقق الهدف الذي يرجوه من وراء عمله.

المحاضرة: وهي لون من الاتصال المواجهي، يعتمد على التحليل العلمي والبراهين القوية، وهي وسط بين الخطبة والندوة؛ لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد والمستمع جمهور عريض، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة.

الدرس الديني: وهو لون من الاتصال الديني الذي يتم في المساجد غالباً، وهو اتصال يتسع الموضوع فيه، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة، وله أثره الكبير في نشر الدين والتعريف بقضاياها.

الوسائل المكتوبة والمطبوعة: استعمل الإنسان هذا النوع قديماً، ولكن بصورة بدائية فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب على الجلد، وورق الشجر، وورق البردي وما شاكل ذلك. وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة، حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار، وأوصلها إلى غيره أو تركها

نارىخ الدعوة والذعاة

للأجىال المتعاقبة من بعده، وعلم المسلمون أهمية القراءة والكتابة منذ ظهور الإسلام.

ولذلك كتبوا القرآن الكرىم وقرءوه، واستمروا فى محافظتهم علىه بالكتابة والقراءة والحفظ والفهم، واستفاد النبى ﷺ بهذه الوسىلة، فأرسل إلى الملوك والرؤساء كتباً تتضمن دعوتهم إلى الإسلام.

وفى العصور الحدىثة تطورت الكتابة والطباعة بصورة رائعة، وأصبح من الممكن الاستفادة بهذه الوسىلة فى الدعوة إلى الله تعالى بصور عدىة منها: الكتاب والكتبىب.

فالكتاب يعد وسىلة للدعوة إلى الله؛ لأن المؤلف حىن يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحلىلية لموضوعات هامة، مثل (الانفصام بىن العقىة والسلوك - الأسباب والعلاج). (ظاهرة الوهن فى المجتمع المسلم) إلى آخره من الموضوعات...

الدعوة الإسلامية في عهدنا المدني

عناصر الدرس

- العنصر الأول : أبرز معالم الدعوة وأهم مناهجها وأساليبها في عهدنا المدني ٢٩٣
- العنصر الثاني : حركة النبي ﷺ بالدعوة في المدينة المنورة ٣٠٠
- العنصر الثالث : رسائل النبي ﷺ وكتبه إلى الملوك ٣١٣

أبرز معالم الدعوة وأهم مناهجها وأساليبها في عهدنا المدني

هناك كلام كثير في الدعوة في الفترة المدنية يمكن وضع عناوين هكذا: التعريف بالمدينة المنورة أسماء المدينة المنورة جغرافية المدينة المنورة أهمية موقع المدينة خلو المدينة من الوباء وسطية المدينة تميز المدينة عن غيرها من المدن سكان المدينة شجاعة أبناء المدينة تألف أبناء المدينة حب أهل المدينة للإسلام الفصل الأول السيرة النبوية من الهجرة حتى وفاة النبي ﷺ المبحث الأول الهجرة النبوية النقطة الأولى: تحديد موطن الهجرة.

النقطة الثانية: أهمية الهجرة الثالثة: تنظيم الهجرة.

أولاً: تأمر القرشيين على رسول الله ﷺ.

ثانياً: التخطيط للهجرة .

١. الإعداد المسبق.

٢. مبيت علي < .

٣. الوصول للغار.

٤. البقاء في الغار.

٥. في الطريق للمدينة.

ثالثاً: عناية الله بنبيه ﷺ في الهجرة:

١. رد سراقه.

٢. شاة أم معبد.

٣. إسلام أبي بريدة .
 ٤. تأمين الزاد.
 ٥. التبشير بالعودة إلى مكة.
- رابعاً: الوصول للمدينة : النقطة الرابعة وقفات مع الهجرة :
١. دقة الطاعة.
 ٢. حسن التصرف.
 ٣. تحمل الأذى.
 ٤. التضحية بالمال.
 ٥. كيد قريش بالمهاجرين.
 ٦. الاستيلاء على الدور.
- المبحث الثاني : الاستقرار في المدينة :
- أولاً : الترحيب بمقدم النبي ﷺ .
- ثانياً : تأمين سكن النبي ﷺ .
- ثالثاً : هجرة آل النبي ﷺ .
- رابعاً : إقامة المسجد النبوي .
- المبحث الثالث : تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة :
١. تنظيم الإخاء بين المسلمين.
 ٢. وضع الميثاق العام لسكان المدينة.

المبحث الرابع: الحياة الأسرية لرسول الله ﷺ في المدينة:

أولاً: التعريف بأمهات المؤمنين، الزوجة الأولى: خديجة بنت خويلد. الزوجة الثانية: سودة بنت زمعة. الزوجة الثالثة: عائشة بنت أبي بكر. الرابعة: حفصة بنت عمر. الخامسة: زينب بنت خزيمة. السادسة: أم سلمة - السابعة: زينب بنت جحش. الثامنة: جويرية بنت الحارث. التاسعة: أم حبيبة. العاشرة: صفية بنت حيي. الحادية عشرة: ميمونة بنت الحارث.

سرايا النبي ﷺ ثانياً: الزوجات المختلف فيهن، ثالثاً: من خطبهن النبي، ولم يتزوجهن ﷺ.

المبحث الخامس: رد ما يقال عن تعدد زوجاته ﷺ. السادس: الحكم العامة في تعدد زوجات النبي ﷺ. السابع: حسن عشرة النبي ﷺ لزوجاته.

الثامن: أبناء النبي ﷺ: الأول: القاسم، الثانية: زينب، الثالثة: رقية، الرابعة: أم كلثوم، الخامسة: فاطمة، السادس: عبد الله - السابع: إبراهيم {.

المبحث التاسع: الحياة الشخصية لرسول الله ﷺ: أولاً: أكله. ثانياً: شربه. ثالثاً: نومه. رابعاً: سماحته ﷺ. المبحث العاشر: قيامه ﷺ بمهام الرسالة.

الفصل الثاني: حركة الرسول ﷺ بالدعوة في المدينة المنورة. المبحث الأول: بناء المجتمع الإسلامي أولاً دين كامل، ثانياً: قيادة أمينة - ثالثاً: مؤمنون صادقون، رابعاً: التفاعل التام بين المسلمين والإسلام.

المبحث الثاني: تشريع الجهاد، وحركة الدعوة:

أولاً: تعريف الجهاد ثانياً: مراحل تشريع الجهاد: المرحلة الأولى مرحلة التحمل والصبر، الثانية: الإذن بالقتال - الثالثة القتال المقيد - الرابعة: الأمر العام بالقتال.

المبحث الثالث: السرايا والغزوات قبل بدر أولاً: أسباب وقوع السرايا والغزوات.

ثانياً: السرايا والغزوات قبل بدر:

١. سرية سيف البحر.
٢. سرية رابغ.
٣. غزوة الخرار.
٤. غزوة ودان.
٥. غزوة بواط.
٦. غزوة سفوان.
٧. غزوة ذي العشيرة.
٨. غزوة نخلة ثالثاً السرايا وحركة الدعوة.

المبحث الرابع غزوة بدر الكبرى:

أولاً: أسباب الغزوة، ثانياً: موقف الفريقين قبل المعركة: أ- موقف المسلمين - ب- موقف القرشيين. ثالثاً: أحداث المعركة رابعاً: نتائج المعركة، خامساً: قريش والهزيمة، سادساً: المسلمون في إطار انتصار بدر:

١. الاختلاف حول الغنائم.
٢. الاختلاف في مصير الأسرى.
٣. الابتهاج بنصر الله.
٤. تشريع زكاة عيد الفطر.

سابعاً: بدر في رحاب القرآن الكريم:

١. حديث ما قبل المعركة

٢. الحديث عن المعركة.

٣. حديث ما بعد المعركة.

٤. توجيهات قرآنية تربوية.

المبحث الخامس: أحداث ما بين بدر وأحد:

أولاً: محاولة قريش قتل النبي ﷺ.

ثانياً: غزوة بني سليم.

ثالثاً: غزوة السويق.

رابعاً: غزوة غطفان.

خامساً: غزوة بجران.

سادساً: سرية زيد بن حارثة.

سابعاً: غزوة بني قينقاع.

ثامناً: قتل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط.

تاسعاً: قتل كعب بن الأشرف.

عاشراً: أهم أحداث المجتمع الإسلامي.

حادي عشر: حركة الدعوة بين بدر وأحد.

المبحث السادس: غزوة أحد:

أولاً: أسباب الغزوة.

ثانياً: موقف أطراف معركة أحد:

١. موقف المشركين.

٢. موقف المسلمين.

ثالثاً: أحداث المعركة:

المرحلة الأولى: انتصار المسلمين.

المرحلة الثانية: هزيمة المسلمين.

المرحلة الثالثة: الصمود الإسلامي.

رابعاً: نتائج المعركة.

خامساً: الآيات الربانية الخارقة في أحد.

سادساً: أحد في رحاب القرآن الكريم.

سابعاً: أحد وحركة الدعوة.

المبحث السابع: أحداث ما بين أحد والأحزاب:

أولاً: غزوة حمراء الأسد.

ثانياً: سرية أبي سلمة < .

ثالثاً: بعث عبد الله بن أنيس < .

رابعاً: بعث الرجيع.

خامساً: سرية عمرو بن أمية لقتل أبي سفيان.

سادساً: وقعة بئر معونة.

سابعاً: غزوة بني النضير - غزوة نجد - غزوة بدر الثانية - غزوة دومة الجندل - أهم الأحداث الاجتماعية بين أحد الأحزاب، حركة الدعوة بين أحد والأحزاب.

المبحث الثامن: غزوة الأحزاب.

المبحث التاسع: أحداث ما بين الأحزاب والحديبية.

المبحث العاشر: غزوة الحديبية: الأحداث بين صلح الحديبية، وفتح مكة: أولاً: هدوء جبهة قريش، وظهور مفرزة أبي بصير ثانياً: العمل في المحيط العام وإرسال الرسائل:

١. كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي.

٢. كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس.

٣. كتاب النبي ﷺ إلى كسرى فارس، ثم إلى قيصر الروم، ثم إلى المنذر بن ساوي، ثم إلى هوزة صاحب اليمامة، ثم إلى الحارث صاحب دمشق، ثم إلى ملك عمان وأخيه، الدعاة حملة الرسائل، القضاء على إرهاب اليهود في خيبر وما حولها. حصون خيبر، تحرك المسلمين نحو خيبر اقتحام الحصون، نهاية غزوة خيبر، في أعقاب خيبر، تطهير الجبهة الشمالية من أتباع خيبر، مواجهة القبائل المتمردة، غزوة ذات الرقاع، سرية عمر بن الخطاب إلى تربة، سرية بشير بن سعد إلى بني مرة إلى آخر السرايا.

المبحث الثاني عشر: فتح مكة.

الثالث عشر: الاستقرار العام في الجزيرة، ومواجهة غير العرب.

الرابع عشر: السرايا والغزوات في الميزان.

الخامس عشر: وجاء نصر الله.

السادس عشر: انتقال الرسول ﷺ إلى الله تعالى، ثم بعد ذلك ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المدنية.

حركة النبي ﷺ بالدعوة في المدينة المنورة

تمهيد:

تمت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة بأمر الله تعالى، وبذلك بدأت مرحلة جديدة مع الدعوة إلى الله تعالى تتميز بخصائصها، ومفاهيمها، وأهميتها، وتختلف عن المرحلة المكية بصورة كلية وصار الأمر فيها مهياً لانطلاقة الإسلام إلى العالم كله بصورة عملية دائمة، ولم يعد الصراع بين مجتمع واسع، وبين أفراد قلائل فيه، كما كان الحال في مكة، وإنما تحول إلى صراع بين مجتمع ومجتمع آخر يعادله ويتفوق عليه بالإيمان الحق، وتتبع الصراط المستقيم، وقد وصلت الدعوة الإسلامية نظرياً إلى العالم كله خلال المرحلة المكية ومعها وصلت أخبار ما بين رسول الله ﷺ وبين كفار مكة من عداوة وصراع، وهذا جعل الناس ينتظرون ما تسفر عنه الأحداث بعد الهجرة، وما ينتهي إليه الصراع بين أهل مكة، وأهل المدينة.

وأخذ أبناء الجزيرة على الخصوص ينتظرون نتيجة هذا الصراع؛ ليتخذوا قرارهم بعد أن تهدأ العاصفة ويستقر البركان، وأراد الله تعالى أن ينتصر دينه بمفهوم البشر، وسننهم؛ ليشعر المؤمنون بمسئوليتهم تجاه الإسلام، ويقوم المسلمون

بالواجب المنوط بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وليعلم سائر الناس أن الإسلام قوي بما فيه من تعاليم وإرشاد، وأن الإيمان أساسه الاقتناع والرضا، وأن الاستفادة بالإسلام تحتاج إلى الاستقامة والطاعة والانقياد، والتسليم، وخلص العبودية لله رب العالمين.

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون معه خير أمة أخرجت للناس في الفهم، والتطبيق، والصدق والإخلاص؛ فاستقاموا على الطريقة الحقة، وجاهدوا في الله حق الجهاد، وجعلوا كل أمانيتهم إرضاء الله ورسوله ولم يبالوا بأي أذى ينالهم، أو بأي ضرر ينزل بهم ماداموا على المنهج القويم الذي ارتضاه الله للناس.

لقد تمتعت هذه الجماعة بالإسلام في المدينة، وحولت الفكرة المجردة إلى عمل واقعي، وجعلت المبادئ حركةً ناصعةً تخاطب العقل، وتترأى للعين، ويلمسها بوضوح كل من شاهد صحابياً من أصحاب رسول الله ﷺ فلقد تحولوا -رضوان الله عليهم- إلى عباد ربانيين يعيشون لله حياتهم كلها.

لقد تمكن المسلمون خلال العهد المدني بقيادة رسول الله ﷺ من إسكات صوت الباطل، وقهر قوته، وإيصال الدعوة إلى العالم كله بعد ما أزاخوا رموز الفساد، وطواغيت الدنيا، وجابوا العالم كله دعاء يحملون رسالة الله، ويجاهدون في سبيله، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وينشرون الخير بين الناس أجمعين.

أولاً: بناء المجتمع الإسلامي: استقر المهاجرون في المدينة المنورة ودخل أغلب الأوس والخزرج في الإسلام، وتحولت المدينة كلها إلى مجتمع متكامل خالٍ من الصراع بعيد عن الضلال والضياع، واستسلم الجميع لحكم الله تعالى، وأنزلوا

تاريخ الدعوة والدعاة

رسول الله ﷺ بينهم بما يليق به ، فحكموه في كل ما عَنَ لهم ، وأخذوا برأيه في سائر ما وجههم إليه ، وبذلك ظهر المجتمع الإسلامي بخصائصه ومزاياه التي بعث الرسول ﷺ لإيجادها في واقع الحياة.

ولقد قدم هذا المجتمع صورة فريدة في دنيا الناس لم تسبق ، ولم تلحق لقد صنع من الضعفاء قوة ، ومن الفقر غنى ، ومن التشرذم والضياع رجالاً عرفوا الحقيقة ، وتمسكوا بها ، فعاش الحق لهم ، وسار بهم ، وصاروا أمثلة رائعة ومثلاً تجريبياً لمن يريد حياة الكرامة والعزة والرفق.

ومسلمو اليوم أحوج الناس إلى معرفة هذا المجتمع العظيم ، ليتأسوا به فهم خلوته ، وهو سلفهم ، وكل ما هم فيه من هوان وضياع يجب أن يعيدهم إلى ماضيهم الخالد ؛ عساهم أن يتذكروا ، وعساهم أن ينتفعوا.

إن عوامل صناعة المجتمع المدني بعد الهجرة ليست أموراً فوق الطاقة ولكنها أمور تحتاج إلى الصدق معها ، ولا بد فيه من إيمان يستلزم العمل بها ، وإلى معرفة واضحة لمجموعة من الأشياء التي لا بد منها في الحياة الإسلامية ، وهي : معرفة الله تعالى معرفة تؤكد حقه على العبيد وحق العبيد عليه ؛ ليقوم الناس بما عليهم ، وينالوا ما لهم. تقرير مقام رسول الله ﷺ في الناس ، ومعرفة دور ما تركه من وحي في النشاط ، والخلق ، والسلوك ؛ لأن رسول الله ﷺ لم يستقبل الوحي ليبقى فكرة مجردة ؛ وإنما حولها بالإيمان إلى طاعة عملية ، وحركة شاملة في أعمال الناس ، وأخلاقهم وصيغ ﷺ بما أنزل عليه كل الحياة في المدينة المنورة ؛ لتتأسى به كل المجتمعات بعد ذلك.

ضرورة التزام الإنسان بتعاليم الإسلام : وبخاصة الإنسان المسلم حتى لا يتحول الإسلام إلى فكرة للتثقيف المجرد ، وليبقى الدين كما كان في مجتمع المدينة قواعد

للسلوك، وضوابط للعمل، ومنهجاً يُسير الأحياء وينظم الحياة في كافة جوانبها، وحتى نستفيد بمجتمع المدينة المسلم نحاول الوقوف على ملامحها الرئيسة التي بها كان مجتمعاً إسلامياً، وصار أسوة للناس أجمعين.

وأهم العناصر التي ظهرت في هذا المجتمع ما يلي:

دين كامل:

استمر الرسول ﷺ يدعو الناس في مكة ثلاثة عشر عاماً مكتفياً خلالها بالدعوة إلى العقيدة؛ لأنها أساس البناء الإسلامي، والركيزة الكبرى لإقامة المجتمع المسلم. إن التنشئة الصحيحة تعتمد على العقيدة؛ لاتصالها بالجانب الباطني في الإنسان.

ومن المعلوم أن الإنسان يتميز عن سائر الكائنات بهذا الجانب الهام إذ به يتم التصور ويكون التصديق، وأي عمل خارجي ظاهر يحتاج إلى قرار باطني والإنسان الحر يعمل بما يؤمن به، ويتفق ظاهره مع باطنه دائماً، والمنافقون والضعفاء والمرضى والأرقاء هم الذين يفعلون عكس ما ينطقون، ويبطنون غير ما يظهرون، وهذا حال ياباه دينُ الله تعالى.

إن الإنسان يقوده عقله، وهو الذي يسهل أمام صاحبه الصعب بعد اقتناعه ورضاه، وكثيراً ما رأينا من يقدم على إفناء الجسد، وهو به راض سعيد بصدور القرار من باطن مؤمن بفعل صاحبه.

لقد مكث رسول الله ﷺ يربي المسلمين بالعقيدة حتى صفت نفوسهم وسكن الإيمان قلوبهم، وصاروا عبيداً للمعبود واستسلموا لربهم الخالق العظيم، وحينئذ أتتهم الشريعة جزءاً جزءاً حسب أحوالهم وحاجاتهم، فأسرعوا إلى

تاريخ الدعوة والدعاة

التطبيق ، والالتزام العملي الدقيق لم يحدث مرة أن ترددوا في تنفيذ أمر أمروا به ، أو توقفوا عن ترك عمل أمروا بتركه ، ولو كان العمل هو حاجتهم ، وكل نشاطهم.

والإيمان بالعبادة هو الذي كون الجماعة الإسلامية الأولى في مكة قبل الهجرة ، ولم يكن عجباً أن دار القرآن المكي كله حول بيان حقيقة العبادة وتوضيح أركانها والاستدلال عليها بمختلف الأدلة ، لأنه بذلك صنع الأمة وحقق في عالم الناس المجتمع الإسلامي العظيم ؛ فلما تمت الهجرة بدأت التشريعات تنزل ، وأخذت التكاليف الإلهية تظهر ، والمسلمون يسارعون إلى الطاعة والتنفيذ ولذلك لم يكرر القرآن الكريم توجيهاته كثيراً في أمر شرعي واحد ، ولم يدلل على حقيقتها ، ولم يبرهن على أحقيتها بل كان يكتفي غالباً بمجرد الأمر أو النهي.

وكان الصحابة { يتربصون الأمر ؛ ليتحول سريعاً إلى العمل وإذا تضمن التوجيه نهياً يظهره أثره قولاً ، ويختفي المنهي عنه حالاً ، وقد شملت التوجيهات الشرعية كافة الجوانب العملية في حياة الأفراد ، وسائر الناس ، وكانت مسارعة المسلمين للتلقي سبباً لتوجههم نحو رسول الله ﷺ يأخذون قوله ، وعمله ، ويسألونه عما لا يعرفون ، ويسمعون منه ما يريدونه ﷺ وما ينزل عليه.

وقد تعلم الصحابة العبادة ، وآمنوا بها ، وهم في مكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة فلما تمت الهجرة بدأ الوحي ، يوضح الأحكام الشرعية لأفعال الناس ، واستمر ذلك حتى تمت الشريعة ؛ فتم الإسلام بذلك وكمل الدين ونزل قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

إن الأحكام الشرعية تنقسم إلى قسمين :

القسم الأول: الأحكام الشرعية المحددة المعروفة، وهي المتصلة بالعبادات المشروعة كالصلاة، والصوم، والزكاة والحج. وأحكام هذه العبادات مفصلة بأدلتها الشرعية، وكذلك أحكام النكاح، والميراث، والفرق بين الزوجين إلى غير ذلك مما ورد مفصلاً في شريعة الإسلام.

ومن المعلوم: أن الصلاة شرعت في ليلة الإسراء والمعراج على نحو ما سبق ذكره وكان ذلك قبل الهجرة، ولم يتمكن المسلمون من إقامتها في جماعة، وكانوا يؤدونها في البيت الحرام، والكعبة محاطة بالأصنام، والأوثان.

فلما كانت الهجرة تأسس مسجد قباء وهو أول مسجد بني في الإسلام يقول الله تعالى فيه: ﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وَأَقْبَهُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِجْبًا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] وقد صلى الرسول ﷺ والمسلمون معه في هذا المسجد جماعة، وأقاموا به أول جمعة في الإسلام.

وبالنسبة للزكاة فقد شرعت بعد الهجرة بخمسة أشهر في إطار المؤاخاة التي نظمها رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار.

وبالنسبة للصوم فقد شرع بعد الهجرة بثمانية أشهر بعد تحويل القبلة بشهر واحد ومع تشريع الصوم شرعت زكاة الفطر كما شرع الحج لما تيسر أدائه بعد الحديبية، واستمرت أحكام هذه العبادات تنزل تباعاً، فكلما جد أمر نزل حكمه، وعندما يحتاج المسلمون لحكم جاء الوحي به.

القسم الثاني: الأحكام الشرعية للعبادات غير المحددة، وهي تشمل سائر أنشطة الإنسان في الحياة؛ لأن لكل جزئية حياتية حكماً شرعياً يضبطها، وأنشطة الإنسان ليست ثابتة، ولكنها متغيرة متجددة، وللإيمان دخل فيها، فحياة الإنسان ومعايشه في تطور دائم؛ ولذلك قضت حكمة الله تعالى أن تنزل أحكام

هذه العبادات في صورة مبادئ كلية وقواعد عامة ؛ حتى يتمكن العلماء من أخذ أحكام الحوادث الجديدة من القواعد والمبادئ وفق أصول علمية ، وتبعاً لضوابط إسلامية لا بد منها في أي حكم مستنبط.

وفي إطار أحكام هذا القسم لا يمكن تصور مسألة ما بلا حكم شرعي إسلامي ؛ وبذلك كان صلاح الإسلام لكل زمان ومكان ، لقد تم الإسلام في المدينة بعد الهجرة بعناصره جميعاً ، وبرزت الأحكام الشرعية بجانب أحكام العقيدة وتكامل حسنهما معاً بالأخلاق الإسلامية الكريمة.

وقد تميز الإسلام بمزايا عديدة من أهمها ما يلي :-

١. مراعاة الفطرة البشرية :

الفطرة هي الطبيعة الأولى التي خلق الله الإنسان عليها ، والجبلّة الحقيقية التي يتكون منها ، والإسلام يراعي هذه الفطرة وينميها ، ويمكنها من مسارها الصحيح ، وذلك ملحوظ في دوران كافة الأحكام الشرعية في إطار الطاقة البشرية ، فلا يأمر الإسلام بمستحيل فعله ، ولا ينهى عن فعل مستحيل تركه ، بل كل ما جاءت به الشريعة يمكن عمله وتنفيذه ، كما أن الاستقامة عليه تريح النفس وترضيها.

٢. الشمول :

ونعني بالشمول في الإسلام : أنه يشرع للإنسان في كل حالاته وفي مختلف قضاياها يشرع له صغيراً وكبيراً ، ذكراً وأنثى ، حياً وميتاً ، قوياً وضعيفاً ، مريضاً وصحيحاً ، غنياً وفقيراً ، حاكماً ومحكوماً. ويشرع له وهو فرد واحد أو وهو في جماعة ، بل ويشرع لعلاقة الجماعة مع غيرها ، وللأمة مع سواها.

إن الإنسان أينما كان يجد في شرع الله طلبه، ويعرف طريقه، وهو نوع من الإعجاز يشهد بربانية الشريعة، وإتيانها من عند الله تعالى.

ومن روعة هذا الشمول الاستمرارية: فهو دائم إلى يوم القيامة بلا خلل ولا نقص أبداً، لقد عاش المسلمون في عصر النبي ﷺ مع شريعة الله، واستقاموا على توجيهاتها بدقة، فوجدوا فيها حلاً لكل قضاياهم، وتقدماً في حياتهم فسعدوا، وعاشوا في بركات الله تنزل عليهم من فوقهم وتأتيهم رغداً من كل مكان. يقول الله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقد تحقق للمسلمين ما وعدتهم به الآيات؛ فبعثوا بفضل الله تعالى عن الانحراف العقلي، والشقاء في الحياة، وأحاطتهم بركات الله من كل ناحية وعاشوا آمنين سعداء. ولعلك أخي الباحث تركز على أن هذا هو المنهج في هذه الفترة المدنية شمول الإسلام لكل جوانب الحياة.

ثانياً: قيادة أمينة رائدة تكمل المنهج أيضاً:

أخذ رسول الله ﷺ في قيادة المجتمع الإسلامي في المدينة بمنهج الله تعالى بعدما صار أكثر من فيها مسلمين، وأخذ رسول الله ﷺ يغذي أرواحهم بالقرآن المنزل عليه، ويقوي إيمانهم بالتقوى، ويعبدهم لله رب العالمين، وقد تجلت عظمة القيادة في شخصية رسول الله ﷺ فهو ﷺ كان يبلغهم كل ما ينزل عليه من ربه بمجرد نزوله، ويحضهم على الاهتمام بالقرآن الكريم، ويقول لهم ﷺ: ((من قرأ حرفاً من كتاب الله؛ فله به حسنة، والحسنة بعشر، أمثالها لا أقول: الم حرف، بل ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)).

تاريخ الدعوة والدعاة

إن إقبال القلوب على القرآن الكريم يجعلها تعيش نوره وتسعد بطاعته وتعترز بهدى الله ورضاه لقد بلغ الرسول ﷺ كل ما نزل استجابة لأمر الله تعالى له في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكان ﷺ يقول للناس: ((وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)) لم يكتفِ ﷺ أمراً كلف بتبليغه ولم يتقول على الله كلمة واحدة، وكانت أمانته بارزة لكل من عاشه، فهو الأمين مع نفسه، ومع الناس ومع الله، وكان ﷺ شديد الحرص على إسعاد الناس بالإسلام، وكثيراً ما كان يتألم لانصراف البعض عن الإيمان، والتصديق، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ويقول سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعُّ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وكان الله تعالى يخفف عن الرسول ﷺ حزنه وألمه لما كان يراه من بعد فريق عن الإيمان فيقول سبحانه: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [لق: ٤٥].

كان ﷺ شديد الحب لأصحابه، وأتباعه، وكثيراً ما حذر من أي أذى يلحق بهم، يقول ﷺ: ((الله الله في أصحابي؛ فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً؛ ما بلغ مدّ أحدهم، ولا نصيفه)) ويقول ﷺ: ((لا تسبوا أصحابي)) وكان ﷺ يزكي أهل التزكية منهم، ويصفه بما هو فيه، ويعلي قدره بين الناس.

يقول ﷺ عن أبي بكر الصديق: ((ولو كنت متخذاً خليلاً؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً)) ويقول ﷺ: ((ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه بها؛ ما خلا أبا بكر؛

فإن له عندنا يداً يكافئه الله تعالى بها يوم القيامة، وما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر، وما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة، إلا أبا بكر إلا أبا بكر)).

ويقول رضي الله عنه عن عمر بن الخطاب: ((قد كان في الأمم قبلكم محدثون؛ فإن يكن في أمتي منهم أحد، فإن عمر بن الخطاب منهم)) ومن أقواله رضي الله عنه: ((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في أمر الله تعالى عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم علي وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن حارثة، وأقرؤهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلت الخضراء - يعني: السماء وإظلالها تغطيتها لما تحتها - ولا أقلت الغبراء - يعني الأرض وإقلالها حملها لما فوقها - أصدق لهجة من أبي ذر أشبه عيسى # في ورعه)).

وكان رضي الله عنه شديد الحرص على أصحابه، رحيماً بهم عطوفاً عليهم، يتمنى أن لا يصيبهم أذى، فلم يأخذهم بظنه، ولم يسرع بعقوبة؛ أملاً في مخرج لهم يروي مسلم بسنده: ((أن ماعز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني قد ظلمت نفسي وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت؛ فرده الثانية، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه، فقال: أتعلمون بعقله بأسا تنكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمه إلا وفي العقل من صالحينا فيما نرى، فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً، فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حضر له حفرة، ثم أمر به، فرجم؛ فجاءت الغامدية، فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى، قال لها: أما لا، فاذهبي حتى تلدي، فلما

تاريخ الدعوة والدعاة

ولدت أمتة بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال لها: اذهبي فأرضعيه حتى تفضمي، فلما فطمته، أمتة بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجه خالد، فسبها، فسمع نبي الله ﷺ سبه إياها، فقال: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت)) والأدلة على ذلك كثيرة.

مؤمنون صادقون:

صدق مجتمع المدينة في إيمانه بالله، وقدم أفراده صورة صحيحة عن الإسلام، وبدءوا يتلقون تعاليم الله تعالى التي جاء بها الوحي تلقياً صحيحاً، فكانوا يهتمون بالقرآن الكريم، والسنة النبوية حفظاً وفهماً ويحيطون بكل ما ينزل، ويعلمون ما يحمله من توجيه وأحكام، وإن غاب عنهم معنى سألوا عنه رسول الله ﷺ.

وكانوا يتلقون ما يأتيهم من الوحي بالعمل، والتطبيق والتنفيذ، وبذلك كانوا صورة عملية للوحي المنزل أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، بكل دقة وإخلاص بايع بعض أصحابه ﷺ أن لا يسأل الناس؛ فكان السوط يسقط من أحدهم؛ فينزل عن دابته فيأخذه، ولا يقول لأحد: ناولنيه.

وكان من شدة حبهم، وطاعتهم له ﷺ أنه ﷺ نهى أهل المدينة عن كلام الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فما كان من الناس إلا أن أطاعوه ﷺ وأصبحت المدينة لهؤلاء الثلاثة غريبة عجيبة، كأنها مدينة الأموات ليس بها من يكلمهم أو يجيبهم كأنها لا تعرفهم وكانهم في خصومة مع الجميع، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت.

التفاعل التام بين المسلمين والإسلام:

لما تمت الهجرة صار للإسلام دولة تؤمن به وتؤازره، وتدعو إليه، وصدق المسلمون فيما عاهدوا الله عليه؛ فتحولت مظاهر الحياة، وكل الأنشطة وسائر المؤسسات إلى شريعة إسلامية تتحرك مع الناس، وبهم في صورة عملية تعبر عن دين الله تعالى، وتؤكد التفاعل العظيم بين تعاليم الله، وبين المؤمنين الصادقين وكان المسجد هو أول المؤسسات الدينية التي أقامها المسلمون في المدينة.

فلقد أسس الرسول ﷺ مسجد قباء وهو في الطريق إلى المدينة ولما وصل إليها، ونزل في دار أبي أيوب الأنصاري أسس المسجد الحرام بالمدينة، واتخذ المسلمون دار عبادتهم وسياستهم ففيه كان ينزل الوحي وفيه يجتمع الأصحاب برسول الله ﷺ وعنده تلتقي الوفود برسول الله ﷺ ومنه تتحرك الرسائل، وينطلق الدعاة، وتجهز الجيوش.

لقد أصبح المسجد هو بيت الإسلام في المدينة، وبخاصة بعد أن شرع الله الأذان يدوي في الآفاق خمس مرات في اليوم والليلة، ويتردد صدهاء في الأفق البعيد، ويعلم القاصي والداني أن أمة الإسلام عزيزة كريمة تعلن حقيقتها بصوت جهوري مكرر، واضح المعالم بين معروف، فالله ربهم وهو الكبير المتعال، ومحمد هو رسولهم، والمبعوث بدين الله فيهم، وهو رائدهم إلى الفوز والفلاح، وإمامهم في الصلاة، وحياتهم هي الإسلام كله.

يقول ابن إسحاق: "كان رسول الله ﷺ حين قدم المدينة إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها بغير دعوة، فهم رسول الله حين قدمها أن يجعل لهم بوقاً كبوق اليهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس ليضرب به للمسلمين للصلاة، فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن

تاريخ الدعوة والدعاة

عبد ربه < أخو بلحارث بن الخزرج النداء، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إنه طاف بي هذه الليلة طائفٌ، مر بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعوه إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر إلى آخر ألفاظ الأذان؛ فلما أخبر بها رسول الله ﷺ قال: ((إنها لرؤية حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقيها عليه، فليؤذن بها؛ فإنه أندى صوتاً منك))."

تشريع الجهاد وحركة الدعوة:

لم يرضَ القرشيون بما آل إليه شأن المسلمين، ولم يقبلوا أن يعيش المسلمون في مجتمع آمن مستقر، كان المضمون أن تهدأ نائرة كفار مكة وعباد الأوثان بعد ما هاجر المسلمون إلى المدينة، وتركوا ديارهم وأموالهم عندهم، وابتعدوا عن مقابلتهم، وتخلصوا من مضايقاتهم وعدوانهم المتكرر على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين كان المضمون ذلك. لكن الواقع شهد بغير هذا؛ لأن أهل مكة درسوا موقف المسلمين بعد الهجرة، وتصوروا أن تواجههم في مجتمع خاص بهم؛ سوف يؤدي إلى بروز الإسلام، ووصوله إلى الأماكن البعيدة لعلمهم أن الإسلام هو دين الحق، وأنه يتلاءم مع الإنسان السوي ويرضي العقل السليم.

ومن أجل هذا التصور وضعوا خطة حصار المسلمين، وحاولوا القضاء عليهم في مستقرهم الجديد. علم كفار مكة ما كان من عبد الله بن أبي بن سلول من كراهيته للإسلام، فكتبوا إليه، ومن كان يعبد معهم الأوثان قاتلين لهم: إنكم أويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لنقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم، ونستبيح نساءكم، فجمع ابن أبي أشياعه لقتال رسول الله ﷺ

والمسلمين معه فلقبهم رسول الله ﷺ وقال لهم: ((لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم)) فلما سمعوا ذلك من النبي تفرقوا. كما عملوا على منع المسلمين من زيارة البيت الحرام بمكة.

إن الجهاد في سبيل الله كما يتضح من نصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية لا يصادر الحرية، بل هو صيانة لها، وليس الجهاد وسيلة لاندلاع نيران الحروب؛ لأنه في الواقع يضع النهايات السلمية للصراع، ويريح البشر من شرور الحروب وليس الجهاد نهياً للأموال، بل هو الوسيلة لحماية الإيمان، والإيمان هو العاصم الحافظ للمقدسات، والأعراض والأموال.

ليس الجهاد لقهر الناس وإخضاعهم مهما كانت الغاية؛ لأنه إفساح الطرق للدخول في دين الله، وهو الدين الذي ينشر لواء العزة، ويحمي الذمار ويصون الكرامات، ويعتمد على الاختيار الحر، والاقتناع السليم، والله تعالى يقول:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

رسائل النبي ﷺ وكتبه إلى الملوك

تميزت رسائله ﷺ بالمواصفات التالية:

١. كان يضع عنواناً لرسائله هو من محمد رسول الله إلى فلان ويجعل العنوان قسماً مفصلاً بينهما مثل من محمد رسول الله إلى فلان
٢. كان يصدر رسائله بسم الله الرحمن الرحيم يقول ابن حجر: "جمعت كتبه ﷺ إلى الملوك وغيرهم؛ فلم يقع لي شيء منها البداية بالحمد بل بالبسملة".

تاريخ الدعوة والدعاة

٣. كان يبدأ رسائله بعد البسملة بذكر اسمه ﷺ واسم المرسل إليه أو شهرته فإن كان المكتوب إليه ملكاً كتب بعد ذكر اسمه عظيم القوم الفلانيين وربما كتب ملك القوم الفلانيين وربما كتب صاحب مملكة كذا وكان يعبر عن نفسه ﷺ في أثناء كتبه بلفظ الأفراد مثل: "إني، ولي، وجاءني، ووفد علي" وما أشبه ذلك. هذا كله من أساليب الدعوة في هذه الفترة. وربما أتى بلفظ الجمع مثل "بلغنا وجاءنا" ونحو ذلك. وكان يخاطب المكتوب إليه عند الأفراد بكاف الخطاب مثل: "لك، وعليك، وتاء المخاطب"، مثل: أنت قلت كذا وكذا، وجعلت كذا، وعند التثنية بلفظهما مثل: أنهما، ولكما، وعليكما، وعند الجمع بلفظة مثل: أنتم، ولكم، وعليكم، وما أشبه ذلك.

٤. كان ﷺ يكتب في رسائله أما بعد، ويضعها فاصلة بين المقدمة وعرض الموضوع.

٥. كان يختم رسائله ﷺ بالسلام فيقول لأهل الكفر: ((والسلام على من اتبع الهدى)) ويكتفي في بعضها بقوله: ((والسلام)).

٦. كانت الرسائل تذييل باسم كاتبها، وبخاتم رسول الله ﷺ المكتوب فيه محمد رسول الله تكتب على ثلاثة أسطر في كل سطر كلمة محمد رسول الله من أسفل إلى أعلى؛ ليكون لفظ الله هو الأعلى.

٧. كانت الرسائل تؤرخ بالهجرة؛ حيث عرف التاريخ بها في زمنه ﷺ وقد كانت الرسائل عملاً دقيقاً حسناً، فبلغت الإسلام وخاطبت الأمم والملوك بالحسنى، واشتملت على الحقائق التالية:

أولاً: وجهت الرسائل إلى الملوك والأمراء؛ فهم قادة الناس، ورعيتهم على دينهم، وقد تضمنت الرسائل ما يفيد مسئولية الملوك عن رعاياهم، ومن ذلك: فإنما عليك إثم الجوس، عليك إثم الإريسين، فإنما عليك إثم النصارى، فإنما

عليك إثم القبط ، عليك إثم الأكارين وبذلك تعد هذه الرسائل تليغاً لعالمية الإسلام بصورة عملية.

ثانياً: كانت الرسائل تتناسب مع المرسل إليهم لهجةً وأسلوباً واستدلالاً ولذلك كانت تتكلم عن المسيح والكتاب إذا كان الملك من أهل الكتاب وتتكلم عن مساوئ الكفر والضلال ؛ إذا كان الملك كافراً كالمجوس.

ثالثاً: كانت الرسائل واضحة في موضوعها: فهي كلها تدعو إلى التوحيد وطاعة الله ، وتتضمن الإنذار والتبشير ، وتربط دوام الملك بالإيمان ، وتخوف من زوال الملك حين الاستمرار على الكفر والمعصية. وقد أرسل رسول الله ﷺ كتبه في شهر المحرم سنة سبع بعد العودة من الحديبية بعشرين يوماً ، وبعدها تابعت كتبه إلى سائر الناس ، وقد عد ابن سعد منها أكثر من سبعين كتاباً ، وفيما يلي بعض نصوص أهم هذه الكتب :

كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة حمل الرسالة إلى النجاشي الصحابي عمرو بن أمية الضمري ، ونص الرسالة " هذا كتاب من محمد النبي إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، لم يتخذ صاحبة ، ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الإسلام ، فإني أنا رسوله ، فأسلم تسلم : ﴿ قُلْ يَتَاهِلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فإن أبيت ؛ فإن عليك إثم النصرى من قومك "

وقد رحب النجاشي بالرسالة ووضعها على عينه ، وأعلن إسلامه أمام جعفر بن أبي طالب ، وكتب ردّاً إلى النبي ﷺ جاء فيه " إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم ، سلام عليك نبي الله من الله ، ورحمة الله وبركاته ، والله الذي لا إله إلا هو أما بعد. فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب

تاريخ الدعوة والدعاة

السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت فروقاً، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابك؛ فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين".

ثم جهز سفينتين حمل فيهما المهاجرين إلى الحبشة، وعاد بهم عمرو بن أمية إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فوصلوا إليها في شهر رجب من السنة السابعة، والمسلمون في غزوة خيبر.

كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس ملك مصر:

حمل رسالة النبي ﷺ إلى المقوقس حاطب بن أبي بلتعة < وقد جاء فيها: "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؛ فإنما عليك إثم أهل القبط: ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية الكريمة".

وقد قام حاطب بدعوة المقوقس إلى الإسلام، وبين له قرب النصراري من المسلمين، وأن محمداً هو الذي بشر به عيسى -عليهما الصلاة والسلام- وقد أخذ المقوقس الكتاب، وكتب ردّاً عليه جاء فيه "بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد: فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك".

هذا شيء عن جانب الدعوة في الفترة المدنية بما اشتملت عليه من أبرز المعالم والمناهج والوسائل والأساليب.

الدعوة الإسلامية في عصر الخلافة الراشدة

عناصر الدرس

- العنصر الأول : التنظيم الإداري، والاهتمام بضوابط العمران البشري ٣١٩
- العنصر الثاني : إقامة المنشآت العمرانية، وبيان أهمية الجهاد في الإسلام ٣٣١

التنظيم الإداري، والاهتمام بضوابط العمران البشري

شغل الخلفاء الراشدون بالجهاد في سبيل الله والفتوح الإسلامية؛ فنجد في عهد سيدنا أبي بكر الصديق < تعرض لردة من بعض القبائل بعد رسول الله ﷺ فتصدى لها، ونجد أن له خطة < في مواجهة الأعداء، كما كانت الفتوح الإسلامية في عهده كثيرة؛ فالفتح في الميدان الفارسي معركة ذات السلاسل، معركة الوجة، معركة أليس، معركة أمغيشيا، معركة فتح الحيرة، فتح الأنبار، معركة عين التمر، معركة دومة الجندل، معركة بابل، الفتح في ميدان الروم، خطوات الفتح مبشرات النصر، أخذ رأي الصحابة، دعوة أهل اليمن للجهاد، خطة الجهاد في بلاد الروم، وهكذا.

ونجد أن الصحابة { أبو بكر وعمر، وعثمان وعلي كلهم شركاء في هذه الفتوحات الإسلامية، وفي هذه الركائز الإيمانية، فنجد في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب < الأمور الآتية: أهمية اختيار أبي بكر < لسيدنا عمر- الواقع الاجتماعي- واقع الجهاد- تربص الأعداء- خوف افتراق المسلمين- الشورى واختيار عمر < المبادئ الأساسية للحكم في خلافة عمر < .

الشيعة وخلافة عمر < الحكم والإدارة في خلافة عمر < التنظيم الإداري في دولة الخلافة- تنظيم الولايات وتحديداتها- التخطيط، التسلسل، الترابط- الاهتمام بضوابط العمران- وضع التاريخ الإسلامي- تدوين الدواوين- تطهير الجزيرة- إقامة المنشآت العمرانية- بناء المساجد- إنشاء الأمصار- اختيار الولاة- مواصفاتهم- التواصل بين الولاة والخليفة- التحقيق في الشكاوى- مراقبة الولاة- مراعاتهم- مداومة النصح لهم- محاسبتهم- ركائز الدعوة في التنظيم الإداري- التنظيم المتكامل- الصدق والإخلاص- التيسير- الاشتراك في

تاريخ الدعوة والدعاة

المسئولية- النظام القضائي- التنظيم المالي في خلافة عمر- التنظيم الحربي للجهاد- نظام الدعوة إلى الإسلام في خلافة عمر- من خطب عمر < ركائز دعوية في تنظيم عمر < لمؤسسات الخلافة- فتح العراق- وفتح فارس- وفتح بلاد الشام- وفتح مصر- ثم استشهاد عمر < مؤسسات الحكم والإدارة في خلافة عمر بن الخطاب < .

ولي عمر بن الخطاب أمر الخلافة، وتوسعت أركان الدولة الإسلامية في عهده توسعاً كبيراً، وقد حتم ذلك الحال أن يضع نظاماً قادرة على القيام بالواجبات في دولة الخلافة، وكان عليه < أن يبذل جهده وأصحابه في وضع تنظيم لمؤسسات الحكم، تكفل تسيير الأمور، وصيانة المصالح، وحماية شئون الدين والدنيا، وبخاصة أن أبا بكر < مكث في الخلافة مدة قصيرة، قضاها في حرب الردة وتثبيت الإسلام في الجزيرة، ومهاجمة أوكار التآمر، والعدوان في فارس والروم؛ ولذلك سار في إدارته على ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ فلما جاء عمر وجد أن الأمر يحتاج إلى إجراءات عديدة تساعده على إدارة شئون الخلافة في كافة جوانبها.

وقد مكن الله ﷻ لعمر < وأعانته على وضع مجموعة من النظم تمكن بها من وضع سياسة جيدة لدولة الخلافة في الداخل والخارج تعد بمقياس عصرنا الحديث نظماً متقدمة. قد ارتبط عمر < في كل أعماله، ونظمه وإدارته بتعاليم الإسلام؛ وبذلك خلد تراثاً للمسلمين يمكنهم أن ينهضوا به لو تمكنوا من السير على منواله وتطبيق الإسلام في حياتهم.

أولاً: التنظيم الإداري في دولة الخلافة:

تحتاج الدولة المعاصرة إلى أساسيات تقوم عليها وتعتمدها أساساً لكل مؤسساتها وسلطاتها وسياساتها، وفي مقدمة هذه الأساسيات التنظيم الإداري للدولة؛ لأن

به تقسم الدولة إلى إمارات، وتقسم الإمارات إلى ولايات، وتقسم الولايات إلى أقسام أصغر منها حتى تصل الأقسام إلى القرية، والنجع والعزبة، وبهذا التنظيم يتمكن الحاكم من إدارة شئون الناس جميعاً مع اتساع العمران، وتنوع البيئات، وتعدد الثقافات والاتجاهات.

وقد توصل العلماء المعاصرون إلى تحديد إطار لعلم الإدارة، والحكم المحلي، ونظموا الطريق العملي لتطبيقه والاستفادة به، وحينما يستقر كل فرد في مكانه في إطار التنظيم الإداري العام يجد السلطات والمؤسسات التي تخدمه وتسير حياته، وهي تعيش معه سيجد سلطة التشريع تجدد نشاطه، وتقنن حركته، وتقدم له المنهج العام في صورة برامج عملية في كافة المجالات، وسيجد سلطة الدفاع والحرب تحمي الدين، والدولة وتصون حرية البلاد والعباد، وتؤمن حركة الدعوة والدعاة وسيجد سلطات التنفيذ تخدمه بواسطة إداريها، والمسؤولين فيها من رئيس، وحارس، وموظف، وسيجد سلطات القضاء تساعد في نيل الحق، ودفع الظلم وتيسير الحياة وفق شرع الله تعالى، وسيجد سلطة الإعلام تحمي الرأي والتفكير وتصون مبادئ الخير والسلام وتؤمن حركة التبليغ والإرشاد، ولئن كان مسمى "التنظيم الإداري" و"الحكم المحلي" من مستجدات العصر وإبداعاته نظرياً وتطبيقياً؛ فإننا نورد هنا سبق الإسلام في هذا المجال الهام، فلقد قسم رسول الله ﷺ البلاد التي أسلمت إلى ولايات وعين لكل ولاية من يلي أمرها وتبعه بعد ذلك الخليفة أبو بكر < فأقر الولايات الموجودة واستحدث ولايات جديدة في البلاد التي فتحها المسلمون، وهي قليلة لقصر عهد أبي بكر < فلما تولى عمر < الخلافة اهتم بهذا الجانب الهام، وبخاصة بعد أن اتسعت الدولة وكثرت الفتوح، وظهرت الحاجة إلى تنظيم إداري يشمل سائر البلدان

التي تم فتحها، ويحدد لكل إنسان حقه، وواجبه، ويحرك الجميع للمساهمة في بناء أمة الإسلام العظيمة.

تحديد الولايات وتنظيم الأقاليم:

اعتمد عمر بن الخطاب < الولايات التي نظمها أبو بكر < في الجزيرة العربية، وأهمها:

١. ولاية مكة: وهي من الولايات الكبرى حيث يفتد إليها الحجيج من كل مكان، ويقع عليها مسئولية خدمتهم، ورعاية شئون المسجد الحرام.
٢. ولاية المدينة المنورة: وهي مقر الخلافة، ومأوى كبار الصحابة، ومنها تتحرك الجيوش، وفيها يقيم الخليفة، ومنها تصدر التوجيهات إلى سائر الأقاليم.
٣. ولاية الطائف وهي مدينة هامة تتميز باعتدال المناخ وتدفق المياه ولذلك كثرت بها الزراعات والفاكهة، وقد اتخذها أهل مكة مصيفاً لهم يفتدون إليها هرباً من حر مكة الشديد.
٤. ولاية اليمن وعاصمتها صنعاء وهي من أهم الولايات في جنوب الجزيرة العربية وكانت مرجعاً لباقي الولايات في الجزيرة العربية ومصدرهم في ما يحتاجون إليه من علم وفقه وعون.
٥. ولاية حضر موت.
٦. ولاية زيد ورمع.
٧. ولاية خولان.

٨. ولاية نجران.

٩. ولاية جرش.

١٠. ولاية البحرين: وهي أهم الولايات في شرق الجزيرة ولذلك عد بعض المؤرخين عمان واليمامة تابعين لها.

١١. ولاية اليمامة.

١٢. ولاية عمان. ويلاحظ أن أغلب هذه الولايات صغيرة العدد والمساحة؛ لأنها ترتبط بمكان، أو بقبيلة، هذا بالنسبة للجزيرة العربية.

أما بلاد فارس المكونة من سواد العراق والولايات الفارسية: فإنه مع تقدم الفتح ودخول الناس في دين الله تعالى قسمها < إلى إمارات ووزعها إلى إمارتين رئيسيتين هما إمارة الكوفة وإمارة البصرة على أن تتبع ولايات شرق فارس إمارة البصرة وهي ولاية فارس الأهواز كرمان سجستان مكران خراسان وتبع ولايات غرب فارس إمارة الكوفة، وهي ولاية المدائن الجزيرة الجبال كردستان أذربيجان، وكان أمراء البصرة والكوفة يقومون بتعيين الولاة والعمال في الولايات التابعة لها ويشرفون معهم على كافة شئون الناس، وينظمون معهم أمور الدفاع، ومقاومة الأعداء، ويساهمون في تبليغ الإسلام ونشره بين الرعايا ومن يلونهم في البلدان المجاورة.

وأما في بلاد الشام: فقد أمن لها عمر < قيادة عامة تشرف على جميع شئون الجهاد والإدارة وبناء المساجد والقيام بالدعوة وكان عمر < يأمر بتأسيس ولاية لكل إقليم يتم فتحه وأهم الولايات التي أقامها عمر < ولاية الشام وعاصمتها دمشق وهي أكبر ولايات الشام، وبها مركز القيادة والتوجيه ولاية

تاريخ الدعوة والدعاة

حمص وقنسرين ، وتتبعها الجزيرة الفراتية ؛ لأنهم فاتحوها ولاية طرابلس ولاية فلسطين.

وكان عمر < يتولى بنفسه تعيين عمال لهذه الولايات لمباشرة مهام التنفيذ مع القيادة العامة حتى يخفف العبء عن القيادة التي كانت في حرب وقتال مع الروم ، وظل أبو عبيدة < هو القائد العام لبلاد الشام إلى أن مات بالطاعون سنة ١٨ هـ فلما مات أبو عبيدة رأى عمر أن يباشر الأمر بنفسه ، وبخاصة بعد أن صارت بلاد الشام منطلقاً للجيوش الإسلامية نحو مصر وأفريقيا ، وشمال بلاد الشام ، واكتفى عمر < بتكليف القادة بالحرب ، والجهاد فقط على أن يستقل كل قائد بمنطقته تحت الإشراف المباشر للخليفة ؛ وعليه أن يحتفظ بجنوده في حالة استعداد لمساعدة إخوانه المجاورين في حالة استعانتهم به.

وأما في مصر: فقد أسس بها عمر < إمارة عامة ، وجعل مقر الإمارة مدينة الفسطاط على أن تتبعها كافة الأقاليم التي فتحت ، أو التي سيتم فتحها في الشمال الأفريقي على أن يقوم أمير مصر بتعيين والٍ لكل ولاية يفتحها ، وينظم أمور الجهاد ، ويستشير الخليفة فيما يريد القيام به.

وحين نظر في التنظيم الإداري في دولة الخلافة في عهد عمر بن الخطاب نجده قد وصل إلى أرقى مستويات الفكر الإداري الحديث ؛ ومن ذلك : أنه اعتمد على المبادئ الإدارية التالية :

١. التقسيم : لم يكتفِ عمر بجعل الخلافة منطقة واحدة ، وإنما قسمها إلى وحدات كثيرة ؛ وفق نظام واحد يجمع هذه الوحدات في إطار المخطط العام ، وكان يتعامل مع كل وحدة إقليمية ، بما يناسبها ، وكثيراً ما كان يعين والياً يتولى شؤون الإدارة والحرب ، والقضاء ، والمال ، وفي بعض الأحيان يعين أميراً للجيش

والإدارة، وإلى جانبه آخر: يتولى القضاء وأمور المال، وفي أحيان أخرى يعين للحرب والإدارة رجلاً، ويخص القضاء برجل آخر، ويُفرد لأمور المال رجلاً ثالثاً، وهكذا حسب الكفاية والمقدرة؛ فإذا كان الرجل من ذوي الغناء، وكل إليه كل الأمور، وإلا عين لكل شأن والياً.

٢. التخطيط: التخطيط هنا يعني: أن ينظر الإنسان في المستقبل، ويتأمل في الواقع الممكن، ويتصور حركة تناسب المستقبل، انطلاقاً من الحاضر وهذا المبدأ لم يغب عن فكر عمر < ولذلك كان دائم السعي لمعرفة عدوه، وإمكاناته، وأهدافه؛ ليعدله عدته وفق أعمال محددة، وكان < يشترك مع الولاة في تأسيس، وتنظيم المدن الجديدة كالكوفة، والبصرة، والفسطاط، ويأمر بإقامة دار الحكم، والقضاء، والمسجد والمدارس وغيرها، وكان يتأمل في واقع المسلمين ليأمر بما يصلحهم من بناء وإنشاءات وزراعات وأعمال وتوجيه وإرشاد.

٣. التسلسل الإداري: يصعب على شخص الخليفة أن يباشر بنفسه أمور الناس في دولة الخلافة الواسعة؛ ولذا رأينا عمر يقسم دولته إلى أقاليم وولايات ونجوع، ويكل العمل في كل مستوى لمن يناسبه على أن يشرف عليه من فوقه؛ ليعاونه ويساعده، ويساهم معه في وضع الخطط، واتخاذ القرار، وهكذا يتدرج الأمر حتى يصل إلى الخليفة.

قد رأينا < وهو يقسم دولة الخلافة إلى إمارات والإمارة إلى ولايات والولاية إلى أسقاع وبلدات، ويأمر بتعيين العمال والولاة والقادة، وهذا التسلسل التنظيمي الذي اعتمده عمر < مستنبط من القرآن الكريم يقول الله تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ويقول سبحانه:

﴿ نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ١٧٦].

ناربخ الدعوة والدعاة

وعلماء الاتصال المعاصرون يرون ضرورة هذا التسلسل الإداري ؛ لأنه ينظم العمل، ويرتب الحركة، ويحدد لكل شخص مسؤولياته، ويعرفه بواجباته ويوضح مدى النجاح الذي يحققه كل فريق، إن القيادة العليا والقاعدة الدنيا في حاجة إلى هذا التسلسل ؛ لأن القيادة العليا تتمكن به من إصدار التعليمات والقرارات، والأوامر، والقاعدة الدنيا تتمكن به من إعداد التقارير ورفع الشكاوى، وتقديم ما تريد من طلبات، ومقترحات، وبذلك يسهل الاتصال بين الجميع، ويحقق كل فرد ما عليه من واجب.

٤. الترابط: نظم عمر بن الخطاب < الدولة الإسلامية، وقسمها إلى الأقسام الإدارية المذكورة، ونظم طرق ترابطها معاً؛ بحيث يستعين كل قسم بمن يجاوره، وبمن يعلوه إدارياً، وبذلك تعيش الأمة متماسكة في وحدة تامة تؤمن بدين واحد، وتعمل لهدف واحد في ظل قيادة الخلافة العظمى التي يتولاها عمر < وقد أدى هذا الترابط إلى توحيد الأمة، وتماسكها، وتعاونها التام في إطار منهج الإسلام دين الله الحنيف.

ولقد كان داعي الجهاد يظهر في أقصى الشرق؛ فيستجيب له من هم في أقصى الغرب، ويتردد صداه في الأمة كلها، وكان كل فرد في الأمة يوقن بأخوته الصادقة مع أي مؤمن في أرض الله تعالى، وعلم بقايا الفرس والروم هذه الحقيقة عن الأمة الإسلامية، وتيقنوا أن الجميع أعضاء في الأمة المسلمة، وأن الأمة الإسلامية يقودها خليفة واحد هو عمر الذي يقيم في المدينة المنورة، عاصمة الخلافة الراشدة، ولكنه في كل مكان بعدله، وصدقه، ورعايته لرعاياه.

في هذا الجو العالي من الترابط والتوحد والتماسك تمكنت جيوش المسلمين المجاهدة أن تنطلق إلى كل النواحي شرقاً وغرباً، ونحو الشمال والجنوب تحيطها

الهيبة، ويسبقها الرعب، ويظهرها حسن الخلق وحسن التعامل؛ ولذلك عاشت النصر تلو النصر حيث آمن الناس ودخلوا في دين الله وهم سعداء، ولولا هذا الترابط الذي طبقه عمر < لعاش المسلمون في بلادهم أجزاء متناثرة ضعيفة، ولما استمرت الأمة ولا انهار كيانها، ولضاعت في غياهب التاريخ، كما ضاع غيرها من الحضارات والدول.

ولم يكن عمر بدعاً في تمسكه، وحرصه على ترابط الأمة؛ لأنه أخذ من دعوة الإسلام إلى التوحيد والتعاون حيث يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُورِبِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَفْسٍ وَوَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَوَجِدَةً وَأَنَا رِيبِكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ويقول النبي ﷺ: ((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)) و((من فرج عن مسلم كربةً من كرب الدنيا؛ فرج الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة)) و((الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه))، ((مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له الجسد بالحمى والسهر))، ((المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم)).

ثانياً: الاهتمام بضوابط العمران البشري:

قسم عمر دولة الخلافة إلى إمارات وولايات وأساقع على نحو ما ذكرت، ورأى عمر حاجة الأقاليم المختلفة إلى أمور يفرضها التطور والتوسع، ويحتاجها

تاريخ الدعوة والدعاة

الناس ، والنظام وتعتمد عليها عمليات الدعوة ، والتوجيه والتعليم فتحدد مسار النهضة والعمران وتبعد الناس عن مكائد الأعداء والخصوم ، رأى ضرورة أن تخلص الجزيرة العربية لئبها ، وأن تتخلص من الكارهين لها ، وأن تخلو من غير دين الإسلام ، ورأى ضرورة وضع الدواوين لتسجيل الأمور التي تحكم حركة الحياة والزمان في الأمة كلها رأى هذه الأمور ؛ فاستشار أصحابه بشأنها وأعانه الله على القيام بالأعمال التالية :

(١) وضع التاريخ الإسلامي : بعد أن تولى عمر < الخلافة كان المسلمون يعلمون أشهر العام الاثني عشر من المحرم إلى ذي الحجة ولم يقيدوها بسنة محددة ، فجاء رجل إلى عمر ليساعده في تحصيل دين على آخر يستحق السداد في شعبان ، فقال عمر < : "أي شعبان هذا؟ هل هو في العام الذي مضى ، أم في الذي سيأتي ، أم في عامنا هذا؟". ونظر في هذا الحدث وأمثاله ؛ فرأى حاجة الفتح ، وحاجة الأمة إلى وضع تاريخ يحرصون به الأيام والشهور والسنين ، ويتمكنون به من تسجيل الأحداث ، ومعرفة الماضي ، وتحديد أزمنة الميلاد والوفاة ، وغير ذلك.

فجمع الصحابة واستشارهم فرأوا معه أهمية تحديد التاريخ بالسنين ؛ لأن الاكتفاء بالأيام والشهور لا يفيد ، وبعد ذلك تشاوروا في النقطة التي يبدءون بها تاريخ المسلمين ، فرأى بعض المسلمين أن نأخذ بتاريخ الفرس وكان الفرس يؤرخون بملوكهم فكره ذلك ، وقال آخرون : نأخذ بتاريخ الروم وكانوا يؤرخون بزمان الإسكندر المقدوني فكره ذلك أيضا ، وإنما كره ذلك ؛ لأنه يريد تميز المسلمين واستقلالهم ، كما أن التأريخ بالرجال تعظيم لهم وإعلاء شأن الطغاة ؛ وحينئذ أخذ المسلمون في البحث عن معلم إسلامي يبدءون به التاريخ ، وعاشوا

بين أحداث السيرة النبوية، ورأوا اختيار حدث معلوم عند الجميع بلا اختلاف؛ فأشار علي بن أبي طالب أن يبدأ التأريخ بالهجرة النبوية إلى المدينة المنورة؛ لأن وقت الهجرة متفق عليه، وظاهر للجميع، ثم إن الهجرة في حد ذاتها تعد بداية للتحوّل الكبير في تاريخ الدعوة، وظهور الدولة الإسلامية الشامخة.

استقر رأي عمر < بعد المشاورة إلى التأريخ بالهجرة على أن يسمى التاريخ الإسلامي بالتاريخ الهجري، ومن المعلوم أن أشهر السنة الهجرية هي التي ذكرها الله في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

ولذلك صار من الأولى ضبط أحداث الأمة وتاريخها بالسنة الهجرية ومن المعلوم أن المسلمين ظلوا يؤرخون حياتهم بالهجرة إلى أن سيطر عليهم أعداؤهم من الفرنجة؛ فغيروا التاريخ إلى التاريخ الميلادي، ويعنون به ميلاد المسيح #، فاتبعوهم في تأريخهم؛ وبذلك تحولوا إلى تابعين بعد أن كانوا رواداً مستقلين.

تدوين الدواوين: الديوان هو السجل الذي يكتب فيه الإنسان ما يريد ويسمى به المكان الذي يجتمع فيه الكتاب، والموظفون العاملون من باب تسمية المكان باسم ما يتم فيه كالمدرسة، والمقراة، والحاجة إلى التدوين في الإدارة أمر هام؛ لأن كتابة أي موضوع يصونه من الغفلة والضياع، وشئون الحكم متعددة وجوانبها كثيرة؛ ولذلك كانت حاجتها إلى التدوين ضرورية، وكان السبب الذي دعا عمر < إلى وضع الديوان تنوع العمران، وتعدد الأعمال، وحاجة الجهاد إلى إعداد وعدة، ومع كثرة أموال الخراج والفيء؛ رأى الصحابة { ضرورة التدوين ووضع سجلات تكتب فيها الأموال الواردة، وجهات صرفها؛ ليصل الحق لصاحبه بلا نسيان أحد، أو مضاعفة العطاء لأحد.

تاريخ الدعوة والدعاة

تطهير الجزيرة العربية من غير المسلمين: نظر عمر < إلى جزيرة العرب فوجدها قد آمنت جميعاً ورأى نفسه أمام حديث رسول الله ﷺ القاضي بأنه لا يجتمع دينان في جزيرة العرب فعمل على تطبيق الحديث في واقع الحياة، ورأى أن في شرق الجزيرة يوجد نصارى تغلب ونجران، ورأى في شمالها يهود خيبر التي أجلاهم إليها رسول الله ﷺ وتتبع عمر أحوال أهل الكتاب فوجدهم يعملون ضد الإسلام ويتمنون القضاء عليه، وينتظرون فرصة الانقضاض عليه مع أعدائه من الفرس والروم.

وجاء نصارى تغلب إلى عمر، وطلبوا منه أن يدفعوا الجزية باسم آخر، وقالوا له: "خذ منا شيئاً، ولا تسمه جزاء، وإلا سنرحل إلى الروم، فقال لهم: أما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم، وقال له علي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة؟ قال: بلى وأصغى إليه فرضني به منهم جزاء؛ فرجعوا عما هددوا به".

وقد فعل عمر ذلك طمعاً في إيمانهم، ودخولهم في الإسلام، وبالفعل فقد آمن كثير منهم؛ فأقر عمر من آمنوا في موطنهم، وأجلى من بقي منهم إلى العراق لصلتهم به، وقربهم منه كما أجلى نصارى نجران ومجوس هجر إلى العراق. وأوصى واليه عليها أن يعرضهم عن أموالهم، وعقاراتهم بمثلها، كما أجلى يهود خيبر إلى بلاد الشام بعد ما تعدوا على أموال عبد الله بن عمر، وجرحوا يده حين مقاومته لهم، وكانوا من قبل قد تعدوا على رجل من الأنصار، ولما بلغ عدوان اليهود على المسلمين مبلغه جمع عمر المسلمين، وقام فيهم خطيباً وقال: "أيها الناس، إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه، كما قد بلغكم مع عداوتهم على الأنصاري قبله.

لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم؛ فمن كان له مال بخير فليحق به، فإني مخرج يهود". وزاد من حرص عمر على ذلك ما بلغه من قول رسول الله ﷺ في مرضه الذي قبضه الله فيه: ((لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان)) فأرسل إلى يهود، فقال: "إن الله أذن لي في إجلائكم. وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال: ((لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان)) فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به، أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء".

إقامة المنشآت العمرانية، وبيان أهمية الجهاد في الإسلام

ثالثاً: إقامة المنشآت العمرانية:

١. **بناء المساجد:** وقد اهتم عمر < بالمساجد اهتماماً واضحاً فبدأ أولاً بمسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة؛ فقام بتوسيعته بعد أن ضاق بالناس، وأدخل دار العباس بن عبد المطلب فيه وامتدت التوسعة عشرة أذرع من جهة القبلة، وعشرين ذراعاً من الناحية الغربية، وسبعين ذراعاً من الناحية الشمالية، وأعاد بناءه باللبن والجريد، وجعل عمده من الخشب، وسقفه من الجريد، وكساه ليحمي الناس من المطر، والحر إلى آخر هذه الأعمال التي هي من وسائل الدعوة الإسلامية، وأجرى تعديلات يسيرة في المسجد الحرام بمكة واشترى دوراً حول الحرم المكي، وهدمها، وزادها فيه.

٢. **إنشاء الأمصار والثغور:** اتسعت الدولة الإسلامية، وأصبح اتصال المجاهد بأهله، وذويه أمراً شاقاً؛ ولذلك رأى عمر أن ينشئ مدناً، ومساكن للمجاهدين يستريحون فيها، ويأتون بأهلهم إليها يستوطنونها معهم، فأمر بتنظيمها على

ناربخ الدعوة والدعاة

أساس إسلامي واضح ، وجعلها تضم مساجد للعبادة ومساكن للمهاجرين والمجاهدين ، ومدارس للتعليم ، وأمر عمر بضرورة اختيار أماكن الأمصار الجديدة وفقاً للأسس التالية :

- ١ . وجود الطريق الممهّد الذي يربط مصر بدار الخلافة ليسهل الاتصال به وإرسال الجنود إليه أو الانسحاب منه .
- ٢ . عدم وجود نهر فاصل بين مصر ، ودور الخلافة في المدينة المنورة .
- ٣ . أن يتوسط مصر المسجد ليقوم المسلمون فيه الصلاة .
- ٤ . أن يبنى حول المسجد دار للجنّد وبيت للإمارة .
- ٥ . أن يعد بالمصر أماكن لمن يهاجر إليها من المسلمين .
- ٦ . أن يكون البناء مجاوراً للماء والمرعى .
- ٧ . أن يحمي الوالي بجوار مصر أرضاً لخيل الجهاد .

اختيار الولاية والحكام والتعامل معهم :

أولاً: تعيين الولاية: سار عمر < على ضرورة وجود وال لكل ولاية ، وكان إذا عزل والياً ، أو نقله لعمل آخر اختار من يخلفه ، ولكل ولاية ظروفها وأحوالها ؛ ولذلك كان يختار الوالي الملائم للولاية .

ولاية مكة : تولى ولاية مكة في عهد عمر أربعة من الصحابة هم محرز بن حارثة بن ربيعة من بني عبد شمس ، ولاء عمر أمر مكة المكرمة ثم عزله ، قنفذ بن عمير بن جدعان من بني تميم عيّنه عمر بعد محرز ، خالد بن العاص بعد قنفذ ، نافع بن الحارث من بني خزامة ، اختاره عمر بعد خالد وبقي على الولاية إلى أن توفاه الله

تعالى، وولاية المدينة المنورة وولاية الطائف، وولاية اليمن، وولاية البحرين، وولاية الكوفة، وولاية البصرة، وولاية المدائن، ولايات الشام، وولاية مصر.

مواصفات الولاية:

١. قوة الشخصية.
 ٢. دقة العلم والفهم.
 ٣. الزهد والورع.
 ٤. مناسبة الوالي لرعيته.
 ٥. التمتع بالخلق الاجتماعي.
 ٦. التواصل بين الولاية والخليفة.
- ولقد اتخذ التواصل بين عمر < والولاية والولايات صوراً متعددة من أهمها: .

١. مداومة النصح والتوجيه .
٢. مراعاة أحوال الولاية المعيشية.
٣. مراقبة الولاية وأعمالهم.
٤. التحقيق في شكاوى الناس.
٥. محاسبة الولاية.

التفتيش المستمر: عين عمر عدداً من الصحابة وعلى رأسهم محمد بن مسلمة للسفر إلى الولايات المختلفة للاطلاع على شئونها، ومقابلة جماهير المسلمين، والتحري منهم عن حقائق ما يجري، وتقبل شكاواهم ورفعها إلى عمر < في

تاريخ الدعوة والدعاة

المدينة ، وهذا يمثل بذلك سلطة التفتيش في العصر الحديث ، وعين عمر < مع ابن مسلمة عددًا من المعاونين والمساعدين يرتاد بهم ربوع الأمة بحثًا وتفتيشًا ومراقبة إلى آخره ، وكان أيضًا يستخدم المواجهة المباشرة .

استعانَ عمر بمواسم الحج في معرفة أحوال الولايات ؛ وذلك بأن يأمر عماله أن يوافقوه في موسم الحج ؛ ليوضح كل منهم الموقف في ولايته أمام عمر ، وأمام جمهور المسلمين .

الوقوف على رأي الرعية : لم يكتفِ عمر في متابعة أخبار الولايات والولاية بالتفتيش ، والتحقيق في الشكاوى التي ترد إليه ، وإنما لجأ لوسائل أخرى ومن ذلك أنه نظم البريد وفق ديوان خاص به ، وعين لكل ولاية عاملًا لتوصيل رسائل عمر وإيصال رسائل الناس إلى عمر < وأمر عمر < رجل البريد أن ينادي في الناس قبل العودة إلى المدينة المنورة أن يطلب من كل من يريد إرسال رسالة لعمر ليحملها معه ، وكان صاحب البريد يأخذ الرسالة مغلقة لا يفتحها إلا عند عمر ، وكان عمر يقرؤها ، ويحيط بمحتواها ويقرر فيها ما يرى .

الزيارات المفاجئة : اعتمد عمر < على نفسه في معرفة أحوال الولاية والولايات خوفًا من حدوث أمر يمنع الناس من رفع شكاياتهم أو وقوع لبس وتدليس في الحصول على المعلومات ؛ لذا كان عمر يقوم بنفسه ، ويتحرك لمعرفة أحوال الناس من غير أن يشعر به أحد ، كان يتعسس بالليل على أحوال الناس في المدينة المنورة في ستر وخفاء ويسارع إلى إيصال الحقوق لأصحابها بنفسه . وقل مثل ذلك في النظام القضائي في خلافة عمر < حيث إن مصادر الأحكام في قضاء عمر < ومنهج القضاة في الحكم بين المتخاصمين ومبادئ العدل في قضاء عمر ، صفات القاضي في عهد عمر ، استقلال القضاء في عهد عمر ، أهم قضاة عمر ، ركائز دعوية في التنظيم القضائي لعمر < .

من أساليب سيدنا عمر بن الخطاب < ومن كلماته: "الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخواناً متحابين؛ فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها؛ فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم، وإياكم والعمل بالمعاصي وكفر النعمة، فقلماً كفر قوم بنعمة، ولم ينزعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم وسلط عليهم عدوهم. أيها الناس إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها، وأظهر فلجها ونصرها وشرفها، فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه؛ جعلنا الله وإياكم من الشاكرين".

خطبة عمر < عام الرمادة:

الخطبة في نفسها وسيلة من وسائل الدعوة لكن الكلام من أساليب الدعوة حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قال: "أيها الناس استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إنا نتقرب إليك بعم نبيك وبقية آبائه، وكبار رجاله؛ فإنك تقول وقولك الحق: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١٨٢] فحفظتهما لصالح أبيهما؛ فاحفظ اللهم نبيك في عمه اللهم اغفر لنا إنك كنت غفاراً، اللهم أنت الراعي لا تهمل الضالة، ولا تدع الكسيرة بمضيعة، اللهم قد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون" فما برحوا حتى علقوا الحذاء وقلصوا المآزر، وطفق الناس بالعباس، يقولون: هنيئاً لك يا ساقى الحرمين.

تاريخ الدعوة والدعاة

وهناك جوانب فنية في كتب وخطب الخلفاء الراشدين { وفيهم سيدنا عمر أيضاً، وتتضمن كتبهم وخطبهم ما يلي:

١. **الإيجاز:** تتصف خطب عمر < بالإيجاز والقصر مع أنها تتناول موضوعات هامة يحتاجها من قبلت بينهم، ويبدو أن مقتضى الحال هو الذي أدى إلى هذا الإيجاز؛ فأعمال الخلافة، ومسئوليات الجهاد، وشدة الحركة بين المسلمين اقتضت هذا الإيجاز المناسب لأحوال الناس وظروفهم.

٢. **وحدة موضوع الخطبة:** التزمت الخطبة العمرية بموضوع واحد وذلك أمر مكنها من توضيح مرادها، وتفهم المستمع مقصودها، وذلك أمر مفيد في فنية الدعوة؛ لأن تعدد الموضوع في الخطبة الواحدة يشتت ذهن المستمع ويضيع مفهوم الأدلة، وتعدد الموضوع ينسي كل منها غيره.

٣. **الصدق في الخطاب:** ظهر صدق عمر في كل خطبه مع الله، ومع نفسه، ومع الناس؛ فهو يخاطبهم، ويخاطب نفسه، ويعمم النصيح والتحذير وحينما كان يهدد المخالف جعل تهديده لعامة المسلمين وخاصتهم.

٤. **البيان البليغ:** أورد عمر في خطبه صور البيان التي تؤثر في المستمع فبشر وأنذر، وبين عوامل النصر، وأسباب الهزيمة، وشرح ضرورة المشاركة في السراء والضراء، ونادى بضرورة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر وشكر النعم، والاهتمام بالقرآن الكريم، وهذا هو المنهج، وحافظت الخطبة على صورتها العملية، فلها مقدمة، وموضوع، وخاتمة كل ذلك في أسلوب بليغ، وترتيب منسق.

إيجابية الخطب: شخصية عمر < الإيمانية بارزة في كل خطبه، فهو متيقن بكل ما يقول مخلص له، ولذلك كان تأثيره؛ لأن ما خرج من القلب يصل إلى القلب

وكان الولاية والعلماء على شاكلة أمير المؤمنين في الدعوة إلى الله ، وبذلك وصل الإسلام واضحاً إلى كل مكان وصل إليه المسلمون سواء كانوا جنوداً أو تجاراً أو سائحين ، أو طلاب علم الأمر الذي أدى إلى تبليغ الإسلام على وجهه الصحيح ، وانتشاره في العالم كله ، وكما قام عمر بالدعوة الصادقة كان اقتناع المسلم بدينه ، وتيقنه بأنه الحق ، وبهذا يرضى بإسلامه ، ويسعد بهدايته ، فقد نجا بذلك من ضلال الدنيا ، وشقاء الآخرة .

ركائز الدعوة في تنظيم عمر لمؤسسات الخلافة : نهضت دولة الخلافة وقامت عالية في نظمها ومؤسساتها ، وقدمت للدنيا مثلاً يحتذى حيث كانت قيادة الدولة واحدة تقيم في عاصمتها الكبرى المدينة المنورة ، وكانت الأقاليم ولايات يتولى ولايتها ولاية يعينهم الخليفة ، وكان الخليفة يعينهم ، ويراقبهم ، ويوجههم للعمل ، ويتابعهم بالنصح والتوجيه والمساءلة ، وصارت الفتوح ، وتحرك الجنود في إطار نظام متكامل ، أخذ عمر < من منهج الله ﷺ وأقام المؤسسات المتعددة ؛ لتنهض بحكم الناس وفق تعاليم الإسلام الحنيف . فمن ذلك شمول الإسلام لكافة النظم الإسلام جاء شاملاً لكل أنشطة الناس ، وبين رسول الله ﷺ في خطبة الصفا أن جميع أعمال الناس خاضعة للمشروعية الدينية ، وأن شمول المسؤولية يؤدي إلى عموم الجزاء ؛ ولذا قال ﷺ : ((ولتجزون بالسوء سوءاً وبالإحسان إحساناً)).

أهمية الجهاد في الحياة الإسلامية :

الجهاد فريضة شرعية واجبة ، واستمرار شرعيتها ضرورة حياتية ودينية في عالم لا يحترم إلا الأقوياء ، ويعجز فيه الضعفاء على الحصول على ما لهم من حقوق ، وفكرة الجهاد في مشروعيتها تقوم على ضرورة منع الظلم ، ورد العدوان ،

تاريخ الدعوة والدعاة

وضمن حرية الإنسان في القول، والحركة، والتفكير، وتحقيق الكرامة الإنسانية للناس أجمعين، وبالنظر في هذه الغايات المقصودة من تشريع الجهاد ندرك أنها حاجات إنسانية لاستقرار الأمن والأمان، إن الجهاد في الإسلام باقٍ إلى يوم القيامة لتحقيق ما يلي:

١. ضمان الحرية الإيجابية للإنسان بطريقة شاملة تضمن حرية القول وحرية العمل، وحرية التنقل، وحرية الاختيار، وبذلك يعيش الإنسان بفكره وذاته بلا إكراه، أو ضغوط.
٢. ضمان حرية الفكرة في الظهور لتوضع أمام العقلاء للنظر والتأمل؛ ليكون لهم موقف حر تجاهها.
٣. صيانة المصالح المادية للأفراد والجماعات حتى لا يستغلها الفاسدون لإحقاق الضرر بالإنسان، وإنما كان الجهاد هو الوسيلة المشروعة لتحقيق هذه الغايات؛ لأن الناس جميعاً يحتاجون إلى من يصدّهم عن الظلم والعدوان، ولو لم يوجد هذا المانع؛ لتحولت الحياة إلى فوضى لا تعرف الحق، ولا تحقق مصلحة، ولا تصل إلى صواب.

وحدة الأمة لتحقيق غايات واحدة، أراد الله للأمة الإسلامية أن تكون واحدة فوضع عوامل التوحد، وحدد مناهجه، وعرف بالآثار العظيمة المترتبة على هذا التوحد على الجميع في الدنيا والآخرة، ولم يكن واحد من هذه الجوانب خافياً على الناس، فهو يعيش الواقع، ويربط الحدث بالفكرة، ويصنع التواصل بين المنطق والغاية في بيان سهل، وتسلسل إيجابي. فعوامل الوحدة يعرفها الإنسان حين يعيش مع نشأته الأولى، ويرى تشابه الخلقة والتكوين، ويلمس تفرده مع أفراد جنسه بمزايا ليست لأحد من مخلوقات الله تعالى، وأبو البشر واحد هو آدم #

الذي تناسل منه الناس أجمعون، ويشترك الناس جميعاً في صفات واحدة:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَعَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولقد توسعت الإمبراطورية الفارسية، واستولت على كثير من الأقاليم المجاورة، وحولتها إلى أقاليم خاضعة لسيطرتها، وكان توسعها الأوسع جهة الغرب حيث عرب سواد العراق، والجزيرة الفراتية، وقامت بتدعيم هذه الجهة؛ لتجعل منها جبهة قوية لمقاومة الرومان الذين يتربصون بالإمبراطورية الفارسية في كل مكان وصلوا إليه، وضمنوا أنهم بعرب سواد العراق يواجهون عدوهم بجنود من العرب، ويجعلون المعارك تقع بعيداً عنهم. وكان للترابط الإنساني بين شرق جزيرة العرب، وجنود العراق أن نصارى تغلب كانوا عيوناً للفرس يعادون الإسلام، وهم يعيشون بين المسلمين، ولما وقعت حروب الردة ظهرت عداوتهم بعد تعاونهم مع سجاح وغيرها من المرتدين؛ ولذلك أجلى عمر < من بقي منهم على نصرانيته إلى بلاد فارس حتى لا يبقى دينان في جزيرة العرب، وكان تعاونهم مع الفرس سبباً لبدء أبي بكر < فتوحاته ببلاد العراق التابعة للفرس.

وانتقل أبو بكر < إلى ربه وقد توسعت الفتوح في بلاد العراق والشام، ولم يخرج بها < عن بلاد العرب في الشمال إذ انحصرت فتوحات أبي بكر في غرب سواد العراق، وجنوب بلاد الشام وجاء عمر فتابع مسيرة الجهاد، وكثرت الفتوح، وتوسعت الدولة الإسلامية فشملت الإمبراطورية الفارسية كلها، وأغلب الولايات الرومانية.

وفي فتح العراق معارك كثيرة، وفتح أقاليم كثيرة، نأخذ منها في عجلة معركة النمارق، النمارق موضع بأرض العراق قرب الكوفة، تقع أسفل إقليم كسكر بين الحيرة والقادسية، شهدت أول فتح لعمر بن الخطاب < تولى قيادة المسلمين في النمارق أبو عبيدة بن الجراح يعاونه المثني بن حارثة < وقد جاءه من المدينة المنورة مدد بلغ خمسة آلاف مجاهد، كما أمده العرب، وأهل البادية بمدد كثيف وتجمع جيش المسلمين في خفان بجوار النمارق حتى لا يقطع الفرس عليه طريق الرجوع. وأما الفرس: فقد أرادوها موقعة حاسمة، وسريعة، بهزيمة المسلمين وإخافة القائد الجديد أبي عبيدة؛ فعينوا على الجيش رجلهم المشهور رستم الذي أرسل إلى حكام ولايات سواد العراق، وطلب منهم أن يهيجوا الناس، وتواجه الجيشان، واقتتلا قتالاً شديداً حتى انهزم الفرس، وأسر جابان ومردان شاه، والكلام في فتوحات سيدنا أبي بكر وفتوحات سيدنا عمر وسائر الخلفاء الراشدين يحتاج إلى وقت كثير.

الدعوة الإسلامية في العصر الأموي

عناصر الدرس

- العصر الأول : أبرز معالم الدعوة في العصر الأموي، وأهم مناهجها وأساليبها ٣٤٣
- العصر الثاني : يزيد بن معاوية من (٦٠ : ٥٦٣هـ) إلى عبد الملك بن مروان ٣٥٠
- العصر الثالث : الوليد بن عبد الملك (٨٦ : ٩٦ هـ) وعصر الفتوحات ٣٥٧

أبرز معالم الدعوة في العصر الأموي، وأهم مناهجها وأساليبها

هناك خطوط رئيسة كما تعودنا نأخذ بعض العناوين الهامة مثل معاوية مؤسس الخلافة الأموية حصار القسطنطينية الأول. فتح إفريقيا توريث يزيد الخلافة وقوع الفتنة الثانية مقتل الحسين < فتنة ابن الزبير معاوية بن يزيد والنزاع بين اليمنية والقيسية مروان ووقعة مرج راهط تولية عبد الملك عصبية اليمنية والقيسية فتنة عمرو بن سعيد الأشدق فتنة المختار إخماد فتنة بن الزبير إخماد فتنة الخوارج إخماد فتنة ابن الأشعث التعريب العودة إلى حرب الروم فتح المغرب تولية الوليد العمائر الأموية حرب الروم فتح بلاد الأندلس فتح بلاد ما وراء النهر فتح بلاد السند تولية سليمان حصار القسطنطينية الثاني فتح بلاد بحر قزوين تولية عمر بن عبد العزيز < إسلام الشعوب المفتوحة سياسته الخارجية، تولية يزيد بن عبد الملك سياسته تولية هشام ثورة الولايات تفاقم الخطر الخارجي.

الخلافة الأموية (٤١ : ١٣٢ هـ) = (٦٦١ : ٧٥٠ م):

الخلفاء الأمويون - السنوات الهجرية:

معاوية بن أبي سفيان < سنة ٤١ هجرية.

- يزيد الأول ٦٠ هـ.

- معاوية الثاني ٦٤ هـ.

- مروان بن الحكم ٦٤ هـ.

- عبد الملك بن مروان ٦٥ هـ.

- الوليد بن عبد الملك ٨٦ هـ.
- سليمان ٩٦ هـ.
- عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ.
- يزيد الثاني ١٠١ هـ.
- هشام ١٠٥ هـ.
- الوليد الثاني ١٢٥ هـ.
- يزيد الثالث ١٢٦ هـ.
- إبراهيم ١٢٦ هـ.
- مروان الثاني من ١٢٧ : ١٣٢ هـ.

معاوية بن أبي سفيان (٤٠ : ٦٠ هـ)، (٦٦٠ : ٦٨٠ م):

يرجع نسب معاوية بن أبي سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد في مكة قبل البعثة بخمس سنوات، وأسلم يوم فتح مكة، هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند وله من العمر ثلاث وعشرون سنة.

انتقال الخلافة إلى معاوية:

كان معاوية أطول الحكام المسلمين عهداً، فقد قضى في ولاية الشام نحو خمس وعشرين سنة، تمكن أثناءها بسياسته، ودهائه من أن يجتذب قلوب أهل الشام، ويجعلهم طوع أمره وظل الشاميون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهد بني أمية

لم يستقم الأمر لمعاوية على أثر مقتل علي بن أبي طالب مباشرة، فقد ظل العراق يقاومه عدة شهور وبايع الحسن بن علي ولكن الحسن خاف غدر أهل العراق كما أنه أحس بضعفه أمام جيوش معاوية فأظهر استعداداً للنزول عن الخلافة لمعاوية؛ حقناً لدماء المسلمين، بعد أن تبين له أنه قد أصبح لا قبل له بمقاومة معاوية وجنده؛ على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين، يولون عليهم من أحبوا، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كافة.

وقيل: إن الحسن اشترط على معاوية أن تكون الخلافة بعده للحسين وفي اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة تسع وأربعين هجرية دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين { وأصبح معاوية خليفة للمسلمين، وقد حرص معاوية منذ ولي الخلافة على مزج القبائل العربية التي وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد، وبذلك استطاع أن يكون آمناً في ملكه، كما وجه اهتمامه إلى تقريب الرجال الأكفاء إليه، وتقليدهم المناصب الكبرى في الدولة العربية.

أشهر الولاة في خلافة معاوية:

من الدهاة الذين استعان بهم سيدنا معاوية في الحكم سيدنا عمرو بن العاص الذي ولاه مصر، ومن سيرة عمرو < تبين أنه من الرجال الذين أثروا في الحوادث تأثيراً عظيماً، ويكفيه فخراً بلاؤه في الفتوح الإسلامية الكبرى وإصلاحاته الهائلة في مصر، ويسترعي النظر كذلك في عهد معاوية شخصية المغيرة بن شعبة، والي معاوية على الكوفة سنة ٤١ هجرية وكان من الطائفة من قبيلة ثقيف، وله ماضٍ حافل بالأعمال الجليلة في خدمة الإسلام.

ناربخ الدعوة والدعاة

فقد اشترك في فتوح فارس ، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وفي سنة ٢١ هجرية ولاه عمر على الكوفة ، وفي الفتنة التي قامت في خلافة عثمان بن عفان اعتزل الفريقين ، وفي عهد معاوية ظهر زياد بن أبيه ، وكان والياً على فارس من قبل علي بن أبي طالب < فلما قُتِلَ علي اعتصم زياد بولايته ، فبعث معاوية إليه المغيرة ليستميله إلى جانبه وقد استطاع المغيرة أن يثنيه عن رأيه ، وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان فسار إليه ، وسلمه ما بقي عنده من أموال فارس . واستلحقه معاوية بن أبي سفيان < فاعترف بأخوته ، كما اعترف أبوه من قبل ببنوته ، وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين > لهذا يقال له : زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية وزياد بن أبيه ؛ لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان ، ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع ما في هذا الأمر من العار والخزي ، إنما كان ذلك سياسة من معاوية < .

وقد امتاز زياد منذ نشأته بنشاطه وحزمه ، فأظهر كفاية في العمل الذي أسند إليه في الفتوح العربية ، كحاسب للغنائم ؛ مما جعل عمر بن الخطاب يثني عليه ، ويتوقع له مستقبلاً زاهراً ، وولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هجرية حيث خطب فيها خطبته البتراء المشهورة سميت بالبتراء ؛ لأنه لم يبدأها بالبسملة أو الدعاء ولما توفي المغيرة بن شعبة ضم معاوية ولاية الكوفة إلى زياد.

تولية العهد ليزيد :

أعجب معاوية بما شاهده من نظام وراثة الملك عند القياصرة والرومان ففكر في نقل هذا النظام إلى الدولة العربية بعد أن رأى أن العامل الأساسي الذي أدى إلى تفرق كلمة المسلمين ، إنما هو المنافسة على الحكم فكر معاوية في ذلك ، وما لبث

أن هداه تفكيره إلى أن تلافي المنازعات على الخلافة لا يتم إلا بتولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده، كانت هذه الخطوة التي خطاها معاوية طيعية؛ فقد تبين له ما نجم من الويلات، والفتن والشُرور من نظام الخلافة المتبع عند وفاة كل خليفة فرأى أن يعهد بالأمر في حياته لابنه، ولا يترك الأمر لجماعة من المسلمين حتى لا يتفرقوا، ولا ينقسموا، ولكن كان يحسن أن لا يختار ابنه، كما فعل أبو بكر الذي عدل عن أولاده إلى عمر، أو يحدو حدو عمر حين رشح للخلافة ستة من كبار الصحابة ليختار منهم المسلمون من أحبوا، ولم يكن من بينهم ابنه.

الفتوح الإسلامية في عهد سيدنا معاوية < :

يمتاز عهد سيدنا معاوية لا بالتطور السياسي فحسب، بل إن همة المسلمين اتجهت أيضاً إلى الفتح، فقد اتسعت الدولة الإسلامية في عهد معاوية شرقاً وغرباً ففي الشرق قام ولاته على خراسان بفتح هارات وخوارزم، كما استولوا على بعض بلاد الهند والسند، بل وعبروا نهر جيحون، وهاجموا بخارى، وسمرقند، وفي الغرب سار عقبة بن نافع من برقة، واستولى على إفريقيا من الرومان، وأسلم على يديه كثير من البربر. وقد عمل العرب على إدخالهم في جيوشهم هذه وسائل للدعوة كما نعلم.

وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام، وبنى عقبة على أثر انتصاره مدينة القيروان، وأقام بها مسجد الجامع، ولم يكتف عقبة بذلك، بل سار سنة ٥٥ هجرية حتى وصل إلى المحيط الأطلسي، ولم ترهبه هجمات الرومان على جيوشه عند تقدمه، ولم يلبث عقبة أن عزل وولي مكانه أبو المهاجر، مولى مسلمة بن مخلد الذي ولاه معاوية مصر وإفريقيا، وبلغ أسطول الشام في عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة، فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس، وبعض الجزر اليونانية.

ناربخ الدعوة والدعاة

اتجه معاوية ناحية الشمال حيث الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها، ولذلك رتب معاوية أمر غزوها برًا وبحرًا عن طريق الأسطول في البحر، كما رتب ما عرف باسم الشواتي والصوائف وفي سنة ٤٧ هجرية سار فضالة الأنصاري على رأس جيش كبير، ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية، وحاصر الجيش القسطنطية نفسها سنة ٤٨ هجرية، وهو الحصار الأول في خلافة معاوية. وقد بذل القائدان العربيان فضالة، ويزيد جهودًا جبارة ضد المدينة العظيمة، ولكنها فشلت؛ بسبب مناعة حصون المدينة، ودفاع قسطنطين الرابع، ولم يكن هذا الحصار للقسطنطينية هو الوحيد الذي حدث أيام معاوية، بل إن الأسطول الإسلامي حاصر المدينة سبع سنوات ما بين سنتي ٥٤ هجرية و ٦٠ هجرية.

وقاست القسطنطينية كثيرًا من جراء هذا الحصار، ولكنها نجت منه في النهاية؛ بفضل النار اليونانية التي كانت تشتعل حتى على سطح الماء، وأخيرًا عادت قوات المسلمين البحرية من البسفور بعد أن فشلت في فتح القسطنطينية.

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة:

كانت الأمة الإسلامية حتى ولي معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب، أتباع بني أمية، وشيعة علي، والخوارج، وهم أعداء الفريقين، وكانت بلاد المشرق العراق، وفارس مركزًا لنشاط الخوارج الذين كانوا يثورون كلما أمكنتهم الفرصة، وقد قويت شوكتهم منذ قيام الدولة الأموية، فواجه معاوية بن أبي سفيان معارضة قوية منهم، وعملوا على مناوأة سلطته في كل من الكوفة والبصرة، كما كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفارًا، وأن دماءهم وأموالهم حلال؛ ولذلك كان لا بد أن يتبع معاوية معهم طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم، ويحول دون ما

يلقونه من بذور التفرقة التي كادت تودي بالامة الإسلامية فهذا أسلوب من أساليب الدعوة أيضاً.

ولما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هجرية عول الخوارج على قتاله، وكان على رأسهم ورقة بن نوفل الأشجعي الذي اعتزل علياً في خمسمائة من الخوارج في شهرزور. شهرزور إقليم واسع في بلاد الجبال من أربيل وهمدان، وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس، والشدة فأرسل معاوية إليهم جيشين من أهل الشام، ولكنه هُزِمَ على يد الخوارج؛ مما دعاه إلى أن يخاطب أهل الكوفة قائلاً: "لا أمان لكم، والله عندي حتى تكفوا بوائقكم. البوائق هي الأمر المهلك فخرج أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم: ويلكم ما تبغون، أليس معاوية عدونا وعدوكم؟ دعونا نقاتله؛ فإن أصبناه كنا قد كفيناكم، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا. فأبى أهل الكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم".

وقام من بعدهم جماعة بزعامه حيان بن ظبيان، ودخلوا الكوفة في عهد واليها المغيرة بن شعبة بعد أن خطبهم حيان خطبة حماسية، واتفقوا على مناوأة الخوارج في غرة شعبان سنة ٤٣ هجرية، ولما علم المغيرة بأمرهم قبض على جماعة منهم ومن بينهم حيان، وأودعهم السجن، وضيق على الباقين الخناق حتى غادروا الكوفة، ثم سير ضدهم جيشاً من الشيعة يربوا على ثلاثة آلاف من كبارهم؛ ففضى عليهم قضاء تاماً.

وقد ضعفت شوكة الخوارج بفضل ما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة في معاملتهم، ولم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق، يعني: أساليب الدعوة نفسها تتطور حسب العصور، فإذا كان أسلوب الدعوة يقتضي ما فعله زياد مع الخوارج ومع غيرهم؛ فأساليب الدعوة نفسها تتطور بتطور العصور، ولما ولي عبيد الله بن زياد بن أبيه البصرة تحركوا سنة ٥٨ هجرية إذ ظنوه عيناً، ولكنه ما

تاريخ الدعوة والدعاة

لبث أن شتتهم، وقتل منهم كثيرين، ولكن مقاومة الشيعة لم تكلف معاوية عناء كبيراً كالخوارج، وقد خمدت روح التشيع في نفوس أهل الكوفة، وانضوا تحت لواء معاوية الذي أصبح صاحب السلطان المطلق على أثر نزول الحسن بن علي له عن الخلافة ومغادرته الكوفة وتوفي معاوية في رجب سنة ٦٠ هجرية وقبره في دمشق < .

يزيد بن معاوية من (٦٠: ٦٣ هـ) إلى عبد الملك بن مروان

يزيد بن معاوية من ٦٠ إلى ٦٢ هجرية:

اعتلى يزيد عرش الخلافة في دمشق بعد وفاة أبيه معاوية < .

معاوية الثاني ٦٣ هجرية تساوي ٦٨٠ ميلادية:

بوفاة يزيد انتقل الملك إلى ابنه معاوية المعروف باسم معاوية الثاني، وكانت سبته؛ إذ ذاك ثمانية عشر عاماً، ولم يزد عهده في الخلافة على أربعين يوماً.
مروان بن الحكم من ٦٤ إلى ٦٥.

عبد الملك بن مروان من ٦٥ إلى ٨٦ هجرية:

ولد عبد الملك بن مروان في المدينة سنة ٣٦ هجرية في خلافة عثمان بن عفان، ويجمع نسبه من جهة أبيه، وأمه في أبي العاص، وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية اتصف بالشهامة، وعرف بالتدين، فقد حفظ القرآن الكريم على عثمان بن عفان، وسمع الحديث من أبي هريرة، وجابر بن عبد الله وغيرهما من أصحاب رسول الله ﷺ.

الصعوبات التي واجهته :

١. ظهور التوابين :

وقد عمل عبد الملك منذ توليته أمر الخلافة على توطيد سلطان الأمويين في الدولة العربية، فبدأ بإرسال الإمدادات الوفيرة إلى عبيد الله بن زياد، والي الكوفة؛ ليتمكن بها من القضاء على نفوذ الشيعة الذين كانوا قد اجتمعوا في الكوفة قبل وفاة مروان بن الحكم، ونادوا بضرورة العمل على أخذ ثأر الحسين، وأطلقوا على أنفسهم اسم التوابين، وأمروا عليهم رجلاً اسمه سليمان بن صرد وانضم إلى تلك الطائفة عددٌ وافر من الناس حتى بلغ عددهم أربعة آلاف واجتمع التوابون، وساروا حتى وصلوا إلى عين الورد سنة ٦٥ هجرية حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذي أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق، ثم أمره عبد الملك بن مروان عليها، ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن، ولما تلاقى الجيشان حلت الهزيمة بالشيعة بعد أن أبلوا بلاءً حسناً، وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم.

وقد أدت تلك الواقعة إلى نفس النتيجة التي انتهت إليها واقعة كربلاء لا تزال أساليب الدولة الأموية القمع لكل متمرّد ولكل ثائر، ولكل فكر غير مستقيم.

٢. ثورة المختار :

ولم يكد عبيد الله بن زياد يفرغ من التوابين حتى فوجئ سنة ٦٦ هجرية بظهور المختار بن أبي عبيد الثقفي أحد قواد الجيوش الإسلامية في العراق زمن عمر إذ إنه لما اضطربت أحوال الدولة العربية بعد مقتل علي أراد المختار أن يستعيد نفوذه؛ فاتصل بالحسن بن علي بن أبي طالب فلما تخلّى الحسن عن حقه في

نارخ الدعوة والدعاة

الخلافة لمعاوية اتصل بالحسین وبعد مقتل الحسین اتصل بابن الزبیر، ولكن ابن الزبیر كان قليل الثقة به لما أبدأه من التقلب فقد كان من الأمویین، ثم أصبح من أصحاب ابن الزبیر ولكنه ما لبث أن سجن في الكوفة؛ لأن واليها أساء الظن به إلا أن المختار أعمل الحيلة واستمال إليه الشيعة، وادعى أنه مرسل من قبل محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية للأخذ بثأر الحسین.

وبعد إطلاق سراحه استمال أيضاً فريق الموالي الذين كانوا بالكوفة، وكون جيشاً من العرب والموالي، وقاد حركةً عدائيةً ضد والي الكوفة، واستولى فعلاً عليها، وأخذ يعد العدة لمحاربة عبيد الله بن زياد للانتقام منه؛ لأنه قاتل الحسین، ولأنه هو الذي سجنه حين كان يدعو للحسین في الكوفة وضره ضربةً أفقدته إحدى عينيه؛ وبذلك يمكن القول: إن ثورة المختار كانت لأسباب عامة وأسباب خاصة.

التقت قوات ابن زياد مع جيش المختار الذي كان يقوده إبراهيم بن الأشتر عند نهر الحازر أحد فروع دجلة، ودارت الدائرة على ابن زياد، وقتل في تلك الواقعة هو وكثير من أشرف أهل الشام، وكان عبد الملك قد سار في سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار في الكوفة، وبينما هو في طريقه أتاه في إحدى الليالي خبر مقتل عبيد الله بن زياد، وانهمز جنده، وبذلك تأرت الشيعة لنفسها من مقتل الحسین إلا أن تلك الواقعة على الرغم من أنها عدت انتصاراً لأتباع الحسین؛ فإنها لم تؤدِّ إلى ازدياد نفوذ المختار، أو تقوية سلطانه؛ فإن ابن الزبیر وابن الحنفية اللذان كان المختار يعلن أنه من أنصارهما، ومن أتباعهما، كانا سيئان الظن به، بل إن ابن الحنفية تبرأ منه حين علم بما يذيعه المختار من أن له نفوذاً علوياً، وبما ينشره من المبادئ الغربية.

كقوله: إن الله يجوز عليه البدء، أي: أن الله وَعَلَىٰ يقول قولاً، ثم يتبين له خطؤه في المستقبل فيعدل عنه ما يسمى عندهم بالبداء، وكقوله بمبدأ تناسخ الأرواح، وزعم: أن الملائكة تقاتلُ معه، وبأنه حصل على كرسي قديم لعلي بن أبي طالب، يجلس عليه؛ ليجتذب احترام الناس له.

وأمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بعد أن ولاه العراق بمقاتلة المختار فوقت بينهما بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ معركة كبيرة انتهت بهزيمة المختار وقتله، هو ونحو سبعة آلاف من أتباعه، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم المختارية، وهكذا اختفى المختار من عالم التاريخ دون أن يكون للحركة التي قادها من الموالي والعرب أية نتيجة، بل كل ما يمكن أن يقال عنه: إنه رجل قام بدور سياسي في التاريخ الإسلامي.

القضاء على فتن العراق:

ظل الحجاج في الحجاز حتى سنة ٧٥ هـ حين رأى عبد الملك أن ينتفع بشدته في العراق؛ حيث كانت الحالة في غاية الاضطراب؛ لوجود الخوارج الذين دانوا بالديمقراطية التامة؛ فكانت الخلافة عندهم حقاً لكل مسلم يتصف بالتقوى، والشجاعة، بصرف النظر عن كونه عربياً أو غير عربي قرشياً أو غير قرشي، وخرج الحجاج من الحجاز لا في جيش ضخم، بل اثني عشر ركباً، وقصد الكوفة، وصعد المنبر مثمناً، وحين ارتقى المنبر ازدرت العيون، وهم بعض القوم أن يرميه بالحصى فما لبث أن قام فألقمهم الحجارة من منطقه العنيف؛ فإنه لما تكاثرت الناس بالجامع كشف اللثام عن وجهه، وخطبهم خطبته المشهورة في الأدب والتاريخ، وكلها استهتار بأهل العراق وتوعد لهم؛ لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بني أمية.

وقد بدأها بقوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ❖ متى أضع العمامة تعرفوني
ولما انتهى الحجاج من خطبته لم يعترض عليه أحد ممن كان في المسجد ؛ فقد ارتاعوا ، وأسلموا له في الظاهر القياد ، ولما رأوا من تهديده بجني الثمار التي حان قطافها وهذه الخطبة تبين سياسة الشدة التي اعتزم الحجاج أن ينتهجها مع أهل العراق ، ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة انتقل إلى البصرة ، وسلك نفس السبيل الذي سلكه في الكوفة فخطبهم خطبة لا تختلف عن خطبته التي ألقاها في الكوفة.

القضاء على ثورات الخوارج :

من أهم الصعوبات التي اعترضت الخليفة عبد الملك الثورات التي قام بها الخوارج الأزارقة ، وكانوا قد اشتهروا بحملااتهم العنيفة ، وبمفاجأتهم الليلية لأعدائهم ، وولى عبد الملك لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، ولكنه استعمل الأناة ، ولم يتعجل أمر قتالهم ، وكان الحجاج إذ ذاك قد رحل من الكوفة بعد أن استخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة ، وسار إلى البصرة منذ وصوله إليها ابتدأت المعركة ضد الخوارج الأزارقة ، وزعيمهم الشاعر المشهور قطري بن الفجاءة ؛ إذ إن الحجاج كتب إلى المهلب يعنفه على تباطئه في قتالهم.

بدأت الحرب بين المهلب والأزارقة ، وفيها انهزم الأزارقة في واقعة "رام هرمز" وجلوا عن العراق ، ووالى المهلب زحفه حتى أجلاهم عن فارس أيضاً ، وكان الحجاج عقب جلاء الأزارقة عن الأقاليم التي كان لهم نفوذ فيها يرسل عمالاً لجباية الخراج.

وما لبث الخليفة عبد الملك أن ولى المهلب خراج فارس للإنفاق منه على قتال الأزارقة ، ويسر مهمة المهلب ما كان من أمر انقسام الأزارقة على أنفسهم ؛ فقد

كانوا في بادئ أمرهم فرقة واحدة، ثم انقسموا على أنفسهم؛ فالعرب التفوا حول قطري زعيم الأزارقة، والموالي خرجوا عليه وعرف زعيمهم باسم عبد ربه الكبير، وكان أنصار قطري من العرب لا يتجاوز عددهم ربع عدد الأزارقة وهنا وجد المهلب الفرصة سانحة فحارب الأزارقة، وحاصر بلدة "جيرفت" وكان فيها الخوارج من الفرس، واشتد حصار المهلب للمدينة، وهزم عبد ربه، وأصحابه؛ مما أدى إلى كسر شوكة الخوارج.

ولكن قطري زعيم الخوارج من العرب سار إلى طبرستان، فسير الحجاج جيشاً من أهل الشام بقيادة سفیان بن الأبرد الكلبی، وهزم قطري، وقتل أثناء فراره بعد أن ظل نحو عشرين عاماً زعيماً للأزارقة لقب خلالها بلقب أمير المؤمنين، ولم تجرِ نفعاً محاولات عبيدة بن هلال الذي خلف قطرياً في الزعامة، وحاصر بلدة "قومس" قد قضى عليه سفیان، كما قضى على قطري. وكان عبيدة آخر زعماء الأزارقة وبذلك قضى المهلب على الأزارقة وزعيمهم في واقعة جيرفت.

وبعد أن تم القضاء على الأزارقة قاتل الخوارج الصفرية، الخوارج الصفرية ظهوروا في العراق، ومن مبادئهم عدم التفرقة بين الكبار، وجعل كل كبيرة سبباً في الكفر نسب الخوارج الصفرية في بادئ الأمر إلى صالح بن مسرح، وخلفه في زعامتهم شبيب بن يزيد بن الشيباني قاتل الخوارج الصفرية الذين كان يتزعمهم شبيب، وأبلى الحجاج أحسن بلاء، ولم تفرهم شبيب في القتال، فقد دل على جرأة نادرة على كثرة أعدائه، وقلّة أتباعه، وحكم المنطقة التي أقاموا فيها في الجزيرة، ثم في سهل العراق لمدة ثلاث سنوات، وهزم جيوش الحجاج طوال هذه المدة الواحد تلو الآخر، وزحف شبيب حتى أصبح على أبواب الكوفة، ولكنه تراجع؛ لكثرة جند العدو، وما لبث أن هاجم الكوفة بعد أن رحل منها الحجاج إلى البصرة ودخلها.

تاريخ الدعوة والدعاة

وكانت غزالة زوجة شبيب تحارب معه وعلى أثر دخول شبيب الكوفة عاد إليها الحجاج مسرعاً، ولكن في الصباح خرج الحجاج؛ إذ رأى أن يتراجع دون قتال، وفي هذه المناسبة هجاه الشعراء بقولهم:

أسد عليّ وفي الحروب نعامه ❖ فتخاء تنفر من صغير الصافر
معنى فتخاء: شديدة الذعر والفرع ولكن القتال استؤنف بعد قليل بين الحجاج وشبيب، ووقعت بين الطرفين عدة معارك من أهمها: واقعة سوق حكمة عند الكوفة، وواقعة دجيل، وفيهما هزم شبيب وفر وغرق جزء من جيشه، وبموته سنة ٧٧ هـ انخط شأن الخوارج.

استرداد إفريقيا:

هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك كما كان يدور في إفريقيا؛ إذ إن البربر كانوا قد جمعوا جموعهم في مستهل خلافته، وهاجموا العرب في القيروان وكانوا قليلين فهزموهم وقتلوا معظمهم، كما قتلوا عقبه بن نافع والي إفريقيا، وسقطت القيروان في أيديهم، وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ولكن البربر، والرومان قضوا عليه، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان، استرد القيروان وقرطاجنة، وهزم الرومان والبربر، ومد النفوذ الإسلامي حتى شواطئ المحيط الأطلسي ولكن نهاية جهوده لم تكن موفقة؛ لأن البربر استجابوا لدعوة امرأة أطلق عليها لقب الكاهنة، وملكوها عليهم.

واضطروا الجيش إلى الانسحاب إلى برقة، ولقد ملكت الكاهنة خمس سنوات، وأخيراً أمد عبد الملك قائده حسان بن النعمان بمدد حربي سنة ٨٩ هـ فسار

الاسترداد شمالي إفريقيا، وفشلت الكاهنة في مقاومته وهزمت بعد أن خاضت موقعها إلى سفوح جبال أطلس، وقتلت في تلك المعركة، وبعد قتلها استطاع حسان أن يحكم إفريقيا، وأن ينشر السلام بين أهلها.

الوليد بن عبد الملك (٨٦ : ٩٦ هـ) وعصر الفتوحات

الوليد بن عبد الملك (٨٦ : ٩٦ هـ):

وكان عصره عصر التوسع والفتح؛ لأنه في السنوات العشر التي قضاها في الخلافة استؤنفت الفتوح الإسلامية التي وقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال الخلافة، وأضيفت إلى الدولة الإسلامية أقطار واسعة كان لها أعظم الأثر في نشر المدنية الإسلامية، والنفوذ العربي، وقامت الفتوح الجديدة، وتم في عهده فتح إقليم ما وراء النهر، وحوض نهر السند، وشمال إفريقيا، والأندلس، وقام بهذه الفتوح ثلاثة من القواد كان لهم فضل إتمامها، وهم قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم، وموسى بن نصير.

الفتوح في عهد الوليد:

إقليم ما وراء النهر: شرع المسلمون منذ عهد سيدنا عثمان بن عفان < في هذا الإقليم، فأرسلوا إليه عدة غزوات لم تؤدّ إلى نتيجة ما، وكان مقسماً إلى عدة وحدات سياسية، مثل: سمرقند، بخارى وعلى رأس كل منهما ملك من الترك، هم أشبه بمشايخ قبائل يحارب بعضهم بعضاً مما نفع المسلمين في غزوهم، ثم فتح هذا الإقليم على يد قتيبة بن مسلم، وكان الحجاج قد ولاه خراسان.

تاريخ الدعوة والدعاة

خرج قتيبة أولاً إلى بلخ، واحتلها سنة ٨٦ هـ ثم غزا "بيكند" سنة ٨٧ هـ ولكن أهلها انتهزوا فرصة غيابه في الصغد وغدروا بعامله وقتلوه، فاضطر إلى الرجوع إليهم وهزمهم، وغنم منهم مغانم كثيرة بعد أن فتح المدينة عنوة، وفي سنة ٨٨ هـ واصل فتوحاته؛ فكان النصر حليفه في بلاد كرمينية. كرمينية بلدة من نواحي الصغد بين سمرقند وبخارى.

وفي سنة ٨٩ هـ استولى على بخارى بعد عناء شديد واستخدم في جيشه كثيراً من أهلها، وفي سنة ٩٣ هـ استولى على خوارزم، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد، وبفتحها وطد مركزه في بلاد ما وراء النهر، وقرر مد حدود الدولة العربية في أواسط آسيا، وعبر نهر جيحون حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من بخارى، وخوارزم وغيرهم وفي العام التالي سار إلى فرغانة، وهو الإقليم المتاخم لبلاد تركستان، ومنها تابع السير حتى وصل خشنده على نهر سيحون، ولقي مقاومة، ولكنه انتصر انتصاراً باهراً.

وفي سنة ٩٥ هـ استولى على "خوقند" و"قشغر" ولم يكتفِ قتيبة بما أحرزه من انتصارات، وبما فتحه من بلاد ما وراء النهر بل مضى قدماً يتابع فتوحاته، وبينما هو في الطريق جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد، فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو، بل ظل في سيره حتى قرب من حدود الصين؛ وإذ ذاك أرسل إلى ملكها وفداً يعرض عليه شروط التسليم، وبعد مفاوضات طويلة اضطر ملك الصين إلى أن يقدم له الخضوع، ويدفع الجزية.

وهكذا أصبح هذا الإقليم كله تحت سلطان الدولة العربية، وسلك العرب في معاملة أهل هذا الإقليم نفس السبيل التي سلكوها في الأقاليم الأخرى التي فتحوها؛ فشجعوا أهلها على اعتناق الإسلام حتى اعتنقه كثير من الترك وتوضح

أهمية هذا الإقليم إذا علمنا أن كثيرين من علماء المسلمين من أمثال: البخاري والفارابي والحوارزمي، وغيرهم قد ظهوروا فيه.

إقليم السند:

فتح هذا الإقليم محمد بن القاسم من أقرباء الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان عاملاً على مكران عهد إليه الحجاج في غزو بلاد الهند لاعتداء بعض القبائل الهندية على العرب المقيمين هناك، فسار إليها سنة ٨٩ هـ وتمكن من فتح أهم بلدانها حتى بلغ نهر السند، وهناك التقى بملك السند حيث كان هو وجنوده يقاتلون على ظهور الفيلة، وانتهى القتال بهزيمة ملك السند وقتله، وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه حتى وصل إلى "المُلْتَان" في جنوب بلاد البنجاب، ودخلها، وكانت هذه البلاد وثنية، ثم عمَّ النفوذ الإسلامي بلاد الهند، وتاخمت تلك البلاد الدولة العربية ووجد بذلك اتصال بين البلدين مما كان له أثر كبير؛ فإن كثيراً من علوم العرب كالفلسفة والرياضيات نقلت من الهند، واقتبست عنها.

فتح شمال إفريقيا:

يعد موسى بن نصير بطل هذا الفتح، وكان هو ومولاه طارق بن زياد من البربر، ويرجع السبب في هذا إلى أن العرب عولوا بعد فتح مصر على تقوية حدودهم الغربية، والاستيلاء على بقية الساحل الإفريقي الشمالي؛ فخرج موسى بن نصير على رأس جيش قاصداً إفريقيا، فلما بلغها ضم إليه جيشاً آخر جعل على مقدمته طارق بن زياد، وقاتل موسى البربر، وبسط نفوذ الأمويين، ونشر الإسلام في أرجاء بلاد المغرب حتى بلغ طنجة، وهي قسبة تلك البلاد، وأم مدنها حاصرها حتى فتحها وأسلم أهلها، وقلد طارقاً ولايتها.

تاريخ الدعوة والدعاة

وقد لقي العرب في فتح تلك البلاد مشقات جسيمةً لم يلقوها في فتوحاتهم الأخرى؛ إذ إنها بلاد جبلية يقيم فيها البربر من قديم الزمان، وهو جنس إلف البداوة، ومنذ القدم يعيش كما تعيش قبائل العرب، محبباً للحروب، والغزو، شديد الثأر بالدوافع الدينية إلى حد تصديق الخرافات، والاعتقاد في الأوهام؛ ولذا لقي العرب في حروبهم معهم كثيراً من الصعاب لبسالتهم، ولمساعدة الدولة البيزنطية لهم، ومدّها إياهم بالجنود والمال لقتال العرب.

استمر موسى في قتاله في بلاد المغرب حتى بلغ شاطئ المحيط الأطلسي وقضى على نفوذ الدولة البيزنطية في تلك الجهات حتى مدينة سبتة، ولقد أتبع موسى هذا النصر الحربي بالنصر الديني؛ فقد أدخل البربر في الإسلام ونشر بينهم القراء يقرئونهم القرآن، وأصبحت المغرب منذ سنة ٩٠ هجرية خاضعة للدولة العربية، وهكذا أصبح موسى شخصية عظيمة، وذاعت شهرته في المغرب.

فتح الأندلس:

بعد أن استقر أمر المسلمين في بلاد المغرب، اتجهت أنظارهم إلى أسبانيا التي كان قد نزل بها الوندال في القرن الخامس الميلادي على أثر ضعف الدولة الرومانية، وسميت بذلك "وندلوسيا"، أي: بلاد الوندال وبعد ذلك نزل بها القوط الغربيون، وكان المسلمون يسمونها الأندلس، وكانت مساوئ الحكم القوطي في بلاد الأندلس مما سهل أمر فتح هذه البلاد أمام المسلمين؛ ذلك أن الطبقات الممتازة من الأشراف، ورجال الدين قد استأثرت في العهد القوطي بكل المزايا؛ فكانت معفاة من الضرائب، كما كانت تضع يدها على معظم الأراضي، بينما كان التجار مرهقين بالضرائب الفادحة، وكان الزراع من العبيد هم الذين يقع عليهم عبأ الحياة الثقيلة.

ولما ثار نبلاء القوط، والكهنة على الملك "أخيلا"، وولوا مكانه قائد الجيش القوطي رودريك. انقسم الجيش القوطي إلى فريقين فريق يشايح رودريك وآخر يعارضه، وكان على رأس هذا الفريق الأخير "أخيلا" الذي حاول استرداد عرشه المسلوب، وقد كان هذا الفريق قوياً وازداد قوة حين انضم إليه الأمير جوليان حاكم سبته الذي صد جيوش موسى بن نصير عنها.

وقد سنحت للعرب فرصة الإغارة على السواحل الأسبانية منتهزين فرصة استعانة الأمير جوليان بموسى بن نصير ضد الملك رودريك؛ وذلك لما كان يضمه له من العدا، واتصل جوليان بقوات العرب، وأخذ يعد لهم وسائل الإغارة على أسبانيا، والقضاء على رودريك، ووصف جوليان لموسى ما جمعت بلاد الأندلس من شتى المنافع، وهون عليه حال رجالها؛ وذلك عقب عام تسعين هجرية.

ورحب موسى بن نصير بدعوة جوليان، واستشار الخليفة الوليد الذي تردد أولاً، ثم سمح له بمحاربة رودريك على أن يتبع طريق الحيطنة، والحذر ويتأكد أن جوليان لا يريد التفرير بالمسلمين وقد أرسل موسى بن نصير طريف بن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ - ٧١٠ م فغزا بعض ثغور بلاد الأندلس الجنوبية بمساعدة جوليان، وعاد بالأسلاب والغنائم، وبعد ذلك سير موسى جيشاً كبيراً بلغ عدده سبعة آلاف معظمهم من البربر، بقيادة مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة سنة ٦٢ هـ وقد عبر هذا الجيش الخليج الفاصل بين إفريقيا، وبلاد الأندلس، ونزل في المكان الذي يسمى الآن جبل طارق، ثم سار في الولاية المجاورة وفر من قوات القوط التي اعترضته، واتجه شمالاً حيث انضم إليه خمسة آلاف مقاتل. ووصل إليه مدد من موسى بن نصير.

تاريخ الدعوة والدعاة

ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش رودريك، ولكن طارقاً خطبهم خطبته المشهورة وهذا من أساليب الدعوة: "أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللثام، قد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقادكم، ولم تنجزوا لكم أمراً؛ ذهب ربحكم - إلى أن قال - : واعلموا أنني أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسى على طاغية القوم لودزيق، فقاتله إن شاء الله".

والتقى الجيشان في منتصف رمضان سنة ٩٢ هـ وكان الملك رودريك على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل؛ وذلك على ضفاف نهر "جوادي" في أسبانيا، وانتصر جيش طارق على العدو انتصاراً باهراً، وفر رودريك، ولكنه غرق في مياه النهر، ويعزى هذا النجاح الذي أحرزه المسلمون في هذه المعركة إلى ما بذله جوليان من جهود.

نقول نحن: إلى تمسكهم بالمنهج الإسلامي الصحيح المنهج الدعوي الصحيح بالقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والاعتماد على الله والجهاد في سبيل الله، وأيضاً يعزى بعض الفضل إلى جوليان حين استمال كثيراً من جنود رودريك إليه؛ مما رجح كفة العرب، وفرق شمل جيش رودريك.

وقد قسم طارق بن زياد جيشه بعد ذلك إلى أربع فرق، وجه ثلاثة منها نحو: "مالقة وغرناطة وقرطبة" في حين سار هو بنفسه على رأس الفرقة الرابعة نحو طليطلة عاصمة القوط، واستولى عليها، وكان طارق قد أرسل المغيث بن الحارث على رأس سبع مائة فارس إلى قرطبة واستولى عليها كذلك.

سارت قوات موسى وطارق من طليطلة ففتحت أقاليم أرغونة وقشتالة وقطالونيا على الساحل الشرقي، واستولت على مدن مهمة منها سرقطة، وبرشلونة، وأصبحت أسبانيا كلها حتى جبال البرانس في أيدي المسلمين في أقل من سنتين، وذلك فيما عدا الأقاليم الجبلية في الشمال الغربي التي تسمى "جليقية" وقد التجأ إليها أشراف القوط وكبرائهم، وصمدوا ضد التوسع الإسلامي، وترك موسى أمر إخضاع جليقية إلى طارق، وعبر البرانس إلى فرنسا، وترك الجزء الجنوبي منها، ولكن الخليفة الوليد ما لبث أن دعاه إلى الكف عن التوسع؛ فعاد موسى إلى أسبانيا، وأخذ يوجه جهوده إلى إخضاع الجزء الشمالي الغربي منها، ودخل جليقية، واستولى على قلاعها، وأراد موسى متابعة الفتح والغزو، ولكن الوليد استدعاه في ذلك الوقت.

ورحل موسى بن نصير إلى دمشق سنة ٩٦ هـ بعد أن ولي ابنه عبد العزيز على الأندلس، كما ولي ابنه عبد الله إفريقية، وهكذا تم فتح أسبانيا فامتدت حدود الدولة، وازدهرت المدينة الإسلامية؛ لتأثرها بالحضارة الأندلسية الزاهية، وبذلك يعتبر عهد الوليد عهد التوسع، والفتح في الدولة الأموية.

الدعوة الإسلامية في العصر العباسي

عناصر الدرس

- العصر الأول : نشأة الدولة العباسية، وبداية حكم أبي العباس
السفاح ٣٦٧
- العصر الثاني : أبو جعفر المنصور (١٣٦ : ١٥٨ هـ)، والمهدي بن
المنصور ٣٧٥
- العصر الثالث : المهدي بن المهدي (١٦٩ : ١٧٠ هـ) وهارون
الرشيد، والمأمون ٣٨٥

نشأة الدولة العباسية، وبداية حكم أبي العباس السفاح

قامت الدولة العباسية عندما بويح بالكوفة لأول خلفائها أبي العباس عبد الله السفاح سنة ١٣٢ هـ، واستمرت إلى سنة ٦٥٦ هـ عندما أغار التتار على بغداد، وقتلوا آخر خلفائها أبا أحمد عبد الله المستعصم بالله؛ فكأنها عمرت ٥٢٤ سنة، واستخلف فيها ٣٧ خليفة.

عصور هذه الدولة:

وقد رأى بعض المؤرخين أن يقسم هذه الدولة إلى خمسة عصور، يتميز كل منها عن الآخر:

العصر الأول: عصر القوة والعمل، ويبدأ بقيام الدولة سنة ١٣٢ هـ، وينتهي سنة ٢٣٢ هـ وهي فترة مائة عام، كان الخلفاء فيها إذا استثنينا الأمين ذوي عقل راجح، وكلمة مسموعة، وكفاية سياسية وخلفاء هذا العصر تسع هم: السفاح، والمنصور والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق.

العصر الثاني: عصر نفوذ الأتراك من ٢٣٢ هـ إلى ٣٣٤ هـ:

وقد بدأت الدولة فيها تضمحل، وتفقد هيبتها، فاجتراً أمراء الأطراف على الاستقلال عنها، وأصبح قواد الترك يتصرفون في الدولة، كأنهم المسئولون عن كيانها يولون الخلفاء، ويعزلونهم، ويسملون أعينهم، ويعذبونهم. قام في هذا العصر من الخلفاء اثنا عشر، وهم: المتوكل، والمتنصر والمستعين، والمعتز،

تاريخ الدعوة والدعاة

والمهتدي، والمعتمد، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفي، والمقتدر، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي.

العصر الثالث: عصر نفوذ البويهيين من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ هـ:

وفيه استبد قوم من الفرس هم بنو بويه بالسلطان الفعلي، وصار الخليفة كأنه موظف عندهم، وتابع لهم، وخلفاء هذا العصر خمسة هم: المستكفي، والمطيع، والطائع، والقادر، والقائم.

العصر الرابع: عصر نفوذ الأتراك السلاجقة من ٤٤٧ إلى ٥٩٠ هـ:

وقد حل فيه نفوذ السلاجقة محل البويهيين في التصرف في شئون الدولة والهيمنة على مصائرهما. إلا أن الخلفاء في هذا الدور كانوا أحسن حالاً، وأكثر حرية منهم أيام البويهيين؛ وذلك لأن السلاجقة كانوا سنيين يحترمون الخلفاء. وأما البويهيون: فكانوا شيعياً لا يكونون للخلفاء أي احترام. وخلفاء هذه الفترة سبعة، هم: المقتدي والمستظهر، والمسترشد، والراشد، والمقتفي، والمستجد، والمستضيء.

العصر الخامس: من ٥٩٠ إلى ٦٥٦ هـ:

وفيه استرد الخلفاء شيئاً من استقلالهم في الحكم، وتدير شئون الدولة لخلو الميدان مؤقتاً من الطامعين فيهم، وقد أحسنوا السيرة، وساسوا الأمور بالعقل إلا آخرهم المستعصم؛ فقد كان خائر الهمة ضعيف العقل فلم يقو على الوقوف أمام التتار فصرعوه، وقضوا على الخلافة العباسية. وخلفاء هذا العصر أربعة هم: الناصر، والظاهر، والمستنصر، والمستعصم.

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين:

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد من ١٢٧ إلى ١٣٢ هـ آخر خلفاء الأمويين بدء سقوط الدولة الأموية وانهارها، والتمهيد لقيام الدولة العباسية. ففي ذلك العهد

شبت الثورات ضد الحكم الأموي في أنحاء الشام ودبت الفوضى في العراق، وكانت أعظم الفتن في العراق فتنة الخوارج بزعامة الضحاك بن قيس الذي سار إلى الموصل يسعى للوصول إلى الخلافة ورغم أنه قتل؛ فإن الدولة الأموية أصبحت قاب قوسين، أو أدنى من الانهيار، ولم يكد مروان ينتهي من قتال الخوارج حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين في خراسان التي تقع شرقي بلاد فارس، وساعد هؤلاء على الظهور فساد أحوال الشام والعراق، وانقسام القبائل اليمنية والمضرية على بعضها وتفكك الأسرة المالكة الأموية، وسوء علاقات أفرادها بعضهم مع بعض، وانتقلت الحالة من سيئ إلى أسوأ حين ولي أمور الدولة خلفاء من أصحاب السيرة السيئة، أدمنوا الشرب، وحكموا البلاد بالعسف والجبروت، وتصدعت أركان الدولة حين نزل خلفاؤها إلى مستوى التعصب الحزبي والقبلي، وعجزوا عن تيار صد الانقسام بين القبائل.

ولكن العامل الهام الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعفها في عصر مروان بشكل جلي ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب، وعداء الموالي لتلك الدولة، وقيامهم ضدها؛ لحرمانهم من الحقوق التي تمتع بها العرب؛ فأصبح الموالي بذلك في مستوى منحط، وبينما الحروب بين الموالي والأمويين على أشدها انتهز دعاة العباسيين ذلك الظرف، ونصروا الموالي، وصارت الحركة التي قام بها العباسيون لنيل الخلافة ما هي إلا حركة الموالي ضد العرب؛ لأن العباسيين اعتمدوا على الموالي باعتبارهم حزباً كبيراً ساخطاً على الحكم الأموي.

بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر منذ أن بدأ أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ أي: قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات ينشر الدعوة للعباسيين في خراسان، وتداعت الدولة حين عقد في الحجاز في أواخر العصر الأموي مؤتمر

تاريخ الدعوة والدعاة

ضم أقطاب آل هاشم من العلويين، والعباسيين وناقشوا فيه الوسائل التي تؤدي إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم، ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم؛ فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين، وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية، ولكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوي، بل أسندت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس. ولم يعدل العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم، وظلوا يناضلون، ويكافحون؛ ابتغاء الوصول إليها في غير طائل واضطهدهم العباسيون، كما اضطهدهم الأمويون من قبل.

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين في إقامة خلافة علوية راجعاً إلى جهود أبي مسلم الخراساني الذي وجد في الحالة السيئة التي كانت في خراسان فرصة سانحة فأذكى نيران الفتن ضد الأمويين، وكللت جهوده في هذا السبيل بالنجاح بمساعدة الموالي الذين تدفقوا من كل جانب على خراسان، وانضموا إلى دعاة العباسيين، والتف حول أبي مسلم مائة ألف من الموالي وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصار بني أمية النازلين في خراسان واستطاع أن يربط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان، وأن يستميل اليمينية أعداء الأمويين في ذلك الإقليم، وتمكن من الاستيلاء على مرو.

وتخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة، وقتلهم عن آخرهم، وذاع صيت أبي مسلم، وبعث نصر بن سيار الوالي الأموي في خراسان عدة رسائل متتابعة إلى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين مستغيثاً؛ فلم تأتة نجدة، وأخيراً هُزِم نصر وفر، ثم مات عند مرو. وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية في بادئ الأمر، ثم انتقلت إلى خراسان، وكونت

فيها جمعية سرية قوامها اثنا عشر رجلاً كان يطلق عليهم اسم النقباء ، وعدد أعضائها سبعون داعياً انتظم معظمهم في زي التجار ، وظلت الدعوة سرية حتى وقع في يد مروان بن محمد خطابٌ مرسل من إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس إلى أبي مسلم الخراساني يأمره فيه بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية في خراسان ؛ لأن وجود العرب في خراسان في نظره سواء كانوا مينية أو مضرية من شأنه أن يؤدي إلى فشل الدعوة العباسية.

ونصحه بالتنكيل بكل من يتهمه بالعمل ضد الدعوة العباسية ، وُزج إبراهيم الإمام في سجن حران شمال الشام ، وقتل مسموماً في النهاية. وتولى الدعوة للعباسيين من بعده أبو سلمة الخلال ، واتخذ الكوفة مركزاً لدعوته ؛ لأنها بلد شيعية ، وسار أبو العباس السفاح فيما بعد إلى الكوفة ومعه كبار بني هاشم من ولد العباس. ومن بينهم : أخوه أبو جعفر المنصور وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ومن كبار بني هاشم أيضاً عبد الله بن علي العباسي عم السفاح والمنصور وبعد سنتين هزم ابن هبيرة القائد الأموي بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط التي تقع بين مدينتي الكوفة والبصرة جنوبي العراق.

ونزل أبو سلمة في أوائل سنة ١٣٢ هـ بالكوفة ، وكان أبو العباس وأخوه ، أبو جعفر محتفين في هذه المدينة قبل ذلك بزمن يسير ، وقد هربا إليها بعد مقتل إبراهيم الإمام ، واهتم أبو سلمة بأمرهما ، وأبقاهما عدة أسابيع دون أن يكشف أمرهما ، ودون أن يبايع أحدهما بالخلافة ؛ مما أوجد الريبة في نفوس العباسيين ، وجعلهم يظنون أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى رجل من العلويين ولكن أشياع العباسيين أخرجوهما من محبتهما وبايعوا أبا العباس.

تاريخ الدعوة والدعاة

وفي أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق، وكان ارتفاعه يعني سقوط الدولة الأموية، وزوالها نهائياً، وانتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق، وتمكنت من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلو مدينة، ووجد مروان نفسه بجيوشه على نهر الزاب في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ، وكان جيشه منقسماً على نفسه في حين كان الموالي أعداؤه متحدين؛ فدارت الدائرة على مروان، وقد عهد أبو العباس إلى عمه عبد الله بن علي بمقاتلة الخليفة الأموي مروان بن محمد، فتبعه عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب بالصغير، وسار مروان منهزماً إلى الموصل، وعبر الفرات؛ فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن، ثم فر إلى مصر حيث تعقبته جنود العباسيين، وقضت عليه في بلدة بوصير من أعمال الفيوم، وأرسل رأسه إلى السفاح في الكوفة.

بذلك انتهى حكم الأمويين، وقامت على أنقاضهم دولة العباسيين التي حكمت العالم الإسلامي زهاء خمسة قرون، وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجالاً عظماء ما عدا الأمين؛ فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء في عظمتهم، ومقدرتهم السياسية. واعتبر العصر العباسي الأول وحدة منسجمة متناسقة إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية، بل سار الجميع على سياسة واحدة، وكانت الحوادث الكبرى التي وقعت في ذلك العصر تسير كلها في تيارات عامة كإسقاط العرب، وإيثار الفرس عليهم، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً، ونهضة العلم والأدب، وظهور حرية الفكر في البحث والجدل والمناظرة، وتقريب العلماء، والأدباء، والمغنين، والعناية بالفنون الجميلة كالعمارة، والشعر والموسيقى.

بدء ونهاية حكم العباسيين الأول:

السفاح ١٣٢ : ١٣٦ هـ، المنصور ١٣٦ : ١٥٨ هـ، المهدي ١٥٨ : ١٦٩ هـ، الهادي ١٦٩ : ١٧٠ هـ، الرشيد ١٧٠ : ١٩٣ هـ، الأمين ١٩٣ : ١٩٨ هـ، المأمون ١٩٨ : ٢١٨ هـ، المعتصم ٢١٨ : ٢٢٧ هـ، الواثق ٢٢٧ : ٢٣٢ هـ، أبو العباس السفاح ١٣٢ : ١٣٦ = ٧٥٠ : ٧٥٥ هـ

ماذا يقصد بلفظ السفاح؟:

اعتلى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين عرش الخلافة ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ، وخطب في صبيحة اليوم التالي لخلافته خطبة أشاد فيها بفضل آل محمد، وندد بالأمويين؛ لاغتصابهم الخلافة، ولما اقترفوه من آثام وذنوب، وأطنب في مدح أهل الكوفة، وزاد في أعطيائهم؛ لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس وختم خطبته بقوله: "أنا السفاح المبيح، والثائر المنيح".

قال السفاح: "زعمت السبئية الضلال: أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا فشاهت وجوههم بما ولم، أيها الناس وبنا هدى الله الناس بعد ضلالهم حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر، ومواساة في دينهم، ودنياهم، فتح الله ذلك منةً ومنحةً؛ لمحمد ﷺ فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم فعدلوا فيها، ثم وثب بنو حرب، ومروان فابتزوها، وتداولوها بينهم فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه أغضبوه؛ فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، ورد علينا حقنا، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المنيح".

هذا أسلوب من أساليب الدعوة استخدم الخطبة كوسيلة من وسائل الدعوة وعقب هذه العبارة البليغة التي ختم بها أبو العباس أول خطبة له في مسجد الكوفة؛ شاع لقب السفاح عن أبي العباس، ويظهر: أنه قصد من هذا اللفظ إشعار الحاضرين بأنه عول على سفك دماء كل من تحدته نفسه بالخروج عليه، والوقوف في سبيله وسبيل دولته، وأن يتوعد أيضاً الأمويين بالتنكيل بهم، وإزهاق أرواحهم، ولكن مما يسترعي النظر أن لفظ السفاح كان يطلق في الجاهلية على بعض شيوخ القبائل.

أما لفظ المبيح الذي ورد كذلك في ختام هذه الخطبة فقد يعني: الرجل الكثير العطايا وقصده من إثباته أن يبشر في الوقت نفسه من يقوم بنصرته بإغداق الأموال عليه، وهذا يدلنا على أنه لم يكن سفاحاً في كل أدوار حياته، فقد اتصف بالكرم والحلم، والعقل والوقار، والحياء، وطيبة الخلق، ولكن اعتلاء عرش الدولة العباسية في بدء قيامها، والأعداء يتربصون بها من كل جانب أوحى إليه أن ينتهج في إدارة الدولة خطة العنف والتهديد، وأن يتبع سياسة الوعد والوعيد.

اتخاذ الأنبار عاصمة:

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية، وظلت مقرراً للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش؛ فاتخذ الأنبار عاصمة لدولته، وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات في الشمال الشرقي للعراق على مسيرة ثمانية وستين كيلواً متراً من بغداد، وقيل: إن سابور الثاني من ملوك آل ساسان في فارس هو الذي اختطها، وأطلق العرب عليها الأنبار، وهي كلمة فارسية تعني: السوق أو مخزن الغلال، وأضحت هذه المدينة مقرراً للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن ١٣٢ إلى ١٤٥

هو واستقر المنصور الخليفة العباسي الثاني في الأنبار إلى أن أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ ٧٦٢ م. ومنذ ذلك الحين أخذت المدينة تقل أهميتها شيئاً فشيئاً، وفي سنة ١٣٥ هـ تساوي ٩٢٧ م استولى أبو طاهر زعيم القرامطة على الأنبار، وخربها فأصبحت كأن لم تغن بالأمس.

أبو جعفر المنصور (١٣٦: ١٥٨ هـ)، والمهدي بن المنصور

أبو جعفر المنصور (١٣٦ : ١٥٦ هـ):

تعتبر الفترة التي قضاها المنصور على عرش الخلافة من أهم عصور الخلافة العباسية، واستمرت نحواً من اثنتين وعشرين سنة توطدت فيها دعائم الدولة، وانصرفت إلى العناية بالشئون السلمية فشيدت مدينة بغداد، وبدأت الحركة الأدبية في العصر العباسي، وساد في عهد المنصور نظام الإدارة المركزية إذ كان المنصور يقيم في بغداد عاصمة ملكه، وأضفى على الخلافة ظلًا قدسيًا فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله هذا أسلوب من أساليب الدعوة عنده وركز جميع سلطات الدولة في يده، فلم يكن للوزير من الأمر شيء، وأصبح اختصاص الولاية على الأقاليم ضيقاً، ولم يعودوا ثابتين في مراكزهم حتى إنه لم يظهر طوال حكمه وال من طراز عمرو بن العاص، أو زياد بن أبيه، أو الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فكان المنصور ذا شخصية ممتازة، ووجه سياسته نحو المصلحة العامة والحرص على ما فيه تقدم العباسيين في الإدارة والحرب والثقافة والعلم.

النحل الدينية:

ظهرت في عهد المنصور العباسي عدة نحل دينية من أشهرها حركة الراوندية، والمعتقدات المستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التي نشرها الفرس، ودعا إليها

تاريخ الدعوة والدعاة

دعاة ظهوروا على أثر مقتل أبي مسلم الخراساني أمثال: سنباذ، وإسحاق، وأستاذ سيبس بدأ ظهور حركة الراوندية في قرية راوند قرب أصفهان، وقلدوا الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم، ويعتبرونهم آلهة ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم # قد حلت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم الرسول ﷺ.

وكانوا يعتقدون في تأليههم، ويستحلون ما حرم الله، وما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور، وصعدوا إلى الخضراء القبة التي بناها المنصور ببغداد فألقوا أنفسهم كأنهم يطرون، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح فأقبلوا يصيحون بأبي جعفر أنت أنت، أي: أنت الله؛ إلا أن المنصور عد ذلك خروجاً على الدين وحاربهم بنفسه وحاول القضاء عليهم على الرغم من تأليههم له، وحبس عدداً كبيراً منهم، ولكنهم تمكنوا من اقتحام السجون وإخراج من فيها، وحاولوا قتل أبي جعفر بعد ذلك إلا أنه نجا من الموت وهم يعدون أنفسهم من أتباع أبي مسلم الخراساني، وحاربهم العباسيون في عهد المنصور، وفي عهد من جاء بعده من الخلفاء وخاصة بعد أن أخذت الراوندية تتشكل في أشكال مختلفة، كالقنعية، والخرمية.

وظهرت كذلك على أثر مقتل أبي مسلم عدة نحل دينية؛ فإن سنباذ وإسحاق وأستاذ سيبس قد أعلنوا على التوالي أن أبا مسلم لم يقتل لأنه حين أراد المنصور قتله؛ ردد الاسم الأعظم، وتحول إلى حمامة، وطار وأعلن أنه سيعود ثانية، ويبين لنا ظهور هذه الآراء الدينية أن الفرس قد اتسع سلطانهم في دولة بني العباس؛ لأن الفرس يعتقدون في أن أبطالهم لا يموتون، ولكنهم يختفون فترة، ثم يعودون بعدها إلى الظهور وفي قدرة هؤلاء الأبطال على الطيران في الهواء حين

يشاءون، وأنهم حين عودتهم بعد غيبتهم يعمدون إلى إصلاح ما فسد. كما تجلّى في حركة أستاذ سيبس الذي رمى بها إلى ضرورة المساواة بين الناس وإقامة النظام الاجتماعي على أساس جديد حتى ادعى النبوة وقطع أصحابه الطرق، وارتكبوا كثيراً من الآثام، ولكن كان مصيره الاندحار وقتل كثير من أتباعه، وانتهت حركته بالفشل، كما انتهت حركة سبباز وثورة إسحاق التركي، وكما قضى على الراوندية.

لذلك يمكن القول: إنه كما ظهرت في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، وعصر الأمويين بعض المذاهب الدينية كالشيعة والخوارج وغيرهما؛ ظهرت كذلك في العصر العباسي نحل دينية ترجع إلى أصل فارسي قديم وكان ظهورها نتيجة غلبة العنصر العجمي على العنصر العربي، واصطبغت تلك النحل بصبغة دينية وسياسية معاً. أقول تعليقاً على هذا الكلام: إنه يدل على أن العباسيين في عصرهم الأول كانوا متمسكين بنهج السلف الصالح فكلما حاولت نحلة من هذه النحل المارقة أن تطفوا، أو تظهر على الساحة تجرد لها هؤلاء الخلفاء، وقمعوها في حينها، وانتصروا عليها وأبادوها.

تأسيس مدينة بغداد:

من الأعمال الخالدة التي يحرص الفاتحون على إتمامها تأسيس المدن وهذه وسيلة من الوسائل عندهم؛ لتتخذ عواصم للأقاليم المفتوحة والعناية بأمرها، وتوسيع نطاقها بمرور الزمن؛ لكي تضم دواوين الحكومة الجديدة، وبيوت أنصارها من القواد والجند والموظفين؛ ولتكون مقراً لأرباب الحرف والصناعات، وقد اتخذت المدينة، والكوفة، ودمشق، والأنبار عواصم للدولة الإسلامية حتى بنيت بغداد؛ فاتخذت عاصمة للعباسيين في بلاد العراق. بنى الخليفة العباسي المنصور

تاريخ الدعوة والدعاة

سنة ١٤٥ هـ مدينة بغداد، وبدأ مشروعه الضخم بالبحث عن موضع يصلح لإنشاء عاصمته الجديدة؛ فبعث رجالاً يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك؛ فدلوه على موضع قريب من مدينة بارما الواقعة جنوبي الموصل، وفي هذا المكان أقام المنصور يوماً وليلة؛ لتكوين رأي نهائي عنه وذلك في فصل الصيف؛ فأعجب بطيب هوائه، وجودة غذائه واستقر رأيه على أن يتخذ ذلك الموضع لبناء مدينته الجديدة.

ويقع في هذه الأراضي الخصيبة التي يرويها ماء الدجلة، والجداول التي تأخذ ماءها من الفرات، وهو مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته وتتوافر سبل المعيشة، وأمر الخليفة بضرب اللبن، وطبخ الآجر؛ استعداداً لبناء المدينة، ووضع المنصور أول لبنة بيده باسم الله، والحمد لله، والأرض لله، يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين ثم قال: "ابنوا على بركة الله". هذا أسلوب من أساليب الدعوة. واحتفل بوضع الحجر الأساسي احتفالاً شائفاً شهده الأمراء والوزراء والقواد، والأعيان، والعلماء ثم أخذ البناءون يبنون المدينة، وفي وسطها قصر الخليفة، والجامع، ومنازل أولاده وحرسه، ومنازل من يقوم بخدمتهم وقصور الأمراء، ورجال الدولة، ودواوين الحكومة، ودور الأهالي تتخللها الأسواق.

سياسة المنصور الخارجية:

بين العباسيين والبيزنطيين:

حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات الأولى في خلافة عثمان بن عفان، والثانية في عهد معاوية بن أبي سفيان، والثالثة في عهد سليمان بن عبد

الملك، وتحولت الحرب النظامية بين الأمويين، والبيزنطيين إلى غارات تخريب، وتدمير في عهد العباسيين، وانتهم البيزنطيون فرصة عدم اهتمام العباسيين، بإنشاء أسطول قوي يضارع أسطول الأمويين، واعتمادهم على الجنود البرية دون القوات البحرية، وبدءوا يشنون غاراتهم على أراضي الدولة العباسية وذلك في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور؛ فغزا قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية بعض أراضي الشام سنة ١٣٧ هـ. واستولى على ملطية في آسيا الصغرى؛ غير أن العباسيين تمكنوا من استردادها في السنة التالية، وأقاموا فيها حامية كبيرة من جندهم، وفي سنة ١٥٥ هـ طلب الإمبراطور قسطنطين الصلح مع العباسيين على أن يؤدي لهم جزية سنوية.

سياسة المنصور إزاء الأندلس:

في عهد المنصور العباسي استقلت الأندلس عن الدولة العباسية، وبدأ بذلك تيار التجزؤ، أي: استقلال الولايات الخاضعة للخلافة العباسية عن سلطان الخلفاء، واستمر هذا التيار في الاندفاع في عهد من جاء بعده من الخلفاء حتى أصبح نفوذ الخليفة الفعلي مقصوراً على بغداد، ولكن بقي له نفوذه الروحي على العالم الإسلامي، وفي أواخر القرن الثالث الهجري استقلت بلاد المغرب، وتلتها مصر في منتصف الرابع الهجري عن العباسيين، وتأسست دولة الفاطميين التي نافست الدولة العباسية.

فتح الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بلاد الأندلس، ولكن تلك البلاد في السنوات السبع الأخيرة من عصر بني أمية أي منذ سنة ١٢٥ هـ كانت تغلي كالمرجل بالفتن، والقلاقل السياسية، وكان سقوط الدولة الأموية بداية للتدهور العام في كافة أرجاء الدولة الإسلامية ففي بلاد الأندلس ضعف سلطان

تاريخ الدعوة والدعاة

الأمويين، كما ضعف سلطان العباسيين من بعدهم، وقام النزاع الداخلي بين القبائل، وخاصة بين المضرية واليمانية؛ انتهى بتولية يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري، وهو من المضريين إمرة الأندلس حتى جاء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام. وقد هرب عبد الرحمن من العباسيين عندما أخذوا في التتكيل بالأمويين فذهب إلى المغرب؛ حيث لاقى كثيراً من الصعاب؛ بسبب محاولة عبد الرحمن بن حبيب والي إفريقيا القبض عليه، ولكنه لجأ إلى إحدى قبائل البربر التي حمته، فأخذ يرسل الأمويين في الأندلس، منتهزاً فرصة النزاع بين المضرية واليمانية، وأخيراً تمكن سنة ١٣٨ هـ من دخول الأندلس والاستيلاء عليها، والقضاء على يوسف بن عبد الرحمن، والي قرطبة.

وقد أراد أبو جعفر المنصور القضاء على سلطان عبد الرحمن؛ فأرسل العلاء بن مغيث اليحصبي إلى الأندلس؛ لمحاربة عبد الرحمن، فاجتمع إليه نفر كثير، ولكن عبد الرحمن هزمهم عند أشبيلية، وهكذا فشل العباسيون في استرجاع الأندلس، وضمها إلى حظيرة الدولة، فعمل أبو جعفر المنصور على استمالة عبد الرحمن بإرسال الهدايا إليه، ولما فشل المنصور في سياسة التودد إلى عبد الرحمن؛ أخذ يؤلب عليه ملوك دول الفرنجة، مما جعل عبد الرحمن يأخذ الحيلة لنفسه من هجوم الفرنجة عليه. وزاد من متاعبه في ذلك الحين ما دبره المنصور العباسي؛ بقصد إعلان خلافته على الأندلس، فقد اتفق أن يغزو شارلمان الأندلس على أن تصل لمعاونته قوة من إفريقيا، ولكن هذه المؤامرة التي دبرت في الخفاء لم تنجح؛ إذ إنه وقت هجوم شارلمان على الأندلس، لم تكن حملة البربر قد وصلت ففشلت الخطة، وقضى عبد الرحمن بذلك على خصومه، وأصبح أمير الأندلس دون منازع، ومحبي دولة الأمويين بالمغرب،

وحكم الأندلس منذ سنة ١٣٨ هـ إلى سنة ١٧٢ هـ وهي مدة طويلة، قضاها في توطيد عرشه في تلك البلاد، واكتساح أعدائه.

على أن المنصور العباسي حاول رغم ذلك استرجاع هذا الإقليم؛ لأن خروجه عن حوزته، وعن سلطان العباسيين، معناه: قيام دول أخرى تحاول عصيان النفوذ العباسي، واتخذ المنصور في سبيل تحقيق ما اعتزمه مع شارلمان بقصد القضاء على عدوهم المشترك عبد الرحمن الداخل، وتزعم هذه المؤامرة إلى جانب المنصور سليمان بن الأعرابي، صاحب برشلونة، وابن حبيب الفهري، صهر يوسف بن عبد الرحمن، آخر أمراء الأندلس. وكان عبد الرحمن قد عزله من الإمارة؛ فقام مطالباً بها، وإقصاء عبد الرحمن عنها، ورتبت الخطة على أن يذهب ابن حبيب إلى إفريقيا، ويجمع جيشاً من البربر يركب به البحر، وينزل في الجهة الشرقية من الأندلس ويهاجم شارلمان في الوقت نفسه بلاد الأندلس من الجهة الشمالية الشرقية، ويعاونه في ذلك سليمان بن الأعرابي، ثم يلتقي ابن حبيب، وابن الأعرابي، وشارلمان، وينادي بأبي جعفر المنصور حاكماً، ولكن ابن حبيب تعجل، ونزل شاطئ الأندلس قبل تحرك شارلمان، كما أن جيش ابن الأعرابي لم يساعد شارلمان حين عبر الحدود، وحاصر بلدة سرقسطة، ولما بلغ مسامع شارلمان أنباء ثورة السكسونيين؛ رحل عن الأندلس؛ ليقضي على تلك الثورة في بلاده، وبذلك لم تكمل الخطة بالنجاح.

وعاقب عبد الرحمن الداخل كل من اشترك في تلك المؤامرة، وثبت سلطانه في الأندلس، ويلقب عبد الرحمن الداخل نتيجة أعماله الباهرة وجهوده الجبارة بلقب صقر قريش؛ ويرجع سبب تلقيه بهذا اللقب إلى أن الخليفة المنصور سأل بعض جلسائه من صقر قريش؟ فأجاب بعضهم: أنه أمير المؤمنين يقصدون

تاريخ الدعوة والدعاة

المنصور. وأجاب البعض الآخر: أنه معاوية بن أبي سفيان، ولكن المنصور، قال لهم: "إن صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية". ذلك الشاب الذي خرج إلى الأندلس؛ ليجدد ملك أجداده بعد أن لم تكن هناك بارقة أمل في إحيائه في أية بقعة من بقاع الأرض.

بين المنصور والفرنجية:

رغب أبو جعفر المنصور إلى "بين" ملك الفرنجة أن يعاونه على عبد الرحمن الداخل الذي استقل ببلاد الأندلس عن الدولة العباسية؛ فأرسل أبو جعفر السفراء إلى "بين" وأقاموا عنده عدة سنين عادوا بعدها إلى بغداد دون أن تؤدي مفاوضاتهم إلى نتيجة ما سوى أنها ولدت في نفس عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الخوف من هجوم الفرنجة على بلاده؛ وبذلك لم يقدم على إظهار عدائه الحربي للخليفة المنصور. توفي المنصور سنة ١٥٨ هـ على مقربة من مكة، وهو ذاهب إلى الحج وعمره نحو ٦٣ سنة، وترك الدولة العباسية ثابتة مستقرة، وطيدة الأركان بعد أن قاد ذلك العراك الهائل ضد أعداء الدولة، ووضع أسس النظم التي سار عليها خلفاء بني العباس، وعمل إصلاحات هائلة في الدولة الإسلامية جعلت من المنصور حاكماً مستنيراً، أو مصلحاً كبيراً.

المهدي بن المنصور (١٥٨ : ١٦٩ هـ):

حكم المهدي إحدى عشرة سنة لم تشهد هذه الدولة الواسعة خلالها حروباً أو فتناً؛ بالنسبة لما وقع من قبل، وساعد على ذلك أنه كان مسالماً لا يميل إلى الشدة والعنف، وتولى الخلافة بعد أن تمهدت الأمور واستقرت أحوال الدولة.

من أعماله :

اهتم المهدي اهتماماً بالغاً بالفنون، وخاصة فن العمارة، فقد أقام صور الرصافة، وبنى مسجد الرصافة وهذه وسائل دعوة ووسع المسجد النبوي في المدينة المنورة، وجمله وزينه بالفيستفاء، والعمد الرائعة وكسا الكعبة بعد أن نزع الكسوة القديمة عنها، وزاد المهدي في مسجد البصرة وجمله، وأمر بأن تكون المنابر في جميع المساجد متوسطة الارتفاع كالمسجد النبوي، وبنى محطات ومنازل على جوانب الطرق التي يسلكها الحجاج، وأقام أحواضاً لحزن المياه ليشرّبوا منها، ووضع علاماتٍ على طول طريق الحج؛ ليهتدي بها المسافرون، وأمر بمنع المرضى بالجذام من أن يتسولوا، وأجرى عليهم الأرزاق، وبأن يكون طعام المسجونين على حساب الدولة، بعد أن كان يرسل إليهم من بيوتهم. وهذا العمل يوضح لنا اتصاف حكومته بصفة البر بالفقراء والمحتاجين.

الحركات الدينية في عهد المهدي :

من الظواهر الخطيرة التي أقلقته المهدي ظهور بعض الحركات الدينية التي كادت تززع خلافته، من أهمها: حركة المقنعية بزعامة المقنع الخراساني، وحركة الزندقة قاد الحركة الأولى رجل مولودٌ في خراسان موطن النحل، والتقاليد الفارسية، وكان أعور دميم الخلق، وكان ملثماً حتى لا يرى الناس وجهه؛ فسمي المقنع، ونادى بأن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا حتى أبي مسلم الخراساني ثم تحول إلى هاشم، وهاشم في دعواه هو المقنع، أي: أن الله قد حل فيه بعد أبي مسلم، وبايعه خلقٌ كثير، كانوا يسجدون له. وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبي ﷺ على أن حركة هذا الرجل لم يطل أمدها، وانتهت بقتله سنة ١٦١ هـ.

تاريخ الدعوة والدعاة

أما الحركة الثانية: فهي الزنادقة: وهي كلمة تطلق على الملحد، ومبادئ هؤلاء الزنادقة على جانب عظيم من الخطورة؛ إذ إنهم كانوا ينادون بالإباحة المطلقة، والفوضى، والتحلل من جميع الروابط الاجتماعية، وعلى الرغم من أن الخلفاء تسامحوا مع كل الفرق النصرانية واليهودية وغيرها؛ فإن الزنادقة لم يلقوا شيئاً من التساهل، أو العطف من جانب الخلفاء؛ إذ أوجد المهدي هيئة جعل اختصاصها مقصوداً على البحث عن الزنادقة، والتنكيل بهم، وجعل عليها رئيساً أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة. وتتبعهم هذه الهيئة فقتل منهم في عهد المهدي عدداً وفيراً، وارتكب في سبيل ذلك كثير من أعمال العسف والظلم؛ لأن هذه الهيئة كانت تعاقب على الظن، وتعذب، وتحرق كل من يتطرق الشك إليه بأنه من الزنادقة وكان منهم عدد كبير من رجال العلم والأدب.

كان المهدي من خلفاء بني العباس الذين أحبهم الشعب؛ فقد أجزل العطاء للعلماء والشعراء، وذوي الحاجة حتى قيل: إنه صرف جميع ما خلفه المنصور، ولقد تعلم المهدي تعليماً عربياً محضاً؛ فدرس القرآن، وتأثر به وعكف على دراسة الأخبار والأشعار؛ فنشأ فصيحاً بليغاً، يجيد قول الشعر، ويحفظ كثيراً من أمثال العرب، جمع له أمثال العرب، ومختارات من شعرهم. وممن ظهر في أيامه من الشعراء: أبو العتاهية، وكان مولاه عمرو بن ربيع يقول الشعر، ويجيده، وعُرف عن المهدي الحياء، والعفو، والجود، والحلم والكرم، والامتناع عن شرب النبيذ، وعمل على نشر العدل، وجلس للمظالم بنفسه، فأنصف المظلوم ورد المظالم لأصحابها.

السياسة الخارجية مع بلاد الأندلس:

لم تجرؤ دولة على مناهضة العباسيين في عهد المهدي، سوى ما كان من عداة المهدي لعبد الرحمن، وهي تلك السياسة التقليدية التي سارت عليها الدولة

العباسية إزاء الأندلس منذ عهد الخليفة المنصور، ولكن المسألة لم تتعد ذلك الحد بين الطرفين المهدي، وعبد الرحمن؛ وذلك لما رآه المهدي من قوة عبد الرحمن، وما قد يتكبده جند العباسيين من المصاعب والمشاق في سبيل الوصول إلى بلاد الأندلس، وتوترت العلاقات بين الأندلس، والخلافة العباسية في ذلك العهد.

الهادي بن المهدي (١٦٩: ١٧٠هـ) وهارون الرشيد، والمأمون

اعتلى الهادي عرش الخلافة بعد أبيه وكان الهادي قد قضى أكثر أيامه قبل اعتلاء العرش في بلاد المشرق، واستمرت خلافته سنة واحدة، وفي عهده كانت الخلافة ضعيفة، وقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين، وعلى المتصلين بالخليفة من الشعراء، وغيرهم كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن في شؤون الدولة؛ مما قلل من هيبتها، ودب الفساد في الجيش؛ إذ كان الجند يتعصبون بعضهم على بعض، ووصلت الحالة إلى حد مخيف حتى إنهم طالبوا بمرتباتهم عن سنوات مقبلة، وازدادت ظاهرة التجزؤ وضوحاً في عصره باقتطاع أجزاء جديدة من أراضي الدولة العباسية، وضمها إلى دول أخرى.

هارون الرشيد (١٧٠ : ١٩٣ هـ):

ولد هارون في أواخر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ وهو ابن المهدي، ويعتد الشخصية الثانية البارزة في العصر العباسي بعد أبي جعفر المنصور، وفي عهده بلغت بغداد درجة لم تصل إليها من قبل؛ فقد أصبحت كعبة رجال العلم والأدب، ومركز التجارة، واشتهر اسم الرشيد في الغرب؛ لما كان بينه، وبين "شارلمان" ملك الفرنجة من العلاقات السياسية، وأواصر الود، واتصف الرشيد بالكرم والجود؛

إذ كان يعطي الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه، كما كان يصدق الأموال على الناس في المواسم وعرف عن الرشيد التقوى والورع؛ فإنه كان في كل سنة إما حاجباً أو غازياً، وإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج حج عنه ثلاثمائة بالنفقة السابعة، وكان يحج ماشياً، ولم يحج ماشياً خليفة سواه.

المأمون (١٩٧ إلى ٢١٨ هـ):

عصر المأمون من العصور الإسلامية الزاهرة، ولم يكن المأمون شخصية سياسية بقدر ما هو شخصية أدبية، فقد شجّع النهضة العلمية، وحرية الفكر، ودفع حركة النقل، والترجمة إلى الأمام؛ ولكنه كسياسي أصبح تحت سيطرة الفرس الذين نصره في نزاعه مع أخيه الأمين، كما أن المأمون بعد وصوله إلى الخلافة لم ينتقل إلى أقاليم الدولة العباسية الغربية في الشام والعراق، بل ظل في مرو عاصمة خراسان ملتفتاً إلى المسائل الفلسفية، والعلمية دون الأمور السياسية، والإدارية التي عهد بها إلى وزيره الفضل بن سهل "ذي الرياستين" وهذا أناب عنه في العراق والشام أخاه الحسن بن سهل، وهذان أدارا شؤون الدولة حسب نزعتهما الفارسية.

النهضة العلمية في عهد المأمون:

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم في الدولة العباسية؛ لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم، والمعارف، ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية، وقد تجلّى ذلك في إمداد بيت الحكمة في بغداد الذي وضع أساسه الرشيد بالكتب في مختلف العلوم، والفنون مما جلبه من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها؛ حتى أصبح أشبه بجامعة علمية تحوي داراً للكتب يجتمع فيه العلماء للترجمة والتأليف والدرس، وبه أماكن خاصة للنساخين لنسخ الكتب لأنفسهم، ولغيرهم بأجور

معينة ، وأشرف عليه موظف عرف باسم صاحب بيت الحكمة كان الخلفاء يختارونه ممن اتصف بسعة العقل والأمانة العلمية.

وكان المأمون مثقفاً ثقافة فارسية ؛ لأن أمه كانت فارسية ، وكان يميل إلى حرية الفكر ، والبحث ؛ مما دفعه إلى إيجاد مجالس المناظرة حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدلون به من آراء علمية كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع. واشتغل الناس في عهد المأمون بعلوم الدين والحديث ، وظهر المجتهدون الذين يحاولون تفسير ما هو محل الاختلاف ، واجتهد المأمون في بحث مسألة القرآن وخلقته ، وعقد لهذا الغرض مجالس للمناظرة يتناقش فيها في حضرته العلماء من القضاة والمحدثين ، وكثر الجدل ، والنقاش في هذه المسألة بعد أن بعث المأمون في سنة ٢١٨ هـ إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب كتاباً مطولاً يقيم فيه الدليل على صحة الرأي الذي ذهب إليه المعتزلة في القول: بأن القرآن مخلوق ، أي: أن كلام الله ﷻ ليس قديماً ، ويتوعد في هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإقالته من وظيفته.

ومن ما جاء في هذا الكتاب: "قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم ، والسواد الأكبر من حشوة الرعية ، وسفلة العامة ممن لا نظر له ، ولا روية ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه أهل جهالة بالله ، وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن على أنه قديم لم يُخفِه ولم يخرعه" إلى آخر هذا القول الذي نصر فيه المأمون ووزيره أحمد بن أبي دؤاد القول بخلق القرآن الكريم ، وانتصر لهذا القول ، وهو خطأ ، وهو نظرية خاطئة ، وكان ممن عذب في هذه المحنة الإمام أحمد بن حنبل < .

الدعوة الإسلامية في العصر العثماني

عناصر الدرس

- العنصر الأول : قيام الدولة العثمانية، وفتوحاتها ٣٩١
- العنصر الثاني : محمد الفاتح، وفتح القسطنطينية ٤٠٠

قيام الدولة العثمانية، وفتوحاتها

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية، كانت عند بداية القرن السابع الهجري الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان، وتزاول حرفة الرعي.

ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيزخان على العراق، ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧ هجرية الموافق ١٢٢٠ ميلادية، مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول.

فاستقر في مدينة أخلاط، أخلاط مدينة في شرق تركيا الحالية قريبة من بحيرة وان في أرمينيا، ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨ هجرية الموافق ١٢٣٠ ميلادية خلفه ابنه الأوسط أرتغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة، وأكثر من أربعمئة فارس، وحين كان أرتغرل، والد عثمان فاراً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها ٤٠٠ عائلة من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عند بعد جلبة، وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى، وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرتغرل إلا أن تقدم بكل حماس، وثبات لنجدة إخوانه في الدين، والعقيدة.

فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى، وبعد انتهاء المعركة قدر قائد الجيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرتغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم، وقد قام بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، واستمرت هذه العلاقة

تاريخ الدعوة والدعاة

طيلة حياة أرتغرل، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩ هجرية ١٢٩٩ ميلادية خلفه من بعده ابنه عثمان، الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم.

عثمان مؤسس الدولة العثمانية:

في عام ٦٥٦ هجرية ١٢٥٨ ميلادية ولد لأرتغرل ابنه عثمان، الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية، وهي السنة التي غزى فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة.

يقول ابن كثير: "ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال، والنساء، والولدان، والمشايخ، والكهول، والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش، وكان جماعة من الناس يجتمعون إلى الحانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسلحة حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله، وإنا إليه راجعون، وكذلك في المساجد، والجوامع، والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود، والنصارى، ومن التجأ إليهم، فقد كان الخطب عظيمًا، والحدث جليًا، والأمة ضعفت، ووهنت بسبب ذنوبها، ومعاصيها، ولذلك سلط عليهم المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء، وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار في تلك الظروف الصعبة، والوهن المستشري في مفاصل الأمة، ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية.

فالشجاعة عندما تنادى أمراء النصارى في "بورصة"، و"مادانوس"، و"أدرهنوس"، و"كته"، و"كستله" البيزنطيون في عام ٧٠٠ هجرية ١٣٠٠ ميلادية

لتشكيل حلف صليبي؛ لمحاربة عثمان بن أرترغل مؤسس الدولة العثمانية، واستجابات النصارى لهذا النداء، وتحالفوا للقضاء على الدولة الناشئة تقدم عثمان بجنوده، وخاض الحروب بنفسه، وشتت الجيوش الصليبية، وظهرت منه بسالة، وشجاعة أصبحت مضرب المثل عند العثمانيين.

الحكمة:

بعدما تولى رئاسة قومه رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين صاحب دولة سلاجقة الروم، وسمح لهم سك العملة باسمه مع الدعاء له في خطبة الجمعة في المناطق التي تحته.

الإخلاص:

عندما لمس سكان الأراضى القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته، والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام، والمسلمين.

الصبر:

وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون، والبلدان، ففتح في سنة ٧٠٧ هجرية حصن "كته"، وحصن "لفكه"، وحصن "آق" حصار، وحصن "قوج" حصار، وفي سنة ٧١٢ هجرية فتح حصن "كبوه"، وحصن "تكرر بيكارى"، وغيرها، وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة "بروسه" في عام ٧١٧

تاريخ الدعوة والدعاة

هجرية ١٣١٧ ميلادية، وذلك بعد حصار شديد دام عدة سنوات، ولم يكن فتح "بروسه" من الأمور السهلة، بل كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته؛ حيث حدثت بينه وبين قائد حمايتها أقرينوس صراع شديد استمر عدة سنوات حتى استسلم، وسلم المدينة لعثمان.

الجاذبية الإيمانية:

وتظهر هذه الصفة عندما احتك به أقرينوس قائد "بروسه"، واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب بك، وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان، ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، بل إن كثير من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية، كجماعة غزياروم أي: غزاه الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم، وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وقد أعطتها هذه المرابطة خبرات في جهاد الروم عمقت فيها انتماءها للإسلام، والتزامها بكل ما جاء به من نظام.

وجماعة الإخيان -أي: الإخوان- وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم، ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة، وكان معظم أعضاء هذه الجماعة من كبار التجار الذين سخروا أموالهم للخدمات الإسلامية، مثل إقامة المساجد، والتكايا، والخانات الفنادق، وكانت لهم في الدولة مكانة عالية.

ومن هذه الجماعة علماء ممتازون عملوا في نشر الثقافة الإسلامية، وحببوا الناس في التمسك بالدين، وجماعة حاجيات روم -أي: حجاج أرض الروم- وكانت جماعة على فقه بالإسلام، ومعرفة دقيقة بتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً، والمجاهدين خصوصاً، وغير ذلك من الجماعات.

التجرد لله في فتوحاته :

فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية، أو عسكرية، أو غير ذلك، بل كان فرصة تبليغ دعوة الله ونشر دينه، ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق في موسوعته (التاريخ العام الكبير): "بأنه كان عثمان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام، وتعليمه واجب مقدس، وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة، وإنما حباً في نشر الإسلام".

ويقول نصر أوغلو: "لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله؛ لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه، وقواه نحو تحقيق هذا الهدف.

الدستور الذي سار عليه العثمانيون الذي هو من مناهج الدعوة الإسلامية :

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية جهاداً، ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير، ويشرفون على التخطيط الإداري، والتنفيذ الشرعي في الإمارة.

وقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان، وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية، ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته: "يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة، فاتخذ من مشورة علماء الدين موثلاً، يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرنك الشيطان بجندك، وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة، يا بني إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق،

ناربخ الدعوة والدعاة

فتحدث مرضاة الله ﷻ، يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم، أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا، وللإسلام نموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل."

هذه أساليب دعوة، وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) نجد رواية أخرى للوصية: "اعلم يا بني أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين، وأمواهم أمانة في عنقك سيسألك الله ﷻ عنها".

وفي كتاب (مأساة بني عثمان) نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول: "يا بني إنني أنتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعاية مجاهداً في سبيل الله؛ لنشر دين الإسلام، يا بني أوصيك بعلماء الأمة آدم رعايتهم، وأكثر من تجيلهم، وانزل على مشورتهم، فإنهم لا يأمرن إلا بخير. يا بني إياك أن تفعل أمر لا يرضي الله ﷻ، وإذا صعب عليك أمر، فاسأل علماء الشريعة، فإنهم سيدلونك على الخير، واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأنا لسنا طلاب جاه، ولا دنيا".

وفي (التاريخ العثماني المصور) عبارات أخرى من وصية عثمان تقول: "وصيتي لأبنائي وأصدقائي أديموا علو الدين الإسلامي الجليل بإدامة الجهاد في سبيل الله، أمسكوا راية الإسلام الشريفة في الأعلى بأكمل جهاد، أخدموا الإسلام دائماً؛ لأن الله ﷻ قد وظف عبداً ضعيفاً مثلي لفتح البلدان، اذهبوا بكلمة التوحيد إلى أقصى البلدان بجهادكم في سبيل الله، ومن انحرف من سلالتي عن الحق، والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

يا بني ليس في الدنيا أحد لا يخضع رقبتة للموت، وقد اقترب أجلي بأمر الله ﷻ أسلمك هذه الدولة، وأستودعك المولى ﷻ اعدل في جميع شئونك... إلى آخره.

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم، وبالمؤسسات العلمية، وبالجيوش، وبالمؤسسات العسكرية، وبالعلماء واحترامهم، وبالجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان، وصلت إليه رايته جيش مسلم، وبالإمارة، وبالحضارة، هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم، ومجدهم، وعزتهم، وتمكينهم.

ترك عثمان الأول الدولة العثمانية، وكانت مساحتها تبلغ ١٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذاً على بحر مرمره، واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان، وهي: "أزنيق"، و"بورصة".

السلطان أورخان بن عثمان ٧٢٦ : ٧٦١ هجرية:

بعد وفاة عثمان تولى الحكم ابنه أورخان، وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات، وفي عام ٧٢٧ هجرية الموافق ١٣٢٧ ميلادية سقطت في يده "نيقوميديا"، وتقع في شمال غرب آسيا الصغرى قرب مدينة "استانبول"، وهي مدينة "أزميت" الحالية، فأنشأ بها أول جامعة عثمانية، وعهد بإدارتها إلى داود القيصري أحد العلماء العثمانيين الذين درسوا في مصر، واهتم ببناء الجيش على أسس عصرية، وجعله جيشاً نظامياً... إلخ.

السلطان مراد الأول ٧٦١ : ٧٩١ هجرية:

كان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه، وجنوده شغوفاً بالغزوات، وبناء المساجد، والمدارس، والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة، والخبراء، والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى، وأوروبا في وقت واحد، ففي أوروبا هاجم

تاريخ الدعوة والدعاة

الجيش العثماني أملاك الدولة البيزنطية، ثم استولى على مدينة "أدرنه" في عام ٧٦٢ هجرية ١٣٦٢ ميلادية، وكانت بتلك المدينة أهمية إستراتيجية في البلقان، وكانت ثاني مدينة في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية، واتخذ مراد من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية منذ عام ٧٦٨ هجرية، الذي يساوي ١٣٦٦ ميلادية.

وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت "أدرنه" عاصمة إسلامية، وكان هدف مراد من هذه النقلة استغلال مناعة استحکامات "أدرنه" الحربية، وقربها من مسرح العمليات الجهادية، ورغبة مراد في ضم الأقاليم الأوربية، التي وصلوا إليها في جهادهم، وثبتوا أقدامهم فيها، وجمع مراد في هذه العاصمة كل مقومات النهوض بالدولة، وأصول الحكم، فتكونت فيها فئات الموظفين، وفرق الجيش، وطوائف رجال القانون، وعلماء الدين، وأقيمت دور المحاكم، وشيدت المدارس المدنية، والمعاهد العسكرية لتدريب الانكشارية، واستمرت "أدرنه" على هذا الوضع السياسي، والعسكري، والإداري، والثقافي، والديني، حتى فتح العثمانيون القسطنطينية في عام ٨٥٧ هجرية ١٤٥٣ ميلادية، فأصبحت عاصمة لدولتهم.

السلطان بايزيد الأول: ٧٩١ : ٨٠٥ هجرية، ١٣٨٩ : ١٤٠٢ ميلادية:

بعد استشهاد السلطان مراد تولى الحکام ابنه بايزيد، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمساً للفتوحات الإسلامية، ولذلك اهتم اهتماماً كبيراً بالشئون العسكرية، فاستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد كمثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية، ولذلك أطلق عليه لقب الصاعقة.

السلطان محمد الأول :

ولد عام ٧٨١ هجرية ١٣٧٩ ميلادية، وتولى أمر الأمة بعد وفاة والده بايزيد، وعرف في التاريخ بمحمد جلبي، كان متوسط القامة، مستدير الوجه، متلاصق الحاجبين، أبيض البشرة، أحمر الخدين، واسع الصدر، صاحب بدن قوي في غاية النشاط، وجسوراً يمارس المصارعة، ويسحب أقوى أوتار الأقواس اشترك أثناء حكمه في أربع، وعشرين حرباً، وأصيب بأربعين جرحاً.

استطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية، بسبب ما أوتي من الحزم، والكياسة، وبعد النظر، وتغلب على إخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر، وتفرد بالسلطان، وقضى سني حكمه الثماني في إعادة بناء الدولة، وتوطيد أركانها، ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية.

مراد الثاني :

تولى السلطان مراد الثاني أمر الدولة بعد وفاة أبيه محمد جلبي عام ٨٢٤ هجرية ١٤٢١ ميلادية، وكان عمره لا يزيد على ثماني عشر سنة، وكان محباً للجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الإسلام في ربوع أوربا، كان معروفاً لدى جميع رعيته بالتقوى، والعدالة، والشفقة.

استطاع السلطان مراد أن يقضي على حركات التمرد الداخلية التي قام بها عمه مصطفى، والتي كانت تدعم من قبل أعداء الدولة العثمانية، وكان الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني خلف الدسائس، والمؤامرات، والمتاعب التي تعرض لها السلطان مراد، فهو الذي دعم عم السلطان مراد الذي اسمه مصطفى بالمساعدات، حتى استطاع أن يحاصر مدينة "غاليبولي"، ابتغاء انتزاعها من السلطان، واتخاذها

تاريخ الدعوة والدعاة

قاعدة له، إلا أن السلطان مراد قبض على عمه، وقدمه للمشنقة، ومع ذلك فقد مضى الإمبراطور مانويل الثاني يكيد للسلطان، واحتضن شقيقاً لمراد الثاني، ووضع على رأس قوة استولت على مدينة "نقيه" في الأناضول، وسار إليه مراد، واستطاع أن يقضي على قواته، واضطر خصمه للاستسلام ثم قتل.

ومن ثم صمم السلطان مراد أن يلحق الإمبراطور درساً عملياً، فأسرع باحتلال "سالونيك" فهاجمها، ودخلها عنوة في مارس ١٤٣١ ميلادية ٨٣٣ هجرية، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من الدولة العثمانية، وكان السلطان مراد يوجه الضربات الموجعة لحركات التمرد في بلاد البلقان، وحرص على تدعيم الحكم العثماني في تلك الديار، واتجه الجيش العثماني نحو الشمال لإخضاع إقليم "والشيا"، وفرض عليه جزية سنوية، واضطر ملك الصرب الجديد ستيف لازر ميتش إلى الخضوع للعثمانيين، والدخول تحت حكمهم، وجدد ولاءه للسلطان، واتجه جيش عثماني نحو الجنوب، حيث قام بتوطيد دعائم الحكم العثماني في بلاد اليونان. ولم يلبث السلطان أن واصل جهاده الدعوي، وقام بالقضاء على العوائق في كل من ألبانيا، والمجر.

محمد الفاتح، وفتح القسطنطينية

السلطان محمد الفاتح:

هو السلطان محمد الثاني يعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان، يلقب بالفتح وأبي الخيرات، حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً، كانت خيراً، وعزةً للمسلمين تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في ١٦ محرم عام ٨٥٥ هجرية، الموافق ١٨ فبراير عام ١٤٥١ ميلادية، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة،

وامتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حدثته في كثير من العلوم، التي كانت يتلقاها في مدرسة الأمراء، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره، وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ، مما ساعده في ما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة، وميادين القتال، حتى إنه اشتهر أخيراً في التاريخ بلقب محمد الفاتح لفتح القسطنطينية.

وقد انتهج المنهج الذي سار عليه والده، وأجداده في الفتوحات، ولقد برز بعد توليه السلطة في الدولة العثمانية بقيامه بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة، واهتم كثيراً بالأموار المالية، فعمل على تحديد موارد الدولة، وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف، والبذخ، أو الترف، وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش، وأعاد تنظيمها، ووضع سجلات خاصة بالجند، وزاد من رواتبهم، وأمدهم بأحدث الأسلحة المتوفرة في ذلك العصر، وعمل على تطوير إدارة الأقاليم، وأقر بعض الولاة السابقين في أقاليمهم، وعزل من ظهر منه تقصير، أو إهمال، وطور البلاط السلطاني، وأمدهم بالخبرات الإدارية والعسكرية الجيدة، مما ساهم في استقرار الدولة، والتقدم إلى الإمام، وبعد أن قطع أشواط مثمرة في الإصلاح الداخلي تطلع إلى المناطق المسيحية في أوروبا لفتحها، ونشر الإسلام فيها.

ولقد ساعدته عوامل عدة في تحقيق أهدافه منها: الضعف الذي وصلت إليه الإمبراطورية البيزنطية بسبب المنازعات مع الدول الأوربية الأخرى، وكذلك بسبب الخلافات الداخلية التي عمت جميع مناطقها، ومدنها، ولم يكتفِ السلطان محمد بذلك، بل أنه عمل بجهد من أجل أن يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، والمعقل الاستراتيجي الهام للتحركات الصليبية ضد العالم الإسلامي لفترة طويلة من الزمن، والتي طالما

تاريخ الدعوة والدعاة

اعتزت بها الإمبراطورية البيزنطية بصورة خاصة، والمسيحية بصورة عامة، وجعلها عاصمة للدولة العثمانية، وتحقيق ما عجز عن تحقيقه أسلافه من قادة الجيوش الإسلامية.

فتح القسطنطينية:

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد أسست في عام ٣٣٠ ميلادية على يد الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول، وكان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: لو كانت الدنيا مملكة واحدة، لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها.

ومنذ تأسيسها، فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم، وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها، عندما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية، كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة من ذلك الصراع؛ ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك ما حدث أثناء غزوة الخندق، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين، وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة، طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ: ((لنفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)).

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة، منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليها في سنة ٤٤ هجرية، ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة، كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرى لفتح القسطنطينية، وتعد هذه الحملة أقوى الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك

سنة ٩٨ هجرية، واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينية؛ حيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية نفسها، وتهديدها مع أنها هزتها، وأثرت على الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد سنة ١٩٠ هجرية.

وقد قامت فيما بعد عدة دويلات إسلامية في آسيا الصغرى، كان من أهمها دولة السلاجقة، التي امتدت سلطتها إلى آسيا الصغرى، كما أن زعيمها ألب أرسلان ٤٥٥ إلى ٤٦٥ استطاع أن يهزم إمبراطور الروم ديمونوس في موقعة ملاذكرد عام ٤٦٤ هجرية، ثم أسره، وضربه، وسجنه، وبعد مدة أطلق سراحه بعد أن تعهد بدفع جزية سنوية للسلطان السلجوقي، وهذا يمثل خضوع جزء كبير من إمبراطورية الروم للدولة الإسلامية السلجوقية.

وبعد ضعف دولة السلاجقة الكبرى ظهرت عدة دول سلجوقية، كان منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، والتي استطاعت مد سلطتها إلى سواحل بحر إيجه غرباً، وإضعاف الإمبراطورية الرومانية.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي خلف العثمانيون سلاجقة الروم، وتجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية، وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد الصاعقة، الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوة سنة ٧٩٦ هجرية، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي؛ لتسليم المدينة سلماً إلى المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ، ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوربية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية.

وفي الوقت نفسه، وصلت جيوش المغول يقودها تيمورلنك إلى داخل الأراضي العثمانية، وأخذت تعبت فساداً، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته، وفك

ناربخ الدعوة والدعاة

الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه، ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة، والتي أسر فيها بايزيد الصاعقة، ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢ ميلادية،

وكانت نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتاً، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة، حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤ هجرية إلى ٨٦٣ هجرية جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية، وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين، بدعم الخارجين على السلطان، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه، إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي، فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥ هجرية الموافق ١٤٥١ ميلادية كان يتطلع إلى فتح القسطنطينية، ويفكر في فتحها، ولقد ساهمت تربية العلماء على تنشئتها على حب الإسلام، والإيمان، والعمل بالقرآن، وسنة سيد الأنام ﷺ.

ولذلك نشأ على حب الالتزام بالشريعة الإسلامية، واتصف بالتقى، والورع، ومحباً للعلماء والعلم، ومشجعاً على نشر العلوم، ويعود تدينه الرفيع للتربية الإسلامية الرشيدة التي تلقاها منذ الصغر بتوجيهات من والده، وجهود الشخصيات العلمية

القوية التي أشرفت على تربيته، وصفاء أولئك الأساتذة الكبار، وعزوفهم عن الدنيا، وابتعادهم عن الغرور، ومجاهدتهم لأنفسهم ممن أشرفوا على رعايته.

لقد تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته، ومن أخصهم العالم الرباني أحمد بن إسماعيل الكوراني، وهو مشهود له بالفضيلة التامة، وكان مدرسه في عهد السلطان مراد الثاني، والد الفاتح، وفي ذلك الوقت كان محمد الثاني الفاتح أميراً في بلدة "مغنيسيا"، وقد أرسل إليه والده عدداً من المعلمين، ولم يمثل أمرهم، ولم يقرأ شيئاً، حتى إنه لم يختم القرآن الكريم، فطلب السلطان المذكور رجلاً له مهابة، وحدة، فذكروا له المولى الكوراني، فجعله معلماً لولده، وأعطاه قضيماً يضربه بذلك إذا خالف أمره، فذهب إليه، ودخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم، والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد خان من ذلك الكلام، فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضرباً شديداً، حتى خاف منه السلطان محمد خان، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المرَبون الأفاضل ممن كان منهم بالأخص هذا العالم الفاضل، ممن يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع، أو لا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه، ويصافحه، ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده، من الطبيعي أن يتخرج من بين جناباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة مقيداً بالأوامر، والنواهي، معظماً لها، ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها على نفسه أولاً، ثم على رعيته تقياً صالحاً يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين، وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح، وبث فيه منذ صغره أمرين هما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية، والإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي: ((لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش)).

لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور.

الإعداد للفتح :

بذل السلطان محمد الثاني جهوده المختلفة للتخطيط ، والترتيب لفتح القسطنطينية ، وبذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوة البشرية ، حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد ، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة ، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة ، وبمختلف أنواع الأسلحة ، التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة.

كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً ، وغرس روح الجهاد فيهم ، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش ، الذي يفتح القسطنطينية ، وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك ، مما أعطاهم قوة معنوية ، وشجاعة منقطعة النظر ، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائم الجنود ، وربطهم بالجهاد الحقيقي ، وفق أوامر الله.

ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧ هجرية الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣ ميلادية إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده ، وقواده ، وهم يرددون ما شاء الله ، فالتفت إليهم ، وقال : "لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ ، وهنأهم بالنصر ، ونهاهم عن القتل ، وأمرهم بالرفق بالناس ، والإحسان إليهم ، ثم ترجل عن فرسه ، وسجد لله على الأرض شكراً ، وحمداً ، وتواضعاً لله تعالى.

وهكذا سار الخلفاء الفاتحون في هذا العصر المجيد ، العصر العثماني إلى أن ضعفت الدولة العباسية لأسباب.

الدعوة الإسلامية في عهد الممالك الإسلامية

عناصر الدرس

- العنصر الأول : أصل المماليك، وتعريف باملك الظاهر بيبرس ٤٠٩
- العنصر الثاني : انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك ٤١٥
- العنصر الثالث : دولتا المماليك (٦٤٨ : ٩٢٣ هـ) ٤١٩

أصل المماليك، وتعريف بالملك الظاهر بيبرس

كان الرق منتشرًا في العصور الوسطى، وكانت تجلب الغلمان المرد - الغلمان المرد أي: أصحاب الجمال - والفتيان الحسان من بلادهم البعيدة إلى أسواق الرقيق؛ حيث توجد الرغبة في اقتنائهم، وحيث يتنافس في ذلك المتنافسون للخدمة، أو اللهو، وكان هناك تجارًا أخصاء هم النحاسون، يعرضون هذه الأجسام البشرية بضاعة في الأسواق العامة، وغير العامة، ويصفون محاسنها للناظرين.

أما طريقة جلبهم لهذه البضاعة فالسرقة، والخطف، يسرقون الغلمان، ويختطفون العذارى من أهلهم، ثم يستعجلون بيعهم للناس، ويستحل الناس شراءهم، وقد ينتشر قحط، أو غلاء، أو يعم وباء، فتهون حينذاك فلذ الأكباد على أهلها، فيفرون فيها بالبيع تخفيفًا للبلوى، وحفظًا للرمق بما يدفعه لهم الشاري الكريم.

ومما كان يساعد على رواج تجارة الرقيق الغارات الحربية، التي يشنها غازي فاتح قاس غليظ القلب على أهل بلد وادعين آمنين، فيفرق شملهم، ويبدد جمعهم، ويبيتم الولدان، ويسبي الجوارى الحسان، فينشط النحاسون حينذاك، ويغالون في شراء هؤلاء، ولما لا يغالون، وفي انتظارهم خلفاء، وملوك، وأمراء، ووزراء، وعظماء على أهبة لقاءهم بصرر الدنانير الذهبية، والأعطيات الثمينة أجرًا لبضاعتهم الجيدة.

فقد كان منهم من يدفع الألف والألفين بل والآلاف ثمنًا لجارية جميلة، أو غلام وسيم، ومما ساعد على رواج هذه التجارة أيضًا ما يتوقع من الحظ الحسن للأرقاء في مستقبل حياتهم، فقد تدفع بهم الأقدار إلى أن يصلوا ما يصل إليه

تاريخ الدعوة والدعاة

أحرار الرجال وعقيلات النساء من عز، ورفاهية، ومجد، وطيب أحداثه؛ لهذا انتشر الرق في العصور الوسطى، وكان الأرقاء فيها أحياناً ضرباً من المنح والهدايا يتبادلها العظماء، والمترفون، وتذوق الناس وجود الرقيق بلا غرابة، ولا استكراه، وكثر التسري، وتعددت جيوش الجوارى في القصور، وامتلات أروقتها بالغلما.

وأصبحوا أحياناً أولي قوة، وأولي بأس شديد، ولم يلد الرق شعب دون آخر، أو جنس دون غيره، فقد كان من الأرقاء التركي، والجركسي، والرومي، والزنجي، والحبشي، والفارسي، وغيرهم، وأروج ما كانت تجارتهم في الأجناس التركية، والجركسية لما تتصف به من جمال، وطيب مجلس، ولما ابتليت به بلادهم من غارات، وحروب طاحنة، واستكثر منهم خلفاء بني العباس، والفاطميون، والأيوبيون، وغيرهم، ولقد كان لمصر نصيب من هؤلاء كبير.

وقد ذكر بعض مؤرخي عصرنا الحاضر أن أول من استخدم المماليك الأتراك في مصر، و جلبهم إليها، واستعان بهم على تثبيت سلطانه خلفاء الفاطميين تشبهاً منهم ببني العباس ببغداد، ثم اقتفى أثرهم في ذلك ملوك الدولة الأيوبية، ولكن الحق أن أول من استخدمهم، و جلبهم إلى مصر، وجعلهم عمدة جيشه هو أحمد بن طولون، وهو أول الولاة الذين استقلوا بمصر بعد الفتح العربي، فقد قال القلقشندي في (صبح الأعشى) من الجزء الثالث عند الكلام عن من ولي مصر ملكاً قبل دولة الفاطميين ما يلي: "وأولهم أحمد بن طولون، وفي أيامه عظمت نيابة مصر، وشمخت إلى الملك، وهو أول من جلب المماليك الأتراك إلى الديار المصرية، واستخدمهم في عسكرها".

وقال ابن إياس في الجزء الأول من تاريخه عند ذكر دولة الأمير أحمد بن طولون ما يلي: "قال ابن وصيف شاه: فلما تم أمر الأمير أحمد بن طولون في ولايته على مصر، واستقامت أحواله بها استكثر من مشتري المماليك الديلمية، حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك".

فأنت ترى أن ما اشتراه ابن طولون من هؤلاء المماليك على فرض المبالغة في عددهم، كان خير نواة لوجود المماليك في مصر، وقد اتبع هذه السنة ملوك الفاطميين، وخلطوا في جندهم بين أجناس مختلفة، ولما آل الملك إلى صلاح الدين الأيوبي اتخذ جنوده من الأكراد، ومجلبوبي المرتزقة، وحذا خلفاؤه حذوه، ثم جاء الملك الصالح نجم الدين بن أيوب في سنة ٦٣٦ هجرية، فرأى أن يثبت ملكه بجنود جدد؛ فاستكثر من مشتري المماليك الأتراك، ونشأهم تنشئة عسكرية غير أنهم كانوا كثيري العبث، والشر يجوسون خلال الأسواق، وينهبون البضائع من التجار، حتى علا الضجيج بسببهم، فبنى لهم سيدهم قلعة خاصة بجزيرة الروضة ليقيموا بها، ولا يبرحون، وسماهم البحرية، واتخذ منهم أمراء دولته، وخاصته، وبطانته، وحراسه، وكانوا أقل من ألف مملوك، وقد كانوا هؤلاء البحرية عضداً قوياً للملك الصالح حرسوا ملكه، وزادوا عنه، وثبتوا دعائمهم، وأبلوا بلاء عظيمًا في موقعة المنصورة التي هزموا فيها الفرنجة.

وعلى يد هؤلاء البحرية انتقل الملك من بني أيوب إلى أمراء المماليك، فملكوا مصر، وأصبح منهم سلاطينها، وكونوا فيها طبقة حاكمة جديدة، ودولة من طراز جديد هي دولة المماليك، وإذا ما أطلقنا هنا لفظ المماليك، أو دولة المماليك، فإنما نقصد الدولة التي كونها هؤلاء دون من تقدمهم في عصر الأيوبيين، أو الفاطميين، أو تأخر عنهم في العصر العثماني.

تاريخ الدعوة والدعاة

وقد تتابع سلاطينهم على عرش مصر زهاء ثلاثة قرون، واتبعوا في الحكم نظاماً خاصاً، وقد جد السلاطين والأمراء في مشتري الممالك الجدد باستمرار، فكان من هؤلاء الجدد المدد التقليدي لهذه الطبقة الحاكمة، وساعدهم على مشتراهم تعدد هجمات التتار، إذ ذاك على أواسط آسيا الخوارزمشاهية، وبلاد التركمان، وشرق آسيا الصغرى، وغير ذلك من نواحي آسيا، فكثرت سبي الصغار، وفرار الكبار أمام هذا الخطر الداهم، وأقبل سلاطين مصر، وأمراؤها على شراء هؤلاء الممالك، وغالى بعضهم في ذلك، ورفع أثمانهم حتى كانت الآباء تعطي أبنائهم للنخاسين القادمين إلى مصر، وتوصيهم ببيعهم فيها، لما كان يدفع فيهم من ثمن كبير، ولما كان ينتظرهم من مجد خطير.

ولو أنك رجعت إلى سيرة كثيرين من سلاطين دولة الممالك وأمرائها لوجدتهم من هذه الممالك المشتراة، وإليك أخباراً عن بعضهم نقلًا عن ابن إياس.

الملك الظاهر بيبرس:

أصله تركي الجنس أخذ من بلاده، وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الضائع، ثم اشتراه منه الأمير علاء الدين البندقداري، ثم آل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، ثم أعتقه وجعله من جملة الممالك البحرية، ثم دفعت به الأقدار، فصار أتاك العسكر - أتاك العسكر هذه رتبة - في دولة المظفر قطز، فلما قتل قطز صار بيبرس سلطاناً.

والملك المؤيد شيخ الحمودي أصله من ممالك الظاهر برقوق، اشتراه من الخواجه محمود شاه، وأعتقه، وأخرج له خيلاً، ثم أخذ يترقى فصار أميراً ونائباً، وعاونته الأيام حتى أصبح سلطاناً على مصر بعد خلع الخليفة المستعين بالله العباسي.

والملك الأشرف قايتباي أصله من الجركس ، جلبه إلى مصر الخواجه محمود ، فاشتره الملك الأشرف برسباي هو وعدة مماليك صغار كل ممولك بخمسين ديناراً ، ثم أعتقه ، وترقى في سلك الإمارة حتى بلغ الأتابكية - يقال لها : الأتابكية ، ويقال لها : الأتابكية أيضاً - فالسلطنة بعد خلع تمرغيا .

وعلى مثال مما تقدم تجد الأمراء حقاً قد ولي سلطنة مصر في ذلك العصر أحياناً ملوك لم يكونوا من قبل أرقاء ، مثل : الناصر محمد بن قلاوون ، والناصر محمد بن قايتباي ، والمنصور عثمان بن جقمق ، وهؤلاء وهؤلاء أبناء ملوك حكم آباؤهم من قبل فورثوا عنهم الملك ، ولكن بعد أن جرى الرق على آباؤهم ، وربما جرى على أمهاتهم أيضاً ، ومن غريب الأمر أن بعض الأمراء كانوا يتنادرون بعضهم على بعض بالبيع ، والرق .

فقد روى ابن إياس في ترجمة الناصر بن قلاوون قال : " وقع يوماً بين الأتابكي بكتمر وبين الأمير قوسون تشاجر ، فقال قوسون للأتابكي : أنا ما نقلت من الأطباق إلى الإسطبلات ، بل أخذني السلطان من شخص تاجر كنت في خدمته ، فلما أخذني السلطان اتفق أن في ذلك اليوم توفي واحد من الخاصكية الثقال ، فأنعم علي السلطان بإقطاعه ، وبركته ، وبيته ، وصرت خاصكياً في ذلك اليوم ، يلاحظ استخدام بعض الألفاظ التركية ، مما هو موجود في القاهرة ، ونراه منقوشاً على بعض المساجد ، وبعض الجدران ، وسبب ذلك أن التاجر الذي كنت عنده لما قال له السلطان : بعني هذا المملوك قال التاجر : هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذني السلطان برضاي ، ولم أقعد في طبقه ، ولم أكن تحت حكم أغا ، ولم أبع مثل بقية المماليك ، فلما سمع الأمير بكتمر ذلك سكت عنه ، ولم يجبه بشيء . ويلاحظ أن قوسون وبكتمر المذكورين كانا من أمراء عهد الناصر محمد بن قلاوون ، وكانا بيدهما الحل والربط في البلاد المصرية يوماً ما .

تاريخ الدعوة والدعاة

ومن النوادر الطريفة المناسبة ما رواه ابن إياس قال: غضب السلطان قايتباي على شاد بك أباز الإينالي الأشرفي، أحد الأمراء، فألبسه زناً عتيقاً، وأمر بحمله إلى خان الخليلي لبيع، فأمر السلطان بأن يباع، ويحمل ثمنه إلى الملك المنصور، فشفع فيه الأتابكي أزيك فما قبل منه، وآل الأمر إلى أن حمل إلى الملك المنصور، فأشهد على نفسه بعتقه.

هذا ونظراً إلى أن هؤلاء المماليك وفيهم السلاطين والأمراء أرقاء، والأرقاء لا ينسبون عادة إلى آبائهم تجد أغليبتهم العظمى قد نسبت إلى غير الآباء والأجداد جريباً على العادة المذكورة، وينسب بعضهم إلى من اشتراه من السلاطين والأمراء، فيقال مثلاً: شيخ الناصري نسبة إلى الناصر حسن حفيد قلاوون؛ لأن شيخه من مشريانه، ومعتوقيه، أو ينسب إلى من باعه من التجار، فيقال مثلاً: برقوق العثماني نسبة إلى الخواجة عثمان بائع الرقيق الذي جلبه إلى مصر، أو ينسب إلى مبلغ المال الذي اشترى به، فيقال مثلاً: قلاوون الألفي؛ لأن الأمير علاء الدين آق اشتراه بألف دينار، هذه طريقة نسبتهم.

ومن الحق أن نقول: إن النسب إلى الشاري أكثر من النسب إلى غيره، وإن المملوك قد ينسب إلى أكثر من واحد ممن تداولوا ملكه، وقد ينسب إلى البائع والشاري معاً، وهكذا.

ويظن المرء لأول وهلة أن مماليك مصر هؤلاء كلهم من الجنس التركي، أو الجرکسي، والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عدداً، فمنهم التركي كالظاهر بيبرس، والجرکسي كالأشرف قايتباي، والتتري كالعادل كتبغا، والقبجاقى كالمنصور قلاوون، والهندي كالأمير جوهر التركماني الیشبكي، والرومي كالظاهر تمریغا، ولكن الجنس التركي والجرکسي كانا غالبين، وكانت للجنس

التركي السيادة في الدولة الأولى الدولة البحرية، وللجنس الجركسي السيادة في الدولة الثانية الدولة البرجية، أو الجركسية، وكان من الأجناس الأخرى جماعات من الأوبراتية، وهم طائفة من المغول استقدمها إلى مصر العادل كتبغا المنصوري، وهياً لهم مساكن مناسبة، وقد كانت مساكنهم الأولى على مقربة من جبال الأكراد، وكان منها أيضاً طوائف من التركمان، واللاظ، والكرد، والقرانصة، والأرمن، والخطا، وكثرت أنواعهم، وتعددت في الجزء الأخير من الدولة الجركسية.

ويلاحظ أن المملوك كان يشتري صغيراً، ثم يربى، غير أنه في أخريات الدولة الجركسية جلبت الممالك كباراً، ومنهم من كان عاملاً أو صانعاً محترفاً قبل جلبه، فكان ذلك في جملة أسباب فسادهم.

انتقال الحكم من الأيوبيين إلى المماليك

أخذ عدد المماليك يتكاثر في مصر زمن الأيوبيين، وأخذ نفوذهم يزداد، ويعظم، وكلما أصاب الضعف ملوك الأيوبيين، ونهكهم الترف والانغماس في الملذات، ودب بين أمرائهم الشقاق، وقادتهم الأطماع غير المشروعة أتاح ذلك لمماليكهم أن يكونوا ذوي شأن وسلطان؛ لأنهم اليد العاملة، والقوة الفعالة في ملافة هذا الضعف، وفي فض هذا النزاع، فأكسبهم ذلك بأساً على بأس، وسلطاناً فوق سلطان.

وقد قوي بأسهم في عهد الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، فإنه بعد أن استعان بفريق منهم على نزع الملك من أخيه العادل سيف الدين عام ٦٣٦ هجرية اشترى عدداً كبيراً من المماليك، ومرنهم تمريناً عسكرياً، واتخذ منهم حراساً وجنداً،

تاريخ الدعوة والدعاة

ولكن كان فيهم شر، وضج الناس من شرهم كما تقدم، فبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس، وأسكنهم بها، وسماهم البحرية، وأنشأ حول تلك القلعة مستودعات حربية مملوءة بالسلاح والذخيرة، وأمرهم ألا يخالطوا الناس بالمدينة، وأجرى عليهم الرواتب، والطعام، والشراب، والكساء، وكانوا دائماً على قدم الاستعداد لتلقي أوامره للخروج إلى القتال، وأخذ نجمهم في الصعود منذ أن هيات لهم الفرصة لقتال الفرنجة والتغلب عليهم.

وأسر ملكهم لويس التاسع ملك فرنسا عام ٦٤٧ هجرية في موقعة فارسكور والمنصورة، وكان ملكهم الصالح قد أهاب بهم، ودعاهم إلى القتال، وكانت الأخبار قد تواردت بأن روى دي فرانس -أي: ملك فرنسا- أتى في جموع من الفرنجة زاخرة، وفي ألوف من المقاتلين تحملهم السفن إلى دمياط، حيث ظلوا يحاصرونها زمناً، ثم ضيقوا عليها الخناق، وخاف أهلها من القتل، والسبي، فهجروا مدينتهم فارين تحت جنح الليل، فدخلها الفرنجة في الصباح، ومن ثم شرعوا يزحفون على بقية البلاد متجهين نحو مدينة المنصورة، مقيمين في طريقهم الاستحكامات.

وكان الملك الصالح قد أهاب بماليكه البواسل، فأحاطوا به، وحملوه في محفة، وساروا به نحو مدينة المنصورة، ونودي أن يجتمع إليهم عربان الجهاد؛ ليتعاون الجميع على دفع العدو عن البلاد، هنا فتك الملك الصالح بنائب دمياط، وطائفة أخرى من أمراء المماليك كانوا معه في إخلاء المدينة، وفراره منها، وتركها غنيمة باردة في يد الفرنجة.

فأنف ممالك السلطان من غدره، وحاولوا الفتك به جزاء لما قدمت يداه، ولكنهم تريتوا حتى يوقعوا بالفرنجة، وبعد ذلك يحاسبونه عما فعل، ولكن الموت سبقهم إليه، وكفاه شرهم.

فكتم موته حتى لا تكون إذاعته سبباً في تخاذل جنده، وتقوية الروح المعنوية عند الفرنجة، فتكون العاقبة وخيمة، وحملت جثة الملك في زورق، وسير به تحت ستر الليل إلى القاهرة، ودفن بالقلعة مؤقتاً.

وأرسلوا إلى ابنه المعظم توران شاه، وكان مقيماً في حصن كيفا ببلاد الشام، وقام أمراء المماليك بتدبير الأمور حتى يعود، وكان على الأمراء حسام الدين لاجين، وفارس الدين أقطاي، وعز الدين أيبك، ويبرس البندقاري، وأقاموا عليهم زوجة الملك الراحل، وهي شجرة الدر أم خليل زعيمة يأتمرون بأمرها، ويصدرون عن رأيها، فكان ذلك منهم أول خطوة في سبيل التآمر على ملك الأيوبيين، وقلب نظام الحكم فيه، وكان فيه تثبيت لنفوذهم، وإعلان مبدئي بأطماعهم.

عاد توران شاه بعد نحو ثلاثة شهور من دعوته لتسلم مقاليد الحكم، فدخل القاهرة، وأذيع موت أبيه الصالح، ونودي له بالسلطنة، وتلقب بالمعظم، ثم اجتمع المماليك تحت إمرته صفًا، وتحفزوا للقاء عدوهم بحماسة بالجهاد، وحب الاستشهاد، وكانت الأخبار قد توالى بزحف الفرنجة نحو فارسكور، فخف إليهم جيش المماليك سائرًا إلى شمال المنصورة، يعاضده جمع عظيم من فلاحى البلاد، ومعهم المقاليع، والحجارة، وعاونتهم أمداد من الشمال ضغطت على العدو، فأصبح بين قوتين، وكانوا قد أرسلوا هذه الأمداد من قبل، ومعها سفائن محمولة على جمال، لينزلوها في البحر تجاه دمياط، ومن ثم تسير في النيل نحو الجنوب، ثم هجم رجال القوتين هجمة صادقة على العدو، فأبادوا جمعه، وشتتوا شمله، وأسروا منه عددًا كبيرًا، ومنهم لويس التاسع نفسه، فسجنوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان بالمنصورة، ووكلوا حراسته إلى الطواشي صبيح

تاريخ الدعوة والدعاة

الفاطمي، فظل في سجنه حتى افتدى نفسه بالمال، وقتل في هذه المعركة من الفرنجة نحو ثلاثين ألفاً عدا من أخذ أسيراً، وعدا الغنائم، والأسلاب.

وفي هذه الموقعة ظهر تضامن طبقات الشعب ظهوراً محموداً، وبرزوا أطماعهم، وظلوا من بعدها يتلمسون الفرصة للوثوب العملي إلى عرش البلاد، وقد أتاحت لهم هذه الفرصة عندما أساء إليهم تورانشاه، وإلى شجرة الدر معاً إذ كف عنهم الخير، وتوعدهم بالأذى، وفضل عليهم أخصاءه الوافدون معه من الشام، وكان أولى له أن يتخذ من ممالك أبيه هؤلاء قوة، وسنداً، وعوناً، وعضداً لتدبير ملكه، وحفظ عرشه، وبخاصة بعدما ظهر منهم من قوة، ونشاط، وشجاعة، وإقدام، وبعد أن كانوا سبباً في انتصاره، ودحر عدوه لذلك كان انصرافه عنهم وتهديده لهم طيشاً منه وحمقاً دفعهم إلى الائتمار عليه، وما زالوا به يأتمرون حتى قتلوه أشنع قتله، وأبشعها.

وملكوا عليهم من بعده زوجة أبيه شجرة الدر، وأطاعوها تبعاً لذلك، ولما بدى منها لهم من عدل وكياسة، ولما فرقتهم من وظائف، وأعطيات، أو بالأحرى لإطاعتها لهم، وائتمارها معهم، وانطوائها تحت كلمة أحد زعمائهم، وهو الأمير عز الدين أيك، فعينته أتابك العساكر، أي: قائد الجند، وهي أرفع مرتبة في الجيش، فكان عز الدين المدير لمملكته، وصاحب الرأي في دولتها على الرغم مما يقال: من إنه كان لا يتصرف في الأمور إلا بعد مشورتها.

ضربت شجرة الدر الحجاب على نفسها، فكان لذلك أثره في ضعف مشورتها، وصعوبة اتصالها بأمرائها، وحسن اطلاعها على مهام دولتها، زد على ذلك أنها كانت أول امرأة مملكة في الإسلام، فكان تمليكها غريباً حتى قيل: إن الخليفة العباسي على ضعفه أرسل إلى المماليك يعنى عليهم أن يملكوا امرأة، كان ذلك

كله حافظاً لهم على إعادة النظر في أمر الملك من جديد، وكثر بينهم الأخذ والرد حتى رأت شجرة الدر بثاقب نظرها، وبعيد رأيها أن تخلع نفسها من الملك بعد أن مكثت فيه نحو ثمانين يوماً، ثم استشير الأمراء، والقضاة لاختيار سلطان جديد، فتمت المشورة بسلطنة الأمير عز الدين أيبك.

ثم تزوج هذا الأمير من شجرة الدر؛ ليكون ذا صلة بالبيت المالكي القديم مع أنها زوجة سيده، كان ذلك في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هجرية، فركب عز الدين في حفل جامع زاخر، وبأبهة، وجلال، وأجلس على سرير الملك، وقبل الأمراء الأرض بين يديه، ولقبوه بالملك المعز، فكان أول سلاطين المماليك بالديار المصرية، وعلى يده انتقل الملك من الأيوبيين إلى طائفة المماليك، فمن بعده توالى سلاطينهم على عرش البلاد سلطاناً بعد سلطان.

دولتا المماليك (٦٤٨: ٩٢٣ هـ)

بدأ عصر سلاطين المماليك عام ٦٤٨ هجرية على يد الملك المعز عز الدين أيبك، وظلوا يحكمون البلاد المصرية حتى ٩٢٣ أي: نحو ٢٧٥ سنة، وانتهى عهدهم بالاحتلال العثماني، وانقسموا خلال هذه الحقبة دولتين، هما: الدولة البحرية، والدولة البرجية أو الجركسية.

١. الدولة البحرية (٦٤٨ هـ: ٧٨٤ هـ):

مؤسسها عز الدين أيبك، وحكمت نحو مائة، وثلاثين سنة بين سنتي ٦٤٨ إلى ٧٨٤ هجرية ميلادي ١٢٥٠ إلى ١٢٨٠.

وكلمة البحرية أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم، وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، بقلعة الروضة،

تاريخ الدعوة والدعاة

فعرفوا بالبحرية، وصاحبهم هذا الاسم، وليس معنى ذلك أن كل سلاطين هذه الدولة أو ممالكها من الممالك الصالحية نفسها، بل منهم سلاطين، وممالك من غير البحرية الصالحية.

وذلك؛ لأن هؤلاء تشتتوا من بعد، وأصبحوا في حالة مزرية يرثى لها بعد قتل رئيسهم فارس الدين أقطاي، في عهد السلطان الملك المعز أيك؛ لأن هذا السلطان شعر بتآمر الصالحية عليه، فأخذ يقوي نفوذه، ويحصن عرشه، وجند لنفسه ممالك جددًا سموا بالمعزية، ثم بطش بالبحرية، فقتل زعيمهم فارس الدين، وشتت جمعهم، فصار كثير منهم إلى الشام، ومع ذلك ظلت هذه التسمية البحرية أيضاً لصيقة بممالك هذه الدولة، فعرفوا بها، وسماهم بها المقريني في خطته، وسماهم غيره دولة الأتراك.

وقد جمع الملك المنصور قلاوون بعد ذلك شتات الصالحية، وسماهم البحرية أيضاً؛ لأنه أحدهم، فبقي هذا الاسم فيهم، وفي بقاياهم، وأطلق على إحدى طوائف أجناد الدولة.

وقد غزت الدولة البحرية جملة غزوات موفقة، وكبحت جماح التتار في عدة وقائع، فدفعت خطرهم عن مصر دفعاً تاماً، وكفكت من عدوانهم على بلاد الشام، وكان ملوكها بمصر مستقلين، وملكوا باسمها في أغلب أيامهم بلاد الشام، وجزيرة العرب، ووصل نفوذهم حيناً إلى شواطئ الفرات، والجزيرة، وما وراء ذلك، كما وصل حيناً آخر إلى بلاد المغرب.

ونأخذ منهم نموذجاً الملك المعز عز الدين أيك ٦٤٨ هجرية إلى ٦٥٥ هجرية:

هو عز الدين أيك الجاشنكير الصالح التركي التركماني كان من ممالك الملك الصالح نجم الدين بن أيوب، فأعتقه، وما زال به حتى رماه أميراً، ولما توفي الملك الصالح

اشترك عز الدين في تدبير أمور الدولة مع بعض أمراء المماليك البحرية، ريثما يعود توران شاه بن الملك الصالح، ويتولى عرشه، فلما عاد توران شاه، وانهمزم الفرنجة فسد ما بينه، وبين أمراء أبيه فأدى ذلك إلى قتله، وصار الملك إلى شجرة الدر، فدبرت ملكها بوساطة عز الدين، ثم خلعت نفسها.

واختير عز الدين سلطاناً على البلاد، وتزوج شجرة الدر ليحظى بعلاقات بيت الملك، وكانت سلطنته في ربيع الآخر عام ٦٤٨ هجرية، ثم المنصور نور الدين بن المعز من ٦٥٥ هجرية إلى ٦٥٧، ثم المظفر سيف الدين قطز من ٦٥٧ هجرية إلى ٦٥٨ هجرية.

ثم الظاهر ركن الدين بيبرس ٦٥٨ إلى ٦٧٦ هجرية، هو ركن الدين بيبرس البندقداري، وقد لقب بالظاهر، ولي عام ٦٥٨ هجرية، وهو أهم ملوك الدولة البحرية، وأصله من أرض القبحاق، أسر، وبيع، واشتره صغير السن رجل يدعى العماد الضائع، فباعه للأمير علاء الدين أيديكين البندقداري، ثم انتقل ملكه إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبي، فنسب لذلك إليهما، وقد أعتقه الصالح، وضمه إلى مملكته البحرية، ورباه معهم، فشب شجاعاً باسلاً لا يهاب الموت، وقد عرفته الحروب، وهو أمير مقدماً صنديداً، عرفته في موقعة المنصورة التي هزم فيها الفرنجة في عهد توران شاه، وموقعتي عين جالوت وبيسان، اللتين هزم فيها التتار في عهد قطز.

اشترك بيبرس قبل سلطنته في عدة مؤامرات، منها مؤامرتة مع المماليك البحرية بزعامة فارس الدين أقطاي ضد الملك المعز، فلما قتل فارس الدين، وشتت شمل زملائه فر بيبرس مع بعضهم إلى بلاد الشام، واتصل بملكها الناصر، ثم عاد إلى مصر في عهد قطز، وعين أتابك العساكر، فقاتل معه في الطليعة.

تاريخ الدعوة والدعاة

ويعتبر المؤرخون بيبرس المؤسس الحقيقي لعظمة الدولة البحرية، لما تم على يده، وفي عهده من جليل الأعمال، فلقد اعتلت عليه بلاد الشام في أول عهده بالسلطنة؛ إذ أعلن الأمير سنجر الحلبي بنفسه سلطاناً عليها، وتلقب بالملك المجاهد، وجمع من حوله عدة من الأمراء.

وزاد الطين بلة معاودة التتار الزحف على بلاد الشام، فنهبوا، وقتلوا، وسبوا هذا إلى زيادة نفوذ الفرنجة في إماراتهم الشامية، وإلى قيام ممالك العز بمؤامرة واسعة النطاق للقضاء على سلطنة بيبرس.

هذه أمور جبهت مصر، فلم يكثر لها، وقابلها ثابت الجأش، قوي النفس، صلب الإرادة، ماضي العزيمة، ففتك بممالك العز، وقضى على مؤامراتهم، ووجد جيشاً قوي الشكيمة على بلاد الشام، فأخضع أمراءها، وأوقع بالتتار، وردهم عنها داحرين، وأذل الفرنجة، ونهه من نفوذهم، وهزم الأتراك السلاجقة، وفتح جملة من البلاد منها: البيرة، والكرك، وحمص، وبيسارية، وأرسوف، وصفد، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وحصن الأكراد، وعكا، وصافيتا، وبلاد سيس.

وقد غزى بيبرس بلاد السودان، واحتاز منها جزءاً إلى جانب ما احتازه، فهابه الناس، ودان له الملوك، والأمراء، وامتد في عهده ملك مصر، وانتشر سلطانها شرقاً وغرباً، وهيبت منزلتها، وظل بيبرس سلطاناً عليها يملأ الدنيا مهابة زهاء سبعة عشر عاماً، ثم مرض، وتوفي بدمشق، ودفن بها عام ٦٧٦ هجرية.

وأهم ما يتصف به بيبرس الشجاعة، والإقدام على الحروب، وحسن ترتيبها، مع الدهاء، والكرم، وحب الخير، والإحسان إلى الفقراء، وكان يكرم العلماء، وينطوي تحت مشورتهم، ويقربهم، وكان بعضهم يخاشنه في الحديث

والنصيحة، فلا يبطش به لمخاشته، وكان يهاب سلطان العلماء في زمانه، وهو عز الدين بن عبد السلام.

ووقعت بينه وبين عبد الله يحيى النووي أحد علماء الشام مكاتبات أغلظ له فيها النووي النصيحة، فما زاد على أن نفاه عن دمشق، وبعث إليه ابن مالك النحوي صاحب (الألفية) المشهور رسالة من الشام يستعينه فيها على صلاح حاله، فأعانه.

ومن أجل أعماله أن أمر بإبطال شرب الخمر، ومقارفة الزنا، وأشبه ذلك من المفسد، وشدد النكير على مقترفي هذه الآثام، حتى شدا بذكره بعض شعراء عصره، وتفكك بذلك بعض منهم آخر، كما أنه نظم البريد، وخصص له الخيل، وبنى الكثير من العمائر، ومن بينها مسجده الشهير، وجدد المسجد النبوي الشريف، وشاد القناطر، والأسوار، وحفر الترغ، والخلجان إلى غير ذلك من دروب الإصلاح، والإنشاء.

٢. دولة المماليك الجركسية (٧٨٤ : ٩٢٣ هـ):

تلك هي الدولة الثانية من دولتي المماليك، وأصل ملوكها من الجنس الجركسي، ولعل هذا الاختلاف اليسير في الجنسية بينهما، هو السبب في أن يعتبرهما المؤرخون دولة أخرى جديدة مغايرة للماضية، مع أن الحق في أنهما لا يفترقان في مظهر جوهرى؛ لأن ملوكهما من معتوقى المماليك المشتراة، أو من أبنائهم؛ ولأنهما لم يتبعا في الحكم إلا نظاماً واحداً في أصل حقيقته.

على الرغم من أن النظام الوراثي للسلطنة كان أكثر مراعاة في الدولة البحرية، وعلى الرغم من أن الثورات، والفتن، والمؤامرات الداخلية قد نشطت في الدولة الجركسية.

تاريخ الدعوة والدعاة

وعلى الرغم من فساد الجند، ومن اختلاط أجناسهم، وعدم العناية التامة بتربيتهم في الدولة الثانية بالنسبة لما كان من ذلك في الدولة الأولى، أما ما عاد ذلك فهما فيه متشابهتان.

فقد امتد نفوذ مصر المستقلة في عهديهما، فملكك بلاد الشام والحجاز في أكثر الأيام، وبسطت نفوذها أحياناً على بلاد السودان، والمغرب، وما وراء بلاد الشام نحو الشرق.

وشغلت بمحاربة التتار، والفرنجية، والسلاجقة، ويتشابه ملوك هاتين الدولتين في حب الظهور بمظهر المحافظة على الدين، والصالحين، واندفعوا إلى وقف بعض ممتلكاتهم على وجوه البر، وبنوا المساجد، والمدارس، والمستشفيات، والسبل، كما يتشابهون في النشأة العسكرية، والصبر على الكفاح كما أن نظام العمل، وترتيب الدواوين، وما إلى ذلك كان يسير في الدولتين على وتيرة واحدة تقريباً.

ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلهم دولتين لا واحدة، إلا ما ذكرنا اختلافهما في التركية، والجركسية".

وهذا الكلام للأستاذ الدكتور محمود رزق سليم في كتاب (عصر سلاطين المماليك، وتناجه العلمي، والأدبي).

ولهذا لا أفهم كبير معنى لجعلهما دولتين لا واحدة، إلا ما ذكرنا من اختلافهما في التركية والجركسية، وإلا ما راعاه البعض من أن البحرية كانوا يسكنون أول أمرهم قلعة الروضة.

وأن الجركسية كانوا يسكنون قلعة الجبل، وأصلهم من رعايا مملكة خوارزم، أكثر المنصور قلاوون من شرائهم حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعمائة.

وأسكنهم في أبراجها، ولذلك يسمون أيضاً البرجية، غير أنه من الحق أيضاً أن بعض السلاطين البحرية لم يكونوا من سكان قلعة الروضة، وأن بعض السلاطين الجركسية أو البرجية لم يكونوا من سكان أبراج قلعة الجبل، ومهما يكن من شيء، فأول ملوك الجراكسة هو برقوق بن أنص العثماني، وعددهم جميعاً واحد وعشرون عدا سلطنة أحد آل قلاوون، وأحد الخلفاء العباسيين.

الظاهر برقوق العثماني سيف الدين (٧٨٤ : ٧٩٠ هـ):

هو برقوق بن أنص الجركسي، وينسب إلى الخواجة عثمان تاجر الرقيق، الذي جلبه إلى مصر، وقد وصل إلى الأتابكية في عهد الملك المنصور علي بن الأشرف شعبان، فدبر له أمور الدولة، ثم دبرها لأخيه من بعده، ثم خلعه، ووثب إلى سرير الملك في عام ٨٧٤ هجرية، وعلى يده انقضى ملك آل قلاوون تقريباً، وانتقلت الدولة إلى الجركسية.

وقد كان السبب في سلطنته أن الملك آل إلى الصغار من آل قلاوون، فسرحت الفتن في البلاد ومرحت، فرأى الخليفة والقضاة والأمراء أن يولوا في الملك رجلاً قوياً ينقذ الرعية من الفساد، واختاروا أن يكون الأتابكي برقوق هو ذلك الرجل، وكان أول من قام به أن أهدى الخلع الثمينة والمناصب الرفيعة إلى أتابعه وخلصائه، وقبض على كثير من أعدائه، وأودعهم في السجن دون رحمة، وكان فاتكاً قاسياً فهابه الناس، وأبطل كثيراً من العادات الذميمة، وبخاصة ما كان يعمل في عيد النيروز.

وذلك أن يقف كثير من العوام يقهرون عظماء الدولة على أن يعطوهم مالاً، وفي ذلك اليوم يكثر تراشقهم بالبيض، والتصافع بالأنطاع إلى غير ذلك، فشدد

تاريخ الدعوة والدعاة

برقوق النكير على القائمين بذلك، وضرب على يدهم، وهددهم بالشنق حتى كفوا، وارتدعوا عن غيهم، ثم بنى مدرسته الشهيرة عام ٧٨٨ هجرية، ونظم فيها أمر الدراسة.

وساق لمقاتلة تيمورلنك التتري حملة من الجنود، فهزمته في ناحية سيواس، ومنعته العيث بالبلاد الحلبية، ثم شق عصى طاعته بعض أمراء الشام بزعامة الأمير يالغا الناصري، نائب حلب، فسير إليهم برقوق جنداً كثيفاً، ولكن كانت عاقبته الخذلان، وزحف يلبغا إلى القاهرة، فدخلها بعد قتال يسير، ثم نهبتها جنوده فنظر الأمراء، والخليفة فيمن يولونه سلطاناً، ولا سيما أن برقوقاً أن قد اختفى، فاجتمع رأيهم على إعادة الملك الصالح أمير حاج إلى الملك ثانياً، فتم ذلك عام ٧٩٠ هجرية بعد أن حكم برقوق نحو ست سنين وتسعة أشهر.

السلطنة، ونظام الحكم:

عرفنا منشأ المماليك، وأنهم كانوا يجلبون من بلادهم إلى الأسواق المصرية وغير المصرية، فيشترهم السلاطين، والأمراء، وعرفنا أيضاً كيفية انتقال الحكم المصري من يد الأيوبيين إلى المماليك البحرية، وهم ممالك الصالح نجم الدين الأيوبي.

ويتضح أن المملوك في أغلب الأحوال كان يظل رقيقاً زمناً غير محدود، يعيش في طباق القلعة معيشة جندي خالصة، حتى إذا ما ثبت لدى السلطان أن مملوكاً ما ذو مقدرة وكفاءة ممتازة، وبدا له ما يثبت تلك القدرة، والكفاءة أعتقه، وأنزله من الطباق إلى وظيفة أخرى، وأعانه على حياته الحرة بما يعطيه من مال، وقماش، وخيل، وما شابه ذلك.

وعتق المملوك لا يخرج عن أنه لا يزال من جند الدولة، ومن سواعدها التي تستند إليها، بل عتقه أول مراحلها في خدمتها العليا، حينئذ يتسع أفق الرقي أمام

المملوك، وتساوره المطامع، وتدفعه مقدرته وحظه معاً إلى التنقل في وظائف الدولة شيئاً فشيئاً، ويخلع عليه السلطان لقب الإمارة، فتسموا بذلك منزلته، ويتنقل في مدارجها صعوداً أخذاً طريقه نحو المناصب الرئيسية، وقد تدفع به الحوادث إلى أن يكون استداراً، أو دوداراً، أو أتابكياً، أو نائب سلطنة هذه وظائف.

وهذه المناصب من أسمى وظائف الدولة، وليس وراءها غير منصب السلطنة الجليلة، فإذا بلغ المملوك هذا الحد أصبح دائماً إلى هذا المنصب، وكثيراً ما تتقلب الأيام، وتتبدل الحوادث، فإذا بهذا الأتابكي، أو النائب يختار للسلطنة، وإن هذه المناصب المذكورة، وما ماثلها كانت تؤهل شاغلها لتولي الملك، فإذا اختير ملك جديد أقام بالقلعة أعني قلعة الجبل، وقد استخدمت في معظم هذا العصر مقراً رسمياً للسلطان.

وإليك بعض الأمثلة التي تبين المراقبي التي صعدتها بعض السلاطين من حالة الرق إلى حالة السلطنة، وذلك نقلاً عن ابن إياس، وغيره:

السلطان كتبغا المنصوري:

أسره الملك المنصور قلاوون في موقعة حمص التي كانت بينه وبين التتار، فأصبح من مماليكه ثم أعتقه وجعله أمير عشرة، هذه رتبة أيضاً، ثم صار مقدم ألف رتبة أيضاً، وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون صار نائب سلطنة، ثم خلع الناصر، وقفز كتبغا إلى العرش، غير أن الزمن الذي يستغرقه مملوك أسعده الطالع، وبلغه منصب السلطنة من عهد رقه إلى عهد سلطنته يختلف طولاً وقصراً، حسب اختلاف الأشخاص والظروف، غير أن أقصر زمن، ولا شك كان زمناً طويلاً، ولا يعتبر قصيراً إلا بالنسبة إلى سواهم، فقد يسلم المملوك أربعين عاماً أو خمسين في حياة رقي مضطرد حتى يصل إلى كرسي السلطنة.

تاريخ الدعوة والدعاة

ولذلك عد أمرًا عجيبيًا أن يصل السلطان الظاهر قانصوه بن قانصوه إلى منصب السلطنة في مدة لم تتجاوز ست سنوات ما بين رقه وعتقه وبين سلطنته.

والآن أصبح مفهومًا أن كل جندي مملوك قد يحول عليه الزمان، وتدفعه الأقدار إلى أن يكون سلطانًا يومًا ما، والأقدار إذا صنعت ذلك لا تتكلف معجزة خارقة، أو شذوذًا عجيبيًا، أو سنة غير معلومة، أو التواء، وتحويلًا في سياسة متبعة، بل ذلك هو المترقب المنتظر.

ولهذا لا يصح أن تعترينا الدهشة عندما يحدثنا التاريخ أن فلانًا المملوك أو الأمير حدثته نفسه يومًا ما بأن يلي السلطنة، وبأنه إذا ولي السلطنة يصنع كذا، وكذا، فقد روي أن الأمير حسام الدين لاجين المنصوري كان قد اختفى في مئذنة جامع بن طولون، ونذر أنه إن صار سلطانًا ليعمرن هذا الجامع، وقد صار سلطانًا، ووفى بنذره.

وروي أن المنصور قلاوون لما كان أميرًا في عهد الظاهر بيبرس خرج في غزاة، فأصيب بقولنج - القولنج: مرض معوي مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح - فعولج منه في مدينة دمشق بمعرفة أطباء جلبوا له الدواء من مستشفى نور الدين الشهيد فبراً، فتاق إلى زيارة هذا المستشفى فزاره، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مستشفى مارستانًا.

فلما أوتي الملك بر بنذره وأقام البيمارستان المنصوري، أي: المستشفى المنصوري، وقيل: إن الملك المؤيد شيخ سجن مرة، وهو أمير في خزانة شمايل، فقاسى بها شدائد عظيمة، فنذر في نفسه إن خلص من هذه الشدة وصار سلطانًا يهدم هذا السجن، ويقوم مكانه مسجدًا، ولما صار سلطانًا على مصر بر بوعد، وبني جامعته الشهير بجانب باب زويله مكان السجن المذكور.

الدعوة الإسلامية في العصر الحديث

عناصر الدرس

٤٣١	العنصر الأول : أساليب الدعوة
٤٣٧	العنصر الثاني : وسائل الدعوة

أساليب الدعوة

إن منهج الدعوة كمصطلح، أو كعلم خاص يشتمل على نظرية شاملة للدعوة لكل جوانبها، ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه؛ لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة، وغايتها ثابتة مفصلة في أغلبها، أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل، والأساليب، وصفات القوائم بالدعوة، وأحوال المدعوين، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث.

إن الدعوة في العصر الحديث تحتاج إلى دراسات متعددة؛ لتصل إلى إنسان العصر، معبرة عن دين الله تعالى بمنهج قويم، وخطة متكاملة، ولو أجاد المسئولون عن الدعوة، والمشرفون على حركتها العمل في توضيح هذه الأسس، وإيجادها في عالم الواقع التطبيقي؛ لتحقيق خيراً كثيراً للناس، ولوصلت الدعوة بوضوحها، وصفائها، وحجيتها للعالم كله.

وحينئذ نقول مطمئنين: لقد وصل الخطاب الصحيح الصادق إلى مستقره بنجاح وأمان، وبلغ الإسلام إلى كل إنسان في هذا الوجود.

إن العالم المعاصر يموج بالفكر، وتتعارض فيه المصالح، والكل يدافع عن نفسه، ويثبت حقه بحجج المنطق، وطرق الحوار، وكثيراً ما تعقد المؤتمرات، والندوات، وجلسات الخبراء، والعلماء للدراسة والبحث، وسندهم هو الكلمة والحجة، ولذلك اهتم العالم كله بعلوم الاتصال، وتطوير مؤسساته، وتطبيق النظريات العلمية في عملية التوجه للغير، ومخاطبته في القضايا التي يراد الوصول بها إلى غاية معينة.

تاريخ الدعوة والدعاة

ولم يعد في العالم ما هو مستور عن الناس ، فكل ما يحدث ينتشر ، وما يقرر يذاع حتى صار العالم مثل قرية صغيرة يعلم ساكنوها كل ما فيها.

والدعوة الإسلامية يجب أن تستفيد من هذا الفكر المعاصر ، وتمشي إلى العالم كله بأسلوبها ؛ لتصل بقضيتها إليه ، ولم يتم للدعوة ذلك إلا إذا استعدت ، وتأصلت ، والدعامات الأساسية للتأهيل هو العلم لكل الجوانب التي لا بد منها للدعوة ، وعلومها.

وحيثما نصف المنهجية بالمعاصرة ، فإن ذلك يعني أن تحتوي الدعوة وسيلة ، وأسلوباً على مفاهيم العصر ، وتتعامل مع مستجدات الحضارة بما يتفق ، وتوجيه الخطاب الديني في صورة لائقة ، ووجه مقبول.

إن أفكار اليوم تتحرك في صورة براءة ، وألوان متنوعة ، وتظهر محاطة بهالة من الفخامة ، والنظام ، وتتجه إلى كل طاقات الإنسان وعناصره ؛ فتثير العاطفة ، وتشبع الجوارح ، وتخطب العقل ، كل ذلك في إطار خطة مدروسة ، وهدف مقصود.

انظر إلى المحطات الفضائية ، وقد تعددت ألوانها ، وتنوعت غايتها ، وتأمل فيما أنفق ، وينفق عليها من أموال ، وتدبر عدد الأفراد الذين يشتركون في إنجاز برنامج واحد من مخرجين ، ومصورين ، ومقدمين ، ومحدثين ، وعش مع المؤثرات الصوتية ، والتصويرية ، والبيئية.

انظر إلى كل ذلك لتعرف مدى ما يبذل من جهد ، ومال للوصول للناس لنشر فكرة ، وتحقيق غاية.

وانظر إلى كثرة المطبوعات من صحف ، وكتب ، ومنشورات ، وإعلان لتقف على الفكر المعاصر ، وما يحيط به من اهتمام ، واتفاق ، ودراسة ، وتأمل الرسائل

اللاسلكية، وسرعة انتشارها في المناسبات، والأحداث، لترى دور هذه الرسائل لتحقيق الاتصال، ونشر ما يراد من أفكار، وشاهد ما يتحرك في البريد الإلكتروني بضخامته، وسهولته، وسرعته لتتأكد من روعة المخترعات الحديثة، وأهمية الاستفادة منها في الدعوة إلى الله تعالى.

إن عالم اليوم يتحرك بتخطيط مركز، وعلم مدروس، ويضحى بالكثير لتحقيق أهدافه وغاياته، ومع هذا نرى تصارع الأفكار، وتنافس الآراء والمذاهب، كل يبغى السيطرة والتفرد، ويعمل على العلو والبقاء.

والدعوة إلى دين الله تعالى رسالة إلهية نزلت لإسعاد البشرية كلها، وبلغها رسول الله ﷺ إلى الناس، وتركها في المسلمين أمانة يؤدونها إلى غيرهم؛ لتستمر بين الناس إلى يوم القيامة، هذه الرسالة يجب أن تستفيد بكل جديد مفيد، ولا يصح أبداً أن تترك وسائلها للتخلف، وتمشي إلى الناس بأسلوب باهت هزيل.

لقد صار وضع خطة كاملة لنجاح الدعوة إلى الله ضرورة شرعية، وإنسانية، وحضارية، وتتجلى الضرورة الشرعية في توجيه الله الناس، وقد حملوا أمانة الدعوة إلى أهمية مخاطبة الناس بلسانهم، وعلى قدر عقولهم، وبما يقنعهم ويرضيهم، وذلك لا يتأتى إلا بوضع تخطيط دقيق لتحقيق أمانة الدعوة على الوجه المطلوب.

أما الضرورة الإنسانية، فإن الدعوة إلى الله تعالى تعمل على سعادة الناس، ونشر السلام بينهم، ووضعهم في قيم الإنسان العليا المرتبطة بقيم العقيدة، ونبل الشريعة، ورفعة الأخلاق، وتلك غايات إنسانية لا تتحقق على الوجه المطلوب إلا بنظام تام يتحرك في إطار نظرية كاملة.

ناربخ الدعوة والدعاة

والحضارة والمدنية بجانبيهما المادي والمعنوي يحتاجان إلى روح الإسلام يملأهما، ويدعمهما ليقوم التقدم على الخير، ويتم الرقي بالخلق الكريم، والإنسانية العالية.

وهكذا تتضح المصطلحات العلمية لعلوم الدعوة، ويوضع كل مصطلح في موضعه خلال البحث والدراسة.

وهنا لا بد من إشارة سريعة إلى أن معاصرة المنهج الدعوي يبين ضرورة التخطيط الجاد لوضع هذا المنهج بصورة كاملة، إن التخطيط الجاد للدعوة يربط الحاضر بالماضي، حيث يأخذ من الماضي عبره ودروسه، ويجعل الحاضر امتداداً لعصر السلف الإسلامي الصالح، ويعمل على تنشئة الداعية القادر على القيام بمهمته، واستخدام الأسلوب الأمثل لمخاطبة مستمعه، ويسر للدعاة كافة الوسائل، وكل ما يحتاجون إليه في أمن وسلام، ولا بد للتخطيط المنهجي أن يعتمد على الدراسات النفسية، والاجتماعية، والإعلامية، والسياسية ليكون شاملاً لكل أركان الدعوة.

أساليب الدعوة:

يطلق الأسلوب في اللغة، ويراد به عدة معانٍ، فهو المذهب، والطريق، وهو المنهج، والوسيلة، وغير ذلك جاء في (لسان العرب): "أن الطريق الممتد الموصل لأمر ما أسلوب إليه".

والأسلوب -بضم الهمزة- هو الوجه، والمذهب، والأسلوب فن القول، وجمعه: أساليب، وسُلب، وحين نريد معنى الأسلوب في الاصطلاح الدعوي نريد أنه لا بد من تمييزه عن أي مصطلح مشترك معه في المعنى، ليستقل كل منهما

بموضوعه ومعناه، ولذلك وجب أن نبعد معنى الأسلوب في المصطلح الدعوي عن معنى المنهج والوسيلة.

إن الأسلوب هو الكلمة ينطق بها متكلم عبر وسيلة تحملها في إطار منهج كلي، وفلسفة شاملة لعملية الدعوة كلها، وقد عرف العلماء الأسلوب بأنه الألفاظ المختارة المركبة في صيغ مؤلفة للتعبير عن المعاني المراد إيصالها إلى الغير قصد الإيضاح والتأثير، والأداة الناقلة للأسلوب هي الوسيلة.

يقول الجاحظ: إن المعاني القائمة في صدور العباد المتصلة بخواطرهم الحادثة عن فكرهم مستورة خفية مكنونة معدومة عن الغير، لا تعرف إلا ببيان يظهرها، وأسلوب يوضحها، وكلما كانت دلالة الألفاظ أوضح، وإشارة الكلمات أفصح كان المعنى أنجح وأنفع.

والألفاظ بدلالاتها هي البيان الذي هو اسم جامع لكل ما يكشف لنا قناع المعاني، ويبرز حجب الضمير حتى يفهم السامع الحقيقة، ويدرك ما خفي وغاب.

وقد عرف العلماء علم البيان بأنه إظهار المعنى الواحد بأساليب مختلفة للتوضيح والتعريف، وعلوم البلاغة هي علوم الأساليب العربية كلها، والأسلوب المعبر عن المعنى يتركب من كلمات، أو من إشارات، أو من أحوال، والكلمات تكون مكتوبة أو منطوقة، والإشارات تكون مع لفظ أو بدونه، والأحوال تكون بسيطة أو مركبة، فالألفاظ تحسن المعنى، وتزينه في القلوب، وتثير داعية النظر والتدبر، وهي ترجمان العلم، وبها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، والصوت عنوان اللفظ، وطريقة إلى آذان المستمعين وعقولهم، وقد تكون الكلمة مكتوبة؛ ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين.

تاريخ الدعوة والدعاة

والكلمة المكتوبة أوسع انتشاراً، وأبقى زمناً، وتتعامل مع من يقرأها في كل حالاته وأوقاته، والقارئ حر في تناولها يقرأها مرة واحدة، أو على فترات، أو يكرر قراءتها، والإشارة تكون بإحدى الجوارح، أو بما يستعمله الإنسان من آلات كالقلم والسيف.

وأحياناً تلتقي الإشارة مع اللفظة في الإفادة، والبيان، وحينئذ يكون وقعهما أبلغ، ودلالتهما أوضح، والإشارة تفيد في بعض المواقف التي لا يصح فيها التصريح، ويضر فيها التوضيح، والأحوال دلالات ناطقة بلا لفظ، وبرهان بين بلا حديث مشيرة بلا يد، وذلك ظاهر في كل مخلوقات الله تعالى، ففي كل منها آية دالة على وجود الله تعالى.

ولقد كانت حياة النبي ﷺ العملية أسلوباً واضح في تعليم أمته بالأسوة، وإرشادهم بالعمل، والأحاديث الناقلة لأفعاله ﷺ المصورة لأحواله عديدة، ومنها:

عن عائشة قالت: ((ما رأيت النبي ﷺ منذ نزل عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] يصلى صلاةً إلا دعا، أو قال فيها: سبحانك ربي وبحمدك، اللهم اغفر لي اغفر لي)).

وهذه فاطمة ابنة رسول الله ﷺ، و > التي يقول عنها رسول الله ﷺ: ((فاطمة سيدة نساء أهل الجنة))، ويقول كذلك: ((فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها)).

وهكذا كانت دلالة أفعال النبي ﷺ ناطقة بالمطلوب فعله؛ لأن دلالة الحال أبلغ في كثير من الأحيان عن دلالة المقال.

وعلوم البلاغة هي المورد الفيض، والمعين الوافر الذي يجلي مزايا الأسلوب، ويحدد الأسلوب لحسنه، وجماله، وبيانه.

وسائل الدعوة

تعددت وسائل الدعوة قديماً، وأضاف عليها العصر الحديث أنواعاً أخرى، وما زال الجديد يظهر كل حين بوسائل جديدة، والعلماء المعاصرون يهتمون بوسائل الاتصال للاستفادة بها في مجال الإعلام، والتربية، والخدمة الاجتماعية، والتوعية السياسية، والاقتصادية، وغيرها.

وقد وضع علماء الاتصال نظرية متكاملة لعملية الاتصال تقوم على تصور كافة أركان العملية الاتصالية، التي يتصورونها في الرسالة الفكرية، التي يراد إيصالها للناس، ويجب أن تصاغ هذه الرسالة في أسلوب جميل يوضح الفكرة، ويدلل عليها بما يناسب المستقبل بالرسالة، وبعد صياغة الرسالة في أسلوبها يحملها طرف يسمونه بالمرسل، يتوجه بها إلى طرف مقصود يسمونه بالمستقبل، ونظرية الاتصال تتضمن أركان عملية الدعوة؛ لأن العملية الدعوية تتكون من:

- رسالة: وهي موضوع الدعوى.
 - وأسلوب: ويراد به صياغة الرسالة الدعوية في أسلوب بياني معين.
 - شخص حامل الرسالة الدعوية: وهو الداعية الذي ينقل الرسالة الدعوية إلى الناس.
 - وسيلة يستخدمها الداعية لنقل الرسالة الداعية إلى المدعوين.
 - مدعوين: وهم الطرف المستقبل للرسالة الدعوية.
- وقد أحاط علماء الاتصال هذه الأركان بدراسات عديدة، وطبقوها عملياً، وسجلوا نتائج أبحاثهم خدمة للقائمين بالاتصال.

تاريخ الدعوة والدعاة

وليس في الإسلام ما يمنع من الاستفادة بهذه الدراسات في خدمة تبليغ الإسلام للناس، وبخاصة أن الموضوع المراد تبليغه ثابت بثبوت الوحي بصورة مجملة أو مفصلة، ولا أثر لنظرية الاتصال في موضوع الدعوى.

وقد تقدم ما يتعلق بالإسلام من ناحية كونه موضوع الدعوى، أما الوسائل والداعية، وكيفية الخطاب فمن الأفضل أن يستفاد في ذلك بكل جديد ممكن، ما دام يحافظ على تعاليم الله تعالى، ولا يتضمن أمر منهيًا عنه.

بل إن الاستفادة بمستجدات العصر في الوسائل، والأساليب، وتكوين الدعاة، وكيفية التعامل الأمثل مع الأفراد، والجماعات من الضرورات الواجبة شرعًا في الإسلام؛ لأن التنافس الفكري، والتقاء الحضارات، وظهور كل فريق بكل جديد يظهر ذاته، ويحاول جذب الآخرين إليه مع تنوع الصور، وتعدد المغريات يحتم الاستفادة بكل مخترع جديد في إطار المشروعية الإسلامية.

الوسائل العملية:

الوسائل في مجملها آلات، وأدوات تحمل كلمات دالة على معانيها، أو إشارات، ورموز، وصور تقوم مقام الكلمة، إلا أن هناك أعمالًا تقوم بدور الكلمات، وتعرف المشاهد بالمطلوب، وفي بعض الحالات تكون أكثر تأثيرًا، وأقوى في الدلالة على المراد من الألفاظ، وهذا العمل المؤثر المفيد يكون غالبًا في سلوك قادة الرأي، ورواد الجماعة، وأئمة الدين، والذين أوتوا بسطة في المال، والعلم، والجاه.

وسائل المواجهة المباشرة:

المواجهة المباشرة وسيلة من وسائل الاتصال ذات الأثر الكبير؛ لأنها توضح رد فعل المستمع مباشرة، وتمكن المستمع من محاوره محدثه.

ولذلك عدت من الوسائل الدعوية الناجحة، ووسائل المواجهة تعتمد على بعض القوالب الفنية، التي يتم خلالها نقل الرسالة الدعوية في إطار أسلوب بياني دقيق يوضح المعنى المراد.

وأهم القوالب المباشرة ما يلي:

المحادثة البسيطة: الإنسان مدني بطبعه لا يعيش وحده أبداً، ولا يستغني عن غيره، ولا بد لكل فرد أن يستعين بغيره، ويتعامل معه في أحد جوانب حياته، وقد علم الله الإنسان الأسماء كلها، ورزقه النطق، والتعبير يفاهم بهما مع غيره، ويلتقي الجميع بهذه المباشرة سويًا بواسطة ما عرفوا من لغة وحديث، وما يجري بين الناس من كلام يعرف بالمحادثة، التي ينال بها كل ما يريد، ويتحدث فيما يرغب، واشتقاق المحادثة يدل على اشتراك أكثر من طرف فيها، والدعاة أفراد يعيشون مع غيرهم، وقد أوجب الله مسؤولية تبليغ الدعوة على الناس، وبخاصة إلى أقربائهم ومعارفهم، ومن هنا كانت المحادثة في صورتها الفنية، والتنظيمية وسيلة للدعوة.

وتتميز هذه الوسيلة بأنها توجد بين الناس بطريقة تلقائية، والكل معترف بها، ويتعامل معها إلا أن هذه الوسيلة تحتاج إلى حكمة الدعاة وإخلاصهم، ولا بد لهم معها من التخطيط، والتنسيق، والاستعداد، ومن أمثلة ذلك أن الأفراد يتأثرون بالأحداث اليومية، ويكثرون الحديث والنقاش حول هذه الأحداث، كحديثهم عن الانتخابات في وقتها، وعن الصيام في شهر رمضان، وهكذا.

وهذا الحال يقتضي أن يخطط الدعاة للاستفادة من الحديث المثار، وتوجيهه الوجهة الدينية، والاستفادة بالحدث بما يفيد الحركة بالدعوة، وحين يشعر المسلم

تاريخ الدعوة والدعاة

بمسؤوليته مع الدعوة، فإن هذه الوسيلة تمكن العامل من نصيح زميله، والجار من مساعدة جاره، والطالب من التأثير في رفيقه، وهكذا.

والمحادثة وسيلة سهلة للدعوة بين الزوج، وزوجته، وبين الوالد، وولده، وبين الأخ، وأخيه، وبين الجيران، ورفاق المسجد، والعمل، والطريق، والاستفادة بالمحادثة في الدعوة أمر سهل شريطة أن يهتم بها الدعاة، وكل مسلم يعمل لدينه.

المناقشة:

تختلف المناقشة عن المحادثة في أن المناقشة تحدث بعد إعداد وتهيئة، وتعتمد على موضوع محدد للمناقشة، وقد وضع العلماء للمناقشة أصولاً لا بد منها، فقد حددوا لها عدداً لا يزيد عن عشرين فرداً، يجتمعون في مكان معين أعد لذلك على هيئة خاصة، يسمح للجميع أن يسمع بعضهم بعضاً، ويرى بعضهم بعضاً، ويشترط العلماء أن يكون للمناقشة منظم وملاحظ، على أن تتم المناقشة في موضوع واحد يهتم به المتناقشون.

ووظيفة المنظم مساعدة الأعضاء؛ ليدلوا بأرائهم، ويعددهم عن الخجل، والثرثرة، والغوغائية، ووظيفة الملاحظ تسجيل كل ما يدور بين المجتمعين ليبقى درساً، وعبرة، ومرجعاً ليستفاد به، والمناقشة تفيدهم المتناقشين أنفسهم؛ أولاً: لأنها تحترم آراءهم، وخواطرهم، وتفيد الجماعة أيضاً؛ لأن تحديد موضع المناقشة يجب أن يكون في مسألة تهتم الناس؛ للوصول إلى قرار صحيح يفيد المجتمع كله، والداعية المخلص يستفيد بهذه الوسيلة الهامة في مناقشة أمور دينية يختار لها رجالاً يفهمون، ويعملون.

ومن أمثلة موضوعات المناقشة: الإقبال على صلاة الجماعة، حفظ صور من القرآن، الاهتمام بالتنشئة الإسلامية، المحافظة على الروح الإسلامية بين الناس، وهكذا.

إن مناقشة هذه القضايا وسط جماعة مؤمنة يحدد المشكلة ويضع الحل ، وينشط المشاركين في العمل ؛ لتنفيذ المقترحات التي رأوها ، واتخذوا قراراً محدداً معها ، ويذهب البعض إلى أن المناقشة فن علمي ظهر حديثاً ، إلا أننا نراه قديماً ظهر مع علماء المسلمين الأول ، فلقد كان أئمة المذاهب الفقهية يلتقون بتلاميذهم ، ويتناقشون في المسائل الفقهية ؛ للوصول للحكم الراجح .

وقد سجلت كتب الفقه هذه المناقشات ، الأمر الذي يدل على قدم هذا الفن ، والداعية هو منظم حلقة المناقشة ، وهو الذي يختار موضوعها ، وعليه أن يستعد لها بما عنده من علم بالقرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وآثار سلف الأئمة ليفيد الدعوة والمدعوين .

واشترط العلماء لنجاح المناقشة وجود منظم وملاحظ مع الجماعة ؛ لأن المنظم هو قائد مجموعة المناقشة ، وهو الداعية ، ويجب أن يكون مخلصاً للفكرة ، محبوباً من الجميع ، واسع الأفق ، ودوره هو استخلاص الرأي من المجموعة ، والملاحظ هو الذي يسجل كل ما دار في المناقشة من أجل تقييمها بعد ذلك ، والجماعة هي التي تقوم بالمناقشة ، ويجب عليهم أن يعدوا للموضوع ، وأن يهتموا به ، وأن يدرسوه دراسة مفيدة ومقنعة .

والمناقشة ليست هي المناظرة ؛ لأن المناقشة في هدف واحد ، واتجاه نحو نسبة واحدة ، وتكون تعاوناً بين أشخاص عديدين ، بينما المناظرة هي توجه المتخاصمين إلى موضوع واحد بهدف مغاير لكل منهما ، حيث إن كلاً من المتخاصمين يريد إثبات عكس ما يريد الآخر .

وتفيد المناقشة في تبادل الآراء ، وفهم الآخرين ، وإرضاء المعارضين ، وزيادة المعلومات ، وتحقيق الكرامة لكل فرد ، وتعبر عن كل الخواطر الوجدانية ، وتحل

المشاكل بصورة ملزمة للجماعة؛ لأنها هي التي اتخذت القرار، وأيضاً فهي توسع دائرة الشورى بين المتنافسين، وتعلم الجماعة ضرورة الشورى، والمنظم الداعية قائد لا يتطرف، ولا يفرض رأيه، ويساعد الملاحظ الأعضاء على القيام بدورهم، فإذا ما وجد عضواً خجولاً جذبته إلى المناقشة بالأمثلة التي تحتاج إلى إجابة طويلة، وإذا وجد عضواً ثرثاراً يسمح له بمقدار معين من الوقت، وعليه أن يتصرف مع المشاغب، والشكلي، والمهرج، والمتحمس بما يضمن المناقشة الجماعية المفيدة، التي يسبقها التفكير في الموضوع المعين، والاستعانة بالمعلومات من مصادرها الأصيلة.

الخطبة:

الخطبة فن قولي يحمل الدعوة إلى الناس، وألوانها عديدة، وصورها متنوعة، ووسائل التبليغ كثيرة، فقد أضفى عليها العصر الحديث وسائل أكثر، ووسط هذه الكثرة حافظت الخطابة على أهميتها القصوى في البلاغة، ولسوف يستمر لها هذا الدور إلى يوم أن يلقي الله جميع الناس.

إن الإنسان يسيره وجدانه أكثر مما يسيره فكره، والفرد مع الآخرين ينسى خواصه الفكرية، ومواهبه الأصيلة، ويندرج في وجدان الجماعة، يقول لوبون: وأعظم الرجال لا يتفاوتون عن العامة في الأمور التي مرجعها إلى الوجدان كالدين، والأدب، والميل، والنفور، وهكذا إلا نادراً، وليس هناك من هو أجدر من الخطبة في استمالة الوجدان، وتهيج الشعور، وتحقيق الانفعال المؤدي إلى الاندفاع، والعمل.

والفرد الذي يسيره العقل وحده لا تغفله الخطابة الدينية؛ لأنها قائمة على الحق بعيدة عن التغرير تستعمل الأدلة البرهانية، والأدلة الظنية، وغير ذلك من الأدلة حتى تصل إلى أعلى درجات اليقين.

إن ارتباط الخطابة بالعاطفة الدينية دافع إلى الاهتمام بها، وأيضاً فإن وجود الأمية، وكثرة الأعمال، وضيق الوقت دوافع رئيسة إلى ضرورة الخطابة؛ لأنها تخاطب الأمي على قدر طاقته تقرب له البعيد، وتذلل أمامه الصعب، وتوجز الزمن لمن لا يجده من أصحاب الأعمال، وتركز المعاني الكثيرة في كلمات قليلة، وتقدمها لمن تزحمه مشاغل الحياة.

ولأهمية الخطابة للدعوة كان لها الدور الرئيس في صدر الإسلام، حيث خطب النبي ﷺ في يوم الجهر بالدعوة، وكان يخطب في الوفود القادمة، وفي الجيوش الذاهبة، وكان يكلف القادرة على الخطابة أن يقوم بواجبه تجاه إخوانه، وتجاه غيرهم يدعوهم إلى الخير، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

وقد اصطلح العلماء على تسمية الخطابة الدينية بالوعظ، وتسمية القائمين بها بالوعاظ، وهذا تضيق لواسع؛ لأن الدين يشمل سائر جوانب الحياة، وكافة أمور الآخرة، وكل ما تتخيل الخطب فيه من تجارة، وزراعة، وصناعة، وسياسة، وتعليم، وحرب هو من أساسيات الدين، ولوازمه، وبذلك يقصد بالخطابة الدينية الخطابة في الأمور كلها.

صحيح أن الدعاة إلى الله اليوم هم الأئمة والوعاظ الذين يباشرون بخطبتهم جانباً من الدين يكاد ينحصر في باب الأخلاقيات، أو في تعليم بعض أصول العبادات، والتشريعات، وابتعدوا عن أنواع كثيرة من الخطب كالخطب القضائية، والسياسية، والعسكرية، وتركوها للمحامين، والزعماء، والعسكريين، وقد يكون هذا سر قصر الخطابة الدينية على الوعظ.

ووسيلة الخطابة في العالم الإسلامي، وبخاصة الوعظية منها من أهم وسائل الدعوة في العصر الحديث؛ لارتباطها بصلاة الجمعة، حيث يحرص المسلمون

ناربخ الدعوة والدعاة

على سماعها، ولو أآقن الدعاة رسائلهم الدعوية التي آآويها الخطبة، لأمكنهم عرض الإسلام، وتعليمه للناس؛ لأن العام الواحد يتكون من اثنتين وخمسين جمعة.

فلو قدم الخطيب لمرآادي المسجد عددًا من الموضوعات المتقنة؛ لقدم الكثير من المعارف، ولو تصورنا الخطبة محاضرة علمية، والمصلون يحيطون بها، فإننا نتصور جامعة راقية لتعليم المسلمين دينهم بوسيلة الخطابة.

إن الخطبة آآآاج إلى إعداد جيد، يتم من خلاله تقسيم الخطبة إلى عناصر مترابطة في إطار موضوع متكامل، وأهم مزايا الخطبة كوسيلة للدعوة أنها تأخذ صورة دينية واجبة، الأمر الذي يشير إلى أهمية إعدادها، وتنسيقها، ويآآم على الداعي أن يستعد لإلقائها بعناية، واهتمام، وتلزم الجمهور بالحضور للاستماع لها في يقظة، وانتباه. وتتميز الخطبة بأنها وسيلة مباشرة تجعل الداعية والمدعويين خلالها في اتصال مباشر، وهذا يؤدي إلى اكتشاف أثر الدعوة على المدعويين.

المنافرة:

المنافرة أسلوب علمي من أساليب الدعوة المباشرة، وصورتها أن يتخير الدعاة موضوعًا مآارًا بين الناس، اآآلفت الآراء فيه، وكآآرت المناقشات حوله، وبعد ذلك يقوم الداعية باآآيار عدد من العلماء المهآمين بالموضوع المآار، شريطة أن يمثلوا جميع الاتجاهات حول الموضوع، ويقوم كل منهم بالإعداد لتوجههم على أن يحدد موعد، ومكان للقاء يدعى إليه الناس وكل من يهمله هذا الموضوع.

ومآال ذلك: عقد منافرة في موضوع عمل المرأة بين الشريعة والقانون؛ لأن الآراء تنقسم في هذا الموضوع إلى ثلاثة آراء؛ رأي يمنع عمل المرأة مآلقًا، ورأي

يبيحه مطلقاً، ورأي يبيحه بقيود يحددها الدين وتقاليده المجتمع، وتتم المناظرة بوجود مشرف عليها، يقوم أولاً بتعريف الموضوع، وبيان أهميته، والتعريف بالمشاركين في المناظرة، وتوجه كل فريق منهم، وفي نهاية المناظرة يقوم المشرف بتلخيص ما دار في المناظرة، وما انتهت إليه، وعلى كل طرف أن يوضح رأيه، ويدلل على أحقيته بما أعد من دليل، وما جهز من براهين.

ومن فوائد المناظرة أنها تهتم بالتعمق العلمي، والغوص في المسائل التخصصية، ورواد المناظرة هم المهتمون بموضوعها، ولذلك يتم الإعلان عن الموضوع قبل موعد المناظرة بمدة طويلة، والمناظرة وسيلة راقية للدعوة يمكن للدعاة بواسطتها معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية برفق ولين، وبخاصة أن كل إنسان يسمع ما يقوله كل واحد من المتحدثين، ويشاهد ما يوجه إليه من نقد ولوم، ومن الممكن أن يحدد المستمع موقفه بعد المناظرة.

وفي التاريخ الإسلامي عقدت مناظرات كثيرة بين الدعاة وبين معارضيهم من أهل الكتاب ومن غيرهم، والمناظرة تختلف عن المناقشة؛ لأن المناظرة تضم أطرافاً متعارضة كل له توجهه الذي يدافع عنه ويرد ما عداه، أما المناقشة فهي عرض للآراء في علاج قضية ما، وكلهم في اتجاه واحد، وقد يحدث خلاف بين المتناقشين في الإجراءات لا في أصل الموضوع.

المحاضرة:

المحاضرة حديث طويل يلقي مباشرة على المستمعين، والمحاضر يختار موضوعه بما يعرض له من مشاكل الحياة والناس، وهذا يجعله قريباً من قلوب الناس محبوباً لديهم، ويجب أن يكون الموضوع المختار مدروساً دراسة وافية مستفيضة بعد

تاريخ الدعوة والدعاة

تحضير طويل وعميق، محللاً إلى عناصر بارزة، وخطوات واضحة مرتبة ترتيباً طبيعياً، ينتقل بالسامع من حلقة إلى حلقة، ويفضي في النهاية إلى ختام يستحسنه المستمع.

والذي يقوم بإلقاء المحاضرة هو الشخص الذي حضر الموضوع وجهزه، وفي أحيان قليلة نادرة يقوم بإلقائها شخص آخر نيابة عن المحاضر.

والمحاضرة عادة تكون من أهل التخصص الدقيق، ويصاحبها استعداد خاص كتجهيز مكان، والإعلان المسبق عن موضوعها.

وقد ذكر الأستاذ البهي الخولي تخطيطاً لمحاضرة في موضوع مقومات الإنسان الفاضل، نوجزها هاهنا استفادة بها لأهميتها، يقول الأستاذ البهي: "إن من السهل عليك أن تفترض في هذا الإنسان أن له رسالة في الحياة يعمل جاهداً لتحقيقها، وهو عزيز برسالته؛ لأن الإنسان الذي يعيش بلا غاية معينة، ولا مبدأ معروف يشبه السوائم المهملة، أما هذا فهو صاحب رسالة، وهدف، وأخيراً لا بد لعبد العزة والرسالة من العلم ليكون من أمره على بصيرة وهدى، ومن لا علم له لا بصر له".

تقوم المحاضرة إذاً على بيان مقومات الشخصية الفاضلة، وهي: العزة، والرسالة، والعلم، وتوضيح دور هذه المقومات في النشاط، والحركة، فإذا وضح المحاضر ذلك اقتنع السامع بالمحاضرة، ويمكن للمحاضر أن يقسم الدعائم الأساسية إلى عناصر فرعية، ويستحضر لكل عنصر ما يؤكد ويوضحه من كتاب الله، ومن سيرة رسوله ﷺ، ومن سيرة صحابته الكرام، ومن حركات التاريخ، وحوادث الزمان التي تسمع، أو تقرأ، أو تشاهد، وعلى هذا فعناصر المحاضرة الرئيسة هي: أهمية العلم للإنسان فرداً وجماعة، ضرورة محافظة

الإنسان على إنسانيته، دعائم الإنسانية الفاضلة العزة والثقة، لا بد للإنسان من هدف، وغاية آثار الالتزام بدعائم العزة على صاحبها.

وعلى المحاضر أن ينظر في الدعائم فيحدد معناها، وطرق تحقيقها، والمحافظة عليها، فمثلاً يجد أن العزة معناها أن لا يذل المرء لمخلوق مثله، ويجد أن الإنسان يغرز العزة في نفس المسلم؛ لأنه من ناحية ابتغاء المنافع، والخوف على الأرزاق قد علم أن رزقه في السماء، وما كان في السماء، فهو مصون لا تتناول إليه يد عابث في الأرض.

ولا بد من الحملة على الرجل الذليل بمقارنته بالرجل العزيز، فنجد أن عناصر العزة هي تعريفها، والعوامل التي تحافظ عليها، وفوائدها، والأضرار التي يقع فيها من لا يتمسك بها، وعلى ضوء عناصر هذه الدعامة تكون بقية الدعائم، وعلى نمطها يتمكن المحاضر من تقسيم موضوعه أيًا كان إلى دعائم، ثم يقسم الدعائم إلى عناصر.

ويجب أن يتحكم العقل في استنباط الدعائم، وترتيب العناصر، وفي جمع الشواهد، وفي سوق الحديث، ويجب أن تتحكم في كل ذلك العقلية العملية الواعية، وعلى المحاضر أن يحذر من بيان تقسيم موضوعه في المقدمة، أو بيان حقيقة عناصره، أو ينحو نحو التقسيمات الفلسفية، أو التعميق النظري، ففي الموضوع الذي حللناه لم يذكر كل شيء فيه، ومن السهل أن يحلل المحاضر موضوعه بوجه آخر، ولكل محاضر أن يأخذ الجوانب التي يراها أنها مفيدة في موضوعه وفي مستمعيه.

وعلى ضوء ما ذكر نرى أن المحاضرة تشبه الخطبة في أنها تقصد إقناع الناس، وأنها تعتمد التقسيم العقلي والعلمي لموضوعها، وأنها تحتوي أقساماً تشبه

تاريخ الدعوة والدعاة

الأقسام التي تحتوي عليها الخطبة، كما أنها تتخذ موضوعات متنوعة تجعلها تتنوع إلى محاضرة سياسية، واجتماعية، ودينية، ومع ذلك فإننا نلاحظ فروقاً بين الخطبة، والمحاضرة نذكر أهمها فيما يلي:

موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة؛ لأن التقسيم يبدأ في المحاضرة، أو بالمبادئ ثم تقسم المبادئ إلى عناصر بينما الخطبة تقسم إلى عناصر ابتداءً، وعلى ذلك فالمحاضرة أقرب إلى البحث العلمي والخطبة أقرب إلى الدرس الديني. يغلب على المحاضرة أسلوب تقرير الحقائق وتثبيت المعاني، والاعتماد على المنطق، والتحليل، والتوضيح، أما الخطبة فيغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر، وتهيج الدوافع والانفعالات.

عناصر المحاضرة أشبه بالقواعد والمبادئ الأساسية، أما عناصر الخطبة فأشبهه بالخواطر العارضة، والمعاني الطارئة.

المحاضرة تستغرق وقتاً طويلاً ومن الممكن تقسيمها على عدد من الأيام، أما الخطبة فوقتها قصير ولا تحمل تقسيماً؛ لأنها لا تصلح إلا لوقت واحد تلقى فيه.

جمهور المحاضرة من الخاصة غالباً بينما جمهور الخطبة من سائر الطوائف.

ومع وجود هذه الفروق بين الخطبة والمحاضرة فإننا نلاحظ أن المحاضرة أقرب شبيهاً بالخطبة من المناقشة، وعلى الخطيب الداعية أن يعقد بين الحين والآخر محاضرة في موضوع يختاره، ويدعو إليه الناس لكي يلون في أسلوبه؛ لأن ذلك أجدى لدعوته، وأكثر فائدة في مهمته.

الندوة:

والندوة وسيلة للدعوة الإسلامية، وصورتها أن يجتمع عدد من العلماء والدعاة لمناقشة موضوع ما، على أن يقوم كل منهم بتوضيح جزئية من الموضوع، يكمل

بها زملاءه أمام جمهور يسمعهم ويتابعهم، وبهذا التصور يسمع الناس عددًا من آراء العلماء في موضوع واحد يكمل بعضهم بعضًا، ويمكن للمستمعين أن يعلقوا على المتحدثين اعتراضًا، أو اتفاقًا، أو استفهامًا، وحينئذ تعرف المحادثة بأنها محادثة مفتوحة.

واختلافها عن الخطبة، والمحاضرة، والمناقشة، والمناظرة، واضح؛ لأن الخطبة، والمحاضرة يتكلم فيهما فرد واحد، والندوة تجمع عددًا، وكذلك نراها تختلف عن المناقشة والمناظرة؛ لأن المناقشة عرض للآراء في موضوع ما، ومناقشتها للوصول إلى الرأي الأسلم.

وأيضًا فإن المناظرة تجمع عددًا متعارضًا كل يثبت رأيه، وينقض ما عده، أما الندوة فهي تعاون عدد من العلماء في إظهار قضية واحدة بلا تعارض بينهم، وكذلك فإن المناقشة يحضرها المناقشون وحدهم، أما الندوة فيحضرها جمهور كبير يسمع، ويتابع، والدعاة يمكنهم مناقشة قضايا مجتمعتهم خلال هذه الوسيلة لما لها من تأثير في الناس؛ لأنها تجمع آراء العلماء في موضوع واحد، وهذا يساعد في إقناع الآخرين، والثقة فيما يصنعون لصدوره عن عدد من العلماء.

الحديث:

يراد بالحديث في مجال وسائل الدعوة ما يقوم به الدعاة بعرض فكرة، أو تفسير آية، أو شرح حديث، أو بيان حكم فقهي يحتاجه الناس، والحديث قليلة كلماته قصير وقته، وهو مناسب للناس في عصر السرعة والانشغال بالدنيا.

ومن الآداب التي يحتاج إليها المتحدث ما يلي: إخلاص النية، وأن يكون لينًا رقيقًا رقيقًا في كلماته، وأن يستعمل من الأدلة أظهرها وأجلاها حجة وأعدلها

تاريخ الدعوة والدعاة

مسلكاً، وألا يخلط الأصول بالفروع، ويقدم ما حقه التقديم، ويؤخر ما حقه التأخير، وأن يعطي كل شيء حقه، ومستحقه، والتزام الأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، والأقوال المهذبة البعيدة كل البعد عن الطعن، أو السب... إلخ.

المؤتمرات والمجامع العلمية:

يراد بالمؤتمرات العلمية اجتماع لفييف من العلماء المتخصصين في أحد فروع العلم بصورة دورية، أو عند الحاجة لمناقشة موضوع متعدد الجوانب متنوع التوجهات.

وعدد العلماء المشاركين في المؤتمرات، والمجامع العلمية كثير يصل إلى المئات في بعض الأحيان، ولذلك لا تكفيهم جلسة واحدة كالمناظرة والمناقشة والندوة، ولا يمكن لمجموعهم أن يجتمع في مكان واحد، ولذلك وضع العلماء للمؤتمرات، والمجامع طريقة للاجتماع والمدارسة، وذلك بأن يقسم موضوع المؤتمر إلى عدة جوانب على أن يقدم كل مشترك في المؤتمر بحثاً علمياً يليق به في جانب يختاره، ويقسم المؤتمر إلى لجان وفرق، كل فرقة تختص بدراسة جانب تطلع على أبحاثه وتناقشها وتقرر ما تراه إزاءها، وتستمر هذه المناقشات عدداً من الأيام تنتهي بلقاء موسع لإقرار ما انتهت إليه اللجان المختلفة.

ويمكن للمؤتمرين إلقاء محاضرات موسعة عامة خلال أيام المؤتمر لها صلة بالموضوع الرئيس، وهذا اللون من نقل الأفكار قديم، فهناك مجامع الكنيسة ومؤتمراتها التي تمت في القرن الثالث الميلادي، وهناك المؤتمرات الإسلامية العديدة، ومن المجامع ما هو ثابت معروف بأعضائه كالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ومجمع البحوث الإسلامية بمصر، ومجمع الفقه بالمملكة العربية السعودية، والمجمع العلمي بالهند، ومجامع اللغة العربية، وهكذا، ومنها ما هو

مؤقت مثل المؤتمرات التي عقدت لدراسة موضوع ما في السيرة، أو السنة، أو الدعوة، أو الاقتصاد... إلى آخره.

ويمكن أن يشترك في المؤتمرات الإسلامية غير المسلمين لعرض آرائهم والاستماع لغيرهم، وهذه المؤتمرات وسيلة ناجحة لوضع أفضل تصور في الموضوع المثار، إلا أنها تحتاج لمساندة كبيرة من الجمهور، ومن القادة؛ لأن التوصيات في أغلبها تكون مثالية الغاية والهدف، وتتصور ما يجب أن يكون.

وتهتم الجامع بالقضايا العامة، ومن أمثلتها الحكم الشرعي للفوائد المترتبة على المعاملات المالية، تنظيم مطالع الهلال، الحلول المعاصرة لنقل الأعضاء، وأطفال الأنابيب، وهكذا، تطوير الخطاب الديني، قضايا المرأة في المجتمع المعاصر، تقنين الشريعة الإسلامية، تيسير العلوم الإسلامية... إلى آخره.

أما الوسائل السمعية، فمنها المذياع، هو ناقل الصوت عبر الأثير، ويقوم بإعداد الرسالة المذاعة هيئات، ومؤسسات ضخمة لها ميزانيات كبيرة، ولذلك نرى جهداً علمياً وأثراً واضحاً في كل ما يذاع ويصل إلى المستمعين.

إن المسئولين عن الإرسال الإذاعي يعملون على إرضاء المستمعين، وإشباع حاجاتهم الفكرية والثقافية، ولذا نرى تعدد البرامج المرسلة، وتنوعها، ودقة توجهها إلى عقل ونفس الناس.

إننا من خلال المذياع نسمع الرأي، والتحليل، والفكر، والتعليق، والحدث، والدوافع، ونسمع الكلمة، والقصة التمثيلية، والحديث، والأخبار، وغير ذلك.

والمسئولون على الإرسال الإذاعي يعتمدون على مندوبين ومراسلين، ووكالات الأنباء في جهات العالم المختلفة لمعرفة الأحداث، والأخبار فور وقوعها، ولاكتشاف اتجاهات الرأي العام ورغبات الجمهور، كما يقومون بعد كل فترة

ناربخ الدعوة والدعاة

بأخذ الآراء لاستببان توجهات المستمعين من أجل الاستمرار في البرامج المفيدة، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل، واستحداث برامج أخرى، وهكذا.

والإذاعة وسيلة حسنة للدعوة الإسلامية لما يلي: الإذاعة تسهل وصول الفكر الإسلامي إلى كل مكان، وبمختلف لغات العالم من خلال الإذاعات الموجهة باللغات الأجنبية، وبذلك يصل الإسلام بلا عائق، أو صد؛ لأن المعارض لا يمكنه إغلاق الغلاف الجوي، أو التحكم فيه بصورة مطلقة.

يتمكن الدعاة بواسطة المذياع من مخاطبة كافة فئات المجتمع، وبنقاشون خلالها قضايا المرأة، والعمل، والتجارة، والشباب، والتعاليم، ويحللون الأحداث، ويفسرون الظواهر، ويقدمون الحلول لحاجات الجماهير.

يمكن مخاطبة الإنسان بواسطة المذياع أيًا كانت حالته؛ لأنه سيسمع الكلمة المذاعة، وهو في بيته، أو عمله، أو وهو يستريح، أو يأكل، وهكذا. يصاحب الدعاة من خلال المذياع الناس في سفرهم، وفي إقامتهم، ويذكرونهم، وهم بعيدون عنهم، يتمكن الدعاة بواسطة هذه الوسيلة من التركيز على موضوع معين، فمثلاً ينصحون بالكلمة المباشرة، وبالتمثيل الهادف، وبالحوار بين طرفين، وبالأشود الدينية، يتمكن الدعاة من متابعة الأحداث والمناسبات فور ظهورها، فيوصلونها للناس ويقومون بتحليلها.

والاستفادة بوسيلة الإذاعة في الدعوة تحتاج إلى ما يلي: دقة الرسالة الدعوية، وأن يعد مقدمو البرامج الدعوية الإجابة عن كل سؤال محتمل، وأن يكون الدعاة مقدمو البرامج الدعوية نماذج تطبيقية للإنسان المسلم الذين يعملون لوجوده في الناس.

الشريط :

من الوسائل المستخدمة المستحدثة التي يمكن الاستفادة بها في تقديم الإسلام، والدفاع عنه الشريط الإسلامي، وهو يحتاج لجهد بسيط، إلا أنه لا بد له من

تركيز عقلي في اختيار الموضوعات التي يقوم بتسجيلها، ونشرها، وبواسطة الشريط يمكن نقل الخطب، والمحاضرات، وتسجيل الكتب، والتاريخ الإسلامي.

الرسائل:

يهتم الشباب بالتعارف عن طريق الرسائل البريدية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى نشر الرغبة في التعارف بإحدى الصحف والمجالات التي تهتم بذلك.

الملصقات:

تتضمن الملصقات دعوة في كلمات دقيقة تذكر بالله، وتأمراً بالخير، وتدعو إلى المعروف، وفائدتها تعم كثيراً من الناس يقرءونها حين رؤيتها في مكان العمل، أو الطريق، أو عند باب البيت.

أما الوسائل المكتوبة: فمنها الكتاب يعد الكتاب وسيلة للدعوة إلى الله؛ لأن المؤلف حين يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحليلية لموضوعات هامة، مثل: (الانقسام بين العقيدة، والسلوك الأسباب، والعلاج)، (ظاهرة الوهن في المجتمع المسلم)، (الدعوة المثالية في القرية المصرية)، (العولمة الفكرية، وموقف الإسلام منها)، (الداعية المثالي بين التصور، والواقع)، (المحافظة على نفسية المدعوين)، (طرق الإقناع في الدعوة إلى الله تعالى).

الكتيب:

الكتيب تصغير كتاب، وهو عبارة عن فكرة سريعة توضع في كلمات موجزة، وفائدة الكتيب تظهر في إمكانية الحصول عليه؛ حيث إنه صغير الحجم قليل الصفحات، وهذا يسهل وضعه في جيب صغير، وسرعة الانتهاء من قراءته.

الصحيفة اليومية :

وتتميز بما يلي متابعة الأخبار في العالم سهولة الحصول على الصحيفة يوميًا لقلّة ثمنها، تُخدم الصحيفة الجانب الذي قامت له، فهناك الصحف الاقتصادية، والزراعية، والسياسية الصحف الإسلامية الجادة هي التي لا تنشر الصور العارية، ولا الأخبار الفاضحة ولا الإعلانات المحرمة.

الدوريات :

ويراد بالدوريات المطبوعات التي تقدم للقارئ بصفة دورية كل ثلاثة أشهر أو نصف سنة أو سنة، ويراد بالحواليات المطبوعات التي تصدر كل عام. والدوريات أو الحواريات تتضمن دراسة موضوعية بحثية طويلة، فليس دورها نشر الأخبار أو متابعة الأحداث، وتصدر الحواريات والدوريات من هيئات كبرى متخصصة.

أما الوسائل المرئية المصورة، فمنها: التلفاز، والكمبيوتر، الوسائل الفضائية الحديثة منها التليفون المحمول، ومنها البريد الإلكتروني، ويراد به ما يمكن أن يفعله أي فرد أو هيئة؛ إذ تضع لنفسها رمزًا معينًا، وتفتح به موقعًا على هذا البريد الفضائي، وبواسطة هذا الموقع يمكن إرسال أي رسالة لأي موقع، واستقبال أي رسالة يوجهها الآخر من أي موقع.

وحتى تتحقق الاستفادة بهذه الوسائل جميعًا لا بد للدعاة من مراعاة الأسس التالية: مشروعية الوسائل، خلو الوسائل من الضرر، ملاءمة الوسيلة للتقدم الحضاري، تضمن الرسالة لعوامل الجذب والتأثير، ملاءمة الوسيلة للمدعوين.

أشهر الدعاة إلى الله تعالى

عناصر الدرس

- العنصر الأول : مصعب بن عمير < أول سفراء الإسلام ٤٥٧
- العنصر الثاني : الحسن البصري - رحمه الله- ٤٦٢
- العنصر الثالث : الإمام أحمد بن حنبل < ٤٦٤

مصعب بن عمير < أول سفراء الإسلام

هذا رجل من أصحاب النبي ﷺ غرة فتيان قريش، وأوفاهم بهاءً، وجمالاً، وشباباً.

يصف المؤرخون والرواة شبابه فيقولون: كان أعطر أهل مكة، ولد في النعمة، وغذي بها، وشب تحت خمائلها، ولعله لم يكن بين فتيان مكة من ظفر من تدليل أبويه بمثل ما ظفر به مصعب بن عمير، ذلك الفتى الريان المدلل المنعم حديث حسان مكة، ولؤلؤة ندواتها ومجالسها، لله ما أروعها من نبأ نبأ مصعب بن عمير، أو مصعب الخير، كما كان لقبه بين المسلمين.

إنه واحد من أولئك الذين صاغهم الإسلام، ورباهم محمد ﷺ ولكن أي واحد كان إن قصة حياته لشرف لبني الإنسان جميعاً، لقد سمع الفتى ذات يوم ما بدأ أهل مكة يسمعون عن محمد الأمين ﷺ وحين كانت مكة تسمي وتصبح ولا هم لها ولا حديث يشغلها إلا الرسول كان فتى قريش المدلل أكثر استماعاً لهذا الحديث، ذلك أنه كان على الرغم من حداثة سنة زينة المجالس والندوات، تحرص كل ندوة أن يكون مصعب بين شهودها، ذلك أن أناقاة المظهر ورجاحة العقل كانتا من خصال ابن عمير التي تفتح له القلوب والأبواب.

ولقد سمع فيما سمع أن الرسول ومن آمن معه يجتمعون بعيداً عن فضول قريش وأذاها هناك على الصفا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، فلم يطل به التردد ولا التلبث والانتظار، بل سحب نفسه ذات مساء إلى دار الأرقم تسبقه أشواقه ورؤاه، هناك كان الرسول يلتقي بأصحاب فيتلو عليهم من القرآن ويصلي معهم لله العلي الكبير، ولم يكد مصعب يأخذ مكانه، وتنساب الآيات من قلب

الرسول متألقه على شفثفه؁ ثم آخذة طررفها إلى الأسماع والأفئدة حتى كان فؤاد ابن عمفر فف تلك الأمسفة هو الفؤاد الموعود.

ولقد كادت الغبطة تخلعه من مكانه؁ وكأنه من الفرحة الغامرة يطفر؁ ولكن الرسول ﷺ بسط فمفه المباركة الحائفة حتى لامست الصدر المتوهج؁ والفؤاد المتوثب؁ فكانت السكنفة العميقة عمق المحيط؁ وفف لمح البصر كان الفتى الذف آمن وأسلم فبدو ومعه من الحكمة ما ففوق ضعف سنه وعمره؁ ومعه من التصمفم ما فغير سفر الزمان؁ كانت أم مصعب خناس بنت مالك تتمتع بقوة فذة فف شخصفئها؁ وكانت تهاب إلى حد الرهبة؁ ولم فكن مصعب حفن أسلم لفحاذر أو فخاف على ظهر الأرض قوة سوى أمه؁ فلو أن مكة بكل أصنامها وأشرافها وصحرائها استحالت هولاً فقارعه وفصارعه لاستخف به مصعب إلى حفن؁ أما خصومة أمه فهذا هو الهول الذف لا فطاق؁ ولقد فكر سرفعاً وقرر أن فكتم إسلامه حتى فقضف الله أمره؁ وظل فتردد على دار الأرقم وفجلس إلى رسول الله ﷺ وهو قرفر العفن فإفمانه؁ وفبفادفه غضب أمه الفف لا تعلم عنه إسلامه خبراً.

ولكن مكة وفف تلك الأيام بالذات لا فخفى ففها سر؁ فعفون قرفش وآذانها على كل طرفق؁ ووراء كل بصمة قدم فوق رمالها الناعمة اللاهبة الواشفة؁ ولقد أبصر به عثمان بن طلحة؁ وهو فدخل خففة إلى دار الأرقم؁ ثم رآه مرة أخرى؁ وهو فصلفف كصلاة سفدنا محمد ﷺ؁ فسابق رفح الصحراء وزوابعها شاخصاً إلى أم مصعب حفف ألقى عليها النبأ الذف طار بصوابها؁ ووقف مصعب أمام أمه وعشفرته وأشراف مكة المتجمعون حوله فتلو عففهم فف فقفن الحق وثباته القرآن الذفن فغسل به الرسول قلوبهم وفملؤها به حكمة وشرفاً وعدلاً وتقى.

وهمت أمه أن تسكته بلطمة قاسية ولكن اليد التي امتدت كالسهم ما لبثت أن استرخت وترنحت أمام النور الذي زاد وسامة وجهه وبهائه جلالاً يفرض الاحترام، وهدوءاً يفرض الإقناع، ولكن إذا كانت أمه تحت ضغط أمومتها ستعفيه من الضرب والأذى فإن في مقدرتها أن تتأثر للآلهة التي هجرها بأسلوب آخر.

وهكذا مضت به إلى ركن قصي من أركان دارها، وحبسته فيه، وأحكمت عليه إغلاقه، وظل رهين محبسه ذلك حتى خرج بعض المؤمنين مهاجرين إلى أرض الحبشة، فاحتال لنفسه حين سمع النبأ، وغافل أمه، وحراسه، ومضى إلى الحبشة مهاجراً أواباً، ولسوف يمكث بالحبشة مع إخوانه المهاجرين، ثم يعود معهم إلى مكة، ثم يهاجر إلى الحبشة للمرة الثانية مع الأصحاب الذين يأمرهم الرسول ﷺ بالهجرة فيطيعون.

ولكن سواءً كان مصعب بالحبشة أم في مكة فإن تجربة إيمانه تمارس تفوقها في كل مكان وزمان، ولقد فرغ من إعادة صياغة حياته على النسق الجديد، الذي أعطاهم محمد ﷺ نموذج المختار، واطمأن مصعب إلى أن حياته قد صارت جديرة بأن تقدم قرباناً لباريها الأعلى وخالقها العظيم، خرج يوماً على بعض المسلمين، وهم جلوس حول رسول الله، فما أن بصروا به حتى حنوا رءوسهم، وغضوا أبصارهم، وذرفت بعض عيونهم دمعاً شجياً، ذلك أنهم رأوه يرتدي جلباباً مرقعاً بالياً، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه حين كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة وألقاً وعتراً، وتلمى رسول الله مشهده بنظرات حكيمة شاكرة محبة، وتألفت على شفثيه ابتسامته الجليلة، وقال: **((لقد رأيت مصعباً هذا وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه، ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله))**.

لقد منعت أمه حين يئست من رده كل ما كانت تفيض عليه من نعمه ، وأبت أن يأكل طعامها إنسان هجر الآلهة ، وحاقت به لعنتها حتى لو يكون هذا الإنسان ابنها ، ولقد كان آخر عهداها به حين حاولت حبسه مرة أخرى بعد رجوعه من الحبشة ، فألى على نفسه لئن هي فعلت ليقتلن كل من يستعين به على حبسه ، وإنما لتعلم صدق عزمه إذا هم وعزم فودعته باكية ، وودعها باكية ، وكشفت لحظة الوداع عن إصرار عجيب على الكفر من جانب الأم ، وإصرار أكبر على الإيمان من جانب الابن ، فحين قالت له ، وهي تخرجه من بيتها : اذهب لشأنك لم أعد لك أمًا ، اقترب منها ، وقال : يا أمه إنني لك ناصح ، وعليك شفوق فاشهدي أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله . أجابته غاضبه مهتاجة : قسمًا بالثواقب لا أدخل في دينك ، فيذري برأيي ، ويضعف عقلي ، وخرج مصعب من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها مؤثرًا الشغف والفاقة ، وأصبح الفتى المتأنق المعطر لا يرى إلا مرتديًا أخشن الثياب يأكل يومًا ويجمع يومًا ، ولكن روحه المتأنقة بسمو العقيدة ، والمتألقة بنور الله كانت قد جعلت منه إنسانًا آخر يملأ الأعين جلالًا والأنفس روعة .

وأنثذ اختاره الرسول لأعظم مهمه في حينها أن يكون سفيره إلى المدينة ، يفقه الأنصار الذين آمنوا ، وبايعوا الرسول عند العقبة ، ويدخل غيرهم في دين الله ، ويعد المدينة ليوم الهجرة العظيم ، لقد جاءها يوم بعثه الرسول إليها ، وليس فيها سوى اثني عشر مسلمًا ، هم الذين بايعوا النبي من قبل بيعة العقبة ، ولكنه لم يكد يتم بينهم بضعة أشهر حتى استجابوا لله وللرسول ، وفي موسم الحج التالي لبيعة العقبة كان مسلمو المدينة يرسلون إلى مكة للقاء الرسول وفدًا يمثلهم وينوب عنهم ، وكان عدد أعضائه سبعين مؤمنًا ومؤمنةً جاءوا تحت قيادة معلمهم ومبعوث نبهم إليهم مصعب بن عمير ، ذات يومًا فاجأه وهو يعظ الناس أسيد

بن حضير سيد بني عبد الأشهل بالمدينة، فاجأه شاهراً حربته يتوهج غضباً، وحنقاً على هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم، ويدعوهم لهجر آلهتهم، ويحدثهم عن إله واحد لم يعرفوه من قبل، ولم يألوه من قبل.

وما أن رأى المسلمون الذين كانوا يجالسون مصعباً مقدم أسيد بن حضير متوشحاً غضبه المتلطي، وثورته المتحفزة حتى وجلو لكن مصعب الخير ظل ثابتاً، وديعاً متهللاً، وقف أسيد أمامه مهتاجاً، وقال يخاطبه هو وأسعد بن زرارة: ما جاء بكما إلى هنا تسفهان ضعفاءنا، اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة.

وفي مثل هدوء البحر وقوته، وفي مثل تهلل ضوء الفجر ووداعته انفرجت أسارير مصعب الخير، وتحرك بالحديث الطيب لسانه، فقال: أولاً تجلس فتستمع، فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره.

كان أسيد رجلاً أريباً عاقلاً، وهنالك أجابه قائلاً: أنصفت، وألقى حربته إلى الأرض، وجلس يصغي، ولم يكدم مصعب يقرأ القرآن، ويفسر الدعوة التي جاء بها محمد بن عبد الله، حتى أخذت أسارير أسيد تبرق وتشرق، وتتغير مع مواقع الكلم، وتكتسي بجماله، ولم يكدم مصعب يفرغ من حديثه حتى هتف به أسيد بن حضير، وبمن معه قائلاً: ما أحسن هذا القول وأصدقه، كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين؟ وأجابوه بتهليلة رجت الأرض رجاً، ثم قال له مصعب: يطهر ثوبه وبدنه، ويشهد أن لا إله إلا الله، فغاب أسيد عنهم غير قليل، ثم عاد يقطر الماء الطهور من شعر رأسه، ووقف يعلن أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

وتمضي الأيام والأعوام ويهاجر الرسول وصحبه إلى المدينة، وتتلمظ قريش بأحقادها، وتعد عدة باطلها، وتقوم غزوة بدر فيتلقون فيها درساً يفقدتهم بقية

صوابهم، ويسعون إلى الثأر، وتجيء غزوة أحد، ويكشف المسلمون، ويتحول النصر إلى هزيمة، وأدرك مصعب الخطر الغادر فرفع اللواء عاليًا، وأطلق تكبيرة كالزئير، ومضى يصول ويجول ويتواثب وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه، ويشغلهم عن الرسول ﷺ.

حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد، فلما جال المسلمون ثبت به مصعب، فأقبل ابن قميئة وهو فارس فضربه على يده اليمنى فقطعها، ومصعب يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران: ١٤٤، وأخذ اللواء بيده اليسرى، وحنى عليه، فضرب يده اليسرى فقطعها، فحنى على اللواء، وضمه بعضديه إلى صدره، وهو يقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾، ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح، ووقع مصعب، وسقط اللواء. وهكذا انتهت حياة هذا الشهيد الداعية إلى الله ﷻ وهو أول سفير للإسلام سيدنا مصعب بن عمير < .

الحسن البصري - رحمه الله -

وهو الحسن بن أبي الحسن يسار، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ، نشأ بالمدينة حيث ولد بها سنة ٢١ هجرية، وحفظ كتاب الله ﷻ وسمعه عثمان بن عفان < وهو يخطب في الناس مرات عديدة، ولما كبر لازم الجهاد، ولازم العلم، والعمل.

وكان الحسن معروفًا بالزهد والورع بجانب علمه بالدين، ومن ثم كان يرى أنه لا بد من اقتران الزهد بالعلم، نراه عندما يسأل، ويقال له: لقد أكثر الناس تعلم الآداب، فما أمنعها عاجلاً وأوصلها آجلاً؟ قال: "الثقة في الدين، فإنه يصرف

إليه قلوب المتعلمين، والزهد في الدنيا يقربه من رب العالمين، والمعرفة بما لله عليه يحويها كمال الإيمان".

وبجانب زهده عاش حزيناً خائفاً في خشية من الحق ﷻ وفي ذلك قيل عنه: كان الخوف يغلب عليه حتى كأن النار لم تخلق إلا له.

ثم هو القائل: نضحك، ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئاً، ومن أجل ذلك لم يشاهد قط إلا والحزن يعتصره، أو في بكاء مر وألم دفين كأنه حديث عهد بمصيبة.

رأى الكثيرين من صحابة رسول الله ﷺ، وتأسى بهم { ، وسمع منهم وسمعوه خطيباً، وأجازوه حيث لم يعترض عليه أحد منهم، وكانوا يحبونه، وكان هو أشد حباً لهم، وبهذا الحب قام بذكرهم للناس، وبذكر الناس بهم، وبزهدهم، وخوفهم من الله، وخشيتهم من عذابه، ويقول: "أدركننا أقواماً كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم".

وبزهد، وخوفه، وبكائه، وحزنه قام يتكلم بكلمات رهيبة اقشعرت لها القلوب، وخشعت لها الجوارح، حيث كانت موجهة إلى إحياء القلب، وصلاحه؛ لأنه هو المسيطر على الجوارح، فإذا خشع القلب ترقرت الدموع، وسالت تغسل الخطايا، يقول رجل من أصحابه: وبينما الحسن في المسجد تنفس تنفساً شديداً ثم بكى حتى أرعدت منكباه، ثم قال: "لو أن بالقلوب حياة لو أن بالقلوب صلاح لأبكتكم من ليلة صبحيتها يوم القيامة إن ليلة تمخض عن صبحية يوم القيامة، ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية، ولا عين باكية من يوم القيامة".

ولقد مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك، وأربعين سنة لم يمزح، من هنا يمكن القول إن السمة الغالبة على عباد البصرة وزهادها في أول أمرها هي الخوف والبكاء.

ولذلك قيل: إن أميز ظاهره لدى عباد البصرة هو الخوف، والحزن، وأداتها البكاء، ثم أعقب ذلك الطمع في رحمة الله، والحب له، فبالرغم من هذا الخوف، والحزن، والبكاء كان هناك الاطمئنان إلى عفو الله، ورضاه، والطمع في سعة رحمته.

وبهذا الاطمئنان إلى عفو الله، ورحمته تعلقت القلوب بالله، ومن هذا التعلق تولدت لمحات الحب لدى هؤلاء العباد، تلك المحبة الإلهية التي ملأت قلوبهم، وألهبتها.

الإمام أحمد بن حنبل <

مولده، ونسبه:

ولد أحمد < في المشهور المعروف في ربيع الأول من سنة ١٦٤ من الهجرة النبوية، وإذا كانت ولادته قد علم تاريخها من غير ظن أو مجالاً للشك فقد علم أيضاً تاريخ وفاته من غير شك، فقد تطابقت الأخبار على أنه توفي لاثنتي عشر ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، وكانت جنازته يوم الجمعة، وقد ولد أحمد ببغداد، وقد جاءت أمه حاملاً به من مرو التي كان بها أبوه، وقيل: إنها ولدت بمرو، ولكن الصحيح إنه ولد ببغداد، وحملت به في مرو.

ونسبه عربي، فهو شيباني في نسبه لأبيه وأمه، أبوه شيباني، وأمه كذلك فلم يكن أعجمياً ولا هجيناً بل كان عربياً خالصاً.

كانت أسرة أحمد من شيبان، وأصل مقامها بالبصرة، وأبوه محمد كان جندياً، وقد وصفه ابن الجوزي عن الأصمعي بأنه كان قائداً، وقد قال عن أبي بكر الأعمى: "سمعت الأصمعي يقول: أبو عبد الله أحمد بن حنبل من ذهل، وكان أبوه قائداً، وذهل هو جد شيبان الذهلي، وقد قال ابن الجزري: كان أبوه في زي الغزاة، ويظهر أن أسرته كانت بعد انتقالها إلى بغداد تعمل للخلافة العباسية، ولم ينقطع اتصالها بها، وإن لم يكن منها ولاة، فإنه يروى أن عم أحمد كان يرسل إلى بعض الولاة بأحوال بغداد؛ ليعلم بها الخليفة إذا كان غائباً عنها، وكان أحمد يتورع عن المشاركة في ذلك منذ صباه حتى إنه يروى أن بعض الولاة قال: أبطأت علي أخبار بغداد، فوجهت إلى عم أحمد بن حنبل: لم تصل إلينا الأخبار اليوم، وكنت أريد أن أحررها وأوصلها للخليفة، فقال: قد بعثت بها مع أحمد بن أخي، ثم أحضر أحمد، وهو غلام، فقال: أليس قد بعثت معك الأخبار؟ قال: نعم، قال: فلأي شيء لم توصلها؟ قال: أنا كنت أرفع تلك الأخبار رميت بها في الماء، فجعل الوالي يسترجع، ويقول: هذا غلام يتورع فكيف نحن؟

ولقد كان لنسبه، وفقره غير المدقع أثرهما عندما ألقيت الدنيا بين يديه فألقاها بعيداً عن مواضع أقدامه، ونحاها بنفس نزيهة، وقلب تقى، كان يهدي إليه المتوكل بدر الأموال فيردها في تواضع كريم.

وكان متطامن النفس محسناً بإحساس الناس، ما نزل إلى مبادل الناس، وما تسامى عليهم بنسبه الرفيع، حتى لم يلاحظ عليه قط فخر بنسبه العربي، ولقد قال كتاب

سيرته: إنه ما رؤي الفقير عزيزاً في مجلس كما كان في مجلس أحمد < ، وهذه الخصال الكريمة قد نبعت من ذلك النبع الكريم الذي امتزج فيه شرف النسب بقناعة الفقر، وبسمو الروح، وفضل التقى.

تربيته:

نشأ الإمام أحمد ببغداد، وتربى بها تربيته الأولى، وكانت تموج بالناس الذين اختلفت مشاربهم، وتخالفت مآربهم، وزخرت بأنواع المعارف والفنون فيها القراء، والمحدثون، والمتصوفة، وعلماء اللغة، والفلاسفة الحكماء، فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، وقد توافر فيها ما توافر في حواضر العالم من تنوع المسالك، وتعدد السبل، وتنازع المشارب، ومختلف العلوم.

وقد اختارت أسرة أحمد له منذ صباه أن يكون متعلماً في الدين يعكف عليه، ويتخذ له كل العلوم الممهدة له من علم باللغة، والحديث، والقرآن، ومآثر الصحابة، والتابعين، وأحوال الرسول ﷺ، وسيرته، وسيرة أوليائه الأقربين الذين اقتصوا بطول الصحبة، وفقه الدين، ولب اليقين، واتفقت هذه التربية أو هذا التوجيه مع نزوعه النفسي، وما كانت تصبو إليه همته من غايات، لقد وجهته أسرته إلى القرآن الكريم منذ نشأته الأولى، فاستحفظه، وظهرت عليه الأملية مع الأمانة، والتقى فكان الغلام التقى بين الغلمان، كما صار من بعد الشاب التقى، ثم الكهل الذي أبلى البلاء الأكبر في الإسلام، واحتمل المكاره في سبيل ما يعتقد، أو ما يراه تهجماً فيما ليس به علم، حتى إذا أتم حفظ القرآن، وعلم اللغة اتجه إلى الديوان ليمرن على التحرير والكتابة، ولقد قال في ذلك: "كنت، وأنا غليم أختلف إلى الكتاب، ثم اختلفت إلى الديوان، وأنا ابن أربع عشرة سنة".

ولقد اختار أحمد في صدر حياته رجال الحديث، ومسلكتهم فاتجه إليهم أول اتجاهه، واستمر أحمد على الرحلة في طلب العلم، حتى بعد أن اكتملت رجولته.

ونضح علمه، ولقد وعد الشافعي عند آخر لقاء بينهما أن يلحقه إلى مصر، ولكنه لم ينجز ما وعد، فقد روى حرملة عن الشافعي أنه قال: "وعدني أحمد بن حنبل أن يقدم علي مصر فلم يقدم".

قال ابن أبي حاتم: "يشبه أن تكون خفة ذات اليد منعتة أن يفي بالعدة".

طوف أحمد في الأقاليم الإسلامية طالباً للحديث: لا يستكثر الكثير، ولا يني عن الكد واللغوب، يحمل حقائب كتبه على ظهره، حتى لقد رآه بعض عارفيه في إحدى رحلاته، وقد كثر ما رواه من الأحاديث، وحفظه، وكتبه، فقال له معترضاً مستكثراً ما حفظ، وما كتب، وما روى: مرة إلى الكوفة، ومرة إلى البصرة إلى متى؟.

ويجب أن نقرر أن أحمد كان يطلب فيما يطلب علم الفقه والاستنباط مع الرواية، وتلقى ذلك عن الشافعي وغيره، بل إننا لنتهي إلى أن نقبل ما قيل عنه من أنه كان يحفظ كتب أهل الرأي، ولكن لا يأخذ بها أو يعرض عنها، ولم يلتفت إليها، فقد قال تلميذه الخلال: كان أحمد قد كتب كتب الرأي، وحفظها، ثم لم يلتفت إليها.

ويغلب على الظن أنه لم يطلب علم الكلام، ولا العلوم الفلسفية، التي كثرت ترجمتها في حياته، لأنه لم يجد شيئاً من العلم جديراً بالعناية غير الحديث والكتاب، وما هو كالألة لفهم كل العلوم الدينية وهو العلوم العربية.

ولكن لا نستطيع أن نقول: إن أحمد لم يطلع على بعض آراء الفرق المختلفة كالخوارج، والشيعية، والجهمية، والمعتزلة، وغيرهم، بل إن الظن كل الظن أن يكون أحمد ألم بهذه الفرق، وحياته، وأخباره تمهد لذلك، ولا تنافيه، ذلك لأنه رحل إلى البصرة خمس مرات لطلب الحديث، وكانت إقامته تمتد إلى ستة أشهر أو تزيد، والبصرة كانت موطن الاعتزال، وفي بدايتها كان الخوارج يرابطون ويغيرون، وكانت الجهمية والمرجئة لهم طوائف فيها وفي الكوفة، والعالم الباحث يصل إليه علم كثير ممن يجاورهم ويخالطهم، ويتصل بهم.

ونعلم أيضاً أن أحمد كان يعلم الفارسية ويتكلم بها أحياناً إذا كان مخاطبه لا يحسن العربية، ولا يستطيع الإفهام بها، والخبر بمعرفة أحمد بالفارسية صحيح، فإنه يروى كما جاء في (تاريخ الذهبي): أنه قدم عليه من خراسان ابن خالته، ونزل عنده، ولما قدم له الطعام كان أحمد يسأله عن خراسان، وأهلها، وما بقي من ذوي أحمد بها، وربما استعجم القول على الضيف، فيكلمه أحمد بالفارسية.

ويظهر أنه كان له مجلسان في الدرس والتحديث؛ أحدهما في منزله يحدث فيه خاصة تلاميذه وأولاده، والثاني في المسجد يحضر إليه العامة والتلاميذ، وكان يذكر أن درسه يبلغ من محضره خمسة آلاف، وأن خمسمائة فقط هم الذين يكتبون، أي: نحو عشر الحاضرين الذين ينقلون عنه الحديث ويروونه، وهم الخاصة من تلاميذه والمستمعين إليه، وخاصة الخاصة من تلاميذه هم الذين كانوا يذهبون إلى بيته ويتلقون عنه مع أولاده وأهله.

ويلاحظ في درس أحمد ثلاثة أمور جعلت له أثراً في النفوس جيداً، وهذه الأمور هي:

أولاً: كان يسود مجلسه الوقار والسكينة مع تواضع واطمئنان نفسي، ولم يكن الوقار في مجلس علمه وحده، كان في كل مجالسه لا يمزح ولا يلهو؛ لأن اللهو في جملة باطل؛ ولأن كل مزحة مجة من العقل، وقد علم مخالطوه منه ذلك، فكانوا لا يمزحون في حضرته قط في مجلس علم أو في غير مجلس علم، بل إن شيوخه علموا ذلك فكانوا هم أيضاً لا يمزحون في حضرته.

فقد روى ابن نعيم عن خلف بن سالم أنه قال: "كنا في مجلس يزيد بن هارون فمزح يزيد مستمليه، فتنحج أحمد بن حنبل، فضرب بيده على جبينه، وقال: ألا أعلمتموني أن أحمد هنا حتى لا أمزح".

ثاني الأمور التي كانت تلاحظ في درسه: أنه كان لا يلقي الدرس من غير طلب، بل يسأل عن الأحاديث المروية في الموضوع، فيستحضر الكتب التي دون فيها تلك الأحاديث، فهو أولاً: ما كان يقول حتى يطلب منه، وثانياً: إذا كان قال حديثاً نبوياً لا يقوله إلا من كتاب حرصاً على جودة النقل، وإبعاداً لمظنة الخطأ ما أمكن، وفي الأحوال النادرة جداً كان يقول الحديث من غير رجوع إلى كتاب، حتى إنهم أحصوا المرات التي قال فيها الحديث من غير كتاب في مدى تحديثه، فكانت عدتها لا تتجاوز مائة حديث في حياة مديدة في الرواية، والنقل مكث فيها يفتي، ويحدث ما يقرب الأربعين عاماً.

وثالث الأمور التي كانت تلاحظ على مجالس أحمد في دروسه: أنها كانت من حيث موضوعها قسمين؛ أحدهما: رواية الحديث ونقله، وهذه يملها على تلاميذه من كتاب كما رأيت، ولا يعتمد على حفظه إلا نادراً، وثانيهما: فتاويه الفقهية التي كان يضطر إلى استنباطها، وهذه لا يسمح لتلاميذه أن يدونوها، ولا يسمح لهم أن ينقلوها عنه.

إذ إنه ما كان يستجيز التدوين، إلا لأحاديث رسول الله ﷺ ويرى أن علم الدين وحده هو علم الكتاب والسنة، وأن من البدع تدوين آراء الناس في الدين بجوار كتاب الله، وسنه رسول الله ﷺ.

وكان أبغض الأشياء إليه أن يرى كتاباً قد دونت فيه فتوى له <، وكان يكره من أصحابه أن ينقلوا عنه فتاويه، وربما أنكر نسبتها إليه؛ لأنه لم يحفظ ما قال، ولم يقصد إلى حفظه؛ لأن ذلك غير جائز في نظره.

المحنة، وأسبابها، وأدوارها:

سبب المحنة دعوة المأمون للفقهاء والمحدثين أن يقولوا مقالته في خلق القرآن، فيقولوا: إن القرآن مخلوق محدث كما يقول أصحابه من المعتزلة الذين اختار منهم وزراء، وصفوته الذين جعلهم بمنزلة نفسه، وجعل منهم شعاعه، ودثاره، ولا فصل هنا رأي أحمد في هذه القضية؛ لأن رأيه قد اختلف فيه العلماء من بعده، وإنما الذي يتأكد العلماء أن أحمد لم يوافق المأمون في رأيه، ولم ينطق بمثل مقالته، وأنه نزل به الأذى الشديد لذلك، وابتدئ في عصر المأمون، وتوالى عصر المعتصم، والوائق بوصية من المأمون واتباعاً لمسلكه.

وإذا كان سبب المحنة هو أن المأمون أراد أن يحمل أحمد على أن يقول مقالته في خلق القرآن، فيروى أن أول من قال: إن القرآن مخلوق هو الجعد بن درهم في العصر الأموي، فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بالكوفة، وقد أتى به مشدوداً في الوثاق عند صلاة العيد، فصلى خالد، وخطب، ثم قال آخر خطبته: اذهبوا، وضحوا بضحاياكم تقبل، فإني أريد أن أضحي بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، ثم نزل وقتله.

وقال مثل ذلك القول الجهم بن صفوان، وقد نفى صفة الكلام عن الله ﷻ تنزيهاً له عن الحوادث وصفاتها، وحكم بذلك بأن القرآن مخلوق، وليس بقديم.

ولما جاء المعتزلة، ونفوا صفات المعاني، ثم بالغوا فأنكروا أن يكون الله ﷻ متكلماً، وما ورد في القرآن من أن الله ﷻ كلم موسى تكليماً أولوه بأنه ﷻ خلق الكلام في الشجرة، فهم لا يصفون الله بأنه متكلم، ولكنهم يعتقدون أن الله تعالى يخلق الكلام، كما يخلق كل شيء، وعلى هذا الاعتقاد بنوا دعواهم أن القرآن مخلوق لله تعالى.

ولقد خاض المعتزلة في حديث خلق القرآن خوفاً شديداً في العصر العباسي، وشاركهم بعض قليل من الفقهاء، فقد كان بشر بن غياث الموريسي من المصرين على ذلك القول.

وقد نهاه أبو يوسف أستاذه، وصاحب أبي حنيفة، فلم ينته فطرده من مجلسه، وابتدأ خوض المعتزلة يشند في عهد الرشيد، وأخذوا يدعون الناس إلى ذلك، ولكن الرشيد لم يكن ممن يشجعون الخوض في العقائد، والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة، ولذلك لم يشجع المعتزلة على ذلك الخوض، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين من هؤلاء المعتزلة، ولما بلغت مقالة بشر بن غياث قال: وإن أظفرتني الله به أقتله، فظل بشر مستخفياً طول خلافة الرشيد، فلما جاء المأمون أحاط به المعتزلة، وكان جل حاشيته من رجالهم، وأدناهم هو إليه، وقربهم زلفاً نحوه، وأكرمهم أبلغ الإكرام، حتى يروى أنه كان إذا دخل عليه أبو هشام الفوطي من أئمة المعتزلة تحرك له حتى يكاد يقوم، ولم يكن يفعل ذلك مع أحد من الناس.

والسبب في ميل المأمون للمعتزلة ذلك الميل أنه كان تلميذاً لأبي الهذيل العلاف في الأديان والمقالات، وأبو هذيل من رءوس المعتزلة.

ولما عقد المأمون المجالس للمناظرات والمناقشات في المقالات والنحل كانوا الفرسان السابقين والبارزين على الخصوم، لما اختصوا به من دراسات عقلية واسعة، ولذلك كان لهم الأثر الكبير في نفس المأمون يجتبي منهم من يشاء لصحبته، ويختار منهم من يريد لوزارته، وخص منهم أحمد بن أبي دؤاد بالرعاية، والعطف، والتقريب، حتى إنه أوصى أخاه المعتصم بإشراكه معه في أمره، وقال له في وصيته: "وأبو عبد الله بن أبي دؤاد فلا يفارقك، وأشركه في المشورة في كل أمرك، فإنه موضع لذلك منك".

فلما أحس المعتزلة بهذه المنزلة زينوا له إعلان قوله في خلق القرآن نشرًا لمذهبهم، وليكتسبوا بذلك إجلال العامة واحترامهم، وصادف ذلك هوى في نفسه، فأعلن ذلك سنة ٢١٢ هجرية، وناظر من يغشى مجلس مناظرته في هذا الشأن، وأدلى فيها بحججه وأدلته، وترك الناس أحراراً في عقائدهم لا يحملون على فكرة لا يرونها، ولا عقيدة لا يستسيغون الخوض في شأنها.

ولكن في سنة ٢١٨ هجرية - وهي السنة التي توفي فيها - بدى له أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق فكرة خلق القرآن، وأراد أن يحملهم على ذلك قهراً، وابتدأ ذلك بإرسال كتبه، وهو بالرق إلى إسحاق بن إبراهيم نائبه في بغداد لامتحان الفقهاء والمحدثين ليحملهم على أن يقولوا: إن القرآن مخلوق.

ويظهر أنه ابتداءً يحمل الذين لهم شأن في مناصب الدولة، والذين يتصلون بالحكام بأي نوع من أنواع الاتصال، ولو كانوا شهوداً في نزاع يفصل فيه القضاء، فقد جاء في آخر أول كتاب أرسله إلى نائبه في بغداد: فاجمع من بحضرتك من القضاة، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين إليك، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وأعلمهم أن

أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيمن قلده واستحفظه من رعيته لمن لا يوثق بدينه ، وخلص توحيدده ويقينه ، فإذا أقرروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره ، والامتناع عن توقيعها عنده ، واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاء أهل عمل في مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر في الدين والإخلاص للتوحيد.

وترى من هذا أنه لم توضع عقوبة لمن لم يعتقد هذه العقيدة سوى الحرمان من مناصب الدولة أو عدم سماع شهادته إن كان شاهداً ، ولم يعد كتابه الثاني ذلك ، فأحضر إسحاق بن إبراهيم القضاة واختبرهم ، ولم يكتب بذلك ، بل أحضر المحدثين أيضاً ، وكل من تصدى للفتوى ، والتعليم ، والإرشاد ، وامتنعهم ، وأرسل إجابتهم عن مسألته في خلق القرآن إلى المأمون ، فأرسل هذا كتاباً يبين سخف هذه الإجابات في نظره ، ويجرح المجيبين ، ويسلقهم بقارص القول ، وعنيف الكلام ، ثم ذكر في هذا الكتاب عقوبات لمن لم يقل مقالته ؛ إذ أمر بحمل من لم يقل إليه موثقاً ، وقال : "من يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ، ولم يقل : إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد ، وإبراهيم بن المهدي ، فاحملهم أجمعين موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم ، وحراستهم في طريقهم حتى يؤديهم إلى عسكر أمير المؤمنين ، وتسليمهم إلى من يؤمن بتسليمهم لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله".

وترى من هذا كيف ترقى من عقوبة الحرمان من المناصب، وقبول الشهادة إلى الإنذار بعقوبة الإعدام.

وقد سارع إسحاق بن إبراهيم إلى تنفيذ رغبتهم، فأحضر المحدثين، والفقهاء، والمفتين، وفيهم أحمد بن حنبل، وأنذرهم بالعقوبة الصارمة، والعذاب العتيد إن لم يقرروا بما يطلب منهم، وينطقوا بما سألوا أن ينطقوا به، ويحكموا بالحكم الذي ارتآه المأمون من غير تردد أو مراجعة، فنطقوا جميعاً بما طلب منهم، وأعلنوا اعتناق ذلك المذهب، ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم، واطمأنوا إلى حكم الله، وآثروا الباقية على الفانية، لم يرضوا بالدنية فيما اعتقدوا، فأصروا على موقفهم إصراراً جريئاً، وهم: أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح، والقواريري، وسجادة، فشدوا في الوثاق، وكبلوا بالحديد، وباتوا ليلتهم مصفدين في الأغلال، فلما كان الغد أجاب سجادة إسحاق فيما يدعوه إليه فخلوا عنه، وفكوا قيوده، واستمروا الباقون على حالهم.

وفي اليوم التالي أعيد السؤال عليهم، وطلب الجواب إليهم، فخارت نفس القواريري، وأجابهم إلى ما طلبوا، فكوا قيوده، وبقي اثنان الله معهما، فسيقا في الحديد ليلتقيا بالمأمون في طرسوس، وقد استشهد ابن نوح في الطريق، والذين أجابوا طلب منهم أن يواجهوا المأمون أحراراً، وقدموا كفلاء بأنفسهم ليوافوه بطرسوس كأخويهم.

وبينا هم في الطريق نعى الناعي المأمون، ولكنه - عفى الله عنه - لم يودع هذه الدنيا من غير أن يوصي أخاه المعتصم بالاستمسك بمذهبه في القرآن، ودعوة الناس إليه بقوة السلطان، وكأنه فهم أن تلك الفكرة التي استحوزت على رأسه دين واجب الاتباع، لا يبرأ عنقه منها من غير أن يوصي خلفه بها، فوصاه، وقد

جاء في مطلع وصيته: "هذا ما أشهد عليه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بحضرة من حضره..." إلى أن قال: "يا أبا إسحاق ادن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في خلق القرآن".

ولهذه الوصية لم تنقطع المحنة بوفاة المأمون بل اتسع نطاقها، وزادت ويلاتها، وكانت شرًا مستطيرًا على المتوقفين من الزهاد، والعلماء، والفقهاء، والمحدثين، وعلى رأسهم أحمد بن حنبل، وقد بلغ البلاء أشده، والمحنة أقصاها في عهد المعتصم.

علم أحمد:

ذاع علم أحمد واشتهر، وتحدث الناس بذلك وهو حي يرزق، بل إن علمه بالحديث والأثر ذاع، وهو لا زال شابًا يتلقى العلم، ويأخذ عن الشيوخ، حتى إن أحمد بن سعيد الرازي قال فيه، وهو شاب: ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولا أعلم بفقهاء من أحمد بن حنبل.

ويقول له شيخه الشافعي: أنت أعلم بالأخبار الصحاح مني، فإذا كان خبر صحيح، فأعلمني حتى أذهب إليه كوفياً كان، أو مصرياً، أو شامياً.

ولقد روى المزني أن الشافعي قال: ثلاثة من عجائب الزمان، عربي لا يعرب كلمة، وهو أبو ثور، وأعجمي لا يخطئ في كلمة، وهو الحسن الزعفراني، وصغير كلما قال شيئاً صدقه الكبار، وهو أحمد بن حنبل.

ويروي حرملة بن يحيى تلميذ الشافعي أنه قال: "خرجت من بغداد، وما خلفت بها أحداً أورع، ولا أتقى، ولا أفقه من أحمد بن حنبل".

ولقد وصفه الشافعي بالعقل مع علم الرواية، والفقهاء، فقد قال فيه كما روى تلميذه محمد بن الصباح: "ما رأيت أعقل من أحمد بن حنبل، وسليمان بن داود الهاشمي".

هذه كلمات الشافعي، وهو العالم الأريب في أحمد الشاب، ولا شك أنه بعد أن تقدمت سنه، وهو لم ينقطع عن طلب الفقه والحديث يوماً قد نما علمه وعقله، وذاع اسمه وذكره.

وخصوصاً بعد أن ابتلي فأحسن البلاء، وصبر الصبر الجميل، ولم يئن، ولم يشك إلى أحد من خلق الله أذى الإنسان، ولننقل بعضاً قليلاً من شهادة معاصريه فيه، لقد قال علي بن المديني معاصره: "ليس فينا أحفظ من أبي عبد الله بن حنبل"، ويقول فيه: "أعرف أبا عبد الله منذ خمسين سنة، وهو يزداد خيراً".

ويقول قرينه، ومعاصره القاسم بن سلام: "انتهى العلم إلى أربعة: أحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، وأبي بكر بن شيبه، وأحمد أفقهم فيه"، ويقول فيه: "ما رأيت رجلاً أعلم بالسنة منه".

ولقد قال فيه يحيى بن معين: "والله لا نقوى على ما يقوى عليه أحمد، ولا على طريقة أحمد"، يقول فيه عبد الرحمن بن مهدي: "هذا أعلم الناس بحديث سفیان الثوري"، ويقول: "ما نظرت إلى أحمد بن حنبل إلا تذكرت به سفیان الثوري"، وسفیان الثوري فقيه أثري زاهد نزه النفس عفيف، فإن سفیان كان أبرز الآخرين في علم أحمد، وفقهه.

بعض صفات الإمام أحمد:

أولى هذه الصفات الحافظة القوية الواعية، وهي صفة عامة للمحدثين، وأهل الإمامة منهم بشكل خاص، ولقد اتصف بها مالك، واتصف بها الشافعي من الفقهاء الذين تركوا ثروة من الفقه، والنظر، والاستنباط، وهذه الحافظة هي الأساس لكل علم ونظر، فلا بد لأهل العلم أن تكون عندهم طائفة حفظها

بينون عليها، ويستنبطون منها، وإن العلماء بالنفس في عصرنا الحاضر كما كان الناس في الغابر يردون عناصر الذكاء إلى الذاكرة المدركة والحافظة الواعية، والبدية الحاضرة التي تثير المعلومات التي حفظت في أوقاتها المناسبة، ولقد أتى الله أحمد من هذه الصفة حظاً وفيراً، والأخبار في ذلك متضافرة يؤيد بعضها بعضاً، فمن ذلك ما يروى عنه، فهو يقول: كنت أذاكر وكيعاً بحديث الثوري، فكان إذا صلى العشاء خرج من المسجد إلى منزله، فكنت أذاكره، فربما ذكر تسعة أحاديث أو العشرة فأحفظها، فإذا دخل قال لي أصحاب الحديث: أمل علينا، فأملها عليهم فيكتبونها.

ولقد شهد بقوة حفظه معاصروه حتى عد أحفظهم، وحتى لقد قيل لأبي زرعة معاصره: من رأيت من المشايخ، والمحدثين أحفظ؟ قال: أحمد بن حنبل.

تابع أشهر الدعاة إلى الله

عناصر الدرس

- العنصر الأول : أحمد بن تيمية ٤٨١
- العنصر الثاني : أبو الحسن الندوي ٤٩١
- العنصر الثالث : أحمد ديدات من ولادته إلى شهرته ٤٩٦

أحمد بن تيمية

من أشهر الدعاة إلى الله تعالى :

أولاً: الإمام أحمد بن تيمية (٦٦١-٧٢٨):

ولادته وأسرته :

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحلیم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد، عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله، وتُعرف هذه الأسرة بأسرة ابن تيمية.

وُلد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة من بعد الهجرة النبوية، وكان مولده بمدينة حران مهد الفلسفة والفلاسفة والصابئة والصابئين من أقدم عصور الإسلام، وقد نشأ النشأة الأولى فيها إلى أن بلغ السابعة من عمره، فأغار عليها التتار، ففر أهلها منهم، وكان ممن هاجر أسرة ابن تيمية، هاجرت إلى دمشق، ولم يكن الطريق خالياً من الأعداء، بل لم يكن آمناً ولم يكن معبداً، وقد لاقوا مشقة في السفر، وقد سافروا ليلاً هاربين، وهي أسرة علم، أثن متاعها الكتب، فهي للعلماء متاع، وثروة وغذاء وحلية نفيسة.

وحملها في الانتقال والرحلة شاقاً عسير، وخصوصاً إذا كان الانتقال فراراً، وقد نقلوها على مركبة، لعدم توافر الدواب التي تحملها، ولأنها تشقُّ حملها على الدواب، وقد كاد العدو يلحقهم بتوقف العجلات عن السير، فاستعانوا بالله ونجوا من القوم الظالمين.

تاريخ الدعوة والدعاة

وصلوا إلى دمشق -بعون الله- واستقروا فيها آمنين، وكل ذلك وذو النفس المرهفة الحسّ يرى، ويسمع، ويدرك، وهو الغلام أحمد تقي الدين، فقد رأى الهول الأكبر في غارات التتار المفسدة، ورأى الفزع الأكبر في السكان الآمنين، يهرعون إلى النجاة وما يكادون ينجون.

ثم رأى أسرته تعاني مشقة الطريق، ومشقة حملها الثمين، وتخاف الضيعة، رأى كل ذلك الغلام الزكي المحس؛ فانطبع في نفسه صغيراً كره التتار، وكره الاعتداء. ومن هذا الابتداء نعرف بعض السر في ما كان منه، وقد استوى رجلاً مكتمل القوى، فقد كان يقود الجحافل لقتالهم مع أنهم أعلنوا الإسلام واعتنقوه، وصار شأنهم كشأن غيرهم من طوائف الإسلام، ولكنه رأى من ماضيهم البغي، والعيث في الأرض فساداً؛ فعلم أنهم إن كانوا مسلمين فهم بغاة يجب قتالهم حتى يتوبوا، أو يقدر عليهم، فقاتلهم لهذا، ولتخرج من تحت سلطانهم الشعوب، التي يهضمونها حقوقها، ويعيثون فساداً في أرضها.

لم يذكر المؤرخون الذين قرأ لهم الإمام محمد أبو زهرة، القبيل الذي تنتمي إليه أسرة ابن تيمية، فلم يذكروا له نسبة إلا أنه الحراني، فنسبوه إلى بلده حران موطن أسرته الأول، ولم ينسبوه إلى قبيلة من قبائل العرب، وإن هذا يشير إلى أنه لم يكن عربياً، أو لم يعرف أنه عربي منسوب إلى قبيلة من القبائل العربية. ولذلك نستطيع أن نفهم أو أن نعلم علماً ظنياً أنه لم يكن عربياً، ولعله كان كردياً، وهم قوم ذوو همة ونجدة وبأس شديد، وفي أخلاقهم قوة وحدة، وأن تلك الصفات كانت واضحة جلية فيه، مع أنه نشأ في دعة العلماء واطمئنان المفكرين وهدوء المحققين، وأن الأكراد كانت لهم في القرن السادس والسابع المواقف الرائعة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، فوقفوا في صدر الجبهة الأولى

للإسلام ضد الصليبيين، وتلقوا الصدمة الأولى ثم الصدمات التي تليها، حتى أياسوا الصليبيين من التحكم في الإسلام، أو على الأقل فلو من حذتهم، وخضضوا من شوكتهم؛ حتى أعادوهم هم والمصريون من بعد ذلك إلى بلادهم محطومين.

ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن أمه ولا قبيلها، وهي في الغالب ليست عربية، ولقد عاشت إلى أن اكتمل مجد ابنها وعاونته في جهاده، وعندما كان بمصر معتقلاً، كان يكتب إليها رسائل تفيض برأً وعطفًا وإخلاصًا وإيمانًا.

انتقلت أسرته إلى دمشق واستقر بها المثنوى، والعالم الجليل حيثما حلَّ وجد مكانه من الهدى والإرشاد، وكذلك كان الشيخ شهاب الدين والد تقي الدين موضع بحثنا، فإنه بمجرد أن وصل إلى دمشق ذاع فضله واشتهر أمره، فكان له كرسي للدراسة والتعليم والوعظ والإرشاد بجامع دمشق الأعظم، وتولَّى مشيخة دار الحديث السكرية، وبها كان سكنه وفيها تربي ولده تقي الدين، ومما لوحظ على درس ذلك العالم الجليل، أنه كان يلقي دروسه غير مستعين بقرطاس مكتوب أو كتاب يتلو منه، أو مذكرات ليستعين بها، بل كان يُلقي الساعات من ذاكرته الواعية وعقله المستذكر، وهذا يدل على قوة الحافظة والقدرة على البيان، وثبات الجنان، وهي الصفات التي برزت في ابنه، وكانت من أخص صفاته، التي كان يُقرع بها الحجّة ويشدّه لها المجاب ويتحير لها المناظرون الأقران.

نشأ الغلام فوجد أباه على هذا القدر من العلم والتقدير، فكان ذلك موجهاً له إلى العلم، وفي الواقع إن الأسرة كلها قد توارثت العلم والنزوع إليه، فقد كان جده مجد الدين عالماً جليلاً، يُعدُّ من أئمة الفقه الحنبلي، وقد رحل إلى البلاد في سبيل العلم، ودرس وأفتى وانتفع به الطلبة، وله كتاب (المنتقى في الأحكام).

ناربخ الدعوة والدعاة

وكان قد تلقى العلم من عمه فخر الدين ، وكان عالماً وخطيباً وواعظاً ، وجمع تفسيراً للقرآن حافلاً في مجلدات ضخام ، وقد تخرج على ابن الجوزي خطيب بغداد وواعظها ، وحل محله في الوعظ فيها.

نشأته :

هذه أسرة تقى الدين ابن تيمية ، وهي أسرة علم امتازت بقوة البيان وقوة الذاكرة ، وحبست نفسها على العلم ، وكان من النتائج لهذه البيئة العلمية أن يتجه الفتى الناشئ فيها إلى العلم ، فاتجه إليه الغلام ابن تيمية صغيراً ؛ فحفظ القرآن الكريم منذ حداثة سنه ، واستقر حافظاً له إلى أن فاضت روحه إلى ربها ، حتى إنه ليروى أنه تلا في السجن القرآن ، وختم ثمانين ختمة أو تزيد ، فقد كان أعظم عدته وأسعف ذخيرته ، واتجه بعد حفظ القرآن إلى حفظ الحديث واللغة ، وتعرف الأحكام الفقهية ، وحفظ ما يسعفه به الزمن ، وقد بدا فيه منذ صغره ثلاث من مزاياه ، هي التي تمت وظهرت ثمراتها في كبره :

أولها: الجد والاجتهاد والانصراف إلى المجدي من العلوم والدراسات ، لا يلهو لهو الصبيان ولا يعبث عبثهم.

ثانيتها: تفتح نفسه وقلبه لكل ما حوله يدركه ويعيه ، فلم يكن الغلام المنقطع عن الأحياء والحياة إلى الحفظ والاستذكار فقط.

ثالثها: الذاكرة الحادة والعقل المستيقظ والفكر المستقيم والنبوغ المبكر ، وقد كانت ذاكرته حديث زملائه من الفتيان ، بل تجاوز صيته دائرة الصبيان إلى دائرة الرجال ، وتسامعت دمشق وما حولها بذكائه ونبوغه. وإذا كان أبو تقى الدين له رياسة في مشيخة الحديث ؛ فلا بد أن يتجه ابنه أول ما يتجه بعد حفظ القرآن إلى

حفظ الحديث وروايته، وتلقيه عن رجاله وسماع الكتب على المشايخ الكبار، وسماع الدواوين الكبار، كـ(مسند الإمام أحمد)، و(صحيح البخاري) و(مسلم)، و(جامع الترمذي)، و(سنن أبي داود السجستاني)، و(النسائي)، و(ابن ماجه) و(الدارقطني)، سمع كلاً منها مرات عدة، وأول كتاب حفظه في الحديث (الجمع بين الصحيحين) للإمام الحميدي، كما قال بعض معاصريه: "ولقد قالوا: وإن شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ"، وسمع (مسند الإمام أحمد) مرات.

ولقد كان مع دراسته للحديث يدرس علومًا أخرى، فدرس الرياضة وعني بالعلوم العربية عناية خاصة، فدرسها كأنه يقصد إليها ليتخصص فيها، فحفظ المنثور والمنظوم، وأخبار العرب في القديم، وأيام ازدهار الدولة الإسلامية، وبرع في النحو براعة واضحة، حتى إنه ليتأمل كتاب سيويه، ويدرسه دراسة فاحصة ناقدة؛ فيخالف بعض ما فيه معتمداً على ما درس في غيره، فلم يكن المتهمم عن غير بينة، المندفع في القول عن غير حجة وسلطان مبين.

توليه التدريس:

شب أحمد عن الطوق وامتلاً قلبه بالمعرفة واستوى رجلاً سوياً، وإن كان مثله في ميعة الصبا وحرارة الحياة، وتقدم ليغذي النفوس بمعارفه بعد أن تغذى بمعارف السابقين، وأثمرت في قلبه أينع الثمار وأغزرها وأنضجها، وتقدم واثقاً بالله ليؤدي الأمانة التي حملها الله له، بما أودع نفسه وقلبه وعقله من مدارك ومواهب، وبما هياه له من تثقيف وقوة تفكير وعمق إدراك، والزمن في حاجة إلى مثله، والإسلام في أشد الحاجة في وسط هذه الظلمات إلى من ينير السبيل لإدراكه على وجهه، ويبينه للناس كما جاء به الرسول الكريم ﷺ.

تاريخ الدعوة والدعاة

وقد كان المكان له مهياً، والكرسي الذي ينبغي أن يجلس عليه كان شاغراً، ذلك بأن أباه وقد كان له كرسي في الجامع الكبير في دمشق، وكانت له مشيخة الحديث في بعض مدارس، قد توفي في سنة ٦٨٢، وأحمد في الحادية والعشرين من عمره، ويقول ابن كثير في (البداية والنهاية): "إنه قد تولى الدراسة بعد وفاة أبيه بسنة، فجلس مجلسه وحل محله"، وعلى ذلك يكون قد تولى التدريس وهو في الثانية والعشرين من عمره، فجلس نظيراً لأئمة الحديث الممتازين، كابن دقيق العيد وغيرهم من أئمة ذلك العصر، الذين كانوا يدرسون في تلك المدارس وفي الجامع الكبير بدمشق".

ودروسه وإن تعددت نواحيها تجمعها جامعة واحدة واتجاه واحد، وهو إحياء ما كان عليه الصحابة أهل القرن الأول الذي تلقى الإسلام صافياً، لم يرنق بأفكار غريبة، ولم تدرس فيه نحل بائدة، أراد أن يحيها أصحابها مستورة بستر المسلمين، فيجمعوا بين أمرين: إحياء تراثهم وإفساد إدراك المسلمين لدينهم. كان ينهج النهج الذي يعود بالإسلام إلى عهد الصحابة في عقائده وأصوله وفروعه، وإذا استيقن أن ما يقول هو ما كان عليه الصحابة، دافع عنه بالحجة والبرهان، وكل ما يواتيه عقله ودراساته من أدلة عقلية ونقلية، ويقرب ما يقول بعبارات مستقيمة وتعليقات سليمة.

من محراب العلم إلى ميدان القتال:

كان ابن تيمية عاكفاً على الدرس والفحص والوعظ الإرشاد، وبيان الدين صافياً نقياً، كما نزل على النبي ﷺ وكما تلقاه السلف الصالح -رضوان الله ﷻ عليهم أجمعين- ومع عكوفه على الدرس كان متصلاً بالحياة والأحياء، يقيم الحسبة ويبلغ ولاية الأمر إن رأى أمراً يوجب تبليغهم.

ولقد بلغه في ٦٩٣ أن نصرانياً سبَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - وآوى إلى أحد العلويين فحماه من غضب العامة، فرأى تقي الدين ذلك منكراً لا يحسن السكوت عليه، فصحب شيخ دار الحديث وذهب إلى نائب السلطنة بدمشق، وخطباه في الأمر فأرسل ليحضر النصراني، فحضر ومعه بدوي أغلظ القول للعامة المجتمعين، فحصبوه ومن معه بالحجارة، ولقد أوذى الشيخ وصاحبه لأنهما اتَّهما بتحريض العامة، ثم أسلم النصراني بعد أن أثبت براءته، واعتذر نائب السلطنة للشيخين وأرضاهما.

فهذه القصة تبين لنا أن ذلك العالم الجليل، ما كان يشغله درسه عن شئون الدين العامة، والقيام على حمايته وحراسته من المتهجمين عليه، وأنه في سبيل حمايته لا يخشى في الله لومة لائم، فهو يثور على من يحمي الذي يسب محمداً - صلى الله عليه وسلم - ويخرج الوالي في تلك السبيل، وإن ناله أذى في سبيل ذلك احتمله كما يحتمل المؤمن الصبر.

ولكن هذه الحادثة العرضية وأشباهها ليست بشيء، بجوار وقفاته لنصرة الدولة والعامة عند إغارة المغيرين، لقد جاء التتار إلى الشام سنة ٦٩٩، وهزموا عساكر الناصر بن قلاوون وشتتوهم، بعد أن أبلى الجميع بلاء حسناً، ولكن كان أمر الله قدراً مقدوراً؛ فولى جند مصر والشام الأديار واجتازوا دمشق فارين إلى مصر، وصار جند التتار على أبواب دمشق، وأهلها في ذعر، وفرّ كثيرون من أعيان العلماء إلى مصر، كقاضي الشافعية إمام الدين وقاضي المالكية الزواوي، وغيرهم من كبار العلماء وكبار الرجال، حتى صار البلد شاغراً من الحكام وكبار رجال الدين، ولكن عالماً واحداً بقي مع العامة، فلم يفرّ ولم يخرج؛ لأن له قلباً يحول بينه وبين الفرار، وله شعورٌ يمنعه من أن يترك العامة من غير مواسٍ في هذه

تاريخ الدعوة والدعاة

البأساء، وله دين يمنعه من أن يترك أمور الناس فوضى، لا حاكم يردع ولا نظام يمنع؛ فقد ساد السلب والنهب، حتى أن المحبوسين من الشطار والسراق خرجوا من الحبس، وكانوا قريباً من مائتي رجل، فنهبوا ما يقدرون عليه، وهكذا غيرهم من أهل الشطارة والدعارة.

جمع ابن تيمية أعيان البلد واتفق معهم على ضبط الأمور، وأن يذهب على رأس وفدٍ منهم، يخاطبون ملك التتار في الامتناع عن دخول دمشق، وقد ذهب الشيخ مع الوفد والتقى بقازان، قازان هو رابع ملك مسلم منهم، وقد توفي سنة ٧٠٣ وقائدهم، وقد كسا الله الشيخ حُلة من المهابة والإيمان والتقوى، ولقد قال أحد الذين شاهدوا اللقاء: كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل، ويرفع صوته ويقرب منه، والسلطان مع ذلك مقبلاً عليه مصغٍ لما يقول شاخص إليه لا يعرض عنه، وإن السلطان من شدة ما أوقع الله في قلبه من الهيبة والمحبة، سأل: من هذا الشيخ إنني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه، فأخبر بحاله وما عليه من العلم والعمل.

أنتجت هذه المقابلة خيراً وإن كان محموداً، لقد أجل دخول دمشق إلى حين، وأمن الناس وزال فزعهم، فقد وعده قازان خيراً وأعلن الأمان، وطيف بمنشوره في البلد من أقصاه إلى أقصاه، ولكن طلب من الأهلين تسليم السلاح والخيل والأموال المخبوءة، وبعد ثمانية أيام كثر عبث الجند خارج المدينة، فأتلفوا الزرع والضرع فقلَّت الأقوات، وحاول أحد الذين كانوا في خدمة ملوك مصر ومالاً إلى التتار، أن يحمل حماة قلعة دمشق على تسليمها، فامتنعوا بتحريض ابن تيمية، الذي كان ملاذ الناس في تلك المحنة الشديدة، ولكن اندفع الجند مع بعض

طوائف الشيعة من بعد ذلك في الصالحية يعيشون فيها فساداً، وحرقوا بعض مساجدها وقتلوا وسبوا من نساء المسلمين، وهم يذكرون أنهم مسلمون، وبلغ الناس أنهم داخلون دمشق لا محالة.

خرج ابن تيمية مرة ثانية لمقابلة قازان، ولكن حجه عنه الوزراء، وقد وعد بأن المدينة لا يدخلها التتار، ولكنهم دخلوها وعاثوا فيها فساداً، ثم خرجوا من بعد، وكان لابن تيمية مسعى حميد في استنقاذ الأسرى وفك أسراهم. ثم ترك التتار الشام، ونسجل هنا أن ابن تيمية عندما فك الأسرى فك أسرى الذميين مع أسرى المسلمين... إلى آخر هذه القصة، التي فيها مواقف مشرفة جداً للإمام ابن تيمية مع التتار.

حرصه على وحدة المسلمين وجمع كلمتهم:

ومن الميز والخصائص المهمة في ابن تيمية تغليبها للمصلحة العامة، المتمثلة في وحدة الصف الإسلامي، وجمع الكلمة، ورأب الصدع، ونبذ الاختلاف، وهذه الميزة ماثورة في أقواله ومشهود لها من أفعاله وسيرته، وكان -رحمه الله- حريصاً على تقارب المسلمين، ليس بالعبارات الخاوية ولا بالمؤتمرات الشكلية، بل بمنهج عملي أصيل.

كان له دور كبير في توحيد الصف الإسلامي في وجه المخاطر التي تحدق بهم، فقد أرسل ابن تيمية رسالة إلى إخوانه وأصحابه في دمشق، يحثهم فيها على الوحدة الإسلامية ويدعوهم إلى اجتماع الكلمة وإصلاح ذات البين، وما قاله فيها: "وتعلمون أن من القواعد العظيمة، التي هي من جماع الدين، تأليف القلوب واجتماع الكلمة، وإصلاح ذات البين، فإن الله تعالى

تاريخ الدعوة والدعاة

يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأَنْفَال: ٢١]، ويقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ويقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وأمثلة ذلك من النصوص التي تأمر بالجماعة والائتلاف، وتنهاى عن الفرقة والاختلاف، وأهل هذا الأصل هم أهل الجماعة، كما أن الخارجين عنه هم أهل الفرقة".

وقال ابن تيمية مبيِّناً تجربته الشخصية والعملية: "والناس يعلمون أنه كان بين الحنبلية والأشعرية وحشة ومنافرة، وأنا كنت من أعظم الناس تأليفاً لقلوب المسلمين، وطلباً لاتفاق كلمتهم واتباعاً لما أمرنا به من الاعتصام بحبل الله، وأزلت عامة ما كان في النفوس من الوحشة، وبيّنت لهم أن الأشعري كان من أجل المتكلمين المنتسبين إلى الإمام أحمد رحمه الله، ونحوه المنتصرين لطريقه، كما يذكر الأشعري ذلك في كتبه، وفرح المسلمون باتفاق الكلمة، وأظهرت ما ذكره ابن عساکر في مناقبه، أنه ما تزال الحنابلة والأشاعرة متفقين إلى زمن القشيري، فإنه لما جرت تلك الفتنة ببغداد تفرقت الكلمة.

وبيّن لأصحابه وتلاميذه منهجه الذي يسير عليه تجاه المسلمين، والذي لا يجيد عنه، هو تقديم مصلحة المسلمين وإحسان الظن بهم، حيث قال: "وأنا والله من أعظم الناس معاونة على إطفاء كل شرٍّ فيها، أي: فتنة خصومه، وفي غيرها، وإقامة كل خير".

وفي اللحظة الأخيرة من حياته - رحمه الله - مرض أياماً في محبسه الأخير في القلعة، فعلم بمرضه أحد وجهاء الدولة وهو شمس الدين الوزير، فجاءه يستأذنه في الدخول عليه لعيادته، فأذن الشيخ له في ذلك، فلما جلس عنده أخذ الوزير

يعتذر له عن نفسه، ويلتمس منه أن يحله مما عساه أن يكون قد وقع منه في حق الشيخ من تقصير أو غيره، فأجابه ابن تيمية بقوله: "إني قد أحللتك وجميع من عاداني، وهو لا يعلم أنني على الحق".

وقال له أيضاً: "إني قد أحللت السلطان الناصر بن قلاوون من حبسه إياي، لكونه فعل ذلك مقلداً غيره معذوراً، ولم يفعله لحظ نفسه، بل لما بلغه مما ظنه حقاً من مبلغه، والله يعلم أنه بخلافه"، ثم قال: "قد أحللت كل واحد مما كان بيني وبينه"، ولم يبق ابن تيمية طويلاً بعد ذلك، حيث وافته المنية وهو في السجن مظلوماً من قبل أعدائه، وهو صابر محتسب أجره عند الله، مات وليس في قلبه ذرة كراهية تجاه أي مسلم، مات بعد أن سامح الجميع، مات وهو راضٍ عن نفسه التي طالما تخلت عن حظوظها الذاتية، في سبيل وحدة وقوة الأمة المسلمة.

أبو الحسن الندوي

هو العالم المؤمن الداعية المحتسب السيد أبو الحسن علي الحسيني الهندي الندوي، من المنتسبين إلى عترة الحسن بن علي -رضوان الله عليهما- ووالده هو الشريف العلامة عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض، بن الحسن المثنى، بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب، ولوالده كتب كثيرة، ومنها المطبوع ومنها المخطوط، أشهرها (نزهة الخواطر) في ثمانية مجلدات، وقد توفي سنة ١٣٤١ هجرية.

وقد وُلد السيد أبو الحسن في مديرية بالهند، وكانت الولادة بقرية تكية في شهر المحرم سنة ١٣٣٢ هجرية. وأسرته أبي الحسن من أصل عربي، لا تزال تحافظ على أنسابها إلى هذا اليوم، وهي تحافظ على صلاتها بأصلها، وإن كانت تتكلم

تاريخ الدعوة والدعاة

الهندية وتعيش في الهند منذ قرون، وتمتاز بالمحافظة على التوحيد والسنة والبعث عن البدع، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله، وللسيد أبي الحسن أخ أكبر منه هو الدكتور السيد عبد العلي عبد الحي وهو طبيب، وقد تخرج من ندوة العلماء ومعها الديوبند، كما تخرج في جامعة لكهنو بتفوق وامتيان، فهو بذلك يجمع بين الثقافتين الدينية العصرية، وله فضل كبير في تربية السيد أبي الحسن وثقافته، ويدير ندوة العلماء خلفاً لأبيه الراحل، وقد عني بأخيه وهو يتيم في التاسعة من عمره، عناية الوالد العطوف بالولد الأثير الحبيب.

بدأ السيد أبو الحسن تعلمه القرآن الكريم في البيت، تعاونه أمه، وأمه من فضليات النساء والسيدات الفاضلات الصالحات، حفظت القرآن وكتبت وألفت، وقالت الشعر، ثم تعلم اللغتين الأردية والفارسية على عادة أبناء المسلمين في الهند، ثم بدأ وهو في الثانية عشرة من عمره يتعلم الإنجليزية والعربية معاً، وبدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليماني، وتوفر سنتين كاملتين على دراسة الأدب العربي وحده، وقرأ كثيراً من كتب الأدب وشغف بها على خلاف العادة يومئذ في الهند؛ لأنهم يزهدون في الأدب العربي، وقرأ كثيراً لأصحاب الأساليب ونوابغ المنشئين في القديم والحديث، واطلع على مصادر الأدب العربي القديمة، وعني عناية خاصة بالعكوف على كتب أربعة، هي (كليلة ودمنة) لابن المقفع، و(نهج البلاغة) للشريف الرضي، و(دلائل الإعجاز) للجرجاني، و(الحماسة) لأبي تمام.

ثم التحق بجامعة لكهنو، هي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية، التحق به السيد أبو الحسن وكان يومئذ أصغر طلاب الجامعة سنًا، وضاق بدروس القواعد أولاً، وأخره ذلك قليلاً، ثم صار في تعلمه ممتازاً فائقاً سابقاً، ثم أتم دراسته الأدبية على الدكتور الشيخ تقي الدين الهالبي

المراكشي، رئيس تدريس الأدب العربي في ندوة العلماء يومئذ، وهي جمعية تشرف على دار العلوم هناك، ثم دخل الندوة ومكث بها سنتين يدرس علوم الحديث، واستفاد كثيراً من شيخ الحديث الشيخ حيدر حسن خان، ومكث في دار العلوم ديوبند مدة شهور، وحضر دروس العالم الكبير المجاهد الشيخ حسن أحمد المدني في الحديث.

وكانت أول محاولة أدبية كتابية له مقالاً ضافياً في ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ١٢٤٦ هجرية، إمام الدعوة إلى التوحيد والسنة والجهاد في سبيل الله، كتبه بإشارة أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي، وأرسله الدكتور تقي الدين الهلالي إلى العلامة السيد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار العراء، فنشروه في مجلته، وأفردته في رسالة طبعها بعنوان ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في سنة ١٣٥٠، فكان أول مجهود أدبي ظهر له بالعربية، وسينه تتراوح بين السابعة عشر والثامنة عشر من العمر، وسافر لاهور وقرأ التفسير على المصلح الكبير الداعية العظيم الشيخ أحمد علي المفسر المشهور، ولاهور مدينة العلم والثقافة ومركز النشر والصحافة في الهند غير المتقسمة يومئذ.

وانتهز أبو الحسن هذه الفرصة الثمينة فقابل كبار المعلمين والأساتذة، ومشاهير الأدباء والشعراء وقادة الفكر، أجدرهم بالذكر شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، فحضر بعض مجالسه وأنس به الشاعر العظيم، رغم حداثة سنه وعدم شهرته، ولم تكن دراسته في أغلب أدوارها دراسة نظامية بشهادات؛ بل كانت دراسته حرة لوجه العلم والمعرفة، ولما أتم دراسته رجع إلى لكهنو، وعُين مدرساً في دار العلوم لندوة العلماء هناك، ومكث فيها عشر سنوات يدرس علوماً مختلفة، واشتغل بجوار ذلك بالكتابة في مجلة الضياء العربية، التي تصدرها ندوة العلماء ورئيس تحريرها الأستاذ مسعود الندوي، واشتغل كذلك بالتأليف في

تاريخ الدعوة والدعاة

الأردية وأظهر كتابه (سيرة السيد أحمد الشهيد) وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، فكان الإقبال عليه عظيمًا حتى طُبِعَ أربع مرات.

ثم انتقل إلى دلهي والتقى بالداعية المجدد العظيم الشيخ محمد إلياس، وكان هذا اللقاء نقطة تحول في حياة أبي الحسن؛ لأن الشيخ محمد إلياس كان مرشدًا شعبيًا، له صلة عميقة وثيقة بال جماهير عن طريق الدعوة إلى الله، وأبو الحسن لم يكن متصلًا بالشعب قبل ذلك، بل كان مقتصرًا على الدراسة والتأليف، وأخذ يتصل بأهل القرى والساكن، ويقوم برحلات إسلامية قد تستغرق الواحدة منها شهرًا؛ لنشر الدعوة في قرى الهند ومدنها، وكان الشيخ إلياس ولا يزال، هو مثل أبي الحسن الأعلى في الحكمة الدينية العميقة وفي قوة الإيمان؛ لأن الشيخ إلياس كما يقول أخونا: كان صورة من السلف الصالح وكان مخلصًا غيورًا، يتألم لحال المسلمين ويعمل من أجلهم، ويسير في شئونهم ويحترق بروحه القوية الوثابة في سبيلهم.

وتلقى التربية الروحية من العارف الجليل المربي الكبير الشيخ عبد القادر الرائي بوري، واستفاد من صحبته ومجالسه، ورأس أبو الحسن تحرير مجلة الندوة العلمية، التي كانت تصدر بالأردية، وكانت لسان حال الندوة، وكلفته الجامعة الإسلامية في علي كرا بوضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني، فألّف في ذلك كتابًا أسماه (إسلاميات) وقبلت الجامعة هذا الكتاب وكافأت صاحبه عليه، ودُعي لإلقاء محاضرات في الجامعة المليّة الإسلامية بدلهي في سنة ١٣٦١ هجرية ١٩٤٢ ميلادية، فألقى محاضرة في موضوع الدين والمدنية كانت موضع الاستحسان، ونُشرت فكان لها تأثير واسع النطاق.

وألّف في هذه الفترة كتبًا لطلبة المدارس العربية في الهند، منها كتاب (مختارات في الأدب العربي)، وقد قررت دار العلوم في الهند وبعض الجامعات تدريسه، ومنها

كتاب (قصص النبيين للأطفال) في ثلاثة أجزاء، وغير ذلك من الكتب، وأصدر مجلة التعمير التي كانت تصدر بالأردنية مرتين في الشهر، وأسس جمعية للتبشير بالإسلام بين الهندوس، وأصدرت هذه الجمعية التبشيرية الإسلامية عدة رسائل وبحوث عن الملة الغراء باللغة الإنجليزية المنتشرة هناك.

وأسس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ في آخر سنة ١٣٧٨ هجرية ١٩٥٩ ميلادية، وله نشاط وإنتاج في اللغات الإنجليزية والهندية والأردنية والعربية ومطبوعات قيمة. وألف هذا الكتاب (ماذا خسر العالم باخطا المسلمين) سنة ١٩٤٥ ميلادية، وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وقد تأخر طبعه وظهوره وهو يزيد مواد ويتناوله بالتنقيح والتهذيب، إلى أن صدرت له الطبعة الأولى في مصر عام ١٣٦٩ هجرية ١٩٥٠ ميلادية.

وقد ظل الأستاذ أبو الحسن يمارس ألواناً من الألعاب الرياضية، كرة القدم والسباحة والصيد والهوكي والتنس، ثم انقطع عنها أخيراً، وعلى الرغم من هذا أصابته أمراض استمرت مدة طويلة وخاصة في الصدر، ثم عافاه الله منها، وبقي له سعال يعاوده من حين لآخر.

وهو يكره التصوير بجميع أنواعه ويحرمه على نفسه في تشديد ملحوظ، وأعظم آمال أبي الحسن أن يرى الإسلام سائداً على الأرض، وأن يرى الدول الباغية معذبة مقهورة، حتى يسلي نفسه ويستبشر، ويرى انتقام الله من الذين حاربوا الإسلام وأذلوا المسلمين، ويرى أن بقاء القلة المسلمة في الهند من الخير، وفيه فائدة تُرجى للهند، فلعل للإسلام مستقبلاً ذا بال هناك.

رحل أبو الحسن إلى الحجاز في سنتي ١٣٦٧ هجرية إلى ١٣٦٩ هجرية ١٩٤٧ إلى ١٩٥٠ ميلادية، ثم تبعها رحلات متتابعة، وقدم إلى مصر سنة ١٣٧٠ هجرية

تاريخ الدعوة والدعاة

١٩٥١ ميلادية، وطوف بأغلب العالم الإسلامي، وزار تركيا ١٣٧٥ هجرية
 ١٩٥٦ ميلادية، وزار عواصم أوروبا الكبرى، بما فيها أشهر مدن الأندلس
 الإسلامية، مرة في سنة ١٣٨٢ وثانية ١٣٨٣ هجرية، فرأى وشاهد ودرّس
 وكتب وحاضر وخطب، وكان له في كل أرض نزل بها مجهود وجهود وعهود،
 وقد انتخب أميناً عاماً لندوة العلماء على أثر وفاة أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد
 العلي الحسيني سنة ١٣٨٠ هجرية ١٩٦٢ ميلادية، واختير عضواً مراسلاً في
 المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥٧ ميلادية.

وُدعي لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥ هجرية ١٩٥٦
 ميلادية، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة
 المكرمة سنة ١٣٨٠ هجرية ١٩٦١ ميلادية، وعضواً في المجلس الاستشاري
 الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وانتخب رئيساً لهيئة التعليم الديني
 في الولاية الشمالية في الهند سنة ١٩٥٩ ميلادية، رحمه الله تعالى رحمة واسعة،
 وألحقنا به في جنات النعيم.

أحمد ديدات من ولادته إلى شهرته

ومع رائد المناظرة الدينية في عصره: أحمد ديدات - رحمه الله - :

أحمد ديدات من ولادته إلى شهرته :

مولده ونشأته :

هو الشيخ أحمد حسين جاسم ديدات، ووالدته السيدة فاطمة، وقد ولد لأبوين
 مسلمين سُنيين في بلدة هندية تُسمى تادكهارفار، ويقال لها كدراد إحدى
 المقاطعات في ولاية سراط الهندية، وذلك في عام ١٩١٨ ميلادية.

نشأ الصبي أحمد ديدات نشأة قروية ريفية حيث مجتمعه الزراعي ، فقد عمل أبوه بالزراعة كما كانت أمه تساعد والده في هذه الأعمال ، وذلك لمدة تسع سنوات ، أشرب الصبي خلالها حب القيم والتعاليم الإسلامية ، ولكن حدث أن هاجر والده حسين إلى جنوب إفريقيا عام ١٩٢٧ ميلادية ، وهناك عمل خياطاً ، وقد هاجر الصبي أحمد ديدات مع أفراد عائلته إلى منطقة الجنوب الإفريقي هذه ، وهو لم يزل في التاسعة من عمره تقريباً .

دراسته :

بدأ الصبي أحمد ديدات مشواره الدراسي من المدرسة الابتدائية الإسلامية في بلدة تربان في جنوب إفريقيا ، وهو يومئذ في العاشرة من عمره ، واستمر به الحال حتى وصل إلى الصف السادس الابتدائي ، لكنه لم يكمل دراسته ، فقد توقف عن مواصلة هذه الدراسة ؛ نظراً لظروف الأسرة المادية ، لكن نمو ثقافته واستمرار بحثه لم يتوقف ، فقد جاء في حوار أجرته معه جريدة الشرق الأوسط السعودية ، أن السيد ديدات قد أنهى دراسته الجامعية في الكلية الفنية السلطانية ، أعتقد أنها بجنوب إفريقيا حيث مهجره ، كما أشار إلى ذلك ما جاء عنه في موقع المجتمع الثقافي على شبكة المعلومات الدولية .

كفاحه :

اتسمت حياة الداعية أحمد ديدات بالكفاح ، فقد مارس العمل المهني مبكراً ، وذلك لمساعدة أسرته على أعباء الحياة ؛ حيث ألحقه أبوه للعمل في مكتبة تابعة لمعهد آدمز التبشيري في جنوب إفريقيا ، وظلّ الصبي أحمد ديدات يعمل بهمة ونشاط ، في بيع الكتب الدينية المسيحية في هذه المكتبة ، التي يتردد عليها المتدربون من المبشرين بمعهد آدمز لشراء ما يلزمهم من الكتابات المسيحية .

تاريخ الدعوة والدعاة

وقد جعلوا من الصبي أحمد ديدات ومن معه من المسلمين حقل تجارب، يجرون عليهم ما يتعلمونه من الشبه الفاسدة والدعاوى الباطلة نحو الإسلام ونيبه وكتابه، لمعرفة مدى ردّ الفعل عنده مع أن الطفل عاجز عن أي دفاع، ولا غرو صبي مسلم من أصل هندي يعمل بائعاً لكتب الدين المسيحي، لم يكد يتجاوز العاشرة من عمره يواجه يومياً بهذا السيل المنهمر من الهمز واللمز والقدح في الإسلام، وفي رسوله ﷺ كان الصبي يبكي في فراشه ليلاً وهو يستعرض هذا الهمز وذلك اللمز، الذي صبّوه في أذنيه طوال النهار، وكان يقول في نفسه: "كيف يتناول غلمان المسيحية هذا التناول الفج، على الإسلام وهو أفضل دين، وعلى رسول الإسلام وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وأفضل نبي ورسول، ولكن ما حقيقة همزهم ولمزهم؟ هل هم محقون هل هم ضالون مضللون؟ لا بد إذا من البحث والدراسة لمعرفة الحقيقة" ذلك ما كان يشغل بال الصبي أحمد ديدات.

ذكاء فطري منقطع النظير وهبه الله لهذا الصبي الصغير الفقير، الذي كان يحاول أن يكسب عيشه من العمل في محل لبيع الكتب كعامل أجير، أرهقت روحه المسلمة سخافات ومفتريات طلبة معهد آدمز بجنوب إفريقيا للتبشير، وبدأ الصبي الصغير البحث والدراسة والتمحيص والتفكير في موضوع واحد خطير، وهو أيهما صواب وحق وأولى بالاتباع المسيحية أم الإسلام. وقد ازداد الضيق وعدم الاحتمال لدى الصبي أحمد ديدات، نتيجة استفزازات طلاب معهد آدمز التبشيري، ومن ثمّ فقد كره العمل في هذه المكتبة المسيحية، وانتقل للعمل في حانوت للمواد الغذائية خاص بتجارة الملح عام ١٩٣٤ ميلادية، ولم يطل به المقام فقد تركه ليعمل نجاراً في مصنع لصناعة الأثاث الخشبي، كان على مقربة من مقر إحدى البعثات التبشيرية في مدينة فيرتاون، ثم شغل السيد ديدات وظيفة

كاتب في هذا المصنع، وظل يتدرج في المناصب حتى صار مديراً لهذا المصنع، وهو لم يزل في الأربعين من عمره، وقيل: بل عمل في مصلحة البريد لمدة اثنتي عشرة سنة، وخلال هذه الفترة استطاع ديدات أن يلتحق بدورات تدريبية، في مجال الهندسة الكهربائية وما يتعلق بها من أدوات العصر؛ مما أدرّ عليه عائداً مربحاً استطاع من خلاله أن يوفر قدرًا من المال، ومن ثم فقد سافر إلى باكستان عام ١٩٤٩ ومكث فيها ثلاثة أعوام، منقطعاً لتنظيم مصنع في إنتاج النسيج، ومن أجل أن يحتفظ السيد ديدات بجنسيته في دولة جنوب إفريقيا؛ حيث إنه لم يكن من مواليدها، فقد اضطر إلى العودة إليها من باكستان، وبمجرد أن وصل إلى موطنه في جنوب إفريقيا، عُرض عليه منصب مدير مصنع الأثاث الذي تركه عند سفره.

ثقافة ديدات ونشاطه العلمي:

استطاع الداعية أحمد ديدات أن يبني نفسه علمياً، من خلال تعمقه الدراسي فضلاً عن شغفه بمقارنة الأديان، الأمر الذي بوّأه مكانة فريدة بين دعاة العصر، وأكسبه شهرة واسعة.

ثقافته: لقد ثقت العلامة أحمد ديدات نفسه بنفسه، وذلك من خلال دراسته للكتاب المقدس في نسخته المختلفة وترجماته المتعددة دراسة عميقة وواعية، وإلمامه بمجال مقارنة الأديان إلماماً كبيراً، وأعانته ذلك على الرد على افتراءات وبداءات طلاب التبشير في معهد آدمز، يقول عن ثقافته المبكرة وهو يومئذ على مقربة من مركز تبشيري تابع للإرسالية الأمريكية: "كان المبشرون يأتون إلينا ويطرحون أسئلة صعبة ومخرجة عن الإسلام، كنا عاجزين عن الإجابة عليها وقتذاك، الإسلام انتشر بالسيف، تعدد زوجات الرسول ﷺ، الحدود، القرآن،

تاريخ الدعوة والدعاة

القرآن منقول من المسيحية واليهودية.. وهكذا لم نكن نعرف الردّ، ولكن الله - سبحانه - من شأنه أن يسبب الأسباب، كنت حينها أحب القراءة كثيراً، ولا يمكن أن أجلس بدونها، وذات يوم في أيام الآحاد حيث العطلة الرسمية، كنت أقرأ في جريدة بين يدي لقتل الوقت، ثم انتقلت إلى مجلة تالية وقع نظري على مقالة فيها تحت عنوان إظهار الحق، كان الموضوع حلقة فيما يبدو من كتاب بهذا العنوان للعالم الهندي المسلم الشيخ رحمة الله الكيرانوني، ما معنى هذا التعبير: إنه كتاب يدافع عن الدين الإسلامي ويتصدى لكل شبهة تثار حوله، كان الكتاب وقتذاك نقطة التحول في حياتي، وحافزاً على التصدي لشبهات المبشرين، وسلاحاً مكنني من دحض المفتريات التي كانوا يلقونها علينا، ثم لم ألبث أن رغبت في الاطلاع على العهد القديم وعلى الإنجيل، كنت أفعل ذلك على أن الله - سبحانه - يريد مني أن أفعله، فهو **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** [البقرة: ١١١]، والقرآن يقول: **﴿اقْرَأْ﴾** [العلق: ١] أدركت أن البرهان موجود عندهم إذاً، وأن الحصول عليه يكون بقراءة هذه الكتب فاشتريت نسخة مستعملة من العهد القديم، وبدأت بقراءتها ثم اشتريت العهد الجديد، وأخذت أناقش المبشرين الإرساليين وعمامة النصارى".

نشاطه العلمي:

المحاضرات:

قام الشيخ أحمد ديدات بإلقاء الكثير من المحاضرات، سواء أكان ذلك في داخل جنوب إفريقيا، أم في خارجها من الدول الأجنبية أو أقطار العالم الإسلامي، وقد سُجل الكثير من هذه المحاضرات أو الندوات على شرائط فيديو أو شرائط تسجيل كاسيت، أو مؤلفات منشورة، وبدأ العلامة ديدات في إلقاء محاضراته

الدينية في متحف أفالون جنوب أفريقيا في عام ١٩٤٤ ، ومنذ عام ١٩٥٨ بدأ يُحاضر بشكل دائم ومنتظم ، وسرعان ما صارت المحاضرات تشغل وقته كله ، وذلك اعتباراً من عام ١٩٥٩ ميلادية ، وتعدّ الندوة التي عُقدت في جيرين بوند بولاية كيب من أعمال جنوب إفريقيا من أعظم المحاضرات ، وقد حضرها حوالي ثلاثين ألف شخص من المستمعين .

يقول العلامة ديدات : "إن محاضراتي كانت دعوة للنصارى ليشهدوا بصدق الإسلام ، والزيف الذي تسلل إلى التعاليم الأصيلة التي دعا إليها عيسى # ومن هذه المحاضرات بعد حوار العشاء الأخير مع المسيح ، حقيقة الثالوث المقدس ، الخطيئة الأولى ، عيسى المسيح شخص أسطوري أم إله ، القرآن معجزة مطلقة ، ماذا يقول الإنجيل عن محمد ﷺ ؟ وما هي آلام المسيح وموته تكفيراً عن خطايا البشر ، المسيح في الإسلام ، المسيحية الشيوعية والإسلام ، هل صلب المسيح ؟ هل المسيح إله ؟ هل الكتاب المقدس كلمه الله ؟ ... إلى غير ذلك .

المنظرات :

أجرى العلامة أحمد ديدات الكثير من المناظرات مع كبار الشخصيات المسيحية ، أمثال البروفيسور كلارك اللاهوتي البريطاني فلويد والقس الأمريكي المشهور جيمس سويجارت ، والقس الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية الدكتور أنيس شرويش ، وغيرهم ، علماً بأن موضوعات هذه المناظرات قد تتشابه مع بعض المحاضرات ، ومن هذه المناظرات : هل المسيح إله ، حقيقة المسيح ، هل صلب المسيح حقيقة أم أسطورة ، هل الإنجيل كلام الله ، العرب وإسرائيل صراع أم اتفاق ، حل المشكلة الفلسطينية ، ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ ... إلى

ناربخ الدعوة والدعاة

غير ذلك من المناظرات التي جذبت الناس في مختلف الأقطار، علماً بأن العلامة أحمد ديدات قد حقق نتائج مبهرة في كل هذه المناظرات، واستطاع أن يفهم مناظريه في كل مرة ولم يُهزم في واحدة منها.

المؤلفات:

هناك العديد من الكتب للعلامة أحمد ديدات، بعضها كتيبات صغيرة لا يتجاوز المائة صفحة، والبعض الآخر كبير الحجم نسبياً، والكثير من هذه الكتب مناظرات أجراها العلامة المجاهد مع عدد من أصحاب الديانات الأخرى، وتم تفرغها في كتب، ومن ثم جاءت تحمل نفس أسماء المناظرات السابقة، وقد تم ترجمة الكثير منها إلى العربية، ومنها:

(مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء)، (الله في اليهودية والمسيحية والإسلام)، (المناظرة الكبرى بين الشيخ أحمد ديدات والقس شرويش)، (المسيح في الإسلام محاوره مع قسيس حول ألوهية المسيح)، (قال لي ديدات حوار ساخن مع داعية العصر)، (عتاد الجهاد)، (خلاصة خمسين عاماً من البحث عن الحقيقة)، (مناظرتان في استوكهلم بين داعية العصر أحمد ديدات وأحد القساوسة)، (المناظرة الحديثة بين الشيخ ديدات والقس سويجارت)، (شيطانية الآيات الشيطانية وكيف خدع سليمان رشدي الغرب)، (ما هي آية يونان النبي)، (من دحرج الحجر)، (الإله الذي لا وجود له)، (ديدات يواجه راعي الكنيسة في السويد)، (عاصفة الصحراء المدرعات والمدافع)، (لماذا محمد ﷺ هو الأعظم)، (الدليل على أباطيل الأناجيل)، (الخلافا الحقيقي بين المسلمين والمسيحيين).

رئاسته لمؤسسة السلام والمركز العالمي للدعوة الإسلامية:

أسس العلامة أحمد ديدات مؤسسة السلام أو معهد السلام والمركز العالمي للدعوة الإسلامية في مدينة ديربان في جنوب إفريقيا، وتولى رئاسته منذ إنشائه عام ١٩٥٨ ميلادية، وكان رصيده آنذاك ثلاثة أو أربعة جنيهات، وقد بلغت جملة الإنفاق على البريد فقط عام ١٩٨٨ خمسين ألف دولار، وكانت بدايته بائنين من الموظفين، وقد بلغوا عام ١٩٨٨ ثمانية عشر موظفاً متفرغاً، وقد فتح هذا المركز أبوابه للجميع من المسلمين والمسيحيين والهندوس، بهدف التعرف على الإسلام.

وقد أقيمت مؤسسة السلام على مساحة خمسة وسبعين فدانا تبرعاً من عائلة "قدوة" بجنوب أفريقيا لغرض التعليم الإسلامي، تضم هذه المؤسسة مسجداً للصلاة يستقطب الزائرين من السياح الأجانب لتعريفهم بالإسلام، ومدرسة ابتدائية إسلامية للأطفال الأفارقة، بهدف جذب السكان الأصليين وتعريفهم بالإسلام، كما تضم معهداً لتعليم وتدريب وتربية الدعاة المسلمين، من بين الأفارقة الذين يعملون على نشر الإسلام في جنوب إفريقيا، حيث يلتحقون بالمعهد ويعيشون حياة إسلامية كاملة، في حين أن مناهج هذا المعهد تركز على دراسة مقارنة الأديان، خاصة العهد القديم والعهد الجديد، بهدف إعداد داعية يستطيع التصدي للخطر التبشيري، والوقوف على بشائر النبي محمد ﷺ، كما تضم هذه المؤسسة عيادة طبية أو مصحة علاجية، أقيمت لخدمة السكان الأصليين وبيئتهم المحلية تحت إشراف ورعاية أطباء مسلمين، هذا بالإضافة إلى ملحقات رياضية وترفيهية أخرى.

الحالة الاجتماعية لديدات :

أما عن الحالة الاجتماعية فإن العلامة أحمد ديدات تزوج ورزقه الله بولدين وبنت، وتوفيت هذه الفتاة إلى رحمة الله، وكان ثمرة هذا العطاء الممتد، حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٦، بالمشاركة مع المفكر الإسلامي الفرنسي روجيه جارودي.

يتضح مما تقدم أن السيد أحمد ديدات استطاع أن يجعل لنفسه مكانة متميزة بين دعاة العصر في مجال الدفاع عن العقيدة الإسلامية، ساعده على ذلك المناخ أو الوسط الذي عاش فيه، فقد استنفره كل شيء حوله على الدراسة والبحث، فلما وجد من نفسه قدرة على العطاء، تفرغ لهذا العمل النبيل الذي نذر نفسه له، وقد استخدم مختلف وسائل النشر والتعبير في خدمة دعوة الإسلام، من طبع المناظرات على شرائط فيديو إلى تسجيل المحاضرات على شرائط كاسيت، إلى نشر المؤلفات باللغات الحية، لتصب هذه الوسائل في مقارنة الأديان، خاصة الموضوعات العقدية المسيحية أو اليهودية، قدم الشيخ الجليل هذه الجهود الضخمة دفاعاً عن الإسلام، وحماية لأبناء المسلمين، وقد أكسبه ذلك وغيره شهرة واسعة على المستوى المحلي والعالمي، رغم بدايته البسيطة وحياته المتواضعة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قائمة المراجع العامة

١. (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)
أبو الحسن علي الندوي، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٣ م
٢. (تاريخ الدعوة إلى الإسلام)
جميل عبد الله المصري، مكتبة الدار، ١٩٨٧ م
٣. (تاريخ الدعوة إلى الله بين أمس واليوم)
أدم عبد الله الألوري، مكتبة الحياة، ١٩٨٧ م
٤. (دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية)
عبد الحليم عبد الفتاح عويس، دار الشروق، ١٩٨٢ م
٥. (التاريخ الإسلامي مواقف وعبر)
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، دار الأندلس الخضراء، ١٩٩٥ م
٦. (لعالم الإسلامي ومحاولة السيطرة عليه)
محمود شاكر، المكتب الإسلامي، ١٩٨٥ م
٧. (دعوة الرسل إلى الله تعالى)
محمد أحمد العدوي، طبعة الحلبي، ١٩٣٥ م
٨. (قصص الأنبياء)
عبد الوهاب محمد النجار، مكتبة النهضة العربية، ١٩٨٠ م
٩. (قصص الأنبياء)
أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار التأليف،
١٩٦٨ م

١٠. (إتمام الوفاء لسيرة الخلفاء)

محمد الحضري، بيروت، دار المعرفة، ١٩٩٦م

١١. (الدعوة الإسلامية: أصولها، وسائلها، أساليبها في القرآن الكريم)

أحمد غلوش، دار الكتاب المصري، ١٩٨٧م

١٢. (الدولة العثمانية دولة مفتري عليها)

عبد العزيز محمد الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦م

١٣. (رجال الفكر والدعوة إلى الإسلام)

أبو الحسن علي الندوي، دار القلم، ١٩٨٥م

١٤. (سير أعلام النبلاء)

محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٠م

